الدبلوماسي

السنة السادسة والعشرون العدد 257 - 258
يوليو - أغسطس 2017م الثمن 6 جنيهات

إفريقيا تتقدم بسواعد أبنائها

بائع الورد
للرسام رودولف ارنست 1854 1932

مجلة شهرية منوعة
تأسست مارس ١٩٩٢

يصدرها النادى الدبلوماسى المصرى

رئيس مجلس الإدارة
السفير ياسر مراد

رئيس التحرير
السفير سعد الفرارجى

مستشار التحرير
عادل عبد الصمد

المستشار القانونى
رجائى عطية

المستشار الفنى
جمال عبد النبى

نواب رئيس التحرير
السفير عبد الفتاح عز الدين
السفير هشام الزميتى
السفير رضا الطايفى

مساعدو رئيس التحرير
سكرتير أول هبة مصطفى
سكرتير أول أسامة حمدى
سكرتير أول فاطمة صابر
سكرتير ثان مينا باسيلى
سكرتير ثالث حازم غيث

توجه المراسلات إلى مجلة « الدبلوماسى » على عنوان
مبنى وزارة الخارجية المصرية - ماسبيرو
الدور ٢٨ - غرفة ٢٨٢٠ تلفاكس ٢٧٧٣٥٤٥٧ (٢٠٢)

Email diplomatmagazine92@gmail.com

في هذا العدد

هل لا يزال العمل العربى المشترك ضرورة؟..... سفير سعد الفرارجي	6
حقيبة الأخبار	8
الاستقرار والتوازن في سياستنا الخارجية ..... وزير الخارجية سامح شكري	11
سياسة	
هل كان ينقص العرب نشوب أزمة جديدة؟..... سفير إيهاب وهبة	12
قفزة إلى مستقبل أرحب للمنطقة العربية..... سفير سيد أبو زيد	14
الوضع الدبلوماسى الحالى فى القدس ..... سفير محمود كريم	17
ترامب وجولته الشرق أوسطية ..... سفير د. صلاح حليمة	18
فى تفسير السياسة الخارجية الأمريكية ..... سفير د. محمد بدر الدين	22
الإدارة الأمريكية الجديدة وعملية السلام .... لواء محمد إبراهيم	24
شكوك حول التزام واشنطن بأمن أوروبا ..... أ.د. هشام مراد	27
هل نحن أمام شكل جديد للعولمة؟ ..... سفير د. علاء الحديدى	30
حدود الانفراج فى العلاقات الروسية الأوروبية .. أ.د. نورهان الشيخ	36
هل تتكرر مأساة جنوب السودان فى كردستان؟ .... محسن عوض الله	40
نتائج وأصداء الانتخابات الإيرانية ..... سفير رخا أحمد حسن	44
قراءة مختلفة فى الانتخابات الإيرانية ..... سفير د. وليد محمود عبدالناصر	48
التغييرات الدستورية في أمريكا اللاتينية ..... سفير عبدالفتاح عز الدين	52
مصر	
السكان فى مصر ..... أ. د. هالة يوسف	56
استمرار مواجهة الفساد ..... سفير د. محمود سليمان	59
القوة الناعمة المصرية ومقوماتها ..... سفير د. السيد أمين شلبى	60
الإصلاح الثقافى فى مصر ..... حسام نصار	62
مصر جديدة ..... د. محمد مدكور	66
أسماء عريقة لمدن مصرية ..... سفير محمد عهدى خيرت	70
ماذا تفعل بنفسها؟ وإلى أين؟ ..... هبة عبدالعزيز	74
مصر كانت قبل التاريخ ..... أحمد سعيد المصرى	76
افريقيا	
سياسات القوى الدولية فى شرق أفريقيا ... أ. د. محمود أبو العينين	78
افريقيا تستطيع بسواعد أبنائها ..... هادية الشربيني	87
مصر فى يوم افريقيا.. تاريخ مشترك..... مستشارة مروى ممدوح سالم	90
استراتيجيات	
الآثار الاقتصادية العالمية لتغير أسعار البترول ..... مهندس أسامة كمال	93

عـدد مـزدوج

يوليو - أغسطس 257 - 258

الغلاف للفنان

جمال عبدالنبى

جميع الآراء الواردة بالمقالات تعبرعن أصحابها
دون أدنى مسئولية على المجلة
والخرائط المنشورة توضيحية إلا إذا ذكر غير ذلك

توجه المراسلات والمقالات على عنوان المجلة

باسم رئيس التحرير

Email: diplomat.magazine@mfa.gov.eg

diplomatmagazine92@gmail.com

للإعلان فى المجلة يرجى الاتصال برقم

01000722134

ترحب «الدبلوماسي» بإسهامات واقتراحات
السادة أعضاء السلك الدبلوماسى
والقنصلى بما يقدمونه من مقالات تثرى
المجلة بثقافاتهم وتجاربهم الدبلوماسية

آسيـــــــــا

القيادات الكاريزمية وتجارب التنمية فى آسيا..... سفير رضا الطايفى 96

صديقى اليابانى ..... سفير د. هادى التونسى 100

وصديقى أنا أيضا..... سفير هشام الزميتى 102

التكنولوجيا والابتكار إنجاز يابانى ..... أ.د. مصيلحى رجب 104

اقـتصـــــــاد

مصر وتوترات الاقتصاد السياسى العالمي ..... أ. د. طلعت عبدالملك 108

طريق الحرير.. رؤية عربية ..... سفير عبدالفتاح عز الدين 114

بنـت النيـــــل

أنشطة رابطة زوجات الدبلوماسيين المصريين ..... نادية الريس 120

مستقبليـــات

الدراسات المستقبلية ومجتمع المعرفة ..... سفير د. عزمى خليفة 122

نظرة إلى عالم التكنولوجيا الحديث .....أ. د. نوح صبرى المتولى 128

ملف خاص.. المناخ والبيئة

اتفاق باريس للمناخ صمام أمان للبشرية ..... إيناس نور 131

تغيير المناخ ..... سفير د. عادل عبداللطيف 136

مصر ودبلوماسية مواجهة التغير المناخي..... أ.د. أحمد قنديل 140

البيئة فى مصر القديمة ..... أ.د. راندا بليغ 144

ضـيف العـــدد

فرعون الخروج ..... . أ.د. محمد إبراهيم على 150

ثـقافة وفنـون

عشرة كتب شكلت العالم ..... سفيرة فاطمة الزهراء عتمان 156

الزمن الجميل ..... سفير د. محمد حسونة 161

تمثال الحرية لمصر أم لأمريكا؟ ..... د. أحمد يوسف 164

تراثنا خط أحمر ..... أ.د. أحمد مرسى 170

التسامح ضرورة ..... أيمن السميرى 172

فنون تشكيلية ..... سفير فخرى عثمان 174

شـعـــــــــر

رسالة إلى ولدى ..... سفير رضا الطايفى 176

عود نفسك علي ما تريد ..... سفير د. فتحي مرعي 178

هل لا يزال العمل العربى المشترك ضرورة؟

شـــهدت المنطقة العربية تحولات وتغيرات على مدى السنوات السبع الماضية بلغت حدتها قدرا أنذر فى بعض الأحيان بنقص أســـس بدت عبر التاريخ المعاصر وكأنها من المعطيات الثابتة سياسيا واجتماعيا وعلى رأسها الدولة القومية والهوية العربية.
وتبدو حدة تلك التحولات بالغة إذا ما قورنت بفترات السكون التى امتدت أحيانا إلى عقود تركزت خلالها الأنظار على التحديات الخارجية باعتبارها الأكثر خطورة على اســـتقلال وحرية دول وشـــعوب المنطقة العربية، لاسيما أن الشعب الفلسطينى كان ولا يزال فعلا يتطلع إلى التغلب على تحدى الاحتلال وإحراز استقلاله.

لقد كان من بين تلك المعطيات الثابتة عربيـــا وذلـــك الإدراك بحتمية العمل العربى المشـــترك ومهمـــا ارتفع أو انخفض ســـقف التوقعات فإن الآمال ظلـــت معلقة عليه وأســـهم فى الإبقاء عـــلى جذوتها تواتر الدعـــوات وتعدد القرارات والخطـــوات والتى تراوحت فى تناولهـــا ما بين الرومانســـية وبين محاولة تحرى المنهجية من أجل مزيد من التقارب والتنسيق والعمل المشترك بين الدول العربية فى مجال السياســـة وفى مجال الاقتصـــاد والتجارة بصفة خاصة لكن النتائـــج التى ظلت أكثر تواضعا من المقدمات ودفعت الكثيرين من العامة والخاصة للبحث عن تفسير لعدم تحقيق ما يـــرون أنه ينبغى أن يكون نتيجـــة طبيعية بـــل ومتيقنة لمجموعة المقومات كالتاريخ والجغرافيا والثقافة والأهداف المشـــتركة لاسيما إذا ما قارنـــوا بين الحالة العربية وبين التطورات والنجاحـــات التى حققتها أقاليم ومناطق أخرى فى العالم ســـواء فى القارة الأوروبية أو آسيا خلال الفترة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى بداية القرن الحالي.

لكن ما يســـتدعى الانتباه اليوم لم يعد التساؤل المشروع عن محدودية نجاح العمل العربى المشـــترك فى السابق إنما أيضا عن آفاقه ومســـتقبله بل وربما جـــدواه فى نظر بعض المشـــككين فى ظل ما تموج بـــه المنطقة من تحولات وتحديات جديدة وما يشـــهده العالم ذاته مـــن تطورات لم تتخذ بعد وجهة واضحة ومن ســـيولة تخرج بالنظام الدولى عن القوالب المعروفة سابقا ولعل نقطـــة البداية المناســـبة هى مراجعة سريعة لمحصلة العمل العربى المشترك منذ بدايته من خلال مقاربة تقوم على مقارنة عادة ما يطرحها الذهن العربى مع النموذج الأوروبى كمثال لإمكانية تحقيق التعـــاون والتكامل ربما نظرا للقرب الجغرافى أو لتاريخ التفاعل بين ضفتى المتوسط.

وأبرز ما تكشف عنه المقارنة بين الحالة العربية والنموذج الأوروبى هو وجود معضلتين رئيسيتين:

الأولى هى أن الـــدول العربية عند بدء مســـيرتها نحو العمل المشترك كانت قد خرجت من الحقبة الاســـتعمارية ومازالـــت فى مرحلة اســـتيعاب فكرة الدولة القومية ومع ســـعيها لتعزيز مظاهر سيادتها وجدت نفسها مدعوة إلى التخلى بدرجـــة أو بأخرى عن قدر من مظاهر تلك الســـيادة لبناء نموذج اقتصـــادى إقليمى جديـــد فى حين أن الدول الأوروبية كانت قد وجدت كدولة

بقلم السفير
سعد الفرارجى
رئيس التحرير

مستقلة منذ أمد أطول عندما توافرت لديها الإرادة لتنفيذ رؤيتها للتكامل فيما بينها.

أما المعضلة الثانية فهى أن قيام مجموعة البلدان العربية كإقليم جاء سابقا على طرح مشروع التكامل العربى ومن ثم نزل هذا المشروع إلى الحد المشترك الأصغر بين تلك البلدان بسبب التباين فى الإمكانيات والأداء الاقتصادى بينها ولم تتيسر للإقليم العربى الفرصة المثلى لبناء تكامل حقيقى فى حين اتبعت التجربة الأوروبية منهجا لتحقيق التكامل من خلال البناء التدريجى أفقيا بحيث ترك الباب مفتوحا للتوسع بالتوازى مع اكتساب النموذج قوة دفع ذاتية ومصداقية من خلال تحقيقه للمصالح المشتركة.

كما أن محصلة أكثر من سبعين عاما من العمل العربى تأثرت بتذبذب الإرادة السياسية والأهم بعدم وضوح الرؤية الشاملة التى تحدد الأهداف والوسائل بغض النظر عن المدى الزمنى اللازم دون عجلة أو إبطاء كذلك فإن النظرة الضيقة من خلال التركيز على الشق الخاص بالتجارة بين الدول العربية لم تسهم كثيرا فى تحقيق التقارب المنشود فليس بالتجارة وحدها يتحقق التكامل أو التعاون الاقتصادى طالما أنه لا يوجد إطار مؤسسى وزمنى وصولا إلى عناصر إقامة سوق عربية مشتركة مثلا فى ظل آليات للمتابعة وللمراجعة والتصحيح.

على أن السنوات القليلة الماضية ضاعفت من التحديات التى تواجه تنفيذ رؤية العمل العربى المشترك إذ أضيفت إليها تحديات تتعلق بكيان الدولة القومية التى كانت عماد الإقليم ويسعى البعض إلى إزاحة فكرة الهوية العربية التى تلتف حولها الدول العربية ذاتها إما لصالح هوية دينية عابرة للدول أو من أجل هويات طائفية أو عرقية تفتت هذه الدولة ذاتها وقد زاد من شراسة التحديات السابقة اتخاذها للعنف المنهج وللإرهاب فى أبشع صوره وسائل تفسر تلك الإزاحة رغما عن إرادة الشعوب العربية.

وفى ذات الوقت برزت تطورات دولية جديدة لتلقى بظلالها متمثلة فى التساؤلات المطروحة حول حدود نماذج التكامل الإقليمى ومدى نجاحها فى تحقيق التنمية الشاملة، ومن ثم تصاعد التوجهات التعبوية المنادية بإعطاء الأولوية للمصالح الوطنية، ولفظ ما جلبته موجة العولمة من آثار سلبية على الدول والمجتمعات.

علاوة على ذلك تظل الدول العربية فى مواجهة مشكلات عديدة أبرزها الزيادة السكانية ونسبة البطالة المرتفعة خاصة بين الشباب، وضعف معدلات الاستثمار الأجنبى المباشر، والتشابه بين هياكل الإنتاج فى بعض الدول العربية، وندرة الموارد المائية اللازمة لدعم النمو، واعتماد البعض على المواد الأولية أو النفط ضمن صادراتها، وضعف مستوى جودة التعليم الجامعي والعالى، وضعف البحث العلمى والتطوير وضعف انتشار التكنولوجيا، ويستتبع ذلك ضعف حركة النشر العلمى وبراءات الاختراع.

إن إمكانيات وموارد الدول العربية ليست خافية وفى مقدمتها ما هو متعارف عليه من موقع جغرافى خاص وسيطرة أو إطلالة على ممرات مهمة للتجارة والطاقة، والمساحة وعدد السكان مما يمثل سوقا ذات درجة عالية من التجانس الثقافى ونسبة مرتفعة من القوى العاملة الشابة والموارد النفطية من حيث الإنتاج والاحتياطيات المؤكدة.

إن كل العوامل السابقة وغيرها كانت ولازالت تمثل حوافز حقيقية نحو مزيد من العمل العربى المشترك، الذى لا تقتصر عوائده على تحقيق الرفاهية وتحسين وضع الدول العربية على الصعيد الدولى وإدماجها فى الاقتصاد العالمى على أسس أفضل، وإنما من المهم النظر أيضا إلى عوائد أخرى من بينها أن التكامل الاقتصادى العربى وسيلة مهمة لتأكيد هوية الإقليم العربى الذى تتعرض أطرافه وبعض أنحائه للهجوم والتآكل. فالتكامل يبرز أن هوية الإقليم ليست بالضرورة قائمة على اللغة أو الثقافة أو العرق أو نحو ذلك فقط، وإنما تقوم أيضا على مصالح مشتركة، وأهداف يتم تحقيقها عبر تجميع الموارد والقدرات فى إطار رؤية متفق عليها، كما يوفر التكامل مدخلات جديدة للإنتاج ويزيد سعة السوق ويلبى الحاجة لدعم دور القطاع الخاص فى التنمية، ودفع عجلة التكامل نتيجة تولد مصالح جديدة، كما أنه يفتح مجالات لاستغلال العمل المشترك لمواجهة تحديات داخلية لها آثار سلبية متشابهة مثل مشكلة البطالة والفجوة المعرفية والمشاكل البيئية وكذلك دعم قدرة الدول العربية على مواجهة تحديات دولية تفوق قدرة كل منها منفردة.

إن التقدم برؤية واقعية نحو عمل عربى مشترك سيتيح التفاعل بشكل إيجابى مع عمليات الإصلاح والتطور والتحديث فى جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتى تطمح الدول العربية إلى بلوغها على نحو ينبع من داخلها.

كما أن طبيعة التحديات التى استجدت مثل الإرهاب والتدخلات التى تستهدف كيان الدول، تستدعى بدورها أن تتعدد أبعاد ومستويات العمل العربى المشترك «والعمق الذى يمكن أن تتخذه بعض تلك الأبعاد، لاسيما ما يتعلق منها بالأمن القومى العربى الذى كان صونه من اللبنات الأولى للعمل العربى المشترك عام 1950 من خلال معاهدة الدفاع المشترك.

ولعل طرح مصر إنشاء قوة عربية مشتركة تملك القدرة على الانتشار السريع لردع التهديدات أو للتعامل معها إذا ما دعت الحاجة يجسد وعيها بضرورة العمل العربى وتطويره حتى تستعيد الأمة العربية قدرتها على الفعل وتتمكن من تلبية تطلعات شعوبها.

حقيبة الوزير

تضمنت حقيبة السيد وزير الخارجية سامح شكرى نشاطًا مكثفًا منها:

زيادة أنشطة مؤسسة يعقوب بإفريقيا

بحث سامح شكرى، وزير الخارجية، مع الدكتور مجدى يعقوب المؤسس والرئيس الفخرى لمجلس أمناء مؤسسة يعقوب لأمراض وأبحاث القلب»مركز أسوان للقلب« التعاون بين وزارة الخارجية والمؤسسة فى إفريقيا بصفة عامة ودول حوض النيل بصفة خاصة.

وأشاد بجهود وأنشطة المركز فى دول حضو النيل خصوصًا إثيوبيا، مشيرًا إلى الصورة الايجابية التى يعكسها المركز للدور المصرى التنموى فى إفريقيا.

كما تناول اللقاء بحث التعاون بين وزارة الخارجية ممثلة فى الوكالة المصرية للشراكة من أجل التنمية ومركز أسوان للقلب، فى إطار الدور التنموى الذى تقوم به الوكالة على مستوى القارة.

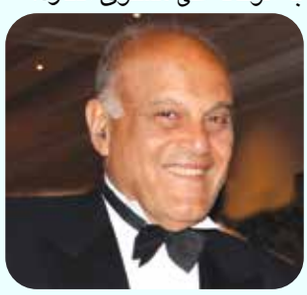

الدكتور مجدى يعقوب

شكرى:«فى مؤتمر رودس» من يوفر الملاذات الآمنة للإرهاب؟

ألقى سامح شكرى، وزير الخارجية، كلمة مصر فى الجلسة الأولى لمؤتمر »رودس للأمن والاستقرار« والتى تم تحصينها لمناقشة التحديات المشتركة التى تواجهها دول منطقة »المتوسط« حيث أعرب عن تقديره للمبادرة اليونانية بتدشين هذا المؤتمر الذى ينعقد للعام الثانى على التوالى، باعتباره إطارًا جديدًا ومهمًا للدول فى حوض البحر المتوسط والمنطقة العربية لتبادل الرؤى ووجهات النظر بشأن أهم التحديات المشتركة التى تواجهها.

وعلى رأسها ظاهرة الإرهاب التى تتطلب منظورًا شاملاً يتناول الأبعاد السياسية والأيديولوجية والتنموية لهذه الظاهرة، معيدًا توجيه الأسئلة»حول من يوفر الملاذات الآمنة للتنظيمات الإرهابية لتدريب المقاتلين، ومعالجة المصابين منهم، وإجراء الإحلال والتبديل لعتادهم ومقاتليهم؟، ومن يشترى منهم الموارد الطبيعية التى يسيطرون عليها.. كالبترول؟ ومن يتواطأ معهم عن تجارة الآثار والمخدرات؟، ومن أين يحصلون على التبرعات المالية؟، وكيف يتوفر لهم وجود إعلامى عبر وسائل إعلام ارتضت أن تتحول لأبواق دعائية للتنظيمات الإرهابية؟.

«شكرى» يشارك فى الاجتماعات التحضيرية لـ «الاتحاد الأفريقى»

عقدت فى العاصمة الإثيوبية أديس أبابا الدورة العادية الـ 13 للمجلس التنفيذى للاتحاد الأفريقى، تمهيدًا لانعقاد القمة الـ 92 لرؤساء الدول والحكومات 3 و4 يوليو الحالى، وتعقد القمة تحت شعار »تسخير العائد الديموغرافى من خلال الاستثمار فى الشباب«، باعتباره شعار الاتحاد الأفريقى خلال عام 7102.

وشارك وزير الخارجية سامح شكرى، فى اجتماعات المجلس التنفيذى والمداخلات التى شهدتها من قبل الوزراء المشاركين، حيث تم طرح 01 موضوعات بينها تقرير مجلس السلم الأمنى والأفريقى بشأن الصراعات والنزاعات، وخارطة الطريق لإسكات صوت السلاح فى أفريقيا.

بحث الاجتماع تقريرًا حول الهجرة واللاجئين، وتقريرًا آخر حول خارطة الطريق فى تشاد ومساندة الدول الأفريقية لها، فضلاً عن مناقشة الموازنة العامة للاتحاد الأفريقى للعام 8102.

وشهدت القمة الأفريقية الـ 92 مشاركة 92 من الرؤساء والملوك ورؤساء الحكومات، و4 نواب رؤساء، ومن ضمن المشاركين فى القمة الأفريقية الرئيس الفلسطينى محمود عباس.

ضرورة الحفاظ على كيان الدولة الليبية

اجرى سامح شكرى وزير الخارجية اتصلات مع غسان سلامة مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة الجديد إلى ليبيا، الذى أشاد بالدور المصرى الرائد فى المنطقة، وما تبذله من جهود لـ »حلحلة« الأوضاع فى ليبيا، وتفعيل المسار السياسى من خلال الحل السلمى والحوار.

شكرى أكد ضرورة إيجاد حلول تضمن الحفاظ على كيان الدولة الليبية وحماية مؤسساتها، مشددًا على محورية وتفعيل دور المؤسسات الوطنية الليبية.

الوزير شكرى أكد استمرار مصر فى بذل جهودها من أجل إتاحة الفرصة كاملة للأشقاء الليبيين للتوصل إلى حلول ترضى جميع الأطراف، ينبع من جهود وطنية ليبية خالصة، وفى إطار الحفاظ على استقلالية وسيادة الأراضى الليبية.

غسان سلامة

ألمانيا ليس لديها وجهة نظر مخالفة فى قطع العلاقات مع الدوحة

شدد سامح شكرى، وزير الخارجية على الرغبة المشتركة بين مصر وألمانيا لتوثيق العلاقات على كافة المستويات، وقال إن زيارة الرئيس عبدالفتاح السيسى، الأخيرة إلى برلين جاءت إيجابية جدًا على المستوى الثنائى، مشيرًا إلى أن وجهة نظر ألمانيا ليست مخالفة لمصر فى ملف مقاطعة قطر.

وأوضح وزير الخارجية أن قمتى العشرين وأفريقيا وفرتا فرصة للزعماء الأفارقة للحديث عن شواغل القارة والتحديات التى تمر بها بقدر عال من الشفافية والوضوح، وعرضوا تجربة بلادهم للتنمية والإحجام الأوروبى، خلال الفترة الماضية عن المشاركة فى جهود التنمية والتعامل مع الموارد الأفريقية بصورة أولية فقط، وليس من خلال التصنيع، والرئيس بلور ذلك بشكل كبير فى مداخلاته أمام القمة.

شكرى:
الشروط الموضوعة لقطر ضرورية لحماية أمننا القومى

أكد وزير الخارجية سامح شكرى، أن الشروط التى وضعت بالنسبة لقطر هى من وجهة نظر الدول الأربع مصر والسعودية والبحرين والإمارات ضرورية وحتمية حتى يتم حماية أمنها القومى.

وقال شكرى إنه يتم التعامل بالجدية اللازمة مع وضع استمر لسنوات وترتبت عليه أضرار للعمل العربى يعانى منها هذا الجيل وربما الجيل الذى يليه حتى نستعيد مرة أخرى استقرار الوطن العربى وإعادة التضامن.

وأشار وزير الخارجية إلى ما تشهده وتعانى منه العديد من البلدان العربية على ضوء تدهور الأوضاع فى سوريا وليبيا، مؤكدًا ضرورة تكثيف العمل من أجل استعادة الاستقرار والمؤسسات وبناء مرة أخرى وطن عربى على أساس المواطنة والتضامن والعمل المشترك.

وردًا على سؤال حول الأزمة مع قطر وما إذا كان يرى أنها قد تحل فى وقت قريب.. شدد وزير الخارجية على أن التنسيق بين الدول الأربع مصر والمملكة السعودية والبحرين والإمارات وثيق قوى ومتصل ومستمر وتضطلع به مؤسسات الدولة ووزارة الخارجية ونتواصل بشكل مستمر مع هذه الدول.

وقال وزير الخارجية إن عنصر الوقت واحد والقطريون اعتقدوا أنه بعد 48 ساعة أن هناك إلحاحًا أن يتم التعامل مع هذه القضية فى إطار زمنى سريع وأتصور أن هذا الأمر حدث نظرًا لقوة التحرك وأثره الذى ترتب عليه الإحساس بأن تلك الأزمة تختلف عن سابقاتها فيما يتعلق بالعلاقة مع قطر، وبالتالى أصبح هناك هذا القدر من الانزعاج فى الساحة والمتابعة على المستوى الشعبى والتصور بأن الأمر سوف يسفر عن نتيجة ملموسة وسريعة وحاسمة وهذا ليس بالضرورة يكون مسار تحرك من قبل الدول.. مشيرًا إلى أن الساحة الدولية فوجئت بهذا الحدث وتتطلع إلى المزيد من التنسيق حتى تصيغ سياستها وردود أفعالها إزائها، وكل ذلك تبلور فى الوقت الراهن.

وقال إن الأمر متصل أيضًا بتحركات من قبل مؤسسات الدولة القطرية فى محاولة التنصل من الالتزامات المفروضة عليها وهذا أمر يتبلور ويتم، وعلينا أن يكون لدينا الرؤية الواضحة من خلال التنسيق الرباعى والاتصالات القائمة وسوف يحدد ذلك خارطة الطريق الخاصة بأسلوب احتواء هذه الأزمة من خلال تطبيق الإجراءات المطلوبة ووضع الآليات الضرورية لضمان تغير المنهج والسياسة القطرية ولتحيد عن دعم الإرهاب والتمويل واستهداف استقرار الدول الأربع والأمن القومى العربى بصفة عامة.

شكرى يلتقى القائد الأعلى لعمليات حلف الناتو

استقبل وزير الخارجية سامح شكرى دنيس ميرسيه القائد الأعلى لعمليات التحول بحلف الناتو الذى قام بزيارة لمصر، حيث تم تناول سبل تعزيز العلاقات بين مصر والحلف الأطلسى خاصة فى أعقاب تعزيز العلاقات بينهما بإقامة تمثيل دبلوماسى مصرى لدى الحلف منذ منتصف يناير 2017 وتناول موضوعات عديدة.

وعلى رأسها مكافحة الإرهاب فضلاً عن التشاور حول القضايا والأزمات الإقليمية وتطلع مصر لتدعيم صيغة الحوار السياسى على كافة المستويات.

شكرى يؤكد موقف مصر الداعم لوحدة العراق

إياد العلاوى

التقى سامح شكرى وزير الخارجية مع إياد علاوى نائب رئيس جمهورية العراق فى زيارته الرسمية للقاهرة.. وأشاد بالعلاقات التاريخية والاستراتيجية العميقة التى تربط البلدين، وأشار إلى الأهمية التى توليها القيادة السياسية لتطوير العلاقات مع العراق فى شتى المجالات، خاصة السياسى والاقتصادى.. ومن جانبه ثمن نائب رئيس جمهورية العراق العلاقات المصرية العراقية وأعرب عن تطلع بلاده لمواصلة العمل على تعزيز العلاقات الثنائية على مختلف الأصعدة.

ومن جانبه أكد شكرى موقف مصر الداعم لوحدة العراق واستقراره وسلامة أراضيه، مشددًا على ضرورة تضافر الجهود بين مختلف أطياف الشعب العراقى لتنحية الخلافات وإعلاء المصلحة الوطنية ووأد أى محاولات للتدخل فى الشأن الداخلى العراقى.

مصر تهنئ الكويت بفوزها بمقعد فى مجلس الأمن

أجرى سامح شكرى وزير الخارجية اتصالاً هاتفيًا مع الشيخ صباح خالد الحمد الصباح، النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية الكويتى، للتهنئة بفوز دولة الكويت الشقيقة بمقعد غير دائم فى مجلس الأمن لمدة عامين 8102 - 9102 بأغلبية 881 صوتًا وهو ما يعكس مكانتها المرموقة على المستويين الإقليمى والدولى، معربًا عن ثقة مصر فى قدرة الدبلوماسية الكويتية على الاضطلاع بدورها على مختلف الأصعدة باقتدار، بما تتبناه من سياسات متوازنة تحافظ على الأمن القومى العربى، وتهدف إلى تحقيق الأمن والاستقرار إقليميًا وعالميًا.

تبنى رؤية شاملة لمواجهة التنظيمات المتطرفة

أعلن سامح شكرى، وزير الخارجية، ونظيره السعودى عادل الجبير، أن مشاوراتهما فى القاهرة كشفت عن تطابق تام فى وجهات النظر حول الملفات الثنائية والإقليمية، خصوصًا ما يتعلق بمكافحة التطرف والإرهاب، وأن التنسيق الدائم بين البلدين مهم فى هذه المرحلة الدقيقة التى تمر بها المنطقة.

مشيرًا إلى أنه تشاور مع وزير الخارجية السعودى حول قضايا الإرهاب وسبل تعضيد الأمن القومى العربى والعمل على منع تدخل أى دولة من خارج نطاق الدول العربية فى شئون الإقليم.

وأوضح شكرى أن الدول العربية لديها من الإمكانات والقدرات ما يؤهلها لمنع تدخل أى قوى خارجية فى شئون المنطقة، وأن التعاون بين مصر والسعودية عميق ووثيق ومستمر، وتجنى منه الدولتان فوائد ضخمة، مشيرًا إلى أن هناك تعاونًا أمنيًا وعسكريًا كاملاً وتوافق حول رؤية شاملة لمكافحة الإرهاب تعمل ضد كل التنظيات المتطرفة، وتجفيف منابع تمويلها، ومحاربة الأفكار المتشددة، والحديث بصوت واحد مع شركائنا فى المنظمات الدولية للقضاء على الظواهر التى تهدد المنطقة.

وتابع شكرى أن الجانبين أكدا حرصهما على تطبيق الاتفاقات الثنائية بينهما، خصوصًا فى مجال الربط الكهربائى، لما سيعود على البلدين من نفع من اختلاف فترات الذروة بين مصر والسعودية، وكذلك التبادل والتنسيق الأمنى لحماية الشعبين من آفة الإرهاب والأعمال الإجرامية واستهداف الأبرياء ووقف المساندة لها من قبل دول توفر لها التمويل والرعاية.

وزيرا خارجية مصر والسودان يؤكدان صلابة العلاقات

أكد سامح شكرى، وزير الخارجية، أن سياسة مصر تقوم على البناء والإخاء والعمل المشترك، ولا يمكن أن تشارك فى أى شىء يمكن أن يمثل ضررًا على السودان، لأن السودان القوى دعم لمصر، كما أن مصر دعم للسودان.

وأشار شكرى إلى أنه تم الاتفاق على استمرار انعقاد اللجنة القنصلية المشتركة، لحل جميع الإشكالات المتعلقة بتنقل المواطنين بين البلدين، كما تم بحث التعاون فيما يتعلق بظاهرة الإرهاب، التى لا تستطيع دولة بمفردها مواجهتها، وكل الآليات متاحة لتعزيز وحماية مجتمعاتنا، خصوصًا فى مصر والسودان، فى ظل وجود توترات حولنا.

وزير الخارجية يبحث مع نظيره الجزائرى العلاقات الثنائية والقضايا الإقليمية

عقد سامح شكرى، وزير الخارجية، جلسة مشاورات سياسية مع عبدالقادر مساهل، وزير الخارجية الجزائرى فى إطار زيارته للعاصمة الجزائرية للمشاركة فى الاجتماع الثصلاثى بشأن ليبيا الذى تستضيفه الجزائر، حيث أكد تطلع مصر لمزيد من التنسيق والتشاور على المستوى الثنائى وفى القضايا الإقليمية وفى مقدمتها الأزمة الليبية ومكافحة الإرهاب والتطرف فى المنطقة.

كما أعرب شكرى عن امتنانه لزيادة حجم الاستثمارات المصرية فى الجزائر لتصل إلى 4مليارات دولار، وانخفاض حجم قوائم السلع السلبية بين البلدين، معربًا عن تطلع الجانب المصرى لانعقاد لجنة المتابعة الخاصة باللجنة العليا المشتركة فى أقرب فرصة ممكنة لمتابعة تنفيذ الاتفاقيات الموقعة بين البلدين.

وفى هذا الإطار نوه المتحدث باسم الخارجية إلى أن مساهل أكد حرص الجزائر على عقد اللجنة المشتركة قبل نهاية العام الحالى، وتطلعه لأن يتناول اللقاء المقرر لوزير الخارجية مع الوزير الجزائرى الأول »رئيس الوزراء« اليوم الثلاثاء المزيد من التفاصيل الخاصة بالإعداد للجنة المشتركة.

شكرى يبحث مع نظيره الفرنسى تطورات الملف الليبى

بحث وزير الخارجية سامح شكرى مع نظيره الفرنسى جان إيف لودريان الملف الليبى خلال لقائهما فى القاهرة.

وأكد شكرى فى مؤتمر صحفى مشترك أهمية »جهود توصل الأشقاء فى ليبيا إلى توافق حول الاتفاق السياسى ودعم هذا المسار«، وذلك فى إشارة إلى »الحوارات الليبية - الليبية التى عقدت فى مصر خلال الآونة الأخيرة«، وقال لوديان: »لا يمكننا السماح بزيادة عدم الاستقرار على الحدود المصرية وبوابات أوروبا، الأمر الذى من شأنه أن يحقق مكاسب لكل من الإرهابيين والمهربين«، واصفًا الملف الليبى بـ «المهم».

مساعدات إنسانية إلى جنوب السودان

أرسلت مصر الدفعة الأولى من المساعدات الإنسانية المقرر تقديمها؛ لتخفيف المعناة عن الأشقاء بدولة جنوب السودان، وذلك ضمن عدد من الدفعات التى سترسلها مصر إلى عاصمة جنوب السودان «جوبا» خلال الشهر الحالى والمقبل، بناء على توجيهات من الرئيس عبدالفتاح السيسى.

وتشمل المساعدات مواد غذائية وأدوية ومستلزمات طبية.

الوزير سامح شكرى فى العيد الرابع لثورة ٣٠ يونية:

الاستقرار والتوازن فى سياستنا الخارجية

نحتفل بذكرى عزيـــزة وغالية على قلب كل مصري، حين قال الشـــعب كلمتـــه القاطعة يـــوم الثلاثين من يونيو عـــام 2013، معلنا انحيازه التام لمؤسســـات الدولة الوطنية بما تمثلـــه من هوية راســـخة تضرب بجذورها فى عمـــق التاريخ، رافضا محـــاولات طمـــس هـــذه الهوية وتشويهها، وفرض رؤية أيديولوجية لجماعة خارجة عن الإطار الوطنى العام، فما كان إلا أن لفظها الشعب المصرى بثبات وجسارة.

وبعد مرور أربع ســـنوات على هذا الحدث التاريخى الهام، حريّ بنا وقد تجاوزنا تفاصيل اللحظة وتعقيدات المشـــهد آنذاك، أن نتناول بشيء من التحليل المعمق بعضا مما تحقق على صعيد سياسة مصر الخارجية، حيث كانت الدبلوماسية المصرية فى طليعة المؤسســـات الوطنية التى استجابت لنداء الوطن، بتكثيف التواصل مع الدوائر الرسمية والشعبية والإعلامية فى مختلف أنحـــاء العالم على نحو غير مسبوق، تصديا لكل من حاول وصم هذه الثـــورة بصفات لا تمت للواقـــع بصلة، ولشرح مســـوغات التحرك الشـــعبى الذى أنقذ البلاد من مغبة السقوط فى براثن الاقتتال الأهلي، وجنّب المنطقة ويلات موجة جديدة مـــن العنف والفوضى. ومما لا شك فيه أن الأحداث التى شهدتها منطقة الشرق الأوســـط منذ مطلع عام 2011 كانـــت إيذانا بتحولات حـــادة، وتقلبات عاصفـــة، هدمت ثوابت ترســـخت عبر عقود وأجيال، وفرضت عـــلى أرض الواقع قواعد جديـــدة ومعطيات غير مســـبوقة أصابت الحكومات والجماهير بكثير من التخبط والاهتزاز.

ومن نافلة القـــول إن ثورة الثلاثين من يونيو قد دشّنت ما يمكن تسميته بمرحلة «الدبلوماســـية الهادئة» فى سياسة مصر الخارجية، والتى تشير إلى اعتبـــارات المواءمة بين متطلبات الداخل من جانب، عبر اســـتكمال الاستحقاقات الدســـتورية وتثبيت الاصطفـــاف الوطنـــى فى مواجهة منعطف الفوضى وعدم الاســـتقرار الذى خيّم على البـــلاد خلال الفترة السابقة، وبين الحفاظ على مصالح مـــصر الخارجية التـــى تفرضها محددات جيواســـتراتيجية مستقرة منذ القدم، بمد جسور التعاون مع مختلف الشركاء الدوليين والإقليميين، وتجنب الدخـــول فى صدامات من شـــأنها التأثير عـــلى وضعية مصر الإقليمية واستقرارها الداخلي. فقد قامت هذه المرحلة عـــلى مرتكزات أساسية، أولها: ضرورة الحفاظ على تماســـك الدولة الوطنية باعتبارها إطارا جامعا للمواطنين فى المنطقة، ينضوى الجميـــع تحت لوائها دون الانجرار إلى دعاوى الفتنة والتقسيم على أساس خطوط التباين العرقى والدينى والمذهبي. ولقد رأينا كيف انجرفت بعض الدول الشـــقيقة مع هذا التيـــار الخبيث، الذى هوى بها إلى دوامات العنف والعنف المضاد. ومازالت مصر تبذل جهودا مضنية لطى هذه الصفحة المظلمة فى ليبيا وسوريا، وفق رؤية مدروسة ومنهج قويم لا يبتغى سوى إنقاذ الشعوب من مهالك الـــصراع الدموى الذى لا يُبقى ولا يذر.

وقد تأسس الموقف المصرى تجاه هذه الأزمات على رفض كل ما من شأنه تفتيت المؤسسات الوطنية القائمة، وذلك عبر الدخول فى عملية سياسية تعتمد الحوار سبيلا لتقريب وجهات النظر، وتوســـيع مساحات التلاقى وتضييق هـــوة الخلاف بين مختلف الأطراف. فقد استضافت القاهرة على مدار الأعوام الثلاثة الماضية سلسلةً من اللقـــاءات المتواصلة مع مختلف ممثلى الأطراف المجتمعية والقبلية فى ليبيا. وقد تمخض عن هذه اللقاءات الإعلان عن بيان القاهرة فى ديسمبر 2016 والـــذى يعد بمثابة المرجعية الأساســـية لحل الأزمة الليبية. كما تنخرط مصر بقوة فى كل محاولات التوصل إلى تسوية للأزمة السورية فى الاجتماعات التى انعقدت بجنيف ولوزان وغيرها، فضلا عن مشاورات مجلس الأمن، فاستضافت مصر لهذا الغرض اجتماعات مجموعة القاهرة للمعارضة الســـورية والتى تمثل طيفا معتدلا فى الصراع الدائر، كذلك نجحت الســـفارة المصرية فى دمشق فى توصيل شـــحنات من المساعدات الإنسانية للشعب السورى الشقيق تضامنـــا معـــه فى هـــذه الأوقات العصيبة.

فإذا انتقلنا إلى الركيزة الثانية لهذه المرحلـــة، ألا وهى إعـــادة تعريف المبادىء الحاكمـــة لتحركات مصر الخارجية، نلمس كيف اســـتطاعت مصر بعد ثـــورة الثلاثين من يونيو أن تستلهم دورها التاريخى الذى لم يسع يوما للهيمنة أو محاولات بسط النفوذ، وذلك عـــبر الموازنة الدقيقة بين مقتضيات الحفـــاظ على الأمن القومى المصرى، و التمسك فى الوقت ذاته بمباديء حسن الجوار فى إدارة العلاقات الدوليـــة، ورفض التدخل فى الشئون الداخلية للدول، واحترام الخصوصية السياســـية والثقافية للمجتمعـــات. ويعد التوصل لاتفاق إعلان المبادئ بين مصر والســـودان وإثيوبيا فى مارس 2015 انعكاســـا لهذا التـــوازن الدقيق فى المباديء فى إدارة أحد أهم الملفات فى سياســـة مـــصر الخارجيـــة، ألا وهو ملف الأمن المائي. فقد كانت زيارة السيد الرئيس لأديـــس أبابا وخطابه أمام البرلمان الإثيوبي مبـــادرة تاريخية غير مسبوقة للتأكيد على مباديء بناء الثقة، والتعاون، وتحقيق المكاسب المشتركة فى علاقات مصر مع جميع دول وشـــعوب حـــوض النيل، مع عدم التفريط للحظة واحدة فى أمن مصر المائى باعتبـــاره خطا أحمر لا يقبل المســـاومة، وهو ما أعادت القيادة المصرية التأكيد عليه خلال القمة الأولى لدول حوض النيل التى اختتمت أعمالها بأوغندا قبل أيام.

ولا تغفل مصر بحال من الأحوال أن رياح التغيـــير قد عرفت طريقها إلى دول المنطقـــة، حيث أصبح المواطن شريـــكا أساســـيا فى عملية صنع القرار بما فى ذلك قرارات السياسة الخارجيـــة، وهو ما يعـــد الركيزة الثالثة لسياسة مصر الخارجية لهذه المرحلة. وتحرص وزارة الخارجية على ترجمـــة هذا المبـــدأ من خلال تواصلها المبـــاشر مع المواطنين عبر مواقع التواصل الاجتماعى المختلفة، فضلا عن تعزيز أطـــر الحوار مع الجاليات المصرية بالخارج، وتسهيل سبل الرعاية القنصلية التى تقدمها بعثات مصر فى الخارج للمواطنين. كما أحرص بشكل شخصى على إجراء لقاءات دورية مع المثقفين والمفكرين وشـــباب الجامعات لاستطلاع آراء هذه القطاعـــات الهامة فى المجتمع المـــصري، والتعرف عـــن قرب على تقييمهم لسياســـة مصر الخارجية ومقترحاتهم لكيفية تطويرها.

وإذ تواجـــه مصر معركـــةً داخليةً شرسة فى مواجهة الإرهاب، تخوض بالمثل معركـــةً خارجيةً أمام العالم لمحاصرة قوى الظلام التى لا تكف عن العبث بأمن الشـــعوب واستقرارها. ولعل كلمـــة الســـيد الرئيس التى ألقاها أمام القمة الأمريكية العربية الإســـلامية التى انعقدت بالرياض مؤخرا، كانت بمثابة مرجعية هامة فى تناول ظاهـــرة الإرهاب بأبعادها السياســـية والفكرية والتنظيمية.

ولقد رأينا كيف تحولت رؤية السيد الرئيس بـــضرورة محاصرة الدول الراعية للإرهاب إلى خطوات ملموسة من خلال حزمـــة الإجراءات الأخيرة التى تم اتخاذها تجـــاه دولة قطر بالتنســـيق بين مصر والســـعودية والإمـــارات والبحريـــن. وارتباطا بهذا الأمر، أتاحت عضوية مصر فى مجلس الأمن (2016-2017) فضلا عـــن توليها رئاســـة لجنة مكافحة الإرهـــاب بالمجلس، مجالا واســـعا لطرح الرؤية المصريـــة فى محاربة الإرهاب من منظور شـــامل، حيث نجحت البعثة المصريـــة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك فى اســـتصدار قرار من مجلس الأمن يوم 25 مايو 2017 بإجمـــاع آراء الدول أعضاء المجلـــس للترحيب بالإطـــار الدولى الشـــامل لمكافحة الخطاب الإرهابى ووضعه موضـــع التنفيذ،لقد انتقلة الدبلوماسية المصرية كوثيقة رسمية من وثائق مجلس الأمن.

من مرحلـــة «دبلوماســـية الهدوء والتوازن» إلى دبلوماســـية «تثبيت الاســـتقرار واســـتعادة الدور» فى علاقات مصر الخارجيـــة. فقد تم استكمال البنية المؤسسية الداخلية، وتبنـــى برنامج شـــامل للإصلاح الاقتصادى نتطلـــع إلى جنى ثماره خلال الســـنوات القادمة، ليكتمل المشـــهد بسياســـة خارجية فاعلة تســـتند إلى رؤية واضحة رســـمت القيادة المصريـــة ملامحها بعناية فائقة لاستعادة دور مصر الخارجى المؤثر فى كافـــة الملفات ذات الأهمية الاســـتراتيجية والمصلحـــة القومية لمصر.

إن الرؤية المصريـــة تنتهج الانفتاح على العالم سبيلا للحوار والتواصل وتعزيز المصالح المشـــتركة ورفض السياســـات التخريبية التى تسعى لإذكاء الفتـــن، مقابـــل التمســـك بمبـــاديء العيش المشـــترك التى تفتح أبواب المستقبل للجميع لتنمو الشعوب وتزدهر.

وســـيكتب التاريخ كلمته الفاصلة فى النهاية، مذكّـــرا الأجيال القادمة بأن ثورة الثلاثين من يونيو أعادت مصر مرة أخرى إلى صدارة المشهد الإقليمى والدولى بعد فترة وجيزة من الاضطراب، ونجحت باقتدار فى درء الفوضى، والحفاظ على دعائم الدولة، وإعـــلاء مصالح الشـــعب المصرى وحقه الأصيل فى حياة آمنة مستقرة على أرضه.

هل كان ينقص العرب نشوب أزمة جديدة بين ظهرانيهم؟!

لم يمض وقت طويل على زيارة الرئيس الأمريكى دونالد ترامب إلى المملكة العربية السعودية، واجتماعه بقادة دول مجلس التعاون الخليجي، وبزعماء عدد كبير من الدول العربية والإسلامية، حتى تفجرت أزمة خطيرة بين الكثير من هذه الدول (12 دولة بينها مصر) وبين قطر، تمثلت فى قطع العلاقات وفرض الحصار عليها من كل جانب.

سفير إيهاب وهبة

amb.wahba@gmail.com

كلنا نعلم أن هذه الأزمة مع قطر- والناتجة هذه المرة عن اتهام هذه الدول مجتمعة للقيادة القطرية بتمويل ومساندة منظمات إرهابية وقدمت دلائلها على ذلك - ليست الأولى التى تنشب بينهم، كما نعلم أن هناك العديد من الأسباب التى تخلق الفجوة بينهم، ولكن الجديد هذه المرة هو اتساع نطاق القطيعة، وتنوع العقوبات المفروضة، فضلاً عن أننا لا نعلم على وجه اليقين ما إذا كانت الوساطات الجارية لاحتواء الأزمة ستحقق مبتغاها.

لم يخف على أحد أن خطابات ترامب التى ألقاها، أو البيانات المشتركة التى صدرت مع القادة الذين اجتمع بهم هناك، قد خص فيها إيران بنصيب الأسد سواء بكيل الهجوم عليها، أو اتهامها بزعزعة استقرار المنطقة، أو تدخلها فى شئونها الداخلية، هذا فضلاً عن الزعم بإشعالها نار المنازعات، وتأجيج النزاعات الطائفية، كل هذا بالطبع مع إبراز دعمها للإرهاب، وشن الحروب بالوكالة فى المنطقة. (بالمناسبة تعرضت إيران ذاتها لعملية إرهابية منذ أيام استهدفت مجلس الشورى فى طهران ومرقد الإمام الخميني).

والسؤال الذى يطرح نفسه بشدة - خاصة فى ضوء توقيت قرارات المقاطعة أو مداها - هو هل لعب الهجوم الأمريكى الذى شنه ترامب على طهران دوراً محفزاً لاتخاذ هذه الخطوات تجاه قطر التى تربطها بإيران علاقات اقتصادية وسياسية وثيقة تتقاطع مع الخط الذى تتبناه السعودية تجاه إيران. أضف إلى هذا أن الهجوم على إيران كان يحمل فى طياته هجوما مقنعاً على قطر، بل إن ترامب فى تغريدة له يوم 6/6/2017 ذكر صراحة أن القادة الذين اجتمع بهم أشاروا إلى قطر باعتبارها الداعمة المالية للأيديولوجية الراديكالية.

حتى وإن نحن استبعدنا هذه الفرضية، أى العلاقة العضوية بين موقف ترامب والخطوة السعودية، إلا أنه من المؤكد أن ما صدر عن ترامب أثناء الزيارة مناهضاً لإيران شفاهة أو كتابة، قد أدى إلى مجموعة من النتائج السلبية التى قد يمكن حصر بعضها فيما يلي:

- احتلال التوجه المتشدد تجاه إيران مكان الصدارة سواء من قبل بعض دول الخليج، أو من قبل بعض الدول العربية والإسلامية، والخلاف الذى نشهده حالياً داخل دول مجلس التعاون الخليجى حول الموقف من إيران، لابد وأن يجد طريقه إلى داخل جامعة الدول العربية بل وداخل منظمة التعاون الإسلامي.
- حدث انقسام بالفعل داخل مجلس التعاون الخليجى إلى ثلاث

مجموعـــات؛ الأولى تتمثل فى قطر، والثانية تضم الإمارات والبحرين وكلاهمـــا قد أعلـــن انضمامه إلى المعسكر السعودي، والثالثة تضم الكويت وســـلطنة عمان وكلاهما يقـــف عـــلى الحيـــاد ويحاولان التوســـط. إذن فإن ذلك التحالف الذى نـــادى به ترامـــب لمحاربة الإرهاب بدأ ينفرط عقده بعد أيام قليلة من المناداة به والتوقيع على وثائقه وبياناته.

- ثم إن هذا التطور إنما يدفع قطر بالمزيد إلى أحضان إيران، بكل ما يترتب على ذلك من آثار ونتائج.

هذا فيما يتعلـــق بقطر ومجلس التعاون، أما فيمـــا يتعلق بإيران فإن ما يمكن أن يحدث ســـيكون أبعد أثراً وأثقل مردوداً:

- تضاؤل الآمال فى جذب إيران فى اتجاه تحقيق تسوية سلمية للنزاع فى سوريا.

- ينطبـــق الشيء نفســـه على ما يجرى فى اليمن، إذ من المتوقع أن تزيد إيران مـــن دعمها للحوثيين وقوات عبد الله صالح.

- هذا فضـــلاً أن مثل هذا الهجوم على إيران إنما يقوى من ســـواعد العناصر المتطرفة داخل إيران على حساب سياســـة الرئيس المعتدل حسن روحانى الذى أعيد انتخابه مؤخراً.

- ولا يمكن أيضـــاً إغفال حقيقة حصـــول إسرائيل على مكاســـب مجانية بســـبب هذا الانقســـام العربي، وتأخـــر أولوية القضية الفلســـطينية بالمزيد من على سلم الاهتمام الإقليمى والدولي.

- موقف ترامـــب المناهض لإيران التى أوفت بكل تعهداتها بالنسبة لاتفاق (1+5) يجعله يغرد خارج الـــسرب بمفـــرده، بينما تحصد أطراف الاتفاق الأخرى المكاســـب الاقتصادية وغيرهـــا الناجمة عن اتفاقها مع إيران.

وكما ســـبق أن ذكرت فإن أطرافاً عديدة ستحرص على الاصطياد فى الماء العكـــر، وأعنى فى هذا الصدد تركيا وما قيل عن عزمها إرســـال قوات عســـكرية إلى قطر، أى أننا نرى دولـــة غير عربية، تســـاعد دولـــة عربيـــة، فى مواجهة دول عربية أخرى. وهنـــا أدعو الله أن يخيب آمالهـــم ويحبط أهدافهم، مع قيامنا فى نفس الوقت بتدارس الأمر بالقـــدر الواجب من الحذر والحيطـــة، والعمل على تســـوية الخلاف داخل العائلـــة الواحدة بأسرع وقت ممكن، وأن يتم إعلاء صوت العقل وتغليب الحكمة.

لا أعلـــم نتائج قطع علاقات مصر بقطر على أوضاع الجالية المصرية هناك، وعلى الاستثمارات القطرية فى مصر، إنما أتصور أننا فى حاجة ملحة لتشكيل مجموعة عمل تضم كل الجهـــات ذات الصلة بالأزمة لدراســـة نتائج القرار وتلافى أية آثار ســـلبية قد تلحق باقتصادنا الوطني.

لا شك أن الحالة التى يمر بها عالمنا العربي، أقل ما يمكن أن توصف به بأنها حالة تدعو للرثاء. خذ سوريا على ســـبيل المثال ومـــا آلت إليه الأوضاع هناك، ثم انظر إلى الوضع فى العراق الذى لم يستطع إلى الآن طرد داعش من الموصل، أما اليمن فلم يعد كسابق عهده سعيداً إنما تفشـــت فيه الأمراض والمجاعات وعم الخراب على أجزاء عديدة منه، أما ليبيا فيصعب حصر الميلشيات المتصارعة فيهـــا، والأخطر هو ما يمثله ذلك من تهديدات على أمننا القومى من ناحية حدودنا الغربية.

بعد هذا أعود إلى ما بدأت به مقالى وهو التساؤل عما إذا كنا فى حاجة إلى نشوب أزمة جديدة فى منطقتنا تلتهـــم مـــا تبقى مـــن الأخضر واليابس.

قفـزة إلى مستقبل أرحب للمنطقة العربيـة

قلنـــا إنه مازال هناك الكثير مما يتحتـــم القيام به، إذا تحققت الإرادة الحرة لعمل عربى مشـــترك، لكى ينتفض الجسد العربى من كبوتـــه، ليضع أقدامه بثبات على عتبـــة الانفراج، ونضيف بأن هذا لن يكون كافيا، بـــل أن يتخطى ذلك بالصعود درجات لتعويض خسائره فى فترة الأزمات التى استنزفته، وما فاته مما تحقق إقليميا ودوليا خلال فترة انكفائه منشـــغلا بمواجهاته الدامية، ذلك أن الجسد العربى سيكون مليئا بالجراح، مستنزفاً جسدياً ونفسياً، ويحتاج إلى مرحلة من النقاهة لمجرد أن يلتقط أنفاسه وأن يقف على قدميه من جديد. ويقول آخر إنها محاولة لدراسة مستقبلية لمرحلة ما بعد الأزمات.

سفير سيد أبوزيد عمر

solitairegypt@gmail.com

والأرجح أن هذه المرحلة من تاريخ الأمة لن تستمر دون توقف أو إلى أبد الآبدين، وإنما سيأتى الغد بمتغيرات قـــد تدخلنـــا إلى مرحلـــة جديدة تستحق أن نســـتشرفها ونضع لها الســـيناريوهات اللازمة لتوجيهها - بقـــدر الإمـــكان- إلى التوجـــه الممكن الصائب. فعلم المستقبل قد أصبح من العلـــوم الرصينة الذى يختص بالمحتمل والممكن والمفضل من المســـتقبل، ويقلـــص المخاطر الناجمـــة عن "اللا يقين" فهو عمل علمى يســـتند على معطيات الماضى والحاضر والمســـتقبل، عمل أصبح لـــه مناهجه وعلماؤه ومدارســـه. ومستقبل الأمة بكل التعقيدات التى تحيط بنا حاليا أضخم من أن يعالج فى عجالة، ولكنها قد تكون محاولة أولية متواضعة، وقد تصلح كورقة عمل لدراســـات أعمق يعكف عليها المتخصصون. فهى ليست رمية بغير رام، أو تكهن مجرد دون أساس من واقع مرير فى أغلب الأحوال.

تحدثنا كثيراً عن الحاضر المتمثل فى الأوضاع الدمويـــة المتأزمة الحالية فى خمـــس دول عربية، التى تعانى من خســـائر بشرية هائلة من قتلى وجرحى وهجرة ونزوح، وخسائر ماديـــة تتمثـــل فى التخريب الذى لحق بمدن بأكملها ونفقات الحرب وترســـانات الأســـلحة المتناثرة فى أرجائها (والمثل الصارخ هو وجود 21 مليـــون قطعة ســـلاح فى ليبيا التى لا يزيد عدد ســـكانها المقيمين فى ليبيا حاليا عن 5 ملايين نســـمة) والتى اقترب بعضها من الوصول إلى حالة "الدولة الفاشلة". وانعكاس ذلك بداهة على أحوالها المعيشـــية والصحية والاجتماعية. وأصبح الباب مفتوحاً عـــلى مصراعيه للتدخلات الأجنبية الدولية والإقليمية، من كل حدب وصوب، فضلاً عن المليشيات المسلحة بكل تصنيفاتها. ولا يعنى ابتعاد بقية الدول العربية عن مركز الإعصار أنها بمنجاة من آثاره، فقد كانت المخططات المبيتة فى المنطقة تضع تلك الدول فى جدولها الزمنى، تلك المخططـــات التى كانت تهدف إلى تقليـــم المنطقة من أظافرها وأن تمزقها شـــيعاً، حتـــى لا تقوم لها قائمة، وأن تفـــرغ من أى خطورة قد تحيق بالمصالـــح الغربية، لولا الثورة المصريـــة فى 30 يونيو التى كانت بمثابة الســـد أو حائط الصد الذى أوقف سقوط أحجار الدومينو واحداً وراء الآخر على رقعة المنطقة، فمصر تاريخياً هـــى النواة الصلبة فى المنطقة التـــى اعتادت أن يتكسر عليها نصال الأعداء.

الأوضاع الراهنة:

يحدونى الاعتقاد أن الأوضاع بوجه عام قد تحســـنت نســـبياً منذ ذلك الحين، دون أن أدعى أنها تحسنت كثيراً، وأن مصر كانت من وراء كل هذا التحســـن، أو كانت لها أدوار مباشرة فى كل مظاهره، ولكنها من ناحية أخـــرى بعثت أجواء إيجابية ساعدت على هذا التحسن الطفيف فى الموقف، ومظاهره كما يلى:

- تغـــير المناخ الـــدولى مع وصول الإدارة الأمريكية الجديدة واتســـاع الحـــوار العربى والـــروسى معها، بمـــا يزيد من فـــرص الوصول إلى تفاهمات قد تســـاعد على التوافق

الاوضاع المتأزمة فى بعض الدول العربية

على حلول وسط للأزمات الدموية فى المنطقة، وإن كانت هناك نقاط تدعو إلى القلق من بينها تزايد الدعم الأمريكى للأكراد عموماً، وهم فى العراق يمهدون للانفصال فى إطار الاستفتاء يوم 25/9/2017 الذى أعلن بصورة انفرادية من الجانب الكردي. وقيام الجيش الأمريكى بتوجيه ضربات صاروخية ضد وحدات من الجيش السورى مستنداً إلى أسباب غير مقنعة.

- زيادة الوعى بخطورة الإرهاب، فلم تتوان مصر عن التحذير من أنه ظاهرة عالمية تمتد مخاطره إلى الجميع، وهو ما تأكد لمختلف العواصم، وخاصة الغربية بعد موجة العمليات الإرهابية التى حدثت فيها، بما يدفعهم إلى اتخاذ مواقف أكثر جدية وقوة، وكانت الجماعات الإرهابية تجد فى بعض العواصم الأوروبية ملاذاً ومأوى وقاعدة للانطلاق.

- الضربات القاصمة التى تلقتها داعش، وتقلص المساحات التى تسيطر عليها، فقد أمكن طردها من أكثر من 55 ألف كيلومتر مربع فى سوريا والعراق، ولم يتبق لها سوى جيب ضئيل فى القسم الغربى من مدينة الموصل فى العراق، وجزء من مدينة الرقة التى تحاصرها قوات سوريا الديمقراطية ذات الأغلبية الكردية المدعومة أمريكياً، وهذا لا يمنع من تناثر ذئاب منفردة منهم هنا وهناك للقيام بعمليات الغرض منها إعلان عن الوجود وتخفيف الضغط عنهم على جبهات القتال.

- كشف الموقف القطرى وفضح دوره فى دعم الإرهاب وتمويله، وقطع العلاقات الدبلوماسية معه، ومحاصرته من قبل الدول الخليجية الثلاث ومصر أرضاً وجواً، فلا شك أن هذا الإجراء يشكل ضربة قوية للإرهاب، ولن يخفف من ذلك الإجراء استعانة قطر بكل من إيران وتركيا، بل على العكس من ذلك سوف يزيد من الطين بلة، فاستعانتها بإيران يزيد من غضب دول الخليج التى ترى فى إيران عدوها الأول، كما أن هذه الخطوة لن تكون مقبولة بأى حال لدى الولايات المتحدة. وهذه الأزمة قد تبدو الآن فى أوجها إلا أننى أرجح أن تضطر قطر إلى التراجع متخلية عن دعمها السافر والكبير للإرهاب. وأن تغير من التوجهات السلبية لقناة الجزيرة التى كانت المحطة الإعلامية الرئيسية لتأليب وتمزيق المجتمعات العربية، والتى كانت تجاهر بالدعوة إلى قلب الأنظمة العربية.

- تواصل المساعى لإيجاد تسوية سلمية لأزمات المنطقة، وبمشاركة من الأمم المتحدة ممثلة فى مبعوثيها الدوليين، وإن اختلفت عن بعضها البعض نتيجة لاختلاف أطرافها المحلية والقوى الخارجية والمراحل التى قطعتها على صعيد الأوضاع العسكرية الميدانية أو المساعى السلمية، فالتهدئة فى سوريا مثلا أصبحت مطلباً مستديماً، ونجاح الجيش السورى فى أن يستعيد المزيد من الأراضى، إلى الدرجة التى نجح فيها للوصول إلى الحدود العراقية، ولا شك أن هذا يعود إلى الدعم الروسى والإيرانى، وصمود النظام السورى طوال السنوات الماضية والذى يستحق كل التنويه.

- الدخول الروسى إلى حلبة الصراع فى سوريا إيذاناً بالمشاركة فى القرار الدولى فيما يتعلق بسوريا على الأقل فى الوقت الراهن، وتوليها الجهود الدولية بصفة رئيسية (آستانة / جنيف) بمشاركة المبعوث الدولى لإيجاد حل سلمى للأزمة.

- التحرك النسبى الذى حدث فى القضية الفلسطينية، فهى حجر الزاوية فى عملية السلام، وجوهر النزاع فى المنطقة، وأحد الأسباب الرئيسية للتوتر. تواريت خلال السنوات التى شهدت انشغال الدول العربية بهمومها الذاتية فى مواجهة

قفزة إلى مستقبل أرحب للمنطقة العربية

الاضطرابات والقلاقل الناجمة عما سمى بالربيع العربى. ويعود الفضل للرئيس السيسى فى استرعاء الاهتمام بهذه القضية ووضعها من جديد على الأجندة الدولية رغم كل المناورات الإسرائيلية التى استهدفت المماطلة إلى أن تتمم ابتلاعها للأراضى الفلسطينية، وتجرى المشاورات حالياً حول مباحثات بين إسرائيل والفلسطينيين بإشراف أمريكى. ومن جانب آخر تناور حركة حماس بالادعاء بتغير موقفها المعرقل لعملية السلام من خلال إصدار وثيقة ما زالت محلاً للجدل.

استشراف المستقبل:

- إذا كانت معطيات الموقف فى المنطقة فى الماضى والحاضر تعتمد على الممارسات الوصفية والسردية ثم التقويمية لواقع ملموس ومحسوس، فإن استشراف مستقبلها على أسس علمية يفترض أن تستند على المبادىء والقواعد التى جرى إرساؤها فى الدراسات المستقبلية خلال العقود الماضية، واختيار النموذج الأفضل للدراسة، وتحديد المدى الزمنى لها. ليس المقصود بهذه الدراسة مجرد الترف الفكرى، وإنما هى محاولة للتعرف على ملامح المستقبل، أو السيناريوهات المتوقعة منه، لوضع الخطط البعيدة المدى لتجنب أو تخفيف الأضرار المتوقعة من جانب، وتعظيم الاستفادة من الإيجابيات المحتملة من جانب آخر. وليس المقصود بأى حال اتباع النموذج البديهى فى الدراسة والذى هو أشبه بالعصف الفكرى، والذى يعتمد على

ضرورة تحريك القضية الفلسطينية

الخبرة العملية الذاتية ولكنه يفتقر وجود قاعدة كبيرة من البيانات الضرورية للتعرف على وجه الدقة على نتائج التفاعلات للأحداث المهمة بكل مدلولاتها التى تؤثر بالضرورة على وقائع المستقبل.

- وبصورة مبدئية فإن محددات ومعالم الطريق إلى المستقبل فى المنطقة يتمثل فيما يلى:

* انكشاف قوى الشر فى المنطقة (قطر/ تركيا / إيران / إسرائيل) وفى خارجها (بريطانيا / الولايات المتحدة نسبياً) بما يضعف من تأثيرها.
* انحسار نسبى لموجة الإرهاب، وتزايد القوى المضادة له والتوجه نحو تجفيف منابعه وموارده.
* اهتزاز وضع الأحادية القطبية ومشاركة قوى جديدة بصورة أو أخرى فى القرار الدولى.
* نجاح الدولة الوطنية فى الحفاظ على كيانها حتى الآن، مع استمرار المخاطر التى تعمل على تفتيتها.
* ضعف المنظمات الإقليمية والدولية عن القيام بمهامها لمواجهة الأزمات الدامية فى المنطقة.
*الأوضاع الإنسانية المأساوية من لجوء ونزوح وهجرة غير شرعية وتردى الأوضاع المعيشية.
* انخفاض موارد المنطقة وتدفقاتها المالية نتيجة لانخفاض موارد البترول ونقص السياحة واستنزاف موارد المنطقة.

- وقد يمكن الاستناد إلى الخطوط العريضة للنهج المصرى كدليل للعمل المشترك فى المستقبل، والذى يتمثل فى الآتى:

* وحدة الأراضى والسلامة الإقليمية لدول المنطقة، وبمفهوم المخالفة فمصر ضد التفتيت والتقسيم.
* الحفاظ على مؤسسات الدولة ووحدتها، وفى مقدمتها القوات العسكرية والأمنية باعتبارها العمود الفقرى للكيان الوطنى.
* احترام مبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية للآخرين، ومن ثم رفض التدخل الخارجى فى شئوننا.
* التركيز على التنمية على مختلف المحاور مع اختزال زمن الإنجاز لتعويض ما فات الوطن من بناء.
* مواصلة بناء القوات المسلحة باعتبارها الدرع الواقى لمصر من أية تدخلات خارجية والقادر على الدفاع عنها.
* محاربة الإرهاب لقطع دابره وتجفيف منابعه وتنبيه العالم إلى مخاطره ومشاركة العالم فى مواجهته.
* التوازن فى علاقاتنا الخارجية، والتحرك فى إطار المصالح المشتركة - وتجنب إقامة علاقات على حساب علاقاتنا مع آخرين.
* تسوية المشكلات والأزمات من خلال الحوار وبالطرق السلمية.
* دعم منظمة الأمم المتحدة والقواعد التى ارتضتها الأمم فى الحفاظ على السلم والأمن الدوليين.

الوضع الدبلوماسى الحالى فى القدس

تتمتع مدينة القدس بقداسة لدى الأديان الثلاثة الإسلام والمسيحية واليهودية.

سفير محمود كريم

بالنسبة للمسلمين «المسجد الأقصى - مسجد قبة الصخرة - أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى الرسول محمد عليه السلام». والمسيحيين «كنيسة القيامة» والتى أقامتها الملكة هيلانة فى المكان الذى وجد فيه الصليب المقدس الذى صلب عليه السيد المسيح «عليه وعلى نبينا السلام» تبعًا للعقيدة المسيحية، وادعاءً يهدف بأن مكان ساحته أو باحة المسجد الأقصى هى المكان الذى أقيم فيه الهيكلان المقدسان اللذان خربا ولم يبق منهما إلا الحائط الغربى أو حائط المبكى الذى يبكون عليه لفقدان الهيكلين المقدسين «تبعًا للعقيدة اليهودية» وهو حائط البراق الذى ربط فيه رسولنا عليه السلام دابته التى أقلته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى لذلك فإنها على مدار التاريخ كانت هدفًا للغزو الصليبى والسيطرة العثمانية وسيطرة صلاح الدين واستلام عمر بن الخطاب لمفاتيح المدينة - بدون قتال - من البطريرك جعفرانيدس وكتابته العهدة العمرية التى تحفظ للمسيحيين حقوقهم ولاتزال مفاتيح كنيسة القيامة حتى اليوم تعطى لأسرة نسيبة المسلمة لتبيت عندها بعد صلاة «العشية» ويتسلمها منهم الرهبان فجر اليوم التالى تبعًا للستاتيس كو «STATIS QUE'» الذى أصدره السلطان العثمانى لمنع اقتتال الطوائف المسيحية المختلفة فيما بينها على حيازة المفاتيح وأجزاء من كنيسة القيامة، لذلك كانت مقرًا للبعوث الدبلوماسية وفى العهد العثمانى، وفى عهد الاحتلال البريطانى فإنه كانت هناك القنصليات العاملة، والتى استمر عملها بعد قيام دولة إسرائيل وكلها فى القدس الشرقية التى احتفظت بها الأردن مع الضفة الغربية عقب حرب 1948، وهذه القنصليات العاملة لليوم هى:

1- الكرسى الرسولى «الفاتيكان». 2- الولايات المتحدة الأمريكية. 3- فرنسا. 4- بلجيكا. 5- تركيا. 6- اليونان. 7- إسبانيا. 8- بلجيكا. 9- وكان لمصر قنصلية أغلقت عند حرب 1948. كان فيها المرحوم القنصل العام أحمد الملا والقنصل «السفير المرحوم نصرت نعيم» واللذان لم يغادرا مكان عملهما حتى آخر لحظة ووقعا فى الأسر الإسرائيلى لعدة شهور فى أحد فصول الكفاح الدبلوماسى التى لم يلق عليها الضوء الكافى للتضحيات إلى أن سلمهما الصليب الأحمر لمصر.

وهذه القنصليات مستقلة فى عملها ولا تخضع لسفراء بلادها فى تل أبيب بل تختص بالعلاقة بين بلادها والسلطة الفلسطينية.

وليس لبلاد هذه القنصليات مكاتب تمثيل فى أى مكان فى الضفة الغربية سواء فى رام الله أو أريحا أو غزة.. باعتبار أن التمثيل القنصلى أقوى وأكثر أثرًا وأهمية من مكاتب التمثيل وربما تطالب مصر بإعادة فتح قنصليتها فى القدس والتى تشغل مكانها حاليًا القنصلية الفرنسية.

وقد أقامت كل من السلفادور ونيكاراجوا سفارة لبلديهما فى القدس وقطعت مصر علاقتها بالسلفادور ولها تمثيل غير مقيم يشمل نيكاراجوا.

إلا أن هاتين السفارتين بعد أن مكثتا حوالى عشر سنوات وحدهما فى القدس «الغربية» عادتا أدراجهما إلى تل أبيب ولا يوجد حاليًا أي سفارة لأى بلد سواء فى القدس الشرقية أو الغربية باستثناء سفارة واحدة لدولة جنوب السودان وللولايات المتحدة مكان للقنصلية فى القدس الغربية ستزال يافطتها. ويوضع يافطة السفارة خلال فترة رئاسة الرئيس الأمريكى الحالى ترامب بعد قرار مجلس الكونجرس فى عام 1995 والذى فيه بند يتيح تأخير الرئيس كل ستة أشهر لتنفيذ هذا القرار «وهو بالمناسبة من غير قرار جاستا الذى رفضه الرئيس السابق أوباما داعين لمجلس الكونجرس ثم اقراره.

هذه هى العاصمة التى لم يعترف بها الأمريكان ورفضت المحاكم الأمريكية أن تكتب مكان الميلاد القدسى «إسرائيل» لم تفرط فيها السلطة الفلسطينية ولا اتفاق أوسلو عندما قسم المواضيع المختلف عليها إلى مواضيع سهلة الوصول إليها وهى إقامة سلطة فلسطينية مدنية ومواضيع شائكة لم يتم حلها وأرجأت إلى مباحثات الحل النهائي التى لم تجر منها سوى جلسة مراسمية واحدة وهذه المواضيع ما عرف بقضايا الحل الدائم - القدس - الأمن - المستوطنات - الحدود واللاجئين.. وأضيف إليها المياه.

ترامب وجولته الشرق أوسطية

استبق الرئيس الأمريكى دونالد ترامب جولته الشرق أوسطية فى الفترة من 20ـ 23مايو 2017وفور توليه مهام منصبه فى يناير 2017، بسلسلة من اللقاءات فى البيت الأبيض بواشنطن مع قيادات دول إقليمية ذات وزن وتأثير على مجريات الأمور وتطورات الأحداث والقضايا الساخنة بمنطقة الشرق الأوسط، من أبرزهم مصر والأردن وتركيا والسعودية، للتعرف على ما لديهم من رؤى وأفكار بصدد هذه الأحداث وتلك القضايا وسبل التوصل إلى تسويات بشأنها.

وقد توجه فى أعقاب تلك الجولة التى شملت كلاً من السعودية وإسرائيل إلى الفاتيكان حيث المقر البابوى للكنيسة الكاثوليكية، لينتقل منه إلى العاصمة البلجيكية بروكسل حيث مقر الاتحاد الأوروبى، وليعقبها بلقاء قمة للدول الصناعية السبع فى سيشيل بإيطاليا. وهى أمور فى مجملها تؤكد على أن الجولة لم تأت من فراغ وإنما تم الإعداد لها بشكل جيد فى إطار رؤية إستراتيجية مستحدثة تتمحور بالدرجة الأولى حول إنشاء تحالف شرق أوسطى / أمريكى أوروبى بمباركة دينية إسلامية مسيحية، لمواجهة إيران والمنظمات الإرهابية والمتطرفة، تأسيساً على وارتباطاً بما طرحه من رؤى وأفكار ضمن برنامجه الانتخابى، والذى اتضح أنه تمسك ببعض منه، وأسقط أو أرجأ على الأرجح بعضاً آخر لمرحلة تالية.

واقع الأمر، أن رؤية ترامب تنطلق من كونه رجل أعمال ناجح، يتخذ من الربح والخسارة معياراً لتقييم إنجازاته ربطاً بالمصالح الأمريكية الإستراتيجية، وذلك فى إطار

سفير د. صلاح حليمة

salah_halima@hotmail.com

اعتماده على « الشعبوية «، التى جاءت به إلى سدة الحكم، ومن هنا يجئ على سبيل المثال لا الحصر توجهه بتحميل الأطراف الأصيلة فى أية قضية مسئولية أعبائها، فى اتساق مع دعم أمريكى لهم فى هذا الصدد، وهو القائل أيضاً بأنه على الدول الإسلامية المبادرة بالتصدى للإرهاب والمنظمات المتطرفة.

وفى التقدير، وتأسيساً على ما تقدم فقد جاء ترامب إلى الشرق الأوسط، واتجه منه إلى أوروبا، برؤية إستراتيجية جاهزة للتطبيق تضع على سلم أولوياتها، قاسماً مشتركاً أعظم لعدو مشترك تجتمع عليه دول المنطقة ـ يتمثل فى كل من إيران، من حيث سعيها لامتلاك القوة، وبسط النفوذ، وفرض الهيمنة، فى منطقة الشرق الأوسط، والحيلولة دون إتاحة الفرصة لامتلاكها للسلاح النووى، مثلما يتمثل فى التصدى للإرهاب والتطرف الذى يحظى بدعم إيرانى (ومن جانب دول ومنظمات أخرى). وهذه الرؤية من شأنها أن تضع دول المنطقة، وخاصة العربية، فى قارب واحد مع إسرائيل، وفى مواجهة عدو مشترك لهم وللولايات المتحدة هو إيران وتوابعها، والمنظمات الإرهابية (الإسلامية) المتطرفة، وعلى نحو قد يدفع فى تقديره لتقارب عربى إسرائيلى قد يعزز من فرص تسوية القضية الفلسطينية. وهو الأمر الذى تجسد بوضوح فى تصريح نتنياهو الذى صدر عقب تلك الجولة، بأنه يأمل فى تقارب إسرائيلى «سنى» مع دول الخليج.

لقد جاء ترامب إلى المنطقة ليؤكد على دفع التنامى والتعاظم للتحالف الأمنى الجيوإستراتيجى فى محور يضم كلاً من السعودية كقيادة لذلك التحالف ومعها دول الخليج ودول عربية وأخرى إسلامية (وهو تحالف سنى)

بدعم أمريكى، فى مواجهة محور إيرانى سورى بجانب حزب الله (وهو تحالف شيعى) بدعم من روسيا وتعاطف من الصين، وهو المحور الذى يتبنى تدخلات فى الشئون الداخلية لدول فى المنطقة، بأجندات طائفية تشجع وتثير بالضرورة نزعات دينية وعرقية قديمة ومستحدثة تلتقى مع مخططات دولية، ربما فى اتساق مع دول إقليمية، من أبرزها إسرائيل التى تسعى للحصول على اعتراف بها ، كدولة يهودية. تلك الأجندات والمخططات التى تدفع فى الاتجاه نحو تقسيم وتفتيت دول بالمنطقة لتنتفى معه وحدتها وسلامتها الإقليمية، لتخرج منها كيانات مستحدثة فى إطار دويلات تغير من شكل وخريطة المنطقة ومنظمتها الإقليمية.

لقد انتقى ترامب لجولته، كلاً من السعودية ودول الخليج، والدول الإسلامية ليعقد قمماً ثلاثاً فى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية فى مغزى سياسى عميق واضح الدلالة، من منطلق أن الأولى تتولى قيادة التحالف العربى الإسلامى/السنى، والثانية داعمة للسعودية وحليف أصيل لها فى إطار مجلس التعاون الخليجى، والثالثة دول إسلامية تنبذ التطرف وتدينه وعلى استعداد لمحاربته، إن لم يكن البعض منها فى حرب قائمة بالفعل معه، هذا فضلاً عن أن المصالح الأمريكية فى المنطقة ـ طبقاً لرؤية ترامب ـ تستوجب لحمايتها والمحافظة عليها تحركاً أمريكياً نشطاً وفاعلاً من شأنه إحداث تغيير جذرى فى موازين القوى بين الأطراف الرئيسية فى الصراع الدائر بين المحور السنى بقيادة السعودية ، والمحور الشيعى بقيادة إيران.

واقع الأمر، إن حجم الصفقات التى أبرمت مع السعودية غير مسبوقة وجاءت مبهرة ـ حوالى 380 مليار دولار ـ من حيث الحجم، والقيمة والتنوع، فقد اشتملت قيمتها فى القطاع العسكرى على ما يقرب من أكثر من ثلث إجمالى الصفقة وبأسلحة متقدمة (110 مليارات دولار)، وإلى حد أن وزير الطاقة الإسرائيلى صرح بأن تلك الصفقة تثير قلق إسرائيل، وتم تخصيص باقى الصفقة فى استثمارات تنموية فى مجالات عديدة من شأنها - من خلال توطين الصناعات القائمة وإنشاء صناعات جديدة- إحداث تغير جذرى فى الهيكل الاقتصادى للدولة، وقد تم إسناد جزء كبير منها لشركات أمريكية كبرى ذات شهرة دولية واسعة. هذا فضلاً عن افتتاح مركز الاعتدال لمكافحة الإرهاب والتطرف فى الرياض وتخصيص مبلغ 150 مليون دولار لأنشطته.

مجمل القول، إن أبرز ما يستشف من قراءة ما انتهت إليه زيارة ترامب إلى السعودية فى إطار الرؤية

الإستراتيجية المشار إليها، هو دعم السعودية على نحو غير مسبوق بما يضعها فى مصاف القوى الإقليمية الأكثر قوة عسكرياً، واقتصاديا، وبقدرة فاعلة فى مواجهة التحديات الخطيرة التى تمر بها المنطقة، مع تحملها الأعباء المادية التى ستوفر لها هذه المكانة وتستوجبها تلك التحديات. وفى المقابل ستلتهم الولايات المتحدة الثمن الذى ستدفعه السعودية فى هذا الصدد والذى سيتمثل فى مبيعات الأسلحة والمعدات، والتطوير والتحديث فى القطاع العسكرى، وكذا فى دفع عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية (فى إطار برنامج الأمم المتحدة للتنمية المستدامة 2015 / 2030)، وفى ارتباط بما ستوفره الإدارة الأمريكية من دعم فى المجالات المستهدفة للنهوض بها.

هذا وفى اتصال برؤيته الإستراتيجية المشار إليها، جاء دور الدول الإسلامية ليجسد التحالف بين دول المحور الأول فى تحالف سياسى عسكرى إسلامى إستراتيجى (قد يحتوى العربى فى داخله)، ليجئ الحديث عن إنشاء قوة عسكرية قوامها 34 ألف جندى من دول إسلامية على غرار تلك التى فى حلف شمال الأطلسى، للتصدى لقوى الإرهاب فى سوريا والعراق واليمن ولبنان، ولتحجيم إيران التى تغذى الصراعات الطائفية وتوفر الأسلحة والمعدات العسكرية للإرهابيين والمليشيات المتطرفة، فضلاً عن مخاطر برنامجها النووى وما قد يكون لديها أو قد تمتلكه من صواريخ باليستية.

وهكذا فقد انتهت جولة ترامب بالشرق الأوسط بعد القمم الثلاث التى عقدت بالرياض وزيارته لإسرائيل، بما يشبه التوافق على إنشاء تحالف إستراتيجى شرق أوسطى، فى مواجهة إيران والمنظمات الإرهابية والمتطرفة. ولتأمين هذا الإنجاز، فقد خلصت مباحثاته بشأن القضية الفلسطينية إلى إرجاء ـ على الأرجح ـ تقرير إنفاذ وعده الانتخابى بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس من عدمه، سواء كان ذلك اقتناعاً بمخاطر مثل هذا القرار وما يفرزه من تداعيات سياسية وأمنية فى المنطقة، أو تجنبا لتصدع إنجاز إنشاء التحالف الإستراتيجى الشرق أوسطى، مثلما تجنب إثارة الرؤية العربية الفلسطينية القائلة بحل الدولتين، وإن بدا ميله نحو الأخذ برؤية إسرائيل القائلة بإدارة الصراع وليس تسوية الصراع، حيث أكد على أهمية استئناف المفاوضات بين الجانبين وتواصلها دون التطرق إلى مواقف تتعلق بالقضايا الجوهرية محل الخلاف.

لقد جاءت كلمة الرئيس السيسى فى القمة الإسلامية والتى جسدت رؤية مصر لسبل التصدى، سواء للأطماع الإيرانية وتدخلات إيران فى الشئون الداخلية لدول بالمنطقة، سواء لسبل التصدى للإرهاب والمنظمات المتطرفة، جاءت تلك الكلمة شاملة جامعة، وكانت بمثابة البوصلة التى أرشدت المجتمعين فى الرياض لتحديد خريطة الطريق لمواجهة هذه التحديات فى الأطر العسكرية والسياسية والاجتماعية والفكرية والدينية. ولعل أبرز تداعيات تلك الرؤية أنها كشفت المستور عن دول عربية وغيرعربية بالمنطقة تدعم الإرهاب والمنظمات المتطرفة من حيث التمويل والتدريب وتوفير الملاذ الآمن لعناصرهم.

هذا ويستشف من زيارته

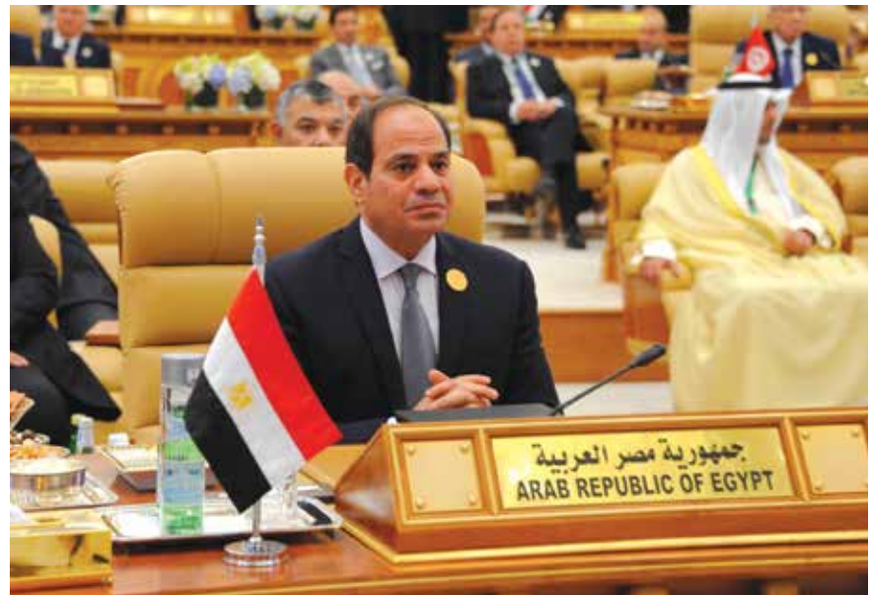

للفاتيكان، أنه ارتأى وقد خاطب جموع المسلمين فى الرياض، أن يخاطب جموع المسيحيين من الفاتيكان، ليحظى بتوافق بينهم على مباركة توجهاته بصدد التصدى للإرهاب والمنظمات المتطرفة، وممارسات إيران فى زعزعة الأمن والاستقرار بمنطقة الشرق الأوسط. هذا وبيقينه بمباركة جموع اليهود ـ خاصة عبر إسرائيل ـ لتلك التوجهات، فقد اكتملت فى تقديره المباركة الثلاثية من الأديان الثلاثة.

لقد جاءت لقاءاته فى إطار الاتحاد الأوروبى ربطاً بحلف الناتو، ليس فى تطابق وإنما فقط فى اتساق ـ من حيث المبدأ ـ مع إنجاز التحالف الإستراتيجى الشرق أوسطى بصدد إيران ومكافحة الإرهاب، بل أبقى الاتحاد الأوروبى على الوفاء بموقفه من حيث الالتزام بتنفيذ الاتفاق النووى مع إيران، مثلما عزف حلف الأطلسى عن المشاركة فى التحالف الإستراتيجى فى إطار عسكرى، أى المشاركة فى عمليات عسكرية فى مواجهة التنظيمات الإرهابية وإنما فقط توفير التدريب والخبرة والدعم اللوجيستى، فى الوقت الذى بدا أن هناك خلافات بين ترامب وقادة الدول الصناعية السبع حول قضايا تغير المناخ.

وفى التقدير، فإن جولة ترامب عبر القمم الثلاث قد أكدت بصدد التصدى للتوجهات الإيرانية، وأنشطة المنظمات الإرهابية والمتطرفة على أولوية الأخذ بالخيار العسكرى، عبر التحالف الإستراتيجى الشرق أوسطى الأمريكى الأوروبى.

وفى التقدير أيضاً أن الأخذ بالخيار العسكرى يعنى على الأرجح إطالة أمد الصراع بين طرفى المعادلة إلى أن يثوب المحور الإيرانى إلى رشده، سواء تحت ضغوط العمليات العسكرية لقوى التحالف، بجانب الضغوط السياسية والاقتصادية التى يتعرض لها، أو إدراكه مبكراً أن الحكمة السياسية تستوجب التخلى عن توجهاته وأطماعه بدول المنطقة، والعدول عن سياساته التى تثير الصراعات المذهبية والدينية والعرقية. ولعل ما قد يتعين طرحه هنا هو أهمية إدراك الدول العربية والأفريقية المتشاطئة على البحر الأحمر فى ارتباط بمنظمتيهما الأم ـ الجامعة العربية والاتحاد الأفريقى ـ التفاكر حول إنشاء منظمة للأمن فى البحر الأحمر، على ضوء ما يشهده من تنامى عدد القواعد العسكرية الثابتة والمتحركة بدول متشاطئة عليه، وما تشهده دول أخرى تطل عليه من حروب أهلية وتدخلات إقليمية ودولية، فضلاً عن أنشطة للمنظمات الإرهابية وأعمال القرصنة والتجارة بالبشر وتهريب المخدرات، ومعاناة النازحين واللاجئين فى العديد من تلك الدول.

هذا وقد يكون من المفيد أن يتناول مركز الاعتدال المزمع إنشاؤه بالرياض، وكذا المؤسسات الدينية العريقة مثل الأزهر الشريف، البعد المذهبى كأحد عناصر الصراع الدائر فى المنطقة والمتصل بالإرهاب، وذلك فى ارتباط بما ورد فى خطاب الرئيس السيسى حول ضرورة تجديد الخطاب الدينى بشقيه السنى والشيعى، وفى اتصال بتناول قضية التقريب بين المذهبين، خاصة وأنه يمكن فى هذا الصدد إحياء نشاط لجنة التقريب بين المذاهب التى أنشئت فى الثمانينات وأحرزت قدراً من التقدم ولكنها توقفت عن ممارسة المهام القائمة عليها لأسباب سياسية.

فى تفسير السياسة الخارجية الأمريكية

كان متفقـــاً عليه أن أكتـــب حول الأزمة الليبية، ولكن المشـــهد المتناقض فى السياسة الأمريكية تجاه قطر والمنطقة، أو على الأقل ما يبدو كذلك دفعنى لمحاولة المشاركة فى تفسير هذه الظاهرة.

أولاً: بعض الوقائع

لا يمكن لأحد ألا يلاحظ غرابة وعدم منطقيـــة ردود الفعـــل الأمريكية بشـــأن قطر بصرف النظر عن أى تبريرات رســـمية أمريكيـــة بهذا الصدد، وبصرف النظر عما ستسير عليـــه الأمور بهذه الأزمـــة قبل أو بعد نشر هذا المقـــال، ففى البداية جـــاءت تويترات الرئيـــس ترامب التى قال فيهـــا إن الإجراءات التى اتخذتهـــا بعض الـــدول ضد قطر هى ثمرة زيارته للمنطقة، ثم جاء تصريحه الذى تجاوز فيه ما سبق إلى الإقرار الصريح بدور قطر الممول للإرهاب، وليس مجرد ما سمعه من بعض القادة الذين شاركوا فى قمة الرياض، ولكنه أفســـد هذا بعرض وســـاطة بين الطرفين، وجاءت بعد ذلـــك تصريحات وزيـــر خارجيته تيلرســـون المثيرة للدهشة عن قلقه من حصار قطر معترفاً بأنها كانت تمول الإرهاب ولكن هذا تحســـن بعض الشئ .

هذا الموقف الملتبس والمستهين بعقول وذاكرة الآخرين، لا يجب أن ينسينا بعـــض الأبعاد الأخـــرى المعروفة، وأبرزها الدور الأمريكى فى إنشـــاء تنظيـــم القاعدة كأداة للتخلص من الخصم السوفيتى، ثم تغيرت طبيعة المواجهة بعد انتهاء وهزيمة الخصم، ثم تحـــول الأمر تمامـــاً بأحداث الحادى عشر من ســـبتمبر وحرب

سفير د. محمد بدرالدين زايد

mbzayed8@hotmail.com

واشنطن فى أفغانستان - وافترض البعض لوقت قصير أن واشـــنطن لن تلجأ لهذه الأداة مرة أخرى بعد أن ثبتت خطورتها واكتوت بنارها، ولكن بعد ذلك ظهرت رؤية أخرى تبلورت تدريجيـــاً مفادها أن أهم سبيل للتخلص من التشدد الإسلامى العنيف – وهو المصطلح الذى تبلور مع إدارة أوباما -هو بدعم الإسلام السياسى الســـلمى- أو هكذا أرادوا إيهام أنفســـهم – وكانوا يقصدون تحديـــداً دعم الإخوان المســـلمين للوصـــول إلى الحكـــم، متجاهلين كثيراً من الشـــواهد على علاقة هذا التنظيم بالعنـــف تاريخياً، فإما أن يتمكن هؤلاء من لجم والســـيطرة على الأكثر عنفاً وتشدداً، أو تتبلور المواقـــف فى عالم إســـلامى معاد يســـهل معه تطبيق نظرية صراع الحضارات، ومـــن ثم الدخول معه فى مواجهة شـــاملة تتيح مزيداً من الهيمنة والصدارة الأمريكية. إلا أنه مع الثورة فى سوريا ولجوء أطراف إقليمية وغربية لتسليح المعارضة، لم تتوان واشـــنطن إما عن دعم أو الســـكوت عن دعم بعض الأطراف مـــن حلفائهـــا لهـــذه الجماعات الإســـلامية التى تصفها بالعنيفة، وعندما خرجت هذه الجماعات عن السيطرة، ووجدت ظروفاً ملائمة فى سوريا والعراق وارتكبت ممارسات مخجلـــة للبشرية والحضـــارة، اســـتمعنا إلى تصريحـــات أوباما المســـتهينة أيضاً بالآخرين وبالرأى العام الأمريكى ذاته من أن الحرب ضد داعش ستستغرق عشر سنوات – وهى الفترة الكافية لإعادة ترتيب المنطقة وخرائطها.

ثانياً: بعض المفاهيم

هنا من المفيد أن نســـتحضر بعض المفاهيـــم الســـائدة أو المنتشرة فى دوائـــر البحث العلمى الســـياسى، ربما كان أولهـــا أن نبدأ بتذكر أمر فى تقاليد السياســـة الأمريكية هو أنها لا تتسامح مع انكشاف الكذب والخـــداع داخلياً بينمـــا تنغمس سياستها الخارجية فى درجة عالية من الكذب والمكيافيلية التى لا تعنى الرأى العام الأمريكـــى أو حتى لا يمانع فيهـــا والأمثلة لا حدود لها فى التاريخ الأمريكى أما المثال الداخلى الشهير فنذكره جميعاً فى ووترجيت.. مبدأ المؤسســـية، ينطلق كثير من الباحثـــين والمراقبـــين للسياســـة الأمريكية من الإيمان بوجود درجة

عالية من المؤسسية فى عملية صنع القرار الأمريكى، وأن هذه المؤسسات وعلى رأسها الخارجية والدفاع والعديد من الأجهزة المخابراتية تتولى ضبط وضمان استمرارية القرار السياسى الذى يتخذه المنتخبون من رئيس وهيئة تشريعية، والمثال الشهير الذى يطرح دوما بهذا الصدد تجميد وتأجيل قرار نقل السفارة الأمريكية إلى القدس بشكل دورى إدراكاً بخطورة هذه الخطوة على إدارة السياسة الخارجية الأمريكية ومساحة حركتها.

أما المبدأ الثانى فهو الرشادة، وهو ما يتحقق من وجهة نظر هذه السياسة من بعدين المؤسسية ومن بعد الاستعانة الدائمة بالخبراء والباحثين فى المجالات الاجتماعية المختلفة لضمان ترشيد القرار السياسى بأكبر قدر ممكن - مع الأخذ فى الاعتبار النسبية، وأن هناك شواهد ونماذج لأخطاء التطبيقات النابعة من علماء وباحثين، فبالنهاية إذا كانت الآراء ونظريات العلوم الطبيعية تتم مراجعتها وتصويبها عبر الزمن، فما بالنا باجتهادات الباحثين السياسيين والاجتماعيين الذين مع ذلك تظل إسهاماتهم بشمولها مصدراً مهماً لترشيد القرار السياسى فى واشنطن وبعض الدول الأخرى.

المبدأ الثالث هو التعقد الشديد فى عملية اتخاذ القرار الأمريكى الأمر الذى يعود إلى تعدد المؤسسات المشاركة فى صياغة وطرح الأفكار والبدائل، وأيضا بسبب التعدد والتنوع الشديد فى جماعات الضغط والمصالح التى تؤثر فى مدخلات صنع القرار السياسى الأمريكى.

ثالثاً: فى محاولة التفسير

فى الحقيقة إننى أفترض أن التناقض الذى بدأنا بعض حديثنا فى السياسة الأمريكية تجاه قطر وعدم منطقيتها الواضحة تعود فى جانب مهم منها إلى تناقض فى مواقف المؤسسات الأمريكية المتعددة تجاه قضية التعاطى مع الإسلام السياسى، بمعنى أن هناك جانباً من مسئولى الخارجية والأجهزة الأمريكية لا يرى التضحية بعد بالورقة القطرية التى استخدمت بكفاءة عالية للغاية لأكثر من عقدين من الزمان، وهو رأى سبق لى طرحه فى عدد من المناسبات وخلاصته أن استمرار الظاهرة القطرية مرتبط باستمرار عجز الأطراف الداخلية الأمريكية - التى تريد بحق وقف الإرهاب فى العالم - عن حسم الخلاف لصالحها، ومن ثم ربما يستمر التردد والرسائل المتناقضة حتى يفرض أحد الطرفين وجهة نظره.

أما السبب الثانى، فهو طبيعة الإدارة الأمريكية الراهنة، وما يمثله ترامب من قدر كبير من التعجل والاستخفاف بالآخرين، فى انعكاس متطرف للنمط العنصرى التنافسى الأمريكى - الذى له جذوره منذ نشأة المجتمع الأمريكى على أنقاض قتل وإبادة السكان الأصليين، فى مقابل نمط آخر من هذا المجتمع يمثل قيم الليبرالية والتسامح والتعددية، والمتأمل للتاريخ الأمريكى سيلحظ بوضوح التنافس بين هاتين المجموعتين من القيم، وفى الواقع إن كلاً من الرئيس الأمريكى ووزير خارجيته لا يعبران عن مجموعة القيم الليبرالية، وكلاهما يحمل قدراً متفاوتاً من الاستخفاف بالآخرين، ولا أظن أن هذه التصريحات المتضاربة كانت تعكس خلافا فى وجهات النظر أو لم يحدث تنسيق مسبق بشأنها وإنما كان مقصوداً بها إرباك المشهد من منطلق الاستخفاف بالآخرين.

يبقى أخيراً أن السياسة الأمريكية تملك ترف التناقض والتصرفات الهوجاء وربما حتى الفشل، بينما لا يملك الآخرون نفس القدرة على دفع ثمن الفشل لو كانوا يطبقون نفس النمط من السياسات، ولكن للأسف البعض الذى لا يملك نفس القدرة الأمريكية يفعل ذلك.

الإدارة الأمريكية الجديدة وعملية السلام فى الشرق الأوسط

يبدو من الصعوبة بمكان ونحن نعالج موقف إدارة الرئيس الأمريكى تجاه القضية الفلسطينية أن نضع أيدينا على بلورة واضحة ومتكاملة لموقف الإدارة الجمهورية الجديدة إزاء عملية السلام فى الشرق الأوسط , فالواقع يشير إلى أن الرئيس ترامب لا يزال منشغلاً بمرحلة إستكشاف مواقف الأطراف ولم يصل حتى الآن إلى تلك الرؤية الشاملة التى تسمح ببدء عملية سلام حقيقى بين الجانبين الإسرائيلى والفلسطينى .

وفى نفس الوقت لا يمكن أن يقلل هذا الأمر من التأكيد على الإهتمام الأمريكى المبكر بالقضية من خلال التحركات النشطة التى قام بها المبعوث الأمريكى (جيسون جرينبلات) وزياراته إلى كل من تل أبيب ورام الله من أجل أن يتعرف على طبيعة مواقف الطرفين الرئيسيين من قضايا التسوية، ولا شك أن مثل هذه الزيارات تعد ذات تأثير واضح لأنها إستهدفت بالفعل تجميع أكبر قدر ممكن من الحدود الدنيا والقصوى لمواقف كل طرف قبيل بدء عملية التفاوض التى لم يتفق على توقيت إطلاقها أو شكلها أو ملامحها حتى الآن.

ولذا لم يكن من المستغرب أن نجد الرئيس ترامب خلال عرضه لإنجازات المائة يوم الأولى من حكمه قد تجنب التعرض لأية أمور مرتبطة بعملية السلام بإعتبار أن مرحلة إستكشاف المواقف لازالت جارية، بل أن الإنجاز الوحيد

لواء محمد ابراهيم
عضو المجلس المصرى للشئون الخارجية
mohamedeldewery@yahoo.com

الذى أشار إليه الرئيس الأمريكى بالنسبة للشرق الأوسط تمثل فى عملية ضرب سوريا بصواريخ كروز رداً على حادث (خان شيخون).

ومن الضرورى ونحن نتعرض للموقف الأمريكى من عملية السلام أن نؤكد بعض المحددات الهامة المرتبطة بالسياسة الأمريكية فى المنطقة نوضح أهمها فيما يلى:

* أن منطقة الشرق الأوسط تعد منطقة حيوية وإستراتيجية للولايات المتحدة ومن ثم ستواصل أية إدارة أمريكية التعامل مع المنطقة ومشاكلها وتعقيداتها مع إختلاف بعض أساليب التعامل وتكتيكاتها طبقاً لسياسة كل إدارة دون التأثير على الخطوط الرئيسية الإستراتيجية.
* أن الولايات المتحدة ترتبط بعلاقات وثيقة مع إسرائيل بل يمكن إعتبارها الدولة الوحيدة فى العالم القادرة فى ظروف معينة على أن تمارس بعض الضغوط على إسرائيل ولكن بالطبع دون المساس الحقيقى بأمنها.
* أن الولايات المتحدة تعد شريكاً كاملاً فى عملية السلام فى الشرق ومن الواضح أن وساطتها ودورها الهام الذى قامت به قد حقق إنجازات متعددة بدأت بإتفاقيتى كامب ديفيد وتوقيع معاهدة السلام المصرية/الإسرائيلية فى مارس 1979 ومروراً بإتفاقية أوسلو بين الجانبين الإسرائيلى والفلسطينى عام 1993 وماتلاها من إتفاقيات مكملة وإنتهاء بمعاهدة السلام الأردنية/الإسرائيلية الموقعة بين

الجانبين فى أكتوبر 1994، هذا دون أن نتجاهل الجهود الأمريكية المبذولة طوال سنوات طويلة وحققت بالفعل بعض مظاهر التقدم ولكنها توقفت منذ منتصف 2014 وحتى الآن نظراً للمواقف الإسرائيلية المتشددة التى أعاقت كافة فرص الحل.

* ونأتى إلى أهم المتغيرات الجديدة التى من المفترض أن تؤدى إلى التمهيد العملى والنهائى لدفع عملية السلام وأعنى بهذه المتغيرات أمرين رئيسيين الأمر الأول ويتمثل فى تلك الزيارات التى قام بها قيادات المنطقة لواشنطن ولقائهم كل على حدة مع الرئيس ترامب (الرئيس عبد الفتاح السيسى – العاهل الأردنى – الرئيس أبو مازن – رئيس الوزراء الإسرائيلى) ولعل أهم نتائج هذه الزيارات هو أنها أكدت أن الموقف العربى يجمع بشكل واضح على أن حل الدولتين يعد هو الخيار الإستراتيجى المتفق عليه عربياً وليس أى حل آخر، بالإضافة إلى أن القيادات العربية أكدت أيضاً للرئيس ترامب أن عدم حل القضية الفلسطينية يعد أهم أسباب إستمرار الإرهاب فى المنطقة.

* أما الأمر الثانى فى تلك المتغيرات فهو تلك الزيارة الهامة التى قام بها الرئيس ترامب فى الثانى والثالث من عشرين من شهر مايو إلى كل من إسرائيل ولقائه مع ناتانياهو ثم زيارة مدينة بيت لحم فى الضفة الغربية ولقائه مع الرئيس أبو مازن، ويمكن أن نشير إلى أهم نتائج هذه الزيارة فيما يلى:

* تأكيد الرئيس الأمريكى على عمق العلاقات الإستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل وأن إستمرار وتطوير هذه العلاقة مسألة غير قابلة للنقاش.

* تمسك الرئيس ترامب بضرورة حل القضية الفلسطينية وأن الفرصة لازالت سانحة لتحقيق إنجاز تاريخى فى هذا المجال، وأن واشنطن لن تتخلى عن هذا الدور.

* أن كافة القضايا المرتبطة بالقضية الفلسطينية من المفترض أنها أصبحت واضحة تماماً للإدارة الأمريكية ولم يبق سوى الإعلان عن إطلاق المفاوضات بالرغم من حرص واشنطن حتى الآن على عدم الكشف عن المبادئ العامة التى ستحكم مسار هذه المفاوضات.

ولابد هنا من الإشارة إلى تطور إيجابى ملموس فى سياسة الإدارة الجديدة وهو توقيع الرئيس ترامب على قرار بتأجيل نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس أسوة بما إتبعه الرؤساء الأمريكيون السابقون منذ إتخاذ الكونجرس قرار النقل فى عام 1995، وهو الأمر الذى عكس تفهم إدارة ترامب لخطورة نقل عملية السفارة فى هذا التوقيت بإعتبار أنه سيضع قيوداً على الدور الأمريكى فى عملية السلام، وكذا ما يمكن أن يؤدى إليه من تداعيات سلبية على المصالح الأمريكية فى المنطقة وعلى سياساتها وجهودها فى محاربة الإرهاب.

ولعل بعض المتابعين لهذا الملف المعقد يطرحون مجموعة من الأسئلة المنطقية مطلوب الرد عليها بوضوح وتتركز أهم هذه الأسئلة فى مدى ما حققته زيارة ترامب من نتائج وهل كانت نقطة تحول فى مسار القضية، ثم ما هى ردود فعل إسرائيل وكيف ستتحرك فى المرحلة القادمة التى يعتزم فيها الرئيس ترامب إطلاق العملية التفاوضية برعايته، وهل يمكن أن تبدى إسرائيل مرونة فى مواقفها المتشددة فى ظل حكومتها الحالية الأكثر تطرفاً فى تاريخ الدولة وتتجاوب مع أية مقترحات أمريكية عملية تؤدى لدفع عملية السلام فى الشرق الأوسط ، وماهى طبيعة الموقف الأمريكى فى حالة وضوح مسئولية إسرائيل عن إعاقة حدوث أى تقدم فى المفاوضات.

وحتى لا أسبق الأحداث دعونى أركز هنا على الموقف الإسرائيلى بصفة أساسية نظراً لأننا لم نشهد نتائج التحرك الأمريكى حتى الآن، فالواقع يشير إلى أن إسرائيل أسرعت بنفسها للرد على هذه الإستفسارت بصورة واضحة دون أن تترك للأطراف الأخرى أية فرصة للتفكير فيما يمكن أن يحدث حيث جاءت المواقف

الإدارة الأمريكية الجديدة وعملية السلام

الإسرائيلية التى بلورتها فى أعقاب إنتهاء زيـــارة الرئيـــس ترامب مرتكزة على أربعة مواقف أساسية كما يلى:

* عقد مجلس الوزراء الإسرائيلى فى الثامـــن والعشريـــن من مايو جلســـة خاصة عند حائط البراق (حائط المبكى) وذلك فى سابقة لم تحدث من قبل، ومن الواضح أن هذا الإجتماع كان بمثابة رســـالة إسرائيلية قاطعة بأن هذا الحائط يخضـــع للســـيادة الإسرائيلية. ولايفوتنا أن نذكر هنا أن الرئيس ترامب زار هذا المكان خلال زيارته لإسرائيل ليكون بذلك أول رئيس أمريكى يقـــوم بهذه الزيارة وهو لايزال فى منصبـــه، كما صرحت المندوبة الأمريكية فى الأمم المتحدة بأن هذا المكان يقع تحت السيادة الإسرائيلية ولـــم تكتف بذلك بل قامت هى أيضاً بزيارته فى السابع من شهر يونيو 2017.

* تأكيد رئيس الوزراء الإسرائيلى أن بلاده لن تتنـــازل عن بعض المناطق الحيوية فى الضفة الغربية (خاصة منطقة غـــور الأردن) فى ظل أية تسوية سياسية مرتقبة.

* إعادة تأكيـــد ناتانياهو على أن القدس ســـتظل العاصمة الأبدية والموحدة للدولة ولن يعاد تقسيمها مرة أخرى، وأنه يتعين على الجانب الفلسطينى الإعتراف بيهودية دولة إسرائيل.

* مواصلـــة إسرائيل سياســـاتها الإستيطانية وخاصة فى القدس بوتيرة متسارعة عن أية مراحل سابقة.

إذن نحن أمام ثلاثة مواقف تبدو متعارضة بشـــكل كبـــير، أولها موقـــف أمريكى يدعـــو لتحقيق إنجاز تاريخى فى هـــذه القضية دون أن يمتلك القدرة على تنفيذه حيث أن الشـــواهد لا تمنحنا ما يمكن أن نســـتند عليه للقول بأن واشـــنطن ســـوف تضغط على إسرائيل لتعديل مواقفها، وثانيها موقف فلسطينى يفضل بأن يمنح الفرصة لواشنطن للتحرك ولكنه لا يمتلك أية عنـــاصر قوة مؤثرة ويطـــرح رؤى للحـــل يرفضها الطـــرف الآخر كاملـــة، وثالثها موقف إسرائيـــلى واضح يتجه إلى مزيد من التشدد ولا يعبأ إلا بدعم سياساته على الأرض مهما كانت النتائج مستفيداً بضعف الموقف العربى فى هذه المرحلة.

* ولعـــلى فى النهايـــة لابد لى أن أطرح ســـؤالاً آخر أكثـــر أهمية لإرتباطه بمستقبل عملية السلام وهو إذا كان الموقـــف على النحو السابق لا يشير إلى إمكانية حدوث أى تقـــدم فى الجهود السياســـية فكيـــف إذن ســـتكون طبيعـــة التحرك العربى والفلســـطينى فى مواجهة هذا التعنـــت الإسرائيلى الواضح , وفى رأيـــى أن الجانب العربى المهموم بمشاكله الإقليمية لا يملك ســـوى إعادة التأكيد على مسألة حل الدولتين وتقديم الدعم الممكن للجانب الفلسطينى , ولكن العبء الأكبر هنا يقع على الجانب الفلســـطينى الذى يجب عليه أن يتحرك بشـــكل سريع بل ومنفرد حتى يستفيق الجانب العربى من مشاكله .

* ومن ثـــم يتطلب الأمر أن يتجه الفلسطينيون إلى قبول إستئناف المفاوضات مـــع إسرائيل فى أقرب وقـــت ممكن وبرعايـــة أمريكية أمـــلاً فى أن تخلق هذه المفاوضات قوة دفع وضغـــوط حقيقية على إسرائيل وكذا وضع واشنطن أمام مســـئولياتها وأعتقد أن هذا هو الخيار الوحيد العملى المتاح حالياً , ويظل الحديث عن البدائل الأخرى (يمتلك الفلســـطينيون بعضها) وارداً بـــل وجوبياً فى حالة وصول هذه المفاوضات إلى طريق مسدود وبعد أن نكون قد منحنا الفرصة كاملة لخيار التفاوض ونصل إلى قناعة بفشله تماماً , مع العلم بأن إسرائيل لا تغير مواقفها إلا تحت وطأة الضغوط الحقيقية المؤثرة .

شكوك حول التزام واشنطن بأمن أوروبا

لاشك أن العلاقات الأمريكية الأوروبية تمر بأسوأ مراحلها. وقد وضح ذلك خلال قمة منظمة حلف شمال الأطلنطى الأخيرة التى عقدت فى 25 مايو فى بروكسل وقمة الدول الصناعية السبع فى 26 و27 مايو 2017 فى تاورمينا بجزيرة صقلية فى إيطاليا والتى شارك فيهما لأول مرة الرئيس الأمريكى دونالد ترامب. وكانت القمتان مناسبتين لاستجلاء السياسة الأمريكية الجديدة تجاه الدول الأوروبية خاصة فيما يتعلق بقضايا الدفاع والتزام الولايات المتحدة بأمن حلفائها الأوروبيين.

وقد جاءت مواقف ترامب خلال القمتين مؤكدة لمخاوف الدول الأوروبية بشأن رغبة واشنطن فى التراجع بل والتنصل من مواقفها السابقة والتزاماتها التعاقدية المنصوص عليها فى ميثاق حلف شمال الأطلنطى بشأن ضمان أمن أوروبا ضد التهديدات الخارجية المحتملة، خاصة من جانب روسيا.

ولا ريب أن أبرز تلك المواقف تمثل فى امتناع الرئيس ترامب خلال قمة حلف الأطلنطى، رغم المحاولات الأوروبية المتكررة، عن إعادة تأكيد التزام الولايات المتحدة بالمادة الخامسة من ميثاق الحلف والتى تنص على الالتزام بـ"الدفاع المتبادل" فى حالة تعرض أحد أطراف الحلف لتهديدات خارجية. وهو ما فسر بأنه رغبة أمريكية فى التراجع عن التزامات سابقة بأمن أوروبا ووسيلة ضغط على الحلفاء الأوروبيين لحثهم على زيادة مخصصاتهم الدفاعية. وتلك هى المرة الأولى منذ الحرب العالمية الثانية التى تسعى فيها الولايات المتحدة للتنصل من التزامها السياسى والتعاقدى بأمن حلفائها الأوروبيين.

د. هشام مراد
أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة
mouradh890@gmail.com

وكان ترامب قد انتقد علنا قادة أوروبا وأعلن صراحة خلال القمة أن الولايات المتحدة تتحمل العبء الأكبر فى الدفاع عن أمن الدول الأوروبية وأن ذلك "غير منصف لدافعى الضرائب الأمريكيين"، مطالباً الحلفاء الغربيين بتحمل نصيب أكبر من عبء ميزانية الدفاع داخل الحلف. والواقع أن رغبة ترامب فى خفض مساهمات الولايات المتحدة المالية فى تحالفاتها الدفاعية الخارجية، وخاصة حلف الأطلنطى، قد تزامنت مع قراره بزيادة مخصصات وزارة الدفاع والتسليح الأمريكى بنسبة كبيرة تبلغ 10%، وهو ما فسر كذلك بأنه نكوص عن التزامات واشنطن التعاقدية والسياسية السابقة.

وقد حدت تلك المواقف بالمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، فى سابقة هى الأولى من نوعها، إلى أن تطالب الدول الأوروبية بعدم الاعتماد على الولايات المتحدة مستقبلا وبأن تتولى أمورها بنفسها فيما يتعلق بقضايا الأمن والدفاع الجماعى، حتى لا تظل رهينة لمشيئة أى رئيس أمريكى قد يقرر دون سابق إنذار التراجع عن الالتزامات التقليدية لبلاده تجاه أوروبا. وكانت ميركل قد طالبت ترامب عقب انتخابه فى نوفمبر الماضى بالالتزام بمسئولياته تجاه العالم وبضرورة حماية القيم المشتركة مع أوروبا. إن تصريحات ميركل هى دعوة للدول الأوروبية لكى تأخذ زمام أمور الدفاع عن أمنها بقدر أكبر من الجدية وأن تخصص لها الإمكانيات المادية والمالية اللازمة وأن تعمل على وضع الخطط الضرورية لرسم استراتيجية دفاعية تحقق لها قدرا أكبر من الاستقلالية فى قضايا الأمن والدفاع. إلا أن ذلك لا يعنى أن المستشارة الألمانية قد أغلقت الباب أمام التعاون مع الولايات المتحدة مستقبلا فهى تعلم تماما أن الحفاظ على أمن أوروبا مرتبط بشدة بالقدرات الدفاعية للولايات المتحدة وأن الدول الأوروبية غير قادرة فى الوقت الراهن على حماية أمنها ضد التهديدات الخارجية الخطيرة دون مساعدة الولايات المتحدة.

تراجع القدرات العسكرية لأوروبا

والواقع أن موقف ترامب تجاه أمن أوروبا، وإن كان ينبع من رغبته فى إعطاء الأولوية المطلقة لشئون بلاده تنفيذا لشعاره الانتخابى "أمريكا أولا"، قد نبه دول أوروبا، خاصة الكبرى منها مثل ألمانيا وفرنسا،

شكوك حول التزام واشنطن بأمن أوروبا

لضرورة تدارك تراجع قدراتها الدفاعية والعسكرية بدرجة كبيرة على كافة الأصعدة خلال الأعوام الماضية. فمن ناحية التسليح، تقهقرت قدرات الدول الأوروبية خلال السنوات العشر الماضية لمستويات غير مسبوقة، حيث انخفض عدد طائرات الهليكوبتر الهجومية بنسبة 52% والطائرات المقاتلة 30%والفرقاطات والمدمرات 15%والغواصات النووية 16%والغواصات التقليدية 22% كما تراجع عدد أفراد الجيوش الأوروبية بنسبة 23% خلال نفس الفترة بما يوازى 451 ألف عسكرى، حيث انخفض الجيش الألمانى بنسبة 108)37) % آلاف عسكرى) والبريطانى 30% (46 ألف عسكرى) والفرنسى 20% (52 ألف عسكرى) والبولندى 30% (42 ألف عسكرى) والواقع أن الدول الكبرى الأخرى تتجه أيضاً لخفض عدد قواتها المسلحة، لكن معدل الانخفاض فى الجيوش الأوروبية يبلغ ضعف مثيله فى الولايات المتحدة وروسيا وستة أضعاف نسبته فى الصين.

ويعكس ما سبق عدم التزام الدول الأوروبية بنسبة 2% من الناتج المحلى الإجمالى التى أوصى حلف شمال الأطلنطى بتخصيصها لأغراض الدفاع. فالدول الأوروبية الأعضاء فى الحلف تخصص مجتمعة سنويا 1.2% من الناتج المحلى الإجمالى للنفقات العسكرية، وهو ما يقل كثيرا عما تخصصه الولايات المتحدة (3.3%) وروسيا (3.7%). وإذا كانت الصين لا تخصص سوى 1.3% من ناتجها المحلى لأغراض الدفاع، فإنها زادت ميزانيتها العسكرية أربعة أضعاف خلال السنوات العشر الماضية . ولكى تلتزم أوروبا بتوصية حلف الأطلنطى، فإن عليها أن تزيد ميزانياتها العسكرية بنحو 98 مليار يورو سنويا. وإذا كانت ألمانيا قد زادت ميزانيتها العسكرية بنحو 2.2 مليار يورو هذا العام بإجمالى 41 ملياراً، فإنها تحتاج لزيادتها بمعدل 26 مليار يورو أخرى حتى تلتزم بتوصية حلف الأطلنطى.

إن اتجاه الدول الكبرى لخفض ميزانياتها الدفاعية بدأ مع انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتى فى ديسمبر 1991. وكانت الدول الأوروبية هى الأكثر إسراعاً فى تنفيذه اعتقاداً منها أن عصرا جديدا من السلام قد بدأ، يكلله انتصار النظام الليبرالى الغربى على النظام الشيوعى الذى كان سائدا فى الكتلة الشرقية. لكن ظهور تحديات أمنية جديدة مع بداية الألفية الثانية، من أهمها الإرهاب، وما مثلته عودة روسيا على الساحة الدولية فى ظل حكم الرئيس فلاديمير بوتين من إحياء للتنافس مع الغرب، جعلت دول أوروبا تعيد النظر فى أولوياتها الدفاعية وتسعى للاهتمام من جديد بتقوية قواتها المسلحة. ولاشك أن تداعيات أزمة ضم روسيا لشبه جزيرة القرم فى أوكرانيا فى 2014 مازالت حاضرة فى أذهان قادة أوروبا، كأحد الأدلة على التحديات الأمنية الجديدة التى تواجه القارة العجوز.

وبالإضافة لتراجع التزام ترامب بأمن أوروبا، فإن هناك أسباباً أخرى زادت من التباعد بين الولايات المتحدة والقوى الأوروبية الكبرى، وفى مقدمتها ألمانيا أكبر اقتصادات أوروبا. فالرئيس ترامب ما انفك يهاجم السياسات التجارية لبرلين، واصفاً إياها بأنها تضر بالاقتصاد الأمريكى. كما أنه قرر فى أول يونيو الانسحاب من معاهدة باريس للمناخ رغم محاولات الدول الأوروبية الكبرى إثناءه عن ذلك خلال قمة الدول الصناعية السبع. والواقع أن قادة أوروبا كانوا يأملون أن يتبنى ترامب بعد توليه السلطة فى يناير 2017 مواقف أكثر اعتدالاً من تلك التى أعلن عنها خلال حملته الانتخابية، تأخذ فى اعتبارها المواقف التقليدية لحلف الأطلنطى ومجموعة الدول الصناعية السبع. لكن خابت آمالهم وزادت مواقف ترامب المعلنة من التراشق الإعلامى مع قادة أوروبا. وكنتيجة منطقية لذلك التباعد الأوروبى الأمريكى، انهارت ثقة المواطنين الألمان فى الولايات المتحدة فى ظل حكم ترامب، حيث جاءت الولايات المتحدة لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، وفقاً لأحدث استطلاعات الرأى، فى المركز التالى مباشرة بعد روسيا من حيث إمكانية الوثوق بها.

ولا ريب أن قرار بريطانيا فى يونيو 2016 الانسحاب من الاتحاد الأوروبى زاد من قناعة قادة أوروبا المؤيدين لتقوية البناء الأوروبى، مثل ميركل، بضرورة العمل على دعم القدرات الدفاعية للاتحاد الأوروبى وبناء هيكل وآليات أمنية ودفاعية أوروبية موازية لتلك القائمة فى ظل حلف الأطلنطى. فقد أيقنت المستشارة الألمانية أن تنصل واشنطن من التزاماتها الأطلنطية وانسحاب بريطانيا من الاتحاد الأوروبى يعنيان فعليا أنه لم يعد فى الإمكان الاعتماد عليهما بصورة موثوقة إزاء التحديات الأمنية التى قد تنشأ فى المستقبل. ومن ثم وجب، وفقاً لها، ضرورة العمل على بناء قدرات عسكرية مستقلة لأوروبا تساعدها على مواجهة التهديدات الأمنية. وقد مثل فوز إيمانويل ماكرون برئاسة فرنسا فى مايو الماضى فرصة ذهبية لميركل لوضع مشروعها الدفاعى والأمنى الأوروبى موضع التنفيذ. فالرئيس الفرنسى الجديد هو أحد المنادين بضرورة تقوية الاتحاد الأوروبى فى كافة المجالات بما فى ذلك المجال الدفاعى. ومن المتفق عليه أنه بعد انسحاب بريطانيا، لا يمكن دعم وتطوير البناء الأوروبى دون المساهمة الفعالة لكل من ألمانيا وفرنسا، وهما أكبر اقتصادين فى الاتحاد الأوروبى. لكن الطريق نحو بناء هيكل دفاعى أوروبى مستقل لن يكون مفروشاً بالورود. فليس هناك اتفاق بين الثنائى الألمانى الفرنسى حول ماهية هذا البناء وقواعد عمله وتدخله فى النزاعات وأليات التنسيق مع حلف الأطلنطى. كما أن على هذا الثنائى المؤمن بضرورة تطوير قدرات دفاعية أوروبية مستقلة أن يتغلب على المقاومة المتوقعة من أعضاء آخرين فى الاتحاد الأوروبى، مثل بولندا والمجر، غير المقتنعين بجدوى المشروع أو بفاعلية العمل خارج منظومة حلف الأطلنطى والقيادة العسكرية الأمريكية. وللتغلب على تلك الممانعة المتوقعة، تقترح برلين وباريس إقامة تعاون دفاعى بين من يرغب أو من لديه الاستعداد والقناعة بجدوى الدفاع الأوروبى المشترك، على شاكلة العديد من المشروعات الأوروبية المشتركة القائمة بالفعل، مثل العملة الموحدة اليورو. ولاشك أن اختلاف مصالح الدول الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى سيشكل عقبة أمام التوصل لمواقف موحدة بشأن إقامة هيكل دفاعى أوروبى مستقل. كما أن سياسات التقشف التى تنتهجها حالياً الدول الأوروبية ستفرض قيوداً مهمة على زيادة ميزانيات الدفاع التى تتطلبها برامج تطوير التسليح والتدريب المشترك ودمج القوات المسلحة داخل إطار أوروبى موحد.

هل نحن أمام شكل جديد للعولمة؟

جاء انتخاب دولاند ترامب فى الولايات المتحدة والذى رفع شعار "أمريكا أولا" وتبنى خطابا اصطلح على تسـميته بأنـه "قومى اقتصادى"، إيذانا ببـدء عهد جديد فى العلاقات الدولية وخاصة فيما يتعلق منها بالتجارة والاقتصاد. وكان أول مرسـوم يوقع عليه ترامب يتعلق بانسحاب بلاده من اتفاق التجارة الحرة مع شركاء أمريكا فى آسيا المعروف باسم "اتفاق الشراكة التجارية عبر المحيط الهادى".

ولم يكتف ترامب بذلك وواصل تهديداته الخاصة بالعمل على إنهاء اتفاق التجارة الحرة لدول شمال أمريكا (النافتا) مع كل من كندا والمكسيك، فضلا عن العديد من المواقف والتصريحات الأخرى التى تشى بنوايا الإدارة الأمريكية الحالية وكان آخرها إعلانه الانسحاب من اتفاقية باريس للمناخ. وهكذا نرى الولايات المتحدة تتراجع عن مواقفها السابقة التى تزعمتها والداعية إلى تحرير التجارة العالمية طيلة عقدى الثمانينات والتسعينات من القرن الماضى فى أثناء مفاوضات جولة أوروجواى لتحرير التجارة العالمية، والدعوة إلى تجنب الدول فرض سياسات حمائية داخلية لحماية منتجاتها والتى تتعارض مع مبدأ حرية التجارة. وقد أكدت جميع هذه الخطوات والإجراءات ما ذهب إليه البعض من شكوك وهواجس بقرب انتهاء عصر العولمة كما نعرفها حالياً وبداية عصر جديد لم تتضح معالمه بعد.

ويشير أصحاب هذا الرأى للعديد من الشواهد الأخرى للتدليل على صحة رؤيتهم هذه وعدم اقتصار ما يحدث على ما يجرى داخل الولايات المتحدة فقط، فيتم الإشارة إلى ما تشهده حركة التجارة العالمية من تباطؤ فى السنوات الأخيرة. إذ يشير

سفير د. علاء الحديدي

alaaelhadidi@yahoo.com

هؤلاء إلى ما كانت معدلات التجارة الدولية تشهده من نمو فى العقدين السابقين على الأزمة المالية العالمية عام 2008، والتى كانت ضعف معدل نمو الاقتصاد العالمى، فى حين تساوى حركة التجارة الدولية معدل النمو فى الاقتصاد العالمى خلال السنوات العشر الأخيرة. بمعنى أوضح أنه إذا كان معدل النمو فى الاقتصاد حوالى 2٪ فى المتوسط سنوياً طوال العقود الثلاثة الماضية، فإن معدل نمو حركة التجارة الدولية كان 4٪ فى العقدين السابقين على الأزمة المالية العالمية عام 2008، لينخفض بعدها إلى 2٪ فقط، وهو ما يعادل متوسط نمو الاقتصاد العالمى.. ولا يقتصر الأمر على ذلك، يضاف لما سبق ما تشهده الساحة الأوروبية من نمو للحركات الشعبوية والقومية المتطرفة وشيوع نظريات "القومية الاقتصادية" باعتبارها إيذاناً لعصر جديد من الحروب التجارية، ويستشهدون بنتيجة تصويت أغلبية الناخبين فى المملكة المتحدة للخروج من الاتحاد الأوروبى للتدليل على صحة توقعاتهم بشأن مصير الاتحاد الأوروربى ذاته. ولذلك لم يكن من المستغرب أن يكون الموضوع الرئيسى المطروح على جدول أعمال المنتدى الاقتصادى العالمى فى دافوس بسويسرا فى شهر يناير العام الحالى هو التحديات التى تواجة العولمة ومستقبلها. فما هى أسباب انحسار التأييد لحركة العولمة فى العالم كما رأينا فى الولايات المتحدة وبريطانيا، فضلا عن تصاعد حركات الاحتجاج ضدها فى العديد من الدول الأوروبية الأخرى فيما عرف باسم الحركات الشعبوية التى تنامت مؤخرا.

فى تقديرى أن أحد الأسباب الرئيسية هو الثورة الصناعية الرابعة، والتى تسببت فى العديد من التحولات التى طالت المجتمع والاقتصاد، وكان من أبرزها تهديد التكنولوجيا الحديثة للعمالة الموجودة، وشبح البطالة الذى أصبح يخيم على العديد من القطاعات. إلا أنه وعلى الجانب الآخر، فإن الصين، كقوة اقتصادية صاعدة، بدأت تحل محل الولايات المتحدة فى قيادة العولمة ولكن

بشكل مختلف، وهو ما يمثل تحدياً للعالم الغربى والولايات المتحدة تحديدا التى شكلت حركة العولمة وفقا لمبادئ حرية التجارة وانتقال رؤوس الأموال، وليس من خلال مشاريع البنية التحتية المدعومة من الدولة كما تروج الصين حاليا. إذن نحن بصدد إعادة تشكيل العولمة من جديد، وهو ما أحاول شرحه هنا.

الثورة الصناعية الرابعة

قبل الحديث عن الثورة الصناعية الرابعة، أود أولاً التطرق إلى ما يشهده سوق النفط الدولية من تقلبات حادة فى السنوات الثلاث الأخيرة بالتحديد، وبما يساعد على فهم المقصود من الثورة الصناعية الرابعة وتداعياتها المنتظرة على سوق العمل الدولية ومختلف مناحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية. ببساطة شديدة النفط مثله مثل أى سلعة يخضع لقانون العرض والطلب، فإذا كان العرض أكبر من الطلب انخفض سعر السلعة والعكس صحيح. وما حدث فى سوق النفط لا يخرج عن هذه القاعدة البسيطة، الأمر الذى دفع بسعر برميل النفط إلى الانخفاض الشديد بعد أن كان وصل إلى 115 دولارا فى منتصف عام 2014 ليصل حاليا إلى ما بين 50 إلى 60 دولار للبرميل. والسبب ببساطة شديدة حدوث طفرة كبيرة فى الإنتاج نتيجة للتقدم التكنولوجى الذى حدث فى صناعة النفط الأمريكية مما سمح بإنتاج ما عرف باسم النفط الصخرى باستخدام تقنيات جديدة لا مجال لشرحها هنا. إذن التكنولوجيا الجديدة كانت السبب الرئيسى فى زيادة الإنتاج مما أدى إلى فائض اضطرت معه كبرى شركات النفط الدولية إلى إرجاء استثمارات جديدة بقيمة مائتى مليار دولار من أجل تطوير واستكشاف حقول جديدة، ولنا أن نتخيل تأثير ذلك

تهديد التكنولوجيا الحديثة للعمالة الموحدة

على قيمة الأسهم المتداولة لهذه الشركات فى أسواق المال العالمية، فضلاً عن حجم العمالة التى تم الاستغناء عنها وغيرها وغيرها من الآثار السلبية أدت إلى ما تعانيه صناعة النفط من أزمة لم تخرج منها حتى الآن. وإذا عرفنا أن بعض التقديرات تشير إلى وجود ما يقرب من تريليون برميل من الاحتياطات المؤكدة فى باطن الأرض، فلنا أن نتخيل حجم "التخمة" التى تعانى منها سوق النفط حتى وقت طويل قادم. يزيد الوضع سوءا لما تشهده صناعة النفط من تطوير مستمر فى تكنولوجيا الإنتاج، وكذلك ما دأبت الحكومات والشركات الصناعية الكبرى عليه من جهود حثيثة لترشيد الاستهلاك، مع التوجه فى ذات الوقت نحو أشكال أخرى للطاقة تحت ضغوط جماعات البيئة وتنفيذاً لاتفاقيات دولية للبحث عن طاقة نظيفة تحمى العالم من تبعات الانحباس الحرارى وانبعاث ثانى أكسيد الكربون. هذا بالإضافة إلى البدء فى تطوير وإنتاج السيارة الكهربائية، حيث تشير دراسة لميريل لينش إنه من المقدر أن تشكل السيارات الكهربائية حوالى 20٪ من السيارات المستخدمة فى أوروبا بعد حوالى عشر سنوات من الآن، وهو ما يعنى انخفاض الطلب على وقود السيارات من نفط ومشتقاته وبدء اختفاء محطات البنزين بشكل تدريجى، وتراجع إنتاج السيارات المستهلكة للوقود بشكله الحالى (البنزين) مع كل الصناعات وأشكال العمالة المرتبطة بها، وظهور أشكال وأنماط جديدة تتطلب مهارات جديدة. هذا ما يحدث فى صناعة النفط، وأيضا صناعة السيارات التى تخطط من الآن لمستقبل عماده السيارة الكهربائية. هذه السيارة الكهربائية تعتمد على نوع خاص من البطاريات التى تشكل صناعة جديدة فى حد ذاتها لها مواد أولية تختلف عن المواد الأولية المتعارف عليها الآن، الأمر الذى أثر على سوق المواد الأولية بدوره. وكما نرى فإننا بسبب هذه التحولات التكنولوجية ندخل عصراً جديداً أطلق عليه البعض "الثورة الصناعية الرابعة".

يعود استخدام مصطلح (الثورة الصناعية الرابعة) إلى كلاوس شواب مدير ومؤسس المنتدى الاقتصادى العالمى فى دافوس بسويسرا، الذى نشر مقالا بدورية "فورين أفيرز" الأمريكية الشهيرة بذات العنوان فى ديسمبر 2015، ثم كتاباً بنفس العنوان فى عام 2016. ويذهب شواب إلى أن العالم قد مر بثلاث ثورات صناعية: الأولى كانت فى القرن الثامن عشر وقامت على الفحم والبخار، الثانية فى القرن التاسع عشر وقامت على الكهرباء، الثالثة كانت فى ستينات القرن العشرين وعرفت باسم الثورة الرقمية وكان بطلها جهاز الحاسوب (الكمبيوتر). يرى شواب أن العالم على أعتاب ثورة صناعية رابعة محركها هذه المرة عدد من الاختراعات العلمية، ويضرب عدة أمثلة بالنانو تكنولوجى، والبيوتكنولوجى، والذكاء الصناعى، وإنترنت الأشياء،

والعملات الافتراضية، والبيانات العملاقة، والسيارات ذاتية القيادة، والروبوتات/ الإنسان الآلى، والطابعات ثلاثية الأبعاد على سبيل المثال لا الحصر. وبالتالى تختلف الثورة الصناعية الحالية عن الثورات الثلاثة السابقة فى أنها لا تعتمد أو تقوم على اختراع أو اكتشاف واحد، ولكن على سلسلة من الاختراعات والاكتشافات التى تتضاعف بمتوالية هندسية حتى أن البعض قدر تراكم المعرفة فى العقود الخمسة السابقة (50 عاما) بما يعادل ما تراكم من معرفة فى القرون الخمسة السابقة (500 عام) أو حتى أكثر من ذلك. ويضيف شواب أن انتشار الإنترنت والهواتف الذكية التى أصبحت فى متناول الجميع وبتكلفة معقولة تساهم فى انتشار المعرفة والتكنولوجيا بشكل غير مسبوق. ولعل أبسط مثال على استخدام هذه التكنولوجيا هو التطبيقات المختلفة على الهواتف الذكية بدءاً من مجال المواصلات كأوبر وكريم وغيره، مروراً بالحجز فى المسارح والمطاعم، وأخيراً التسوق وشراء المواد الغذائية والمنزلية دون الحاجة إلى الذهاب للسوبر ماركت والتسوق داخله. فإذا تخيلنا مثلا الإمكانيات التى يوفرها التسوق الإلكترونى وما قد يصاحبه من تطوير سيارات أو طائرات ذاتية القيادة و" درونز" لتوصيل الطلبات إلى المنازل، فضلاً عن إمكانية استغلال تطور الواقع الافتراضى لإنشاء خبرة تسوق شبه واقعية من المنازل، فإن كل ذلك سيكون له تأثير على تراجع عدد وحجم مراكز وأسواق التسوق التجارية كما نعرفها الآن.

إذن من المنتظر أن يشهد المجتمع العديد من المتغيرات الهيكلية فى تركيبته وتكوينه نتيجة هذه الثورة الصناعية الرابعة، سواء كان ذلك فى خلق وظائف جديدة والقضاء على وظائف موجودة، حيث تحل السيارات ذاتية القيادة محل السائقين، والدرونز محل عمال توصيل الطلبات، والروبوتات/ الإنسان الآلى محل العمال.

وقد شاهدت بنفسى لمحة من هذا الواقع الجديد أثناء وجودى فى رومانيا عندما قمت بزيارة مصنع داشيا للسيارات مع مجموعة من السفراء المعتمدين فى بوخارست منذ حوالى عام، والتى كانت فخر الصناعة الرومانية فى عهد تشاوشيسكو وأحد القلاع الصناعية للقطاع العام قبل خصخصتها وتمليكها لشركة بيجو الفرنسية. وقد شرح لنا مدير المصنع كيف تم الاستغناء عن حوالى 20٪ من عمال ذلك المصنع بعد استقدام الروبوتات التى كانت أقل كلفة وأكثر إنتاجية من هؤلاء العمال وبالتالى أفضل من الناحية الاقتصادية وأنه من المخطط زيادة أعداد الروبوتات هذه لتحل محل 20٪ أخرى من عمال المصنع خلال السنوات القليلة القادمة.

ومن ناحية أخرى، نشر موقع معهد ماكينزى العالمى التابع لشركة ماكينزى الاستشارية فى مايو 2017 دراسة حول تأثير الروبوتس على الاقتصاد العالمى ذكر فيها أن نصف الاقتصاد العالمى أو ما يعادل 1,2 بليون وظيفة يمكن استبدالها بالروبوتس فى ضوء التكنولوجيا المتاحة، وهو ما يمكن أن يوفر نحو 6,14 تريليون دولار من الأجور. وطبقا لدراسة قام بها الاتحاد الدولى للروبوتات فى عام 2016، فقد كان هناك 600,631,1 إنسان آلى صناعى مع نهاية 2015، ومن المنتظر أن يصل هذا العدد إلى 00,589,2 مع نهاية عام 2019. ويذكر موقع اتحاد صناعات الروبوتس أنه قد تم بيع ما قيمته 9,1بليون دولار من هذه الروبوتات داخل الولايات المتحدة فى عام 2016. هذا، وتعد الصين أكبر سوق للروبوت الصناعى فى العالم حيث تم بيع 100,510 وحدة عام 2015، فى حين تملك اليابان أكبر عدد من الوحدات الصناعية العاملة 829,295 مع نهاية عام 2014. وتعد صناعة السيارات أكبر مستخدم بـ38٪، ثم الصناعات الإلكترونية والكهربائية 25٪، ثم الآلات والمعادن 12٪ و أخيرا البلاستيك والمطاط 7٪.

هذه الثورة الصناعية الرابعة ليست بحاجة إلى المعادن والمواد الأولية المتعارف عليها منذ عصر الثورة الصناعية الأولى، ولكن بحاجة إلى معادن ومواد أولية تواكب احتياجات العصر الجديد الذى نعيش فيه مثل التيتانيوم والكوبالت والجرافيت (الكربون)، وهى المواد التى تستخدم فى صناعات التكنولوجيا الحديثة مثل الهواتف وأجهزة الحاسوب ورقائق الكمبيوتر وغيرها. ولذلك خصص المنتدى الاقتصادى الدولى - المروج الأول للعولمة فى العالم- مؤتمره السنوى فى عام 2015 لموضوع "الثورة الصناعية الرابعة"، ودراسة الانعكاسات المتوقعة له على حركة الاقتصاد والمجتمع فى العالم، كدليل على ما بات هذا الموضوع يحظى به من اهتمام دولى .

هل تقود الصين العولمة؟

من المفارقات التاريخية أن تكون الصين اليوم هى الداعم الرئيسى لسياسة الانفتاح الاقتصادى بين دول العالم وخاصة بعد تراجع الولايات

المتحدة عن لعب هذا الدور تحت إدارة الرئيس الحالى دولاند ترامب. وقد عانت الصين تاريخياً من فرض سياسة الانفتاح الاقتصادى عليها، فيما يمكن وصفه بأنها الإرهاصات الأولى لعصر العولمة كما نعرفه اليوم. وكان ذلك خلال حرب الأفيون الأولى (1839-1842)، ثم حرب الأفيون الثانية (1856-1860) فى منتصف القرن التاسع عشر، والتى قامت خلالها الدول الغربية بإجبار الصين على فتح أسواقها أمام المنتجات والسلع الأوروبية، بما فى ذلك الأفيون، بدعوى تطبيق مبدأ "حرية التجارة"، ومن هنا جاءت التسمية. وكأن الصين اليوم ترد على ما عانته من ظلم تاريخى من قبل الغرب الذى تدخل فى شئونها الداخلية وفرض عليها سياسات بعينها باسم حرية التجارة هذه. ودون الدخول فى عرض لتاريخ الصين الحديث وخاصة السنوات العشر أو العشرين الأخيرة، فإن الصين أصبحت اليوم و بحق "مصنع العالم" كما وصفها البعض، فهى ثانى أكبر اقتصاد فى العالم (10-11 تريليون دولار، 15٪ من الاقتصاد العالمى) ويتنبأ البعض أن تتفوق على الولايات المتحدة الأمريكية (16-17 تريليون دولار) خلال عقود قليلة وتحتل المرتبة الأولى. ومن هنا كثر الحديث مؤخرا عن أن القرن القادم سيكون "القرن الصينى».

حقيقة أن معدل النمو فى الصين قد انخفض فى السنوات الأخيرة إلى 6-7٪ سنويا بعد أن كان فى العقود السابقة أكثر من 10٪ سنويا، ووصل فى بعض السنوات إلى 14٪ خلال عقد الثمانينات، وحقيقة أنه توجد العديد من الأسباب التى تفسر هذا الانخفاض أو التباطؤ، ولكن أحد هذه الأسباب يعود إلى القيادة الصينية التى توصلت إلى

الثورة الصناعية الرابعة

قناعة مؤداها أن استمرار الاقتصاد الصينى فى الاعتماد على سياسة التصدير كالمحرك الأول للاقتصاد لا يمثل ضمانة حقيقية لمستقبل البلاد، وأنه قد آن الأوان للانتقال بالاقتصاد الصينى إلى الاعتماد أساساً على الطلب المحلى كالمحفز الرئيسى للنمو، وهو ما يعنى أيضاً التحول فى جزء كبير منه إلى اقتصاد الخدمات بما يقتضيه ذلك من تحول فى أنماط المعيشة والاستهلاك. لا يعنى هذا انسحاب الصين من الاقتصاد العالمى أو تراجع اهتمامها بالتصدير وفتح أسواق خارجية جديدة لمنتجاتها، ولكن يعنى تغير شكل العلاقة ومضمونها مع العالم الخارجى والاستهلاك المحلى. انعكس ذلك بطبيعة الحال على سوق المواد الأولوية فى العالم، وبعد أن كانت الصين تعد أكبر سوق مستورد للحديد والنحاس والزنك والنيكل، فقد أصبحت تمثل أكبر سوق لاستيراد سلع أخرى مثل الأفلام الأمريكية أو بعض السلع الترفيهية ذات العلامة التجارية الدولية كالأحذية والحقائب التى لا تنتجها الدول النامية أو الاقتصاديات الناشئة. هذا التغيير فى نمط الاستهلاك يعكس المكانة الاقتصادية التى باتت الصين تحتلها، وانتقالها من مجرد مجتمع زراعى فى القرن الماضى إلى مجتمع أكثر تطورا لا يكتفى فقط بإنتاج وتصدير السلع والمنتجات المختلفة، ولكن يسعى إلى تأمين الأسواق الخارجية لمنتجاته وربطها باقتصاده، تماما كما فعلت الدول الاستعمارية الأوروبية فى القرنين 18 و19، ثم بأشكال أكثر تطورا فى القرن العشرين مع ظهور الشركات متعددة الجنسيات فيما وصفه البعض بعصر "الإمبريالية الأمريكية". هذه المرة فإن الصين هى التى تسعى إلى السيطرة على الأسواق العالمية من خلال وسائل ومبادرات متعددة آخرها الإعلان عن الاستعداد لتمويل أو الاستثمار فى مشروعات للبنية التحتية حول العالم بحوالى 128 مليار دولار خلال القمة الأخيرة التى استضافتها بكين فى منتصف شهر مايو الماضى لتدشين مبادرتها المعروفة إعلاميا بمبادرة طريق الحرير الجديد، والتى انتقدتها دول أخرى على رأسها الهند، متهمة الصين صراحة بأنها تهدف إلى إعادة تشكيل السوق العالمية بما يتلاءم مع تأمين مصالحها فقط.

هذا، ومن الجدير بالذكر أنه قد سبق هذه المبادرة الأولى طلب الصين أن تنضم إلى بنك التنمية والتعمير الأوروبى فى عام 2015، حيث ربط بعض المتابعين للشأن الصينى بين هذا الطلب وخطط بكين الطموحة لتوسيع نطاق تجارتها الخارجية فى إطار جهودها لإحياء طريق الحرير القديم وبما يخدم مصالحها. ويضيف هؤلاء أنه من المعروف أن الصين صاحبة ثانى أكبر اقتصاد فى العالم وصاحبة أكبر احتياطى مالى فى العالم (حوالى3 تريليونات دولار)، لا تهدف من انضمامها إلى هذا البنك إلى طلب المساعدات والقروض،

ولكن بغرض التأثير وأن يكون لها صوت مسموع فى تقرير سياسات هذا البنك وقراراته، وبما تستطيع معه توجيه بعض مشاريعه لخدمة هدفها فى إعادة إحياء طريق الحرير القديم.

كما يمكن النظر إلى إعلان الصين فى 2016 عن إنشاء البنك الآسيوى للاستثمار فى البنية التحتية برأسمال مائة مليار دولار والذى انضمت إليه سبعة وخمسون دولة آخرها المملكة المتحدة، فى ذات الإطار. وقد أعربت كل من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان عن تحفظاتهما واعتراضهما، كل لأسبابه، على إنشاء هذا البنك. ويرى بعض المراقبين أنه محاولة صينية لخدمة أهداف السياسة الخارجية الصينية، وهو الأمر الذى ينفيه المسئولون الصينيون، حيث يؤكدون على اعتزام البنك الدخول كشريك مع كل من البنك الدولى وبنك التعمير الآسيوى فى تمويل المشروعات الدولية المختلفة للتدليل على أن البنك الجديد لا يهدف إلى مناوءة البنكين الدوليين الآخرين كما يتخوف البعض. ويرى البعض أن إنشاء البنك الجديد وطلب الانضمام إلى بنك التنمية والتعمير الأوروبى يكشف عن استراتيجية بعيدة المدى ومعلنة للجميع وهو ما سنطلق عليها "طريق الحرير الجديد".

طريق الحرير الجديد

ما هى إذن هذه المبادرة الصينية المعروفة إعلاميا بطريق الحرير الجديد؟ المبادرة تهدف إلى إحياء طريق الحرير القديم الذى كان يربط أسواق الصين القديمة (ومن أهم منتجاتها الحرير ومن هنا التسمية) بأسواق أوروبا والشرق الأوسط. وكان هذا الربط يتم من خلال عدة طرق برية تبدأ من غرب الصين، وتمر عبر وديان وجبال وصحارى آسيا الوسطى، حتى تصل إلى الحدود الشرقية للعالم الإسلامى ومنها بعد ذلك إلى القارة الأوروبية. وقد كانت هذه الرحلة تستغرق سنوات، تقطع خلالها آلاف الكيلومترات على ظهور الجمال. وقد انطلقت الدعوة لإحياء هذا الطريق فى عام 2013 أثناء زيارة للرئيس الصينى شى جين بينج لبعض دول آسيا الوسطى، لتتطور بعد ذلك فى شكلها الحالى باسم "طريق الحرير الجديد: حزام واحد...طريق واحد"، والتى أعلن عنها فى قمة استضافتها بكين فى مايو الماضى حضرها 28 رئيس دولة وحكومة، فضلا عن العشرات من الوزراء والمسئولين من حوالى 65 دولة. وقد أعلنت الصين عن حزمة مساعدات واستثمارات بقيمة 128 مليار دولار لربط المناطق الغربية والجنوبية للصين بالقارات الثلاث القديمة آسيا وأفريقيا وأوروبا من خلال سلسلة من المشاريع فى البنية التحتية لدول المبادرة الـ 65. وقد خصصت الصين لهذا الغرض 40 مليار دولار من خلال صندوق طريق الحرير الجديد، بالإضافة إلى مائة مليار دولار من البنك الآسيوى للاستثمار فى البنية التحتية سالف الذكر. وطبقا لما ذكرته "بى إم آى للأبحاث" فقد تم بالفعل تحديد مشاريع للبنية التحتية بقيمة 35 مليار دولار للبدء فى تنفيذها على الفور. ومن الجدير بالذكر أنه أثناء زيارة الرئيس الصينى لبعض دول الشرق الأوسط العام الماضى فقد أعلن عن تقديم بلاده لقروض واستثمارات بقيمة 55 مليار دولار. وتجدر الإشارة هنا إلى قيام كل من الصين وتركيا بالتوقيع على مذكرة تفاهم حول مشروع طريق الحرير وتعزيز العلاقات التجارية والملاحة البحرية بين الدولتين، إضافة إلى مذكرة تفاهم تتعلق بمبادرة "ممر الوسط"، وذلك أثناء قمة العشرين التى استضافتها تركيا بمدينة أنطاليا الساحلية السياحية على البحر الأبيض المتوسط فى نوفمبر عام 2015، وهو ما ينسجم مع ما لمسته بنفسى خلال فترة عملى سفيراً لدى أنقرة من 2007-2010 من اهتمام الأتراك بتحويل بلادهم إلى معبر برى بين آسيا وأوروبا من خلال إنشاء العديد من الطرق البرية فضلا عن مد خطوط سكك حديدية وربطها بالبلاد المجاورة. ولا شك أن المبادرة الصينية تلتقى مع المبادرة التركية "ممر الوسط" حيث يكملان بعضهما البعض.

وبالمثل فقد وقعت مصر مع الصين مذكرة تفاهم فى يناير 2016 لتعزيز التعاون بين الدولتين لتنفيذ طريق الحرير، فى الوقت الذى أعلنت الحكومة المصرية عن دعمها للمبادرة الصينية التى ستنعكس بلا شك على تعزيز المكانة اللوجيستية لقناة السويس، وقد شاركت مصر بوفد من ثلاثة وزراء فى قمة بكين مع وفد أيضا من هيئة قناة السويس. ومن ناحية أخرى فقد بدأت عدد من الشركات الصينية بدعم من بكين فى ضخ استثمارات فى قطاع النقل والموانئ بإسرائيل لتيسير التجارة بينها وبين آسيا باعتبار إسرائيل تمثل أيضا أحد المواقع الرئيسية التى تعدها الصين كنقطة محورية فى تنفيذ مبادرة طريق الحرير البحرية. وقد فازت شركة "تشاينا هاربور" فى عام 2014 بعقد لبناء ميناء أشدود الجديد والمنتظر الانتهاء منه فى عام 2021، كما حصلت شركة "شنغهاى إنترناشونال" الصينية فى عام 2015 على حق إدارة ميناء حيفا لمدة 25 عاما.

كما تناقلت وسائل الإعلام الدولية مؤخرا تدشين أول رحلة قطار لنقل البضائع من الصين إلى بريطانيا، والعكس. وقد تناولت صحيفة الفاينانشال تايمز البريطانية قبل ذلك العديد من مشروعات الربط بالسكك الحديدية من الصين إلى كل من بولندا وأسبانيا، وكيف تطمع كل منهما أن تكون المحطة الرئيسية لحركة نقل البضائع بين أوروبا والصين عن طريق خطوط السكك الحديدية سواء للموجود منها الآن، أو المزمع إنشاؤه لهذا الغرض تحديدا. ويأتى فى هذا السياق أيضا وصول أول قطار بضائع من الصين إلى طهران بعد أن مر بكل من كازاخستان وتركمانستان، والذى قطع المسافة فى 14يوما بعد أن كان يستغرق نقل البضائع من ميناء شنغهاى بالصين إلى ميناء بندر عباس بإيران حوالى 45 يوما.

يوضح كل ما سبق كيف كانت الصين تعمل على تنفيذ إستراتيجية طويلة المدى بدأت قبل 2013، وما قمة بكين فى مايو الماضى إلا إحدى حلقاتها، والتى تهدف إلى انتقال الصين من مجرد رقم كبير فى حركة التجارة الدولية إلى مركز الثقل الرئيسى فى العلاقات الاقتصادية الدولية. بل إن الرئيس الصينى الذى شارك ولأول مرة فى أعمال المنتدى الاقتصادى الدولى بدافوس هذا العام كان بلا شك النجم الساطع فى هذا المحفل الاقتصادى الدولى المهم، وكان وجوده مؤشرا لاستعداد الصين لتحل محل الولايات المتحدة فى قيادة العولمة فى العالم ولكن طبعا وفقا لرؤيتها وما يتوافق مع مصالحها. وتجدر الإشارة فى هذا الإطار إلى أن الصين سارعت إلى إرسال وفود للدول الـ 11 "الأعضاء فى اتفاق الشراكة التجارية عبر المحيط الهادى" بعد إعلان ترامب الانسحاب منه، لتكوين شراكة اقتصادية وتجارية بديلة برعاية صينية هذه المرة.

إلى أين تتجه العولمة؟

لا شك أنه كان لنتيجة الاستفتاء فى بريطانيا على بقائها داخل الاتحاد الأوروبى وقع الصدمة داخل الاتحاد وخارجه، ثم جاءت الصدمة الثانية بأسرع مما توقع بانتخاب دونالد ترامب فى الولايات المتحدة تحت شعار "أمريكا أولا". وكانت "العولمة" هى المتهم الرئيسى فى نظر البعض فى تفسير عزوف الناخبين فى كلتا الدولتين عن الأنماط التقليدية فى التصويت، وخروج العديد من التحليلات والكتابات التى تشرح ما حدث بأنه ثورة ضد العولمة. ولا شك أن العالم قد تنفس الصعداء بعد انتخاب مرشح الوسط إيمانويل ماكرون وهزيمة مرشحة اليمين المتطرف مارى لوبان فى فرنسا، فضلا عن ما سبق الانتخابات الفرنسية من خسارة اليمين المتطرف فى الانتخابات التى عقدت فى كل من هولندا والنمسا. ولكن أنصار العولمة والاتحاد الأوروبى مازالوا فى انتظار ما ستسفر عنه الانتخابات القادمة فى كل من ألمانيا وإيطاليا. ورغم أن الخطر الداهم من انتصار الحركات الشعبوية قد تراجع، إلا أن ذلك لا يعنى أنه قد انتهى. إذ أن الأسباب التى أدت إلى نمو هذه الحركات مازالت ماثلة فى الأذهان، وبالتالى فالخطر مازال كامنا، فالثورة الصناعية الرابعة مازالت فى بدايتها، وتهدد العديد من الصناعات القائمة التى عليها أن تتواكب مع التغييرات التى تطرأ على وسائل الإنتاج. كما أن هذه التكنولوجيا الجديدة تميز بشدة بين العمالة الماهرة المطلوبة، وبين العمالة غير الماهرة والتى يقل الاحتياج إليها تدريجياً. وهو ما يفسر نقمة وسخط العمال فى الولايات المتحدة وبريطانيا وقيامهم بالتصويت لصالح ترامب وبريكسيت. فهل ينجح ماكرون فى فرنسا وميركل فى ألمانيا فى حل معضلة كيفية التكيف مع نتائج الثورة الصناعية الرابعة؟ هذا ما ستكشف عنه الأيام القادمة، خاصة وأن الأخطار القادمة من الخارج لا تتوقف فقط على تدفق السلع الصينية الرخيصة ومنافستها للسلع الأوروبية أو الأمريكية، وكلنا تابعنا كيف توعد ترامب خلال حملته الانتخابية الصين بفرض مزيد من الجمارك على الواردات الصينية حماية للصناعة الأمريكية من المنافسة الصينية، ولكن الصين ترد بمبادرة دولية تتضاءل أمامها المبادرة الأمريكية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية المعروفة باسم مشروع مارشال. هذه المرة الصين تتحدث عن ربط اقتصاديات 65٪ من سكان المعمورة بها من خلال مبادرة طريق الحرير الجديد كما شرحنا أعلاه، فضلا عن تقدمها لتحل محل الولايات المتحدة فى قيادة العالم فى أى مكان (المحيط الهادى)، أو مجال (اتفاق باريس لتغير المناخ) تنسحب منه واشنطن، فهل نحن بصدد حركة جديدة من العولمة مركزها آسيا وفى القلب منها الصين بعد عقود وقرون من العولمة الغربية وكان فى القلب منها أمريكا؟ لا شك لديّ أن الغرب فى طريقه إلى مزيد من الاضطراب والتقلبات خلال الفترة القادمة بفعل عدة عوامل من أهمها الثورة الصناعية الرابعة، وإلى أن يستقر، فإن الصين ماضية فى خططها وصعودها إلى أن تلتقى المصالح أو تتعارض.

حدود الانفراج فى العلاقات الروسية الأوروبية

مثلت زيارة الرئيس الروسى فلاديمير بوتين لفرنسا فى 29 مايو 2017 تطوراً مهماً على صعيد العلاقات الروسية الأوروبية، فقد نجحت الزيارة فى كسر حاجز التواصل بين القيادتين وإذابة الجليد بين الدولتين، وأعادت إطلاق العلاقات الروسية الفرنسية بعد ما أثير عن محاولات اختراق روسية للانتخابات الفرنسية واستقبال مارين لوبان فى موسكو، وتأجيل زيارة بوتين لفرنسا قبل رحيل هولاند، والمواجهة بين الجانبين بشأن سوريا فى مجلس الأمن. وأكد الرئيس الفرنسى إيمانويل ماكرون فى مؤتمر صحفى مشترك مع الرئيس بوتين، على أن "الأولوية الأولى لنا هى اجتثاث الإرهاب فى سوريا، وإلى جانب عملنا فى إطار التحالف الدولى نريد أن نعزز تحالفنا مع روسيا، وبعد ذلك وفيما يتعلق بالانتقال الديمقراطى نريد الحفاظ على دولة سوريا"، كما أكد ماكرون أن "روسيا لها دور أساسى ولا يمكن بحث القضايا المهمة من دون مشاركتها".

د. نورهان الشيخ

أستاذة العلوم السياسية بجامعة القاهرة

nourhanelsheikh@feps.edu.eg

تزامن ذلك مع تصريح مهم للمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل أكدت فيه أن أوروبا لم يعد بوسعها "الاعتماد كلياً" على الولايات المتحدة وبريطانيا بعد انتخاب دونالد ترامب وتصويت البريطانيين لصالح الخروج من الاتحاد الأوروبي، وأن على أوروبا أن "تناضل من أجل مصيرها"، و"علينا نحن الأوروبيين أن نقرر مصيرنا بأنفسنا". وأوضحت ميركل أنها ترغب فى علاقات ودية مع الدولتين إلى جانب روسيا. الأمر الذى أثار تفاؤلا حول إمكانية انفراج العلاقات الروسية الأوروبية بعد أكثر من ثلاث سنوات عجاف، تراجعت فيها العلاقات إلى أدنى مستوى لها، وأنه يمكن استعادة الدفء فى العلاقات الروسية الأوروبية فى ضوء الروابط العضوية بين روسيا وأوروبا بالنظر لكون روسيا دولة أوروبية وتمثل الأراضى الروسية 40% من مساحة القارة الأوروبية، ويرتبط أمن واستقرار أوروبا بالسياسات الروسية، داخل أوروبا وخارجها كما فى سوريا.

والواقع أنها ليست المرة الأولى التى يلوح انفراج ما فى أفق العلاقات الروسية الأوروبية. فعقب عام عاصف بين الطرفين على خلفية الأزمة الأوكرانية، بدأ عام 2015 بتفاهمات روسية أوروبية انعكست فى التوصل إلى اتفاق مينسك 2 فى 12 فبراير2015، الذى مثل خطة لإحلال السلام فى أوكرانيا، وذلك عقب مفاوضات صعبة بين ما يطلق عليه "رباعية نورماندي" التى تضم رؤساء روسيا وفرنسا وأوكرانيا والمستشارة الألمانية. كما دفعت التطورات التى تلت التدخل الروسى فى سوريا نهاية العام، فى 30 سبتمبر2015، إلى التقارب بين موسكو وأوروبا عامة وفرنسا خاصة، وتعميق التفاهمات والتنسيق المشترك بهدف القضاء على الإرهاب واستعادة الاستقرار فى سوريا من أجل بتر أذرع الإرهاب التى تهدد فرنسا وأوروبا، وإيجاد مخرج لقضية اللاجئين التى أصبحت كابوساً يهدد الوحدة الأوروبية ذاتها. وكانت زيارة الرئيس الفرنسى فرانسوا هولاند لموسكو أواخر نوفمبر 2015 ثم زيارة وزير الدفاع الفرنسى جان إيف لودريان التى أعقبتها لروسيا، واتفاق الطرفين على تبادل المعلومات الاستخباراتية بشأن "داعش" وتنسيق العمليات

فى سوريا مؤشراً قوياً على تقاطع الأهداف والمصالح بين الجانبين.
عزز من هذا التوجه فى حينه، تأكيد وزير الدولة بوزارة الخارجية الألمانية، ماركوس إديرير، أن "منظومتى الأمن لروسيا ولأوروبا لا يمكن إقامتهما منفصلتين عن بعضهما، مشدداً على حاجة الجانبين لحوار يؤدى إلى مستقبل واعد"، وذلك خلال مشاركته فى مؤتمر "العلاقات الألمانية الروسية بعد 25 عاماً من توقيع اتفاقية 4 + 2" الخاصة بتوحيد الألمانيتين فى 25 سبتمبر 2015. كذلك، تأكيد وزيرة الدفاع الإيطالية، روبرتا بينوتي، أن عدم وجود حوار مع روسيا مشكلة فى حد ذاتها، مضيفة أن غياب الحوار مع موسكو بشأن سوريا والقضايا الأخرى، مصدر قلق للدول الأوروبية الأعضاء بحلف شمال الأطلسى (ناتو). وأكد مارجاريتيس سكيناس المتحدث باسم المفوضية الأوروبية على حاجة الاتحاد الأوروبى إلى علاقات شراكة استراتيجية مع روسيا، "وأن للولايات المتحدة مصلحة خاصة بها، أما الاتحاد الأوروبى فيجب أن يكون له مصلحة استراتيجية خاصة به فيما يخص العلاقات مع روسيا، وأكد أن أوروبا بحاجة إلى روسيا كشريك".
هذا فضلاً عن المصالح الاقتصادية المهمة التى تربط موسكو وعدداً من دول الاتحاد الأوروبى وأدت إلى تعالى الأصوات الأوروبية المطالبة بضرورة تحسين العلاقات مع روسيا نتيجة الأضرار التى لحقت باقتصادات هذه الدول

بوتين والرئيس الفرنسى إيمانويل ماكرون

بسبب العقوبات الجوابية التى فرضتها موسكو على أوروبا والتى تضمنت حظر استيراد المواد الغذائية والمنتجات الزراعية من الدول التى انخرطت فى العقوبات ضدها، وقدرتها وزارة التنمية الاقتصادية الروسية بنحو 100 مليار دولار خسائر للاتحاد الأوروبى مقابل ما بين 20 و25 مليار دولار خسائر لروسيا. ويعد القطاع الزراعى اليونانى الأكثر تضرراً نظراً لأن المنتجات الزراعية اليونانية تشكل أكثر من 40% من صادرات اليونان إلى روسيا، وتستأثر الأسماك اليونانية بنحو 35% من السوق الروسية، وتعتبر الأخيرة من أهم أسواق تصريف الفواكه المعلبة فى اليونان كالخوخ والدراق، وتستوعب حوالى 60% من إنتاج الخوخ اليونانى ونصف إنتاج الخوخ الكيوى و90% من إنتاج الفراولة فى اليونان وكلها محاصيل قصيرة العمر لا يمكن تخزينها لفترات طويلة، مما دفع رئيس الوزراء اليونانى إلى زيارة موسكو والبحث عن مخرج لاستئناف العلاقات التجارية معها وتأكيد عدم ارتياحه لموقف الاتحاد الأوروبى من العقوبات ضد روسيا.
كما حذر رئيس غرفة التجارة النمساوية كريستوف لايتل، من تأثر اقتصاد النمسا بالسلب نتيجة العقوبات الاقتصادية التى فرضها الاتحاد الأوروبى على روسيا والعقوبات الروسية المضادة، مركزاً على معاناة قطاع الزراعة وتراجع صادرات النمسا إلى روسيا من المحاصيل الزراعية والمواد الغذائية بواقع 10% وتكبد خسائر مادية أولية بقيمة 500 مليون يورو. وتحتل روسيا المرتبة العاشرة على قائمة أهم الدول تجارياً بالنسبة للنمسا، ويرتبط مصير نحو 55 ألف وظيفة فى النمسا بشكل مباشر أو غير مباشر بحركة التجارة مع روسيا، وتصدر نحو 1200 شركة نمساوية منتجاتها المختلفة إلى السوق الروسية بقيمة تصل إلى 3.5 مليار يورو، كما تستورد النمسا فى المقابل من روسيا بتروولاً

وغازاً طبيعياً بقيمة 3.2 مليار.

ولكن تظل الصعوبات التى تواجه العلاقات الروسية الأوروبية أعقد وأعمق مـــن أن يتم تجاوزها بقمة روســـية فرنســـية أو تصريحات ألمانية. ومازالت الأبعاد الاستراتيجية والأمنية تباعـــد بين الطرفين رغم المصالح المشـــتركة، وتعالى بعض الأصوات الداعية لضرورة التنسيق والتعاون مع روسيا، ويمكن بلورة هـــذه التعقيـــدات فى مجموعتين أساسيتين من التحديات:

أولاهما، استمرار تناقض مواقف الطرفين من الأزمة الأوكرانية رغم اتفاق مينسك. فقد أدت الأخيرة إلى شرخ عميق فى العلاقات الروســـية الأوروبية، بعد أن كانت الأخيرة قد وصلت لمستويات غير مسبوقة من الشراكة والتنســـيق الاستراتيجى. وتجاذبت الاتحاد الأوروبى ضغوط داخليـــة ودولية عـــدة فى علاقته بموسكو، عُلقت على إثرها مشاركة روســـيا فى مجموعـــة الثمانيـــة بعد ضمها شـــبه جزيـــرة القرم الأوكرانية، وعلى مدى عام 2014 فرض الاتحاد الأوروبى والولايات المتحـــدة أربع حـــزم متتالية من العقوبات على روسيا، لم يسبق لها مثيل حتى فى زمن الحرب الباردة، وذلك فى مارس وأبريـــل ويوليو وســـبتمبر 2014، بهدف الضغط عليها لتغيير موقفها من تطورات الأحـــداث فى أوكرانيا خاصة ضم روسيا لشبه جزيرة القرم، ودعمها لمناطـــق شرق أوكرانيا فى مواجهة حلفاء الغرب فى كييف.

المستشارة الألمانية انجيلا ميركل

وقد اســـتهدفت العقوبات ثلاثة قطاعـــات رئيســـية فى الاقتصاد الـــروسى هى الطاقـــة والصناعة العسكرية والقطاع المالي، وشملت مؤسسات عدة فى هذه المجالات منها أكبر ثلاث شركات روسية للتصنيع العســـكري، والـــشركات الكبرى العاملة فى قطـــاع الوقود والطاقة منها "جاز بروم" كبرى الشركات الروسية و"روس نفط" أكبر منتج للنفط فى روسيا، و"نوفاتيك" ثانى أكبر منتج للغـــاز، وجميع البنوك الكبرى التى تزيد فيها حصة الدولة عن 50%. كما طالت رجال أعمال وشخصيات روسية سياسية بارزة تم حظر منحهم تأشـــيرات دخول إلى دول الاتحاد الأوروبي، وتجميد جميع أصولهم المالية وأملاكهم إن وجدت فى دول الاتحاد. وكرد فعل أصدر الرئيـــس الروسى فلاديمير بوتـــين مرســـوماً يتضمن حظر استيراد المنتجات الزراعية والمواد الخام والأغذية من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وكندا والنرويج وأية دولة قـــررت فرض عقوبات ضد هيئات أو شخصيات روسية، والاستعاضة عنها ببدائل من دول آسيا الوسطى وأذربيجان وصربيا ومصر والمغرب وتركيـــا وإيران ودول أمريـــكا اللاتينية، إلى جانب تشجيع المنتجين المحليين فى روسيا للتوســـع فى إنتاج المـــواد التى تم حظر استيرادها.

وما زالت هذه العقوبات ســـارية بحق موسكو، بل وأكدت مجموعة الدول الصناعية الســـبعة الكبرى خلال قمتهـــا الأخـــيرة فى مايو الماضى، استعدادها لفرض عقوبات إضافية على روســـيا، مشيرة إلى "مسئوليتها" فى النزاع الأوكراني، وإلى أن "العقوبات يمكن أن ترفع عندما تنفـــذ روســـيا التزاماتها المرتبطة باتفاقات مينسك للسلام"، وجدد البيان الختامى للقمة تنديده بـ"الضم غير القانونى للقرم". فى الوقت الذى تعتبر فيه موسكو ضم القرم إجراء نهائياً غير قابل للطرح أو المناقشة.

وثانيهما، استمرار التوتر فى علاقة

روسيا بحلف شمال الأطلسى الذى يعتبر الاتحاد الأوروبى ساحة عملياته الأساسية والقوام الرئيسى لعضويته إلى جانب الولايات المتحدة. ورغم إن قادة الحلف ينفون تماماً سعيهم للتصعيد مع روسيا، ويؤكدون أن ما يتخذونه من خطوات هى لضمان أمن حلفائهم فى مواجهة التهديدات الروسية، إلا أن التطورات على الساحة الأوروبية تشير إلى عودة أوروبا، خاصة شرقها، إلى لهيب المواجهة بين الناتو وروسيا. وذلك فى ظل سعى الولايات المتحدة للحفاظ على مكتسبات انتصارها فى الحرب الباردة، وتمديد نفوذها بعد تراجع النفوذ الروسى فى أعقاب تفكك الاتحاد السوفيتى، وعرقلة العودة القوية لموسكو كفاعل دولى وإقليمى لا يمكن تجاوزه أو المساس بدوائر أمنه القومى ومصالحه فى أوروبا، فى وقت تعتبر فيه موسكو نفسها المعنى الأساسى بالأمن والاستقرار الأوروبى باعتبار روسيا جزءاً من أوروبا وامتداداً طبيعياً لها.

فمنذ أبريل من العام الماضى يتخذ الناتو حزمة من الإجراءات تتضمن تعزيز تواجده العسكرى ونشر قواته فى منطقة البلطيق وشرق أوروبا لمواجهة ما يعتبره الحلف "سياسة روسيا العدوانية"، ويواصل الحلف تمدده باتجاه روسيا وتم فى 5 يونيو قبول عضوية جمهورية الجبل الأسود لتكون العضو الـ29 للحلف، رغم أنها دولة صغيرة المساحة (8,13 ألف كم2)، وقدراتها العسكرية محدودة للغاية ولا تضيف للحلف أو ترسانته حيث يبلغ قوام جيشها 2000 فرد فقط، إلا أن تمسك الناتو بانضمامها جاء لاعتبارات استراتيجية نظراً لموقعها المتميز فى قلب منطقة البلقان، وكونها تطل على البحر الأدرياتيكى، أحد أفرع البحر المتوسط، وبانضمامها للحلف يصبح البحر بحيرة للناتو، وذلك بعد أن سبق وانضمت الدول الأخرى ذات الشواطئ الممتدة عليه، وهى كرواتيا وألبانيا، إلى الناتو عام 2009. كما أن انضمامها يستأصل أية نافذة محتملة للنفوذ الروسى فى المنطقة عبر صربيا. ويرحب الحلف بانضمام مقدونيا، وجورجيا وأوكرانيا، فيما تعتبره روسيا تهديداً مباشراً لأمنها القومى، وخرقاً للوثيقة التأسيسية "روسيا – الناتو" التى تم إبرامها فى باريس عام 1997، وتنص على أن لا يقوم الحلف بالدفاع الجماعى عن أعضائه من خلال النشر المستمر لقواته القتالية فى الدول المنضمة حديثاً له.

وفى رد فعل قامت موسكو بتعزيز القوات الروسية على المحور الغربى وتكثيف وجودها العسكرى فى كالينينجراد الروسية التى تمثل جيباً ممتداً فى العمق الأوروبى وفى منطقة البلطيق، من خلال نشر ثلاثة ألوية مجهزة بالكامل فى المنطقة، ومنظومات "إس400-"، وصواريخ باليستية من طراز "اسكندر-م".

إنها حلقة مفرغة من التصعيد يدور فيها الناتو ومعه الاتحاد الأوروبى وروسيا، ويحبس الجميع، داخل أوروبا وخارجها، أنفاسهم مترقبين ما يمكن أن تؤدى إليه هذه الإجراءات التصعيدية من الجانبين، وفى الأذهان سؤال ملح حول مدى إمكانية كسر هذه الحلقة واستعادة الثقة بين الطرفين، ومن أين تأتى الخطوة الأولى فى هذا الصدد.

هل تتكرر مأساة جنوب السودان فى كردستان؟

يبدو أن هلال التقسيم قد حان موعد ظهوره فى سماء الشرق الأوسط، وذلك حسب التوقيت العالمى لنظرية الشرق الأوسط الجديد، متزامنا مع ذكرى مرور ١٠٠ عام على اتفاقية سايكس بيكو التى قسمت الشرق الأوسط. ويبدو العرب على أعتاب تطور حزين يعمق جراحهم ويزيد خلافاتهم. فقد تشهد الشهور القادمة ولادة كيان جديد، وإن شئت فقل ربما كيانات تحمل اسم دول سيتم اقتطاعها من دول عربية فى ظل حديث لا يتوقف عن سيناريوهات تقسيم سوريا وإعلان ما يسمى المجلس الانتقالى الجنوبى لدولة الجنوب باليمن، وأخيرا وليس آخرا إعلان أكراد العراق اختيار يوم 25 سبتمبر القادم لإجراء استفتاء على انفصال الإقليم عن دولة العراق، ولا نعلم على من سيأتى الدور بعد ذلك فى مخطط التقسيم الذى يبدو للمراقبين أنه يسير وفق سيناريو مرسوم بدقة.

محسن عوض الله

mospress2000@gmail.com

لن نتحدث عن سوريا فالوضع هناك بلا ملامح واضحة فى ظل صراع دولى يسعى فيه الجميع لتحقيق مصالحه على حساب سوريا الوطن والمواطن؛ ولا يختلف وضع اليمن الذى كان سعيدا عن سوريا الحزينة.

أما فى بلاد الرافدين، أحدث الدول المرشحة للتقسيم، فأحاديث الانفصال أو الاستقلال كما يسميه الأكراد فى العراق والتى يتردد صداها منذ فترة ليست بالقصيرة داخل الإقليم وخارجه على لسان القيادات الكردية تذكرنا بموقف جنوب السودان التى انفصلت عن الخرطوم عام 2011 وتم الاعتراف الرسمى بها فى التاسع من يوليو من نفس العام بحضور دولى وإعلامى كبير.

سنوات مرت على انفصال جوبا عن الخرطوم وولادة دولة جنوب السودان. من ست سنوات فقط كان الجنوبيون يرقصون فى الشوارع ويشعلون الألعاب النارية احتفالا بدولتهم الجديدة واليوم يتكرر نفس المشهد ولكن بشىء من التعديل فأهالى جنوب السودان مازالوا فى الشوارع ولكنهم لا يرقصون بل يقتلون نتيجة الحرب الأهلية التى ضربت البلاد أو يتقاتلون فى الشوارع للحصول على المعونات الدولية التى قدمتها الأمم المتحدة والدول المجاورة لمواجهة المجاعة التى ضربت البلاد.

تبدلت الألعاب النارية التى تنشر الفرحة بإطلاق نار فى الشوارع ينشر الرعب ويطيح بالأرواح نتيجة الحرب الأهلية بين فرقاء الحركة الشعبية لتحرير السودان الذين وحدتهم خطط الانفصال وفرقتهم صراعات السلطة جنوب السودان، وأصبحت أول دولة تعلن المجاعة منذ ست سنوات فبحسب بيان لحكومة جوبا ومنظمة الأمم المتحدة نشر فى فبراير الماضى فإن مائة ألف شخص يواجهون الموت جوعا، فى حين أصبح أكثر من مليون آخرين على شفا المجاعة، ويعود السبب فى ذلك إلى مجموعة من الأسباب، على رأسها الحرب الأهلية والانهيار الاقتصادى.

جنوب السودان التى تعتبر من الدول الغنية بالموارد الطبيعية حيث يتركز فيها أكثر من 85% من احتياطى البترول قبل التقسيم تعتبر الآن ثانى أعلى درجة على مؤشر الدول الهشة الذى كان يطلق عليه مؤشر الدول الفاشلة، كما صنفتها الأمم المتحدة فى

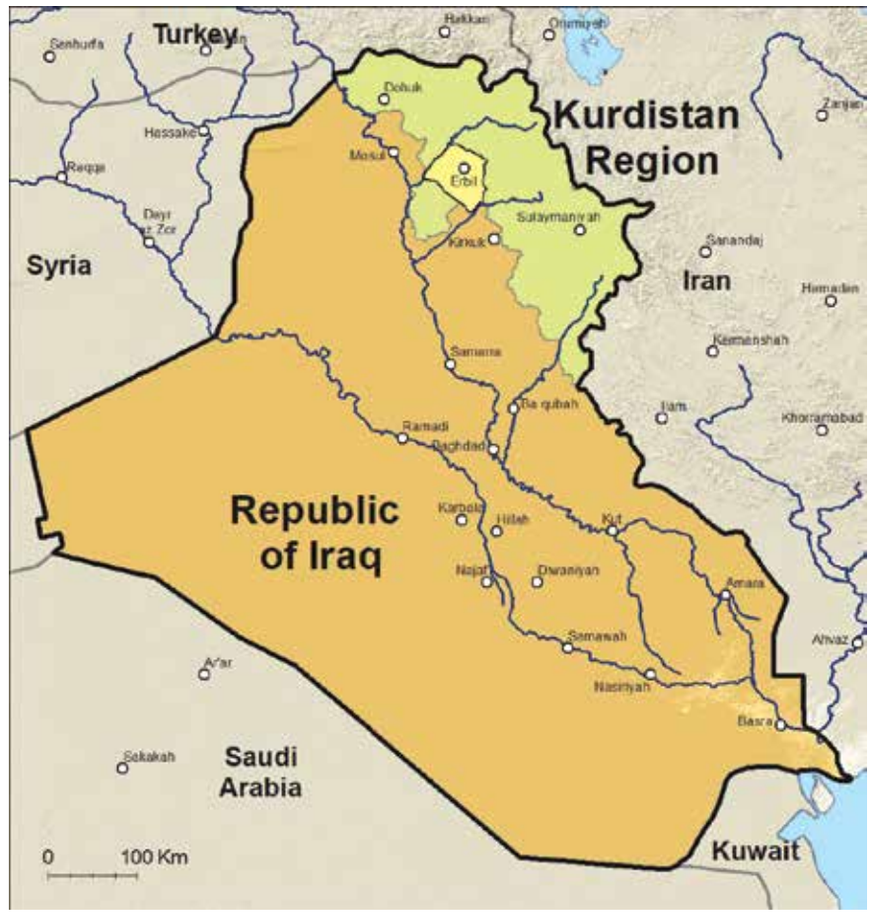

إجراء استفتاء فى كردستان

2012 أى بعد عام واحد من الانفصال من الدول الأقل نموا.

بعد ست سنوات من الانفصال اختفت البهجة بالجنوب وتحولت الفرحة لدموع على ضحايا قتلهم الخلاف السياسى بين الرئيس ونائبه، انتشر الحزن على أطفال يتضورون جوعا من معركة ليس لهم فيها ناقة ولا جمل.

ومن جنوب السودان نطير إلى بلاد الرافدين حيث العراق المكتوب عليه الحزن دوما فقد حددت رئاسة إقليم كردستان الذى يتمتع بحكم ذاتى يوم 25 سبتمبر المقبل لإجراء استفتاء على استقلال الإقليم عن العراق.

الاستفتاء على الانفصال الذى كان سيفا طالما أشهرته القيادات الكردية فى مواجهة حكومة العراق أصبح اليوم واقعا ينتظره الأكراد بفارغ الصبر باعتبار أن الدولة الكردية تعتبر الحلم القومى ليس لأكراد العراق فحسب بل لكل الأكراد حول العالم.

ورغم أن الاستفتاء لا يعنى بالضرورة قيام الدولة الكردية فور ظهور النتائج، وذلك بحسب مصادر كردية خاصة أكدت أن الاستفتاء سيعتبر تفويضاً من أهالى كردستان لرئاسة الإقليم من أجل التفاوض مع حكومة بغداد على خطوات الانفصال وهو الأمر الذى قد يستغرق سنوات نظرا لتعقد الملفات العالقة، وتبعية كثير من المناطق والمدن محل خلاف بين أربيل وبغداد مثل كركوك.

تحديد موعد الاستفتاء الذى جاء مفاجأة للجميع خاصة وأن الحرب على داعش لم تضع أوزارها بعد ومازالت معركة الموصل مستمرة منذ قرابة العام ولا يوجد جدول زمنى لنهايتها وهى المعركة التى توحد القوى العراقية حتى الآن وسط توقعات كبيرة بتفكك هذه الوحدة عقب الخلاص من داعش حيث ستبدأ الصراعات على وراثة دولة الخلافة التى تسيطر على مدينة الموصل الاستراتيجية.

كما أن تحديد موعد الاستفتاء الذى لم يحظ بقبول دولى حيث سارعت دول مثل ألمانيا وتركيا وروسيا وأمريكا بمطالبة القيادات الكردية بمراجعة قرارها وعدم اتخاذ إجراءات منفردة والدخول بدلا من ذلك فى حوار مع حكومة بغداد لحل الخلافات من أجل الحفاظ على وحدة أراضى العراق.

الرفض الألمانى للاستفتاء تحديدا يعتبر صدمة بالنسبة للأكراد خاصة وأن ألمانيا تعتبر شريكا رئيسيا لكردستان العراق حيث قدمت له أسلحة تقدر قيمتها بنحو 90 مليون يورو منذ سبتمبر 2014، كما يتمركز حوالى 130 جندياً ألمانياً فى أربيل لتدريب قوات البيشمركة الكردية.

كما أن واشنطن التى تعتبر الحليف الاستراتيجى للأكراد أعلنت تمسكها بوحدة العراق الديمقراطى الفيدرالى. معتبرة أن إجراء الاستفتاء فى هذا التوقيت يصرف النظر عن الحرب على داعش.

أعلن المتحدث باسم الحكومة العراقية رفض أية خطوة أحادية كردية نحو الاستقلال، كما عبر

هل تتكرر مأساة جنوب السودان فى كردستان؟

تركمان العراق، المكون الثالث فى البلاد، عن غضبهم لقرار الأحزاب الكردية فى إقليم كردستان إجراء الاستفتاء على انفصال الإقليم وإصرارها على شمول ذلك محافظة كركوك موطن التركمان الرئيسى، وطالبت الجبهة رئيس الوزراء حيدر العبادى ومجلس النواب العراقى وجميع القوى السياسية باتخاذ إجراءات ملموسة ضد أية خطوة تهدف إلى تقسيم العراق.

حالة الرفض الدولى لاستقلال إقليم كردستان، ورغم أنها قد تتغير فى لحظة ما، إلا أنها قد تعمق جراح الأكراد الذين سارعوا لامتصاص غضب حلفائهم بتصريح دبلوماسى لوزير خارجية العراق السابق هوشيار زيبارى معلنا أن الاستفتاء لا يعنى الاستقلال، كما كشفت قيادات كردية لكاتب المقال أن وفودا من الإقليم ستتوجه للعواصم الغربية لشرح وجهة النظر الكردية حول الاستفتاء.

وبعيداً عن المواقف الدولية المعلنة من الاستفتاء فما أسهل تحول الأزمة يواجهها استقلال كردستان وتهدد مستقبل الدولة الجديدة فى حالة ولادتها، وهى الخلافات الكردية الكردية سواء بين القوى السياسية داخل الإقليم أو خارجه؛ فالاجتماع الذى تم فيه تحديد موعد الاستفتاء تغيب عنه ممثلو الجماعة الإسلامية وحركة التغيير الكردية وهى قوى سياسية ذات وزن داخل الشارع الكردى خاصة حركة التغيير التى تمثل كتلة برلمانية كبيرة داخل برلمان الإقليم "المنحل" بقرار من رئاسة الإقليم.

ويعيش إقليم كردستان أزمة سياسية حيث تعتبر حركة التغيير، وهى القوة الثانية بالبرلمان، أن مسعود برزانى رئيس غير شرعى نظرا لانتهاء ولايته فى أغسطس 2015، وقيامه بحل البرلمان وطرد رئيسه المنتمى إلى "حركة التغيير" خارج أربيل. كما سبق وأن اتهم حزب الاتحاد الوطنى الكردستانى بزعامة جلال الطالبانى الحزب الديمقراطى الذى يتزعمه رئيس الإقليم مسعود برزانى بأنه سبب تراجع الإقليم اقتصاديًا، وطالبه بكشف مصادر تمويله لأنه مسيطر بشكل متشعب على مفاصل كردستان والهيمنة على مقاليد السلطة.

كما طالبت الأحزاب الكردية عائلة برزانى بالتنحى عن السلطة وإفساح المجال لغيرهم فى رئاسة كردستان، ودعت حركة التغيير لمحاكمة رئيس حكومة الإقليم نيجيرفان برزانى، لهدره ثروات الشعب الكردى على خلفية إبرام عقد نفطى طويل الأمد مع شركة "روس نفط" الروسية لمدة 20 عاما.

الأزمة فى الخلافات الكردية الكردية تكمن فى احتمالية تحول الخلاف السياسى لصراع عسكرى خاصة مع سابقة وقوع حرب أهلية بالإقليم حيث شهد الإقليم اقتتالاً بين الفصائل الكردية المتناحرة فى أواسط التسعينات، وكان أبرز فصيلين هما الاتحاد الوطنى الكردستانى والحزب الديمقراطى الكردستانى.

وعلى مدار الصراع تدخلت الفصائل الكردية من إيران وتركيا، وتدخلت كذلك فى الصراع القوات الإيرانية والعراقية والتركية، مع التدخل

الإضافى للقـــوات الأمريكية. وعلى مدار ثلاث سنوات من الحرب لقى ما يتراوح بين 3000 إلى 5000 مقاتل ومدنـــى حتفهم. إن كثيراً من القـــوى الكرديـــة تعتبر أن الأجواء غير مناسبة حاليا لإجراء الاســـتفتاء، وتطالـــب بضرورة عودة البرلمان وحل أزمة رئاســـة الإقليم قبل الحديث عن استقلال الدولة التى يعتبر إشهارها لحظة فارقة فى تاريـــخ الأكراد لا تريد الأحزاب أن تنسب لقيادات الحزب الديمقراطى من العائلة البرزانية وحدها، وبحســـب مراقبين فإن إعلان موعد الاستفتاء هو محاولة من الســـيد برزانى للهروب إلى الأمام والقفز على المشاكل الداخلية دون حلها.

إن غياب التوافـــق الكردى قبل إعـــلان الدولة يهـــدد بتفجيرها من الداخل كما حـــدث بجنوب الســـودان فى ظـــل ارتباط قوى وأحزاب كرديـــة بعواصم مناوئة للحلم الكـــردى فمن المعروف أن حزب الاتحاد الديمقراطى الذى يتخذ مـــن الســـليمانية مقرا له تربطه علاقة وثيقة بطهران، وهو نفس الاتهام الذى يلاحق حركة التغيير، أما أربيل عاصمة الإقليم ومقر الحزب الديمقراطى فترتبط سياســـياً واقتصادياً بأنقرة. كما يرتبط حزب العمال الذى ينتشر بمنطقة سنجار شـــمال العراق بالأجندة الإيرانيـــة وهو مقرب من نظام الأســـد فى سوريا؛ هذه الارتباطـــات تجعل مـــن الدولة المحتملة فريســـة سهلة لما يعرف وســـط الأكراد بالدول المغتصبة لأرض كردستان.

وبعيداً عن الخلاف الســـياسى، فهناك تحديات اقتصادية كبيرة تنتظر الدولة الكردية التى تفتقد لوجـــود منفذ بحـــرى وهو ما يجعلها عرضة للحصار من دول الجوار وتحديـــدا تركيا وإيران، والتى هى بالأساس دول تعادى فكرة الوطن الكـــردى، وهو ما يجعـــل الدولة المســـتقبلية التى فى الغالب ســـتعتمد على تصدير النفـــط تلجأ للموانـــئ التركية بصورة تجعلها أســـيرة للمواقف التركية وأى اختلاف سياسى مع الحكومة التركية ســـوف يخنق الدولة اقتصاديا. يضاف إلى ذلك أن تصدير النفط من كردســـتان إلى تركيا يحتاج إلى سلام دائم هو الأمر الذى يصعب حدوثه فى ظل المواجهات العسكرية بين الطرفين على أرض سوريا أو العمليات التى ينفذها حزب العمال الكردستانى فى الداخل التركى.

وختاماً، فمن المتوقع أن استفتاء سبتمبر سيحظى بنسبة تصويت لا تقل عن 90 % تؤيد الانفصال عن العراق وإعلان دولة كردستان وهو رقم يشابه كثيرا نسبة تأييد انفصـــال جنوب الســـودان عن الخرطوم وهو تشابه ليس الأول ولن يكون الأخير. إن المعطيات بين جوبا وأربيل تتشابه إلى حد كبير، فالخلافات السياســـية حاضرة بقوة فى البلدين وصراعات السلطة والثـــروة ونفوذ الـــدول الكبرى لا ينكـــره أحد؛ هذا التشـــابه فى البدايات يجعلنا نخشى من تشابه النهايـــات؛ فلا أحـــد يتمنى أن تتكرر مأساة جنوب السودان فى أية منطقة بالدول العربية خاصة إذا كانت كردســـتان. فإن إقليم حكم ذاتى مســـتقل ضمن دولة فيدرالية مستقرة أفضل من دولة وليدة تهددها الخلافات السياسية والحـــروب الأهلية ولا ينعم أهلها بالأمن والاستقرار.

نتائج وأصداء الانتخابات الإيرانية

أجريت الانتخابات الإيرانية يوم 19 مايو 2017، وهى انتخابات مركبة تشمل انتخاب رئيس الجمهورية، وانتخابات المجالس البلدية والقروية، والانتخابات التكميلية لمجلس الشورى الإسلامى «البرلمان».. وقد اتسمت هذه الانتخابات، خاصة على المستوى الرئاسى، بالحماس والمنافسة القوية بين تيار الإصلاحيين والمعتدلين من ناحية، وتيار الأصوليين والمتشددين من ناحية أخرى.

سفير رخا أحمد حسن

rakhahassan@yahoo.com

عندما فتح باب الترشيح لمنصب رئيس الجمهورية سارع مئات بالتقدم وهم من كافة الفئات والاتجاهات، وكان من بين المتقدمين الرئيس الأسبق محمود أحمدى نجاد، رغم نصيحة المرشد الأعلى له بعدم الترشح، إلا أنه تمسك بموقفه إلى أن تم استبعاده من الهيئة المختصة لفرز المرشحين والموافقة على ترشحهم.. وقد استقر عدد المرشحين لرئاسة الجمهورية على ستة فقط من بين كل المتقدمين، وهم الرئيس حسن روحانى، وإسحق جهانجيرى، ومحمد باقر قاليباف، وإبراهيم رئيسى، ومصطفى هاشم طبا، ومصطفى سليم مير.

وواضح من الاختيار الموازنة بين التيارين المتنافسين، حيث مثل التيار الإصلاحى والمعتدلين حسن روحانى، وإسحق جهانجيرى، ومصطفى هاشم طبا، بينما مثل الأصوليين محمد باقر قاليباف، وإبراهيم رئيسى، ومصطفى سليم مير.

وقد شن التيار الأصولى خلال الحملة الانتخابية انتقادات شديدة للرئيس حسن روحانى وحكومته ومن أهم هذه الانتقادات:

- أن حكومة روحانى تحولت إلى شركات تجارية خاصة يديرها الوزراء، بعيداً عن هموم المواطنين ومشكلاتهم الاقتصادية.
- أهمية وضرورة الكشف عن الفساد والظلم المفروضين على الشعب، وأن نحو 4% من السكان يتحكمون فى مصير الإيرانيين، وأنهم استغلوا ثروات البلاد لتصب فى جيوبهم، بدلاً من إتاحة فرص عمل والتنمية والتقدم فى إيران.
- أن إيران تعيش عدة أزمات منها البطالة، والتضخم، والركود الاقتصادى والأزمة الاقتصادية تسير فى اتجاه أزمة اجتماعية.
- إصدار تقرير اقتصادى يحذر الناخبين من انتخاب روحانى، لأن ذلك سيزيد المشكلات الاقتصادية التى تعانى منها إيران، ويفاقم التفاوت الطبقى فى المجتمع، ودعا التقرير الحكومة القادمة إلى تفادى الأخطاء الاقتصادية فى مجال العدالة الاجتماعية ووضع برامج لدعمها، ودعم المشروعات الإنتاجية.

ولكن التقرير حذر من أن برامج منافسى روحانى ستزيد المشكلات التى خلفتها حكومة الرئيس الأسبق محمود أحمدى نجاد، خاصة المشكلات الاجتماعية وهو ما يؤدى إلى أخطار أمنية.

- أن واردات إيران من الصين فى مدة رئاسة روحانى الأولى قد تضاعفت

عما كانت عليه من قبل توليه الرئاسة.
- أن سلوك حكومة روحانى ساعد على تهريب البضائع، وسمح للوزراء بالعمل الخاص على حساب العمل العام، وأن ثمة 7 ملايين متعطل عن العمل، وأن نسبة المتهربين من سداد الضرائب بلغت 40%، ووعدوا بتوفير خمسة ملايين فرصة عمل، وتنمية القرى والأرياف، وإقامة ورش عمل فى كل المناطق لزيادة الإنتاج.
أما التيار الإصلاحى والمعتدلون فقد ردوا على الأصوليين خلال الحملة الانتخابية بقوة وتتلخص ردودهم فيما يلى:
- أيد الرئيس الإيرانى الأسبق محمد خاتمى إعادة انتخاب روحانى بقوة، ودعا عبر وسائل التواصل الاجتماعى الإيرانيين إلى المشاركة فى الانتخابات وتأييد روحانى معتبراً أنه كان ناجحاً بحكومته وبرامجه التى استطاعت أن تعالج مشكلات اقتصادية كثيرة رغم امتلاكه إمكانيات ضئيلة.. ووصف الاتفاق النووى بين إيران والدول الست الكبرى بأنه نقطة مضيئة فى الحياة السياسية، وأن إيران بدأت طريقاً وبلغت منتصفه تحت قيادة روحانى.. وأن روحانى إذا كان قد نجح فى حل بعض المشكلات فقد بقيت مشكلات أخرى تتطلب حلها على نفس الطريق معه.. وأن الدور على الناخبين لتجديد التصويت لروحانى من أجل زيادة الأمل فى مستقبل أفضل.. وقد كان لخاتمى تأثير كبير فى فوز روحانى فى انتخابات 2013.
- وعد بمنح الإيرانيين مزيداً من الحريات الشخصية والدفاع عن حقوق المواطنة.
- إدراك لما تواجهه إيران من مشكلات مع وجود تصور لمعالجتها ومواجهة من يريدون مصادرة حقوق المواطنين.
- إعطاء المحرومين والمستضعفين نصيبهم من أموال البترول لتحسين حياتهم.
- عدم السماح بأن تحكم الأقلية الأكثرية من الشعب، ولا أن تتحكم المؤسسات الثورية فى مصير المواطنين ومصادرة حقوقهم، ومع الاحترام والتقدير للمؤسسة العسكرية فإنه يجب أن تركز عملها فى إطار أهدافها والأعمال المنوطة بها.
- انتقاد المرشحين الأصوليين الثلاثة واتهامهم بعدم تقديم برامج واضحة وشفافة، واتهام إبراهيم رئيسى، وكان مساعداً لرئيس الجهاز القضائى، بعدم ملاحقة عصابات تهريب الأموال، واتهام محمد باقر قاليباف - وهو محافظ طهران - بتقديم معلومات مغلوطة فيما يتعلق بقضايا فساد فى بلدية طهران، والبنك المملوك لها.. وأن قيمة البضائع المهربة انخفضت فى عهد روحانى من 25 بليون دولار أمريكى إلى 12 بليون دولار فقط.
- وجه الإصلاحيون اتهامات إلى الأصوليين بأنهم يذهبون إلى المناطق الريفية ويكذبون على الناس، ويجمعون الناس فى أتوبيسات ويقدمون لهم وجبات غداء يوم الانتخابات من قواعد عسكرية وهذا فى إشارة واضحة لأن الحرس الثورى الإسلامى يعمل لتأييد التيار الأصولى.
وقد اتبع المرشحون للرئاسة النمط الأمريكى - الغربى، بإجراء ثلاث مناظرات تليفزيونية بينهم، وقد أعقب كل مناظرة استطلاع للرأى العام حول من كان من المرشحين الستة أكثر تأثيراً وقبولاً، وكانت معظم الاستطلاعات تشير بوضوح إلى أن حسن روحانى فى المقدمة، خاصة فى المناظرة الأخيرة قبل فترة الصمت فى الحملات الانتخابية.
وقد لوحظ أن الأوضاع الاقتصادية كانت الموضوع الرئيسى فى المناظرات، ومكافحة الفساد والبطالة والتضخم، والوعود بتحسين الأوضاع المعيشية للناس، وركز الإصلاحيون على توسيع مساحة الحريات الشخصية والمضى قدماً فى البرنامج الاقتصادى الذى بدأ بعد توقيع الاتفاق النووى مع الدول الست.
ولوحظ أن الرئيس روحانى كان فى المناظرات أكثر هدوءاً، وعمد إلى التشكيك فى الأرقام التى استشهد بها الأصوليون، واتهم إبراهيم رئيسى بأنه يستعين بوزراء سابقين من حكومة الرئيس الأسبق محمود أحمدى نجاد، ووصفه بأنه يمثل سياسة نجاد.
وقد خير روحانى مواطنيه بين اختيار طريق التعاون والمصالحة مع المجتمع الدولى، أو طريق المواجهة، «إما اختيار العقلانية والمنطق، وإما اختيار الخرافات»، وقال إنه لم يشتم العالم وإنما عزز القوة الدفاعية الإيرانية وأسلحتها الاستراتيجية، وأقر بأن حكومته استطاعت تسوية بعض الأمور ولكن ثمة أمور أخرى لم تتمكن من إيجاد حلول لها.
ومن الأمور الملفتة للانتباه توالى انسحاب المرشحين، حيث انسحب من التيار الإصلاحى إسحق جهانجيرى لصالح روحانى وقال فى اجتماع جماهيرى للتيار الإصلاحى فى محافظة فارس، إنه يدعو الناخبين لمساعدة رئيس الجمهورية ووصفه بأنه صادق وكفء وحريص على مصالح الشعب، وأنه سيصوت مع الشعب لصالح روحانى رجل القرارات الصعبة والمعارك الصعبة والذى ينشد الأمن والهدوء لجميع الإيرانيين، وقال إن محاربة الفساد هى الطريق لتحسين الأوضاع الاقتصادية، وأنه لن تكون هناك خطوط حمراء فى مواجهة الفساد.
كما أعلن محمد باقر قاليباف انسحابه من الترشيح ودعا أنصاره للتصويت لصالح المرشح الأصولى إبراهيم رئيسى، وقال إنه من المهم المحافظة على مصالح الشعب والبلاد والثورة، ووحدة القوى الثورية، وأن ذلك يتطلب التغيير لبدء عهد جديد

نتائج وأصداء الانتخابات الإيرانية

للتحول الاقتصادى، بقطع أيدى 4% من الشعب تمكنوا على مدى سنوات من الهيمنة على عصب الاقتصاد والسياسة فى البلاد.

وقد علق المراقبون على انسحاب قاليباف بقولهم إنه يتمتع بخبرات سياسية ومعرفة بالعلاقات الإيرانية أفضل من إبراهيم رئيسى ذى الخبرات المحدودة خارج الدائرة الفضائية، وأنه أضعف من قاليباف فى منافسة روحانى.. وأن انسحاب الأخير جاء نتيجة ضغوط عليه من قيادات التيار الأصولى خاصة فى حوزة قم الدينية، وجماعة المناضلين من العلماء «روحانيات»، إلى جانب أن رئيسى يعد ممثلاً للمرشد الأعلى فى العتبة الرضوية فى مدينة مشهد.

ومما أضعف الموقف التنافسى لإبراهيم رئيسى أنه عمل على تعويض عدم خبرته بشئون إدارة الدولة بالاعتماد على عدد من الوزراء السابقين فى حكومة الرئيس الأسبق محمود أحمدى نجاد، وهو ما أدى إلى أن يعلق البعض على ذلك بالقول إنه إذا فاز رئيسى فكأن نجاد قد عاد بسياساته التى عزلت إيران وأثارت عداوات مع عدة أطراف دولية.

وقد صرح رئيسى أثناء الحملة الانتخابية بأن علاقات إيران لن تنحصر فى أوروبا وفرنسا - على حد قوله - وإنما فى حال نجاحه فى الانتخابات فإنه سيشكل «حكومة ثورية جهادية» قادرة على جنى ثمار الاتفاق النووى، وأنه سيحل مشاكل إيران بإدارة جهادية.

ويلاحظ أن رئيسى لا يشكك فى الاتفاق النووى الذى وافق عليه المرشد الأعلى للثورة الإسلامية على خامئنى، لكنه ينتقد نتائج هذه التسوية، ويرى أنها لم يستفد منها الإيرانيون الأكثر فقراً الذين يقول إنه يدافع عنهم، ويسلط الضوء على نسبة البطالة العامة التى بلغت 12.5% وبين الشباب 26% من الشباب.

وانتقد المرشد الأعلى خامئنى، سياسة روحانى الخارجية والاقتصادية والتعليمية، واتهمه بالانحناء أمام الدول الغربية، والسماح بتزايد التأثير الغربى على الأوضاع الداخلية فى إيران، واعتبر أن السعى الدائم لجذب الاستثمارات الخارجية يؤثر سلبياً على المشروعات التى يسيطر عليها الحرس الثورى الإسلامى، وهو فى هذا يتفق مع رئيسى الذى يقول إنه مرشح الفقراء ورفع شعار «العمل والكرامة» ويرى عدم انتظار الاستثمار الخارجى لسنوات وإنما حل المشاكل بالاعتماد على الإمكانيات المحلية.. واتهم روحانى بالتساهل مع الأغنياء فتهربوا من سداد الضرائب، والقروض المصرفية التى حصلوا عليها.

وقد عمل روحانى فى ولايته الأولى على تحسين الحريات العامة، ولكنه لم يحقق كل ما يريد، بل لم يحقق إلا القليل، أمام تشدد السلطات القضائية، وقمع الأجهزة الأمنية للمعارضة، وتواصلت الاعتقالات والمضايقات لصحفيين وطلبة وفنانين ورجال أعمال وقادة من المعارضة بدعوى أنهم يعملون ضد الجمهورية الإسلامية ومساعدة أعدائها فى الخارج.. لذلك هاجم روحانى الأصوليين وقال «إن زمن مناصرى العنف قد ولّى» وراهن على حصوله على دعم المرأة، والشباب، وأنصار بعض قادة الإصلاحيين الكبار ومنهم عهدى كروبى، ومير حسين موسوى، وهما تحت الإقامة الجبرية من قبل انتخابات 2013 ولم ينجح روحانى فى رفع الإقامة الجبرية عنهما.

وقد وصف البعض الانتخابات وكأنها استفتاء على النتائج التى حققها الاتفاق النووى الذى توصل

إليه روحانى مع الدول الست، والذى وصفه بأنه «إنجاز عظيم» يمكن استغلاله لتسهيل عودة إيران للأسواق العالمية، بدلاً من الاعتماد على عدد محدود من الدول فى ظل المقاطعة التى كانت مفروضة عليها.

هذا وقد أسفرت نتائج الانتخابات عن فوز حسن روحانى، حيث أعلن وزير الداخلية أن نسبة الذين أدلوا بأصواتهم 73% من إجمالى من لهم حق التصويت وهى نسبة مشاركة عالية، وقد حصل روحانى على 58.58% من الأصوات بينما حصل إبراهيم رئيسى على نسبة 39.71% وحصل مصطفى مير سليم، على 1.17% بينما حصل مصطفى هاشم طبا، على 0.54% فقط، وكانت نسبة الأصوات الصحيحة من إجمالى الذين أدلوا بأصواتهم 97.25% والأصوات الباطلة 2.74% ممن أدلوا بأصواتهم.

وقد تم تسجيل عدة مخالفات وخروقات لقواعد إجراء الانتخابات وألقى القبض على نحو 20 شخصاً فى عدد من اللجان كانوا يقدمون رشاوى لشراء الأصوات إلا أن كل ذلك لم يكن له تأثير يذكر على النتائج الكلية للانتخابات ولا يعيب

فى سلامتها وحريتها كما ذكر وزير الداخلية وأغلبية المراقبين.

والحقيقة أنه إذا كان مجلس صيانة الدستور هو الذى يوافق أو يرفض على الأسماء التى تتقدم للترشح، إلا أنه بمجرد موافقته على المرشحين الستة أصبحوا متساوين فى فرص الدعاية الانتخابية فى الإعلام والتجمعات الجماهيرية، وطرح برامجهم وإبداء كل ما لديهم من انتقادات على أداء الرئيس والحكومة.

وكان التيار الإصلاحى لديه بعض الشكوك فى أن يكون تأييد الحرس الثورى والجيش للمرشح الأصولى إبراهيم رئيسى بداية لتكرار ما حدث فى عام 2009 من تزوير فى الانتخابات لإنجاح محمود أحمدى نجاد، وهو ما أدى إلى استمرار المظاهرات والاحتجاجات على ما حدث حتى انتخابات 2013، ولكن هذه المرة لم يتطور تدخلهم إلى تدخل فعلى فى الانتخابات التى أقبل عليها الناخبون بحماس وبمشاركة كبيرة.

وقد تلقى الرئيس روحانى التهنئة من الرئيس السورى، والرئيس الروسى، وأمير قطر، وأمير الكويت وغيرهم بالإضافة إلى فيدريكا موجرينى مسئولة العلاقات الخارجية فى الاتحاد الأوروبى والتى أشارت إلى أن إعادة انتخاب روحانى بمشاركة كبيرة من الناخبين دليل على الالتزام بالاتفاق النووى الموقع فى 2015، أما وزير الخارجية البريطانى فقد رحب بإعادة انتخاب روحانى، وقال إن العلاقات البريطانية الإيرانية خلال رئاسته وبعد توقيع الاتفاق النووى تطورت بشكل ملحوظ وتم إعادة السفراء، وسيعمل البلدان على مزيد من تطويرها.

هذا ويلاحظ الآتى:

- إن فترة الرئاسة الأولى لروحانى وإن كانت لم تحقق ما كان يتطلع إليه الشعب الإيرانى عقب توقيع الاتفاق النووى، إلا أن رفع العقوبات وفك تجميد الأرصدة وزيادة الصادرات البترولية، وإقبال بعض الاستثمارات الأجنبية، بالإضافة إلى مساحة بند الحريات الشخصية حتى وإن كانت محدودة، جعلت أغلبية الشعب الإيرانى، خاصة المرأة والشباب، تريد إعطاء روحانى فرصة رئاسية أخرى لاستكمال ما بدأه، وعندما انسحب المرشح الأصولى محمد باقر قاليباف، لم تذهب أغلبية أصوات مؤيديه إلى المرشح الأصولى إبراهيم رئيسى، وإنما ذهبت لروحانى.

- إن موقف المرشد الأعلى للثورة الإسلامية على خامئنى بتأييد المرشح الأصولى إبراهيم رئيسى، كان بقصد الموازنة بين القوة المتصاعدة للتيار الإصلاحى وبين التيار الأصولى، خاصة وأن خامئنى بحكم ثقافته الدينية واقتناعه أقرب - بل هو كبير الأصوليين - ولكن تأييده الشفوى لم يتحول إلى تأثير عملى على مسار الانتخابات لتكون النتيجة معبرة فعلاً عن رأى أغلبية الشعب الإيرانى، خاصة وأنه يواجه عدة صعوبات اقتصادية واجتماعية وقد يساعد فى التخفيف منها استكمال البرنامج الذى بدأه روحانى عقب توقيع الاتفاق النووى، وكذلك ما حققه من انفتاح على ضوء الجهود الدولية والإقليمية المبذولة للتوصل لحل سياسى للأزمات فى سوريا واليمن وتحقيق استقرار فى العراق.

- إن القوى الإقليمية ومعظم القوى الدولية رحبت بإعادة انتخاب روحانى الذى ترى فيه اعتدالاً كانت تفتقده إيران طوال فترتى حكم الرئيس السابق محمود أحمدى نجاد، كما أن إعادة انتخابه يعطى بعض الدعم للتيار الإصلاحى والمعتدلين فى مواجهة التيار الأصولى المسيطر على عدة أجهزة رئيسية فى الدولة إلى جانب الدور الرئيسى الذى يختص به المرشد الأعلى خامئنى فى اتخاذ القرارات الرئيسية والموافقة على التوجهات العامة خاصة الجديد منها.

- تواكب إجراء الانتخابات وإعلان نتائجها مع وصول الرئيس الأمريكى ترامب والوفد المرافق له إلى السعودية وعقد قمة أمريكية - سعودية، وأخرى أمريكية خليجية، وثالثة أمريكية - عربية إسلامية، وتركزت حول محاربة الإرهاب، واعتبار إيران راعية للإرهاب، وأن حزب الله فى لبنان وحماس فى غزة منظمتين إرهابيتين، وهو ما استنكرته إيران، كما أنه يشير إلى أنه من غير المنتظر على المدى القريب حدوث تحسن فى العلاقات بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية إزاء التصعيد الأمريكى وفرض عقوبات على عدة شخصيات وهيئات إيرانية.

- أنه رغم أن تركيا وإيران يتحاربان فى سوريا، وتركيا حليف للسعودية، إلا أنه يلاحظ تزايد التقارب والتنسيق فى كثير من الأمور بين طهران وأنقرة، وآخر الأمثلة على ذلك موقفهما الداعم لقطر فى مواجهة العقوبات العربية وفرض الحصار الاقتصادى والتجارى عليها، حيث أبدت إيران استعدادها لتخصيص ثلاثة من موانيها لخدمة البضائع المتجهة إلى قطر، وأبدت تركيا استعدادها لتزويد قطر بما يلزمها من بضائع، ووافق البرلمان التركى على اتفاقية التعاون العسكرى مع قطر والتى تسمح بإرسال قوات تركية إليها.

- ويلاحظ أن الرئيس روحانى قد صرح عقب انتهاء القمم الأمريكية - السعودية والخليجية والإسلامية الثلاث، أن إيران تمد يدها للتعاون مع جيرانها، باستثناء من يرفض هذا التعاون.

قراءة مختلفة فى الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة

جرت الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة فى 19 مايو 2017، وهى الانتخابات الرئاسية الثانية عشرة منذ إعلان الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى مارس 1979، وذلك بعد أكثر من شهر من انتصار الثورة الإيرانية التى شاركت فيها تيارات فكرية وسياسية متنوعة وكثيرة ساهمت جميعها فى إسقاط النظام الشاهنشاهى البهلوى القائم فى إيران قبل ذلك. وجاءت نتيجة تلك الانتخابات هذه المرة لتثبت من جديد أن الحالة العامة السائدة فى الوقت الراهن على المسرح السياسي، وكذلك على مستوى الشارع الإيرانى هى حالة تتجه بشكل عام إلى نزعة اعتدال وإصلاح، وهو الأمر الذى يتمثل فى حصول الرئيس الحالى حسن روحانى على فترة ولاية رئاسية ثانية، وهو ما يمكنه، على المستوى المفترض، وإذا ما لم يواجه معوقات جدية من داخل النظام السياسي أو من خارجه، من المضى قدماً فى تنفيذ عدد من السياسات والإجراءات التى تحقق تواصلاً واستمراراً مع النهج الذى سار عليه منذ انتخابه لفترة رئاسية أولى فى أعقاب إعلان نتائج الانتخابات الرئاسية السابقة التى جرت فى عام 2013.

سفير د. وليد محمود عبد الناصر

walidabdelnasser@yahoo.com

وقبل الخوض فى دلالات نتائج تلك الانتخابات على المشهد السياسى الإيراني، سواء على الصعيد الداخلي، أو من جهة أى تأثيرات محتملة لها على سياسات إيران الإقليمية والدولية، نركز فى هذا المقال على الإشارة بالعرض والتحليل لعدد من الظواهر التى سبقت العملية الانتخابية أو تزامنت معها، ونرى أن لها دلالات تتخطى حدود المسائل ذات الطابع الإجرائى أو التنظيمى البحت.

وأول هذه الظواهر هى ترشح الرئيس السابق محمود أحمدى نجاد للرئاسة وإطلاق حملته الانتخابية ثم إعلان مجلس الخبراء أنه لا يلبى معايير الترشح. وهذه أول مرة فى تاريخ "الجمهورية الإسلامية الإيرانية" يترشح رئيس سابق حصل على فترتى ولاية رئاسيتين مرة أخرى "رسمياً" لانتخابات رئاسية بعد أن يكون قد ترك الرئاسة بالفعل منذ فترة رئاسية. وقد استخدمنا هنا تعبير "رسمياً" عن قصد، نظراً لأن الرئيس الأسبق محمد خاتمى كان قد أعلن أنه يبحث ترشيح نفسه فى انتخابات 2009 فى مواجهة أحمدى نجاد الذى كان آنذاك يسعى لفترة ولاية رئاسية ثانية، إلا أن الرئيس خاتمى لم يقدم "رسمياً" على التقدم بأوراق ترشحه نظراً لنصائح من أقطاب من جبهة الاعتدال والإصلاح الذين كانوا مرشحين أصلاً فى مواجهة أحمدى نجاد آنذاك، وذلك بهدف توحيد الصفوف وضمان التماسك فى صفوف المعتدلين وزيادة الفرص لفوز مرشحهم فى مواجهة أحمدى نجاد فى ذلك الوقت، كما استمع أيضاً لنصائح فى نفس الاتجاه، ولكن لأسباب مختلفة، من مرشد الثورة "آية الله خامنئي"، من منطلق رغبة خامنئى فى استمرار إرساء قاعدة مفادها أن أى رئيس للجمهورية يبقى ولايتين رئاسيتين، كحد أقصى ولا يعود للترشح للمنصب مجدداً، وهو تفاهم ضمنى كان سائداً منذ نشأة الجمهورية الإيرانية الإسلامية عام 1979، واعتبره البعض تأسياً بالنظام السياسى الأمريكي، وإن لم يتم بالطبع الإعلان عن ذلك صراحة فى أى مرحلة. وبناءً على هذه المعطيات، وربما غيرها، قرر خاتمى عدم الترشح، وقدم الدعم لـ "مير حسين موسوي" الذى اعتبر المرشح الأساسى لمعسكر الاعتدال والإصلاح آنذاك. ولكن أحمدى نجاد ذهب خطوة أبعد هذه المرة، وقدم أوراق ترشحه وأطلق حملته الانتخابية، بالرغم أيضاً من نصيحة المرشد خامنئى له بعدم الترشح على نفس الخلفية السابق الإشارة إليها، وأدى عدم استماعه لتلك النصيحة إلى تعرضه لقرار مجلس الخبراء بعدم تلبيته معايير الترشح، ثم ذهبت الأمور مرحلةً أبعد، عندما بدأ أنصاره فى التجمهر أمام المقر الرئيسى لحملته الانتخابية للاعتراض على قرار لجنة الخبراء، حيث وجهت لهم وزارة الداخلية الإيرانية إنذاراً شديد اللهجة بفض التجمهر وإلا تم فضه بالقوة، وهو ما دفع أحمدى نجاد ومدير حملته الانتخابية إلى حض أنصاره على الانصراف فى هدوء، وهو ما لبوه بالفعل فى نهاية المطاف. وربما كان دافع أحمدى نجاد للترشح هو نفس دافع خاتمى فى انتخابات 2009، ولكن فى اتجاه معاكس، أى هذه المرة لمواجهة رئيس إصلاحى ومعتدل هو حسن روحاني، والحيلولة دون فرص حصوله على فترة ولاية رئاسية ثانية متتالية. ولكن يبدو أن أحمدى نجاد ربما لم يحسن تماماً تقدير عدد من الاعتبارات، أولها أن التيارات المحافظة كان لهم بالفعل أكثر من مرشح، من أبرزهم إبراهيم رئيسى وعمدة طهران محمد باغر غاليباف، وقد سحب الأخير

ترشيحه قبل الانتخابات بوقت قصير لدعم فرص رئيسي، وذلك فى سياق التنسيق داخل المعسكر المحافظ، والاعتبار الثانى هو أن أحمدى نجاد بترشحه كان فعلياً قد تراجع عن عدد من التعهدات التى قطعها على مدار الشهور السابقة على الانتخابات، وأولها كان رسالة منه وجهها إلى المرشد خامنئى فى سبتمبر 2016 تعهد فيها بعدم الترشح، والثانية كان إعلانه فى فبراير 2017 أنه لن يدعم أياً من المرشحين لمقعد الرئاسة، ثم عاد فى الشهر التالى مباشرة، أى فى مارس 2017 ليعلن دعمه للمرشح "محمد باغاي" الذى كان نائباً له عندما كان رئيساً للجمهورية، ثم يفاجيء الجميع بعد ذلك بترشيح نفسه للمقعد الرئاسي.

والدرس الأول المستفاد من هذه الواقعة هو أن المرشد هو صاحب القول الفصل فى السياسة والدولة الإيرانية، وهذا ليس بأمر جديد، بل هو مسجل وموثق فى الدستور الإيراني، سواء فى نسخته الأصلية الصادرة فى عام 1979، أو بعد ما طرأ عليه من تعديلات لاحقة، وربما دفع أحمدى نجاد هذه المرة ثمن حقيقة أن العلاقة بينه وبين المرشد خامنئي، وبعد أن كانت فى أوج تألقها خلال ترشحه للولاية الرئاسية الأولى، فإنها تردت على نحو كبير حتى وصلت إلى مستوى منحدر مع اقتراب ولايته الرئاسية الثانية من الانتهاء عام 2013، حتى اعتبرها البعض قد تحولت إلى علاقة تضاد وتنافس غير متكافئة: فالمرشد هو صاحب السلطات الأعلى، ومنها حتى سلطة عزل الرئيس المنتخب بناء على توصية من البرلمان (مجلس الشورى).

أما الدرس الثانى المستفاد من تجربة ما حدث للرئيس السابق محمود أحمدى نجاد فى الانتخابات الأخيرة فهو أنه سبق واستفاد هو نفسه من إحدى القواعد غير المكتوبة ولكن المتفق عليها فى إطار اللعبة السياسية الإيرانية منذ ترسخ نظام الجمهورية الإسلامية بزعامة ولاية الفقيه عام 1979، ألا وهى عدم عودة رئيس جمهورية سابق قضى فترتى ولاية رئاسيتين متتاليتين إلى الترشح لمنصب الرئاسة مجدداً حتى ولو بعد حين. حدث ذلك من قبل مرتين مع الراحل رفسنجانى ثم بعد ذلك بفترة مع خاتمي. بالتالي، كان المتوقع أن يلتزم بهذه القاعدة ولا يسعى لخلخلتها من خلال سعيه للترشح مجدداً، وهو الأمر الذى نهاه عنه المرشد، وانتهى به إلى إعلان عدم أهليته للترشح من جانب مجلس الخبراء المنوط به مراجعة أوراق كل مرشح وغربلة المرشحين وإقصاء من لا يرونه ملبياً لمعايير الترشح.

والدرس الثالث والأخير فى هذا السياق هو أن أحمدى نجاد لم يجد قراءة المشهد السياسى الإيرانى من زاوية الحالة السائدة للمزاج العام للناخب الإيرانى والمتجهة للاعتدال والإصلاح والانفتاح، خاصة مع تخوفات جدية من احتمال تراجع الولايات المتحدة الأمريكية عن الاتفاق النووى مع إيران فى ضوء تصريحات للرئيس الجديد "دونالد ترامب" وطاقمه فى هذا الخصوص، أو من تصعيد أمريكى فى موضوعات أخرى إزاء إيران، أو من ترقب موقف الإدارة الأمريكية الجمهورية الجديدة من التنافس أو النزاع الإيرانى الأمريكي، وكذلك نتيجة تململ من قيود داخلية ترى قطاعات من الإيرانيين أنه قد طال بها الأمد، وأنها قد يمكن القبول بها كإجراءات استثنائية فى ظروف طارئة أو مؤقتة ولكنها غير صالحة للبقاء بشكل ممتد زمنياً.

وننتقل هنا إلى تناول ثانى الظواهر التى لفتت الانتباه فى العملية الانتخابية الإيرانية فى مايو 2017، ألا وهى فوز الرئيس روحانى من الجولة الأولى من الانتخابات وبنسبة أصوات فاقت الـ 57 % من إجمالى من شارك بالتصويت فى تلك الانتخابات من المواطنين الإيرانيين والمواطنات الإيرانيات. وبينما يمكن تفسير ذلك باعتباره يعكس حالة رضا بين قطاع واسع من الإيرانيين تجاه توجهات الرئيس المنتهية فترة ولايته الرئاسية الأولى وبالسياسات التى اتبعها والمواقف التى انتهجها، فإنه يمكن تفسيره بأنه يعبر عن حالة أمل لدى هؤلاء عن أن استمرار الرئيس حسن روحانى لفترة ولاية رئاسية ثانية قد يساعد على توطيد قوته ومن ثم يمكنه من الإقدام عبر فترة ولايته الرئاسية الثانية على اتخاذ قرارات والقيام بإجراءات لم يكن قادراً عليها خلال فترة ولايته الرئاسية الأولى. وبالتأكيد فإن هذه الآمال والتوقعات تباينت فيما بين مجموعات ليست بالضرورة متجانسة، فمنهم من يتطلع إلى إصلاحات على الصعيد السياسى منها إطلاق هامش أوسع من الحريات

قراءة مختلفة فى الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة

السياسية وحق تشكيل أحزاب ليست بالضرورة "إسلامية" التوجه وتحقيق استقلال كامل للقضاء وحرية غير منقوصة للصحافة ووسائل الإعلام على أنواعها المختلفة، ومنهم من يتطلع بالمقابل إلى محاربة للفساد وللحد من العديد من السياسات شبه الاحتكارية فى المجال الاقتصادى وتبنى معايير الشفافية والمحاسبة وإطلاق حرية المنافسة ووجود ضمانات تشريعية وقانونية لحمايتها وتبنى انفتاح اقتصادى متاح بالتساوى أمام كافة اللاعبين الاقتصاديين الإيرانيين ولا تقتصر الاستفادة منه على قطاعات دون أخرى، وهناك من يأمل فى سياسات تحقق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص بما يعنى مكافحة الفقر والحد من معدلاته وتحسين نوعية الخدمات الاجتماعية المتاحة من رعاية صحية وخدمات تعليمية وتوفير السكن اللائق ووسائل المواصلات المناسبة والمعاشات والتأمينات الاجتماعية التى تعين أصحابها على أعباء الحياة لهم ولأسرهم..

وهناك أيضاً من قام بالتصويت لروحانى من أبناء الجماعات العرقية والقومية واللغوية والمذهبية والدينية المختلفة التى تندرج فى سياق ما يمكن أن نطلق عليه تعريف "الأقليات"، مع الأخذ فى الاعتبار تباين وتعدد التعريفات لهذا المفهوم، وهم من يسعون إلى تخفيف قبضة السلطات المركزية عليهم وعلى مناطق تواجدهم بكثافة على أمل الحصول على هامش أوسع من الدور فى إدارة شئونهم المحلية واستخدام لغاتهم وتطبيق قوانين فى بعض المجالات مشتقة من شرائعهم، مع توفير ضمانات أكبر لهم لممارسة حرية العقيدة والعبادة وصيانة دور العبادة وبناء المزيد منها عند الحاجة، وأيضاً إدخال تعديلات فى مناهج التعليم فى مناطقهم وكذلك فى وسائل الإعلام فى تلك المناطق

بما يعكس خصوصياتهم اللغوية والثقافية وخلفياتهم التاريخية وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية وبما ينشر تراثهم الفنى والأدبى ويحافظ عليه ويبقيه حياً فى عقول ووجدان الأجيال الجديدة منهم.

وبالإضافة إلى ما تقدم، فهناك عامل مهم فى هذه النتيجة التى حصل عليها الرئيس روحانى وحسم بها منذ الجولة الأولى السباق الرئاسى لصالحه، وهو نسبة التصويت المرتفعة للمرأة، والتى فاقت نسبة تصويت الرجال فى الكثير من الدوائر الانتخابية الإيرانية، حيث إن هناك اتساعاً ملحوظاً فى انغماس المرأة الإيرانية، بمختلف فئاتها العمرية وخلفياتها التعليمية والوظيفية وانتماءاتها المناطقية، فى الشأن العام بميادينه المختلفة، والتى كان من آخر تجلياتها المطالبة بمراجعة السياسة الخاصة بمنع حضور المرأة فى الاستادات الرياضية للتشجيع فى مباريات كرة القدم وغيرها من الرياضات المختلفة. فلا يوجد ثمة شك فى أن المرأة الإيرانية تزداد إصراراً على الدفع للأمام، خاصة فى حالة الانتخابات الرئاسية على أهميتها، بمن يتبنى قضاياها ومطالبها، أو على أقل تقدير بالأقرب نسبياً لتبنى تلك القضايا والمطالب، حيث إن هناك المزيد الذى تطالب بالحصول عليه، خاصة فى مجال رفض فرض ارتداء الحجاب (الشادور) من جانب قطاعات من المرأة الإيرانية، وهو ما تبدى فى حملة على وسائل التواصل الاجتماعى مؤخراً سميت بـ "الأربعاء الأبيض"، أى ارتداء السيدات والفتيات المنتميات إلى هذه الحملة أزياء بيضاء كل يوم أربعاء كدلالة على رفضهم لسياسة فرض الحجاب على المرأة الإيرانية، والمطالبة بترك ارتداء الحجاب لقرار المرأة الإيرانية ذاتها ومدى اقتناعها الشخصى به باعتباره قراراً خاصاً بكل امرأة.

والدرس الأول المستفاد من هذه الظاهرة هو أن القدرة التنظيمية على الحشد وتعبئة الأنصار من جانب القائمين على الحملة الانتخابية لمرشح، خاصة فى حالة الانتخابات الرئاسية، حتى ولو لمؤيدين من خلفيات مختلفة ولأسباب لا تتصل بالضرورة ببعضها البعض، والاحتفاظ بهم مترابطين أمر له دور حيوى ومهم فى العملية الانتخابية، وذلك بصرف النظر عن طبيعة كل دولة وخصوصيات كل مجتمع.

أما الدرس الثانى المستفاد فهو أنه كلما كان المرشح فى برنامجه متوسعاً وعاماً ليغطى مطالب فئات أكثر وخاطب هموماً أعرض لقطاعات مختلفة ومتنوعة كلما صب ذلك لصالحه خلال العملية الانتخابية وزاد من حالة الاصطفاف معه من جانب أعداد أكبر من الناخبين وأوجد له أرضية من الناشطين الداعين والمروجين له على مستويات اجتماعية وأصعدة وظيفية وجهوية متعددة.

أما الظاهرة الثالثة، والمتصلة بشكل مباشر بالظاهرة الثانية المذكورة بعاليه، فهى سيادة حالة عامة من الاعتدال فى المزاج الشعبى الإيرانى العام، خاصة لدى من توجه للإدلاء بصوته فى الانتخابات الرئاسية الأخيرة، وميل إلى السعى للاستقرار وضمان الأمن والأمان للمواطن وأسرته وحراكه وعمله ونشاطه الاقتصادى

والاجتماعي، بل والسياسي، بعيداً عن تدخل جهات ليس لها صفة رسمية مقننة، وإعلاء سلطة دولة القانون وسيادته ومفهوم دولة المؤسسات القادر المواطن على التنبؤ بمسارها، ورغبته فى انتظام حركة المجتمع بانسيابية وسهولة ويسر، وكذلك انتظام عمل آلياته الإنتاجية والخدمية على حد سواء، والتخلص من أى مظاهر للتشدد الدينى والعقائدى أو تجلياته المجتمعية المختلفة، وتثبيت الاتجاهات الإصلاحية فى مختلف مناحى الحياة، بحيث تلعب مؤسسات الدولة دور رأس الحربة لترجمة التوجهات الإصلاحية التى تعهد بها الرئيس روحانى إلى سياسات واضحة وإجراءات محددة تستند إلى ركائز عميقة ومتجذرة وضمانات بعدم الارتداد عن هذه التوجهات مستقبلاً. وهؤلاء يعرفون أن هذا لن يتحقق ما بين عشية وضحاها، ولكن المأمول منهم هو حدوث تقدم واضح وغير قابل للانتكاس، كما حدث فى حالات أخرى فى السابق، فى هذا الاتجاه خلال فترة الولاية الرئاسية الثانية للرئيس حسن روحاني.

والدرس المستفاد هنا هو أنه على أصحاب المصلحة فى الدفع بالاتجاهات المعتدلة والإصلاحية الذهاب إلى صناديق الاقتراع والمشاركة بفاعلية والإدلاء بأصواتهم وحث نظرائهم فى نفس التوجه على فعل الشيء نفسه، وذلك لضمان وصول أصواتهم وتأثيرها بديلاً عن المقاطعة أو الدعوة إليها، حتى مع قناعة البعض بأن مدى وحدود قدرات وإمكانيات رئيس الجمهورية مقيدة بسلطات المرشد الواسعة وكذلك بقيود أخرى مرئية أو غير مرئية على حد سواء، ودفع البعض الآخر بتدخل لجنة الخبراء فى غربلة المرشحين واختيار من ترى أنهم المؤهلون منهم فقط للاستمرار فى السباق الرئاسي، وأخيراً إعلان البعض الثالث أن العملية الانتخابية تتعرض لتدخلات متعددة من الجهات الإدارية بأشكال وصور مختلفة.

وإذا انتقلنا إلى الظاهرة الرابعة والأخيرة التى نتناولها هنا فى سياق الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة التى نتناولها هنا، فهى ظاهرة تأثير انسحاب بعض المرشحين قبل الانتخابات مباشرة أو بوقت قصير وإعلانهم أن هذا الانسحاب هو لصالح مرشحين آخرين، وهى ظاهرة حدثت فى انتخابات رئاسية إيرانية سابقة، كما حدثت فى انتخابات تشريعية سابقة فى إيران، وبالإضافة إلى ذلك فهى تحدث فى بلدان أخرى فى العالم بخلاف إيران. إلا أنه فى الانتخابات الرئاسية فى مايو 2017 على وجه التحديد، فإن غالبية من انسحب من المرشحين، سواء قبل إعلان مجلس الخبراء نتيجة بحثه فى مَن مِن المرشحين يلبى شروط ومعايير الترشح أم بعد الإعلان عن القائمة النهائية للمرشحين المقبولة أوراق ترشحهم، كانوا قد أعلنوا أنهم ينسحبون لصالح المرشح المحافظ إبراهيم رئيسى ودعوا أنصارهم إلى التصويت لصالح الأخير. وقد أعطى هذا المشهد انطباعاً بأن رئيسى سوف تتعزز فرصه فى الفوز بتلك الانتخابات، خاصة وأن من بين من أعلنوا تنازلهم عن الترشيح لصالحه محافظ طهران "محمد باغر غاليباف" الذى تحول إلى مرشح لمنصب نائب الرئيس مع المرشح الرئاسى "إبراهيم رئيسي"، وذلك مقارنةً بعدد أقل أعلن انسحابة لصالح الرئيس "حسن روحاني".

إلا أن هذه الانسحابات الأكثر عدداً، وربما أيضاً الأثقل وزناً، لم تحل دون فوز روحانى بنسبة مرتفعة وفارق قارب على العشرين فى المائة متقدماً على منافسه الرئيسي، وذلك فى ظل نسبة مشاركة مرتفعة فى الانتخابات فاقت الـ 73% ممن لهم حق الانتخاب من المواطنين الإيرانيين، بل واعتبر البعض أن مثل هذا الحشد المتعمد من جانب معسكر المحافظين، والذى فسره هؤلاء بأنه كان يحظى بدعم، ولو غير مباشر، من جانب المرشد خامنئي، حفز نسبة المشاركة العالية من جانب القطاعات الشعبية المؤيدة للرئيس روحانى وسياساته الإصلاحية وتوجهاته المعتدلة، للسعى لتعزيز فرص المرشح الأقرب إلى تطلعاتهم، حتى ولو لم يتفقوا معه بالضرورة فى كل شيء أو لم تكن حدود ما يستطيع تحقيقه تلبى ما يعتبرونه الحد الأدنى المطلوب من متطلبات التغيير والتحول فى بلادهم ومجتمعهم.

والدرس المستفاد من النتيجة التى تحققت لصالح معسكر الإصلاح والاعتدال، بالطبع داخل الحدود التى يسمح بها النظام السياسى القائم، هو أنه بالرغم من هذه الانسحابات المتعددة لصالح المرشح المحافظ فإنه نتيجة ما ذكرناه آنفاً من أن حالة المزاج الشعبى والسياسى العام تميل للاعتدال والاستقرار والإصلاح، ولو التدريجي، فقد أتت النتيجة عكس المرجو من المعسكر المحافظ، وارتفعت نسبة المشاركة فى العملية الانتخابية وهو ما صب لصالح المعسكر المعتدل أو الإصلاحي، على تنوع مكوناته، وأنصاره.

ونخلص هنا إلى أنه حتى قبل التطرق إلى نتائج الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة أو تداعيات تلك النتائج محلياً وإقليمياً وعالمياً أو انعكاسات مواقف مختلف الأطراف ذات المصلحة فى الداخل والخارج منها، فإن تحليل بعض الظواهر فى سياق العملية الانتخابية ذاتها: قبل الانتخابات وخلالها، لا يقل بأى حال من الأحوال فى الدلالة والأهمية عن النتائج، إذا ما أعطينا لتلك الظواهر حقها من التحليل المتعمق والمعالجة البحثية الجادة والرؤية الشاملة التى تربطها بمتغيرات عديدة غيرها، وبدون أن نفقد النظرة إلى كون تلك الانتخابات تدور فى سياق نظام سياسى له خصوصيات يعتبرها أنصاره مصدر قوة بينما يعتبرها خصومه أوجه قصور ومظاهر خلل، وكذلك بدون أن نفقد القدرة على رؤية علاقة تلك العملية الانتخابية بمعطيات أخرى ذات صلة محلياً وإقليمياً ودولياً، وأخيراً وليس آخراً بدون أن نتجرد من انتمائنا مصرياً وعربياً والذى يحتم تقدير مثل هذه الظواهر فى إطار انعكاساتها على المصالح المصرية والعربية.

التغييرات الدستورية فى أمريكا اللاتينية

تواجه كل من البرازيل (أكبر دولة فى أمريكا اللاتينية) وفنزويلا (أكبر دولة منتجة للبترول فى أمريكا اللاتينية) مشاكل سياسية واقتصادية عديدة يعتقد البعض أن إدخال تعديلات على دستور البلاد أو إعداد دستور جديد سوف يحلها أو على الأقل يخفف منها. ونعرض هنا بإيجاز للتطور التاريخى للدساتير فى أمريكا اللاتينية ليساعدنا فى تفهم متطلبات التغيير التى تشعر بها تلك الدول.

سفير عبدالفتاح عزالدين
afmecairo@gmail.com

التطور الدستورى فى أمريكا اللاتينية:

شهدت أمريكا اللاتينية على مر تاريخها تغيرات سياسية ضخمة تبعها إعداد دساتير أو تعديلها لتتلاءم وتتناغم مع هذه التغيرات إلى أربع فترات بارزة وهى:

أ-الفترة الأولى: بدايات القرن التاسع عشر:

شنت دول أمريكا اللاتينية خلال تلك الفترة حروب الاستقلال، وبعد حصولها على الاستقلال أسست "جمهوريات" ووضعت دساتير هدفها الأساسى تأكيد الاستقلال السياسى وتنظيم علاقات القوى السياسية على الساحة فى كل دولة. وقد استلهمت هذه الدول الدستور الأمريكى الموضوع عام1787.

ب-الفترة الثانية: منتصف القرن التاسع عشر:

فى هذه المرحلة بدأت الدول فى أمريكا اللاتينية فى الاهتمام بالاقتصاد الوطنى فركزت على تحقيق الاستقلال الاقتصادى. وقد ظهر اتجاهان فى كتابة الدساتير، أولهما الاتجاه الليبرالى الذى حرص على تضمين الدساتير نظرية الرقابة والتوازن بين السلطات الثلاث، بينما أيد الاتجاه الثانى وهو الاتجاه المحافظ نفس النظرية مع إضافة سلطات خاصة للرئيس وامتيازات وحصانات بما يمكنه من اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحفظ الاستقرار والسلام. وأطلق على هذا النوع من النظم مصطلح hyper-presidentialist regimes أى نظم ذات طابع رئاسى قوى.

ونتج عن هذه النظم أن السلطة التنفيذية أصبحت بسيطرتها على الجيش والموارد الاقتصادية أقوى من السلطتين التشريعية والقضائية. وكذلك حدث فصل بين "ممثلى السلطة" و"الشعب" لأن ممثلى السلطة يجب ألا يخضعوا "لأهواء" الشعب أو الفرق السياسية، ولأن ممثلى السلطة لديهم فهم أفضل للسياسة- وفق ما كان يعتقدونه.

ج-الفترة الثالثة: الفترة الإصلاحية منذ عام 1917:

بدأت هذه الفترة مع تضمين الدستور المكسيكى الصادر بعد ثورة 1911 للمسائل الاجتماعية مثل الملكية واستخدام الموارد الطبيعية وحقوق العمال. وأتبعت معظم الدول اللاتينية نموذج الدستور المكسيكى.

د- الفترة الرابعة: نهاية القرن العشرين وبدايات القرن الحادى

والعشرين:

فى الثمانينات وفى أعقاب سقوط العديد من الأنظمة الديكتاتورية بدأ التأكيد فى الدساتير اللاتينية على حقوق الإنسان. ومنذ عام 1999 أضيف التأكيد مرة أخرى على الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خاصة حقوق الشعوب الأصلية indigenous groups.

نماذج ما يدعى انقلابات دستورية:

يقدر بعض المحللين السياسيين أنه قد وقعت فى أمريكا اللاتينية خلال السنوات العشر الأخيرة عدة "انقلابات دستورية" أى محاولات من القوى السياسية (خاصة اليمينية) للوصول إلى السلطة التنفيذية دون انتخابات وعن طريق إجراءات برلمانية. ويضربون أمثلة لها بما حدث فى هاييتى عام 2004 وفى هندوراس عام 2009 وفى باراجواى عام 2012. كما يشيرون إلى محاولات "انقلاب دستورى" لم تحقق النجاح فى فنزويلا عام 2002 وفى بوليفيا عام 2008 وفى الإكوادور عام 2010.

التطورات السياسية في البرازيل:

تولى ميشال تامر- الذي كان نائبا للرئيس- رئاسة البرازيل في أغسطس 2016 عقب إدانة البرلمان البرازيلي بمجلسيه الرئيسة السابقة ديلما روسيف (والرئيس الأسبق لولا دا سيلفا) بخرق القوانين المالية وعزلها من منصبها.

وقد رافق هذه الأزمة دخول الاقتصاد البرازيلي في حالة ركود بالإضافة إلى ارتفاع معدلات البطالة إلى ما يقرب من 12% وعجز الميزانية بنسبة 9%. وقد أطلق الإعلام البرازيلي "غسيل السيارة" على عملية التحقيق التي يقوم بها البوليس الفيدرالي أثناء ضبطه عمليات غسيل أموال بإحدى محطات البنزين وشملت القبض على والتحقيق مع أكثر من 1000 شخص وأدت إلى كشف فساد شركة بتروبراس وبعض السياسيين.

أدت التطورات في قضية شركة بتروبراس (أكبر شركة بترول في البرازيل) إلى الإطاحة بعدد آخر من الوزراء وكبار السياسيين والبرلمانيين والقضاة ومنهم الفارو كونيا رئيس مجلس

النواب. وقد وجه المدعى العام اتهامات للرئيس ميشال تامر بالفساد وعرقلة سير العدالة والتربح. أضعف هذا الاتهام من شعبيته كما أضعف من منصبه داخل الائتلاف الحاكم. وفي 9 يونيو 2017 وافقت المحكمة العليا للانتخابات بأغلبية أربعة أصوات مقابل ثلاثة على تبرئة الرئيس تامر والرئيسة السابقة المعزولة ديلما روسيف من ارتكاب مخالفات خلال الحملة الانتخابية لهما في عام 2014. وقد أنقذه هذا الحكم من الدخول في عملية التحقيق للعزل impeachment مما قد يؤدي في النهاية إلى عزله هو أيضا. وهكذا تجدد أمله في إمكانية استكمال مدة رئاسته التي تنتهي في ديسمبر 2018.

كما أدى صدور هذا الحكم إلى مناقشات حادة في البرازيل حول مدى كفاءة محاكم الانتخابات التي ينفق عليها مئات الملايين من الدولارات سنويا والتي بدورها تراقب نظاما سياسيا مليئا بالفساد. وأشار الرئيس تامر – من أجل تخفيف الضغوط الشعبية– إلى نجاح خططه فى استعادة عافية الاقتصاد فنسبة التضخم آخذة في الانخفاض، كما أن الاقتصاد نما خلال الربع الأول من عام 2017 وذلك بعد عامين من الانكماش. ومازالت هناك قضايا أخرى تواجهه منها اتهامه بأنه ناقش الحصول على رشوة بـ40 مليون دولار لحزبه "الحركة الديمقراطية البرازيلية" وهو حزب يصنف في اليمين الوسط سياسياً. هذا ويمنع القانون البرازيلي التحقيق مع الرؤساء العاملين في أفعال تمت قبل تولي منصب الرئاسة.

ويتردد أن المدعى العام يُعد لاتهامات أخرى منها عرقلة العدالة وقبول رشاوى (بناء على اعترافات أحد البليونيرات المشاركين في الفضيحة). ولكن وفقاً للإجراءات القانونية تعرض هذه الاتهامات على مجلس النواب في البرلمان فإذا لم تحصل على تأييد أغلبية ثلثي الأصوات توقف إجراءات الاتهام. وهذا ما يمكن للرئيس تامر أن يحصل عليه لتمتع حزبه بالأغلبية في البرلمان بالإضافة إلى تأييد عدد آخر من النواب الموالين له.

ويثير ما سبق:

1 – ظاهرة انتشار الفساد في النظام السياسي البرازيلي منذ خمسينيات القرن الماضي وأيضا في ظل النظام الديمقراطي المطبق منذ عام 1992.

2 – أنه رغم استقرار الديمقراطية البرازيلية إلا أن عيوبها ظاهرة في اقتصار مشاركة المواطنين على انتخاب السياسيين الذين غالبا ما يكونون إما من الفاسدين أو من ذوي السياسات القاصرة مما أدى إلى إضعاف شعور المواطن بالثقة في المؤسسات الديمقراطية.

3 – أن ظاهرة تمتع السياسيين بامتيازات وحصانات تحميها القوانين يجب فى رأى البعض أن تشهد تغيرا جذريا يتمثل في تنازل السياسيين عن امتيازاتهم وحصاناتهم العديدة وأن يتم إدخال تغييرات دستورية تكفل الشفافية لمحاربة الفساد.

التطورات السياسية في فنزويلا:

تولى الرئيس نيكولاس مادورو رئاسة فنزويلا بعد رحيل الرئيس السابق هوجو تشافيز ثم فاز في انتخابات الرئاسة في إبريل 2013 ومن المقرر أن تنتهى فترة رئاسته عام 2019. وقد أدى انخفاض أسعار البترول انخفاضاً كبيراً منذ فبراير 2014 إلى ركود اقتصادي في فنزويلا وأضعف من قدرة الحكومة على الإنفاق على الخدمات الاجتماعية.

وقد فقد الحزب الاشتراكي المتحد لفنزويلا – وهو الحزب الحاكم– أغلبيته في البرلمان في الانتخابات التى أجريت في ديسمبر 2015 وذلك لأول مرة منذ عام 1999. أدى التطور الاقتصادي من تضخم ونقص السلع إلى عدة مظاهرات دامية وأوضح الرئيس أن التدهور الاقتصادي ناتج عن المضاربات وأنه يواجه "حرباً اقتصادية".

دعا الرئيس مادورو في أول مايو 2017 إلى تشكيل مجلس تأسيسي من الشعب وليس من الأحزاب ليقوم بصياغة دستور جديد، ويكون أعضاؤه ممثلين لمختلف قطاعات المجتمع وغير منتمين إلى أحزاب سياسية. ورفضت

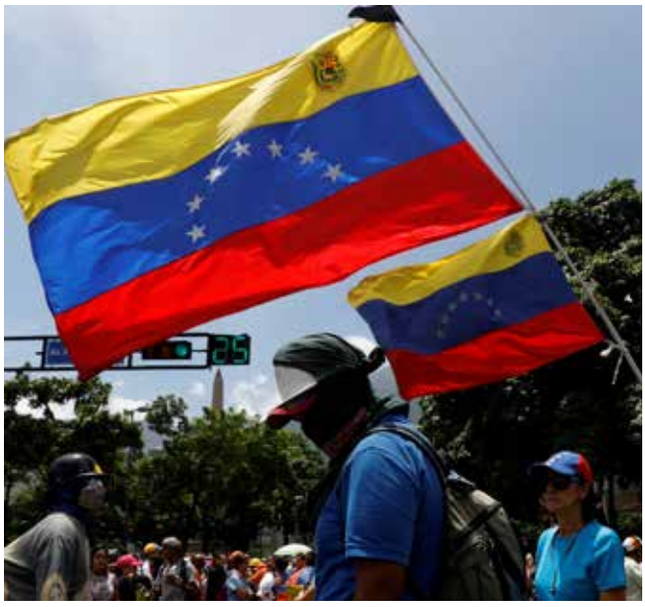

مظاهرات في البرازيل وفنزويلا

المعارضة الدعوة لصياغة دستور جديد للدولة معتبرة أن هذه محاولة "للانقلاب" ضد البرلمان الذي تسيطر عليه المعارضة.

أعلنت رئيسة المجلس الوطني للانتخابات عن أن انتخابات النواب الذين سيكونون الجمعية التأسيسية للدستور الجديد تحدد أن تجرى في 30 يوليو 2017.

تقدمت المدعية العامة بطلب إلى المحكمة العليا للانتخابات بإلغاء دعوة الرئيس مادورو لعقد جمعية تأسيسية للدستور على أساس أن هذه الدعوة تعد انتهاكا لمبدأ السيادة للشعب وخيانة للرئيس تشافيز. لم يقبل قسم الانتخابات بالمحكمة العليا الطلب على أساس احتوائه على افتراضات. وتقدمت المدعية العامة بثلاثة طلبات أخرى لطلب الرأي بمدى صلاحية ستة أعضاء أساسيين واثنين احتياطيين في قسم الدستور لأنهم في نهاية مارس 2017 أصدروا حكمين يلغون فيهما سلطات البرلمان ويمنحون فيهما سلطات دكتاتورية للرئيس مادورو وأن هؤلاء القضاة أعضاء في الحزب الاشتراكي المتحد الحاكم.

ويلاحظ هنا:

1 - أن المعارضة اعتبرت محاولة الرئيس مادورو لوضع دستور جديد هى محاولة للتخلص من البرلمان الحالي الذي تسيطر عليه المعارضة، وبهذا فإنه يعتبر "انقلاباً دستورياً".

-2 أن المدعية العامة وهى من أنصار تشافيز قد اعترضت على الدعوة لتشكل جمعية تأسيسية للدستور الجديد باعتبار أن هذه الدعوة تعتبر خيانة لتراث الرئيس تشافيز. وهكذا يتضح أن هذه قد تكون بداية لانقسام داخل معسكر أنصار تشافيز.

خاتمة: مما سبق يمكن القول إن البرازيل أكبر دولة في أمريكا اللاتينية سوف تستمر في سلسلة طويلة من المحاكمات التي قد تسفر عن مفاجآت جديدة، وأن أفضل الحلول هو إجراء تعديلات دستورية توفر الشفافية في الحكم وتقلل من مزايا وحصانات السياسيين التى هى من تراث الدساتير الأمريكية اللاتينية القديمة، وبهذا تلبي المطالب الشعبية البرازيلية والتي يرددها الإعلام البرازيلي الذي يتمتع بحرية كبيرة. ومن ناحية أخرى إذا نجح الرئيس تامر فى تنشيط الاقتصاد البرازيلى فإن هذا سيدعم وضعه مع أنصاره داخل البرلمان لإفشال محاولات إجراء تحقيق معه للعزل.

كما إن المعركة حول دستور جديد في فنزويلا سوف تشتد بين الحكومة وبين المعارضة التي تريد الاحفاظ بأغلبيتها في البرلمان، وذلك حتى موعد انتخابات الجمعية التأسيسية المقرر لها نهاية يوليو 2017.

السكان فى مصر

منذ نهاية عام 2013 وقد تجدد الحديث بقوة عن القضايا السكانية فى مصر وخاصة مشكلة الزيادة السكانية المطردة، وذلك بعد حوالى العامين من الدوامات السياسية التى عاشها المجتمع المصرى والتى تصارعت فيها الكثير من وجهات النظر المترددة والتى تتساءل حينذاك إن كانت الزيادة السكانية نعمة أم نقمة!!!

أ.د. هالة يوسف
وزيرة الدولة للسكان سابقا
hala.youssef@kasralainy.edu.eg

ولكى نصل إلى قلب الموضوع من أجل تحديد الاتجاه، لا بد من أن نقرأ المشهد جيداً.

إن القضية السكانية فى مصر تعد من أكثر القضايا عضالاً وتعقيداً نظراً لتشابكها مع العديد من الظروف الاجتماعية والاقتصادية العميقة والمتصلة مباشرة بالنمو الاقتصادى والتنمية المجتمعية والعدالة الاجتماعية وبالتالى بالأمن القومى داخلياً وخارجياً. فهى تتشابك فى المقام الأول مع معدلات النمو الاقتصادى وتوازنه الإيجابى مع معدل النمو السكانى والشكل الديموجرافى والذى يتحدد بأعداد المواليد والوفيات الجدد بالإضافة إلى الهجرات الداخلية والخارجية على السواء. كما تتشابك قضايا السكان أيضاً مع قضايا الشباب السياسية، وطموحاتهم الاجتماعية، ومستواهم الفكرى والتعليمي، وقدراتهم المهنية وذلك لأنهم يشكلون ثلث المجتمع المصري. كما تتصل أيضاً بقضايا المرأة ومكانتها فى المجتمع وقدرتها على القيام بدورها الثلاثى فى الأسرة والمجتمع والاقتصاد الوطني.

وتزداد المشكلة تعقيداً عندما تُختزل القضية السكانية المصرية فى حيز "معدلات الخصوبة والزيادة السكانية" فقط فى حين أنها تواجه فى المقام الأول تحدى مشاركة الملايين من المصريين الموجودين حالياً فى جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية الهائلة.

فى بداية عام 2017 وصل عدد السكان المصريين إلى 92 مليوناً طبقاً لبيانات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، حيث يقطن هؤلاء الملايين على 7% من مساحة مصر التى تقدر بمليون كيلومتر مربع بكثافة سكانية مخلّة تقدر بـ 1314 فرداً لكل كيلومتر مربع (بدلاً من 92 فرداً لكل كيلومتر مربع من مساحة الدولة الكلية).

كما تقدر معدلات النمو السكانى بحوالى 2.4% (حوالى 2 مليون وأربعمائة ألف مولود سنوياً) والتى تتطلب من ثلاثة إلى أربعة أضعافها من النمو الاقتصادى (أى معدل نمو اقتصادى يقدر بحوالى 9%) لتحقيق التوازن المنشود لإعاشة الناس وسد احتياجاتها من الخدمات الأساسية من الصحة والتعليم وغيرها. فقد نصت المادة 41 من الدستور المصري- بموضوعية محمودة- على أن "تلتزم الدولة بتنفيذ برنامج سكانى يهدف إلى تحقيق التوازن بين معدلات النمو السكانى والموارد المتاحة، وتعظيم الاستثمار فى الطاقة البشرية وتحسين خصائصه، وذلك فى إطار التنمية المستدامة".

ويصاحب هذه الكثافة السكانية المهولة تحديات عديدة تواجه الوطن أهمها هو عودة ذلك المنحنى التصاعدى المخيف لمعدل الزيادة بعد حالة ثبات مستقر خلال الفترة من 1994 إلى 2008. فتشير أحدث التقديرات السكانية إلى ارتفاع فى معدلات الإنجاب الكلى من 3 أطفال لكل سيدة مصرية إلى 3.5 طفل مما يعود بمصر إلى معدلات إنجابية عالية مرة أخرى. ويلازم هذا الارتفاع تراجع فى خدمات تنظيم الأسرة فى الوحدات الصحية وخاصة فى الريف وأطرافه والتى ربما تعود أسبابها إلى التراجع فى الموارد المالية والمادية والبشرية كل على حدة أو كلهم معاً.

كما نرى أيضاً تراجعاً فى المؤشرات الاجتماعية، حيث إن هناك زيادة نسبة الأسر تحت خط الفقر إلى حوالى 28% على المستوى القومى والتى قد تزيد وتصل إلى أكثر من 35% ببعض المراكز والقرى بإقليم صعيد مصر. ذلك بجانب تراجع مكانة المرأة بشكل عام فى الشرائح السكانية الأكثر فقراً، مع انخفاض واضح فى معدلات تشغيل الإناث وإدماجهم فى عمليات التنمية الاقتصادية مما يساعد على زيادة الإنجاب ومن ثم التأثير السلبى على الوضع السكانى الحرج سواء على صعيد معدلات النمو السكانى أو نوعية ورفاهة الحياة.

ذلك ويترتب أيضاً على زيادة معدلات الفقر انخفاض المستوى الاقتصادى للأسرة والذى يدفع فى اتجاه زيادة نسب الزواج المبكر للفتيات، وحرمانهن من اكتمال حقوقهن فى التعليم ومن ثم زيادة متسارعة فى أعداد الحمل فى سن المراهقة

والذى يمثل خطورة على صحة الفتيات وزيادة مخيفة فى أعداد المواليد. كما يؤدى انخفاض المستوى الاقتصادى أيضاً إلى توجه الأسر لتشغيل الأطفال بدلاً من تعليمهم، ومن ثم يدخل المجتمع فى حلقة مفرغة من الفقر والجهل وتدنى لجودة ونوعية الحياة وفقد الأمل فى مستقبل أفضل.

ولا بد من ذكر أن بينما نعيش فى مصر هذه الخطورة غير المحسوبة والتى تستوجب التصدى لها إلا أن هنالك أيضا تراجعاً ملحوظاً فى الجهود اللازمة للتسويق الاجتماعى للبرنامج السكانى المصري، وندرة - أو على الأكثر موسمية- فى الحملات الإعلامية التى تهدف إلى التوعية القومية بمخاطر الزيادة السكانية وتبعاتها وأهمية إعادة التوزيع الجغرافى الفعال للسكان والمثمر داخل حدود الوطن وأيضاً التعريف بالمزايا الصحية والاقتصادية والنفسية للمباعدة بين الولادات، والرضاعة الطبيعية، وأهمية وسائل تنظيم الأسرة، وتيسير الوصول لمنافذ الخدمة القادرة على تقديم تلك الخدمات بأعلى كفاءة ممكنة.

ومن ثم فإنه فى حالة استمرار معدلات النمو السكانى كما هى ستؤدى حتماً إلى خلل فى آليات التنمية الاقتصادية وإلى ضعف العائد من جهودها ونتائجها. وبشكل أكثر تحديداً ستؤدى إلى تراجع متسارع فى نصيب الفرد من الإنفاق القومى على التعليم والصحة والإسكان والنقل والمواصلات، ونصيبه من الأراضى الزراعية والمياه والطاقة بأنواعها. وتكون محصلة ذلك هو زيادة العشوائيات ونسب التسرب من التعليم والأمية ومعدلات البطالة وانخفاض مستويات الاكتفاء الذاتى من الغذاء مما يشكل تهديداً للسلام الاجتماعى وللأمن القومى وعرقلة تحقيق العدالة والتنمية الاجتماعية المنشودة.

وحيث إن للدولة وآلياتها نقاطاً للقوة الفاعلة فى مواجهة القضية السكانية والتنمية البشرية والتى تتجسد فى المقام الأول باهتمام القيادة السياسية العليا بالقضية السكانية ووجود استراتيجية قومية قابلة للتنفيذ من خلال محاور علمية تهدف إلى الاهتمام بالصحة والتعليم والشباب والمرأة والإعلام مع تبنى الدولة للمشاريع القومية الكبرى التى تمتص من معدلات البطالة وترفع من الخصائص السكانية وتعيد توزيع الكثافات البشرية. هذا بجانب أن لدى الوطن أيضاً ثروة بشرية من الشباب الذين يعتبرون فرصة جيدة للاستثمار مع وجود مؤسسات قومية ودولية معنية وداعمة وخبرات قومية قادرة على التنفيذ والمتابعة والتقييم.

فقد حان الوقت لاستثمار كل هذه الفرص للعمل بجهد متواصل لتأكيد سياسة الدولة على أن التنمية البشرية مع الإصلاح السكانى أو الديموجرافى يشكلان حجر الزاوية فى الطريق الشاق نحو التنمية الاقتصادية، ولكبح جماح الانفجار السكانى المتغول منذ عقود. كما أنه وجب إدماج المكون البشرى بكافة عناصره (ذكوراً وإناثاً) وشرائحه (شباباً وكهولاً) كماً وكيفاً وإعادة توزيعه ورفع خصائصه وقدراته وتحسين إمكانياته ودفعه داخل الخطط القومية التنموية- الاجتماعية منها والاقتصادية- على المستويات المركزية والمحلية وفى كل القطاعات والنشاطات البشرية، ذلك مع دعم دور المؤسسات المعنية وقدراتها على اتخاذ القرارات التى تضمن استمرارية التنسيق والمتابعة والتقييم للبرامج السكانية.

استمرار مواجهة الفساد

لم يعد يمر يوم دون أن نقرأ أو نسمع أو نشاهد واقعة فساد فى محافظة أو مدينة أو قرية.

وإضافة إلى ما سبق من أحكام اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة العابرة للحدود فى العدد السابق من مجلة «الدبلوماسي» جاءت اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة «عبر الوطنية» والتى اعتبرت الجرم «عبر وطني» إذا تداعت أثاره فى دولة مجاورة للدولة التى ارتكب فيها ثم كانت الاتفاقية «العربية» لمكافحة الفساد دعما «إقليميا» للجهد الدولى ممثلا فى الاتفاقية سالفة الذكر وقد عنيت برصد صور استغلال النفوذ فى نطاق الوظائف العامة سواء الشركات المساهمة أو الجمعيات والمؤسسات ذات النفع العام وحالات «الرشوة» فى القطاع الخاص ورشاوى الموظف العام الأجنبى أو موظف مؤسسة دولية عامة بصدد عمال تجارية «دولية» مع دولة طرف وتناولت الاتفاقية فى معرض صور السلوك المجرمة اختلاس ممتلكات الشركات والجمعيات ذات النفع العام وغسيل العائدات الإجرامية أو الشروع فيها وعلى خلاف نهج اتفاقية الأمم المتحدة «السابق عرضها» فإن الاتفاقية العربية أغفلت تحديد عناصر السلوك التى دعت الدول الأطراف إلى اتخاذ ما يلزم من تدابير تشريعية لتجريمها بحيث تصبح «الاتفاقية الدولية» هى المرجع كذلك اقتصرت أحكام الاتفاقية العربية على تجريم الرشوة بصدد تصريف الأعمال التجارية الدولية لدى

سفير د.محمود سليمان

الدولة بينما تناولت اتفاقية الأمم المتحدة هذه الصورة بغض النظر عن وقوعها لدى الدولة الطرف ثم أضافت إليها فئة أخرى يكتفى بشأنها أن يكون مقابل الرشوة قيام الموظف بفعل أو الامتناع عن القيام به لدى أداء مهامه الرسمية وهو ما أغفلته الاتفاقية العربية.

ويبقى أن فرصته الأخيرة من التزامات لم ترد فى الاتفاقية الدولية تعتبر ملزمة للدول العربية الأطراف وعلى العكس فإن ما أعلنته فى مجال التجريم أو التدابير الرقابية تكون الاتفاقية الدولية هى المرجع وتتضافر أجهزة الدولة للقيام بأعمال الرقابة على الأموال العامة.

حيث يتصدى الجهاز المركزى للمحاسبات للرقابة على أموال الدولة بمشاركة الجهات الأخرى التى يحددها القانون إضافة إلى دور البنك المركزى فى وضع السياسة النقدية والائتمانية والمصرفية ويشرف على تنفيذها ويراقب أداء الجهاز المصرفى كما يعمل على تحقيق استقرار الأسعار وهو الجهة المنوط بها إصدار النقد فى إطار السياسة الاقتصادية العامة للدولة بطبيعة الحال وتتمتع الأجهزة الرقابية بالشخصية الاعتبارية وبالاستقلال الفنى والإدارى والمالى وهى تتقدم بتقاريرها إلى رئيس الجمهورية وإلى مجلس النواب ويعين رؤساء الأجهزة الرقابية من قبل السيد رئيس الجمهورية لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد لمدة واحدة ولا يعزلون إلا بموافقة أغلبية أعضاء المجلس ويحظر عليهم ما يحظر على الوزراء.

هذا ويشكل كل جهاز رقابى بقانون يحدد اختصاصاته الأخرى التى لم ينص عليها فى الدستور كما يحدد طريقة التعيين للترقية والمساءلة والعزل على نحو يكفل لهم الحياد والاستقلال وعلى خلاف اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد التى أوردت تعريفا محكما للفساد فإن جرائم الفساد فى القانون الداخلى وفى مقدمتها الرشوة واختلاس المال العام والعدوان عليه والغدر وتجاوز الموظفين حدود صلاحيتهم قد تتطلب معالجة جذرية هذا رغم وجود عدد من القوانين الخاضعة ذات الصلة بمكافحة الفساد سواء من حيث الرقابة أو تدابير الوقاية أو التجريم ومنها قانون الكسب غير المشروع وقانون مكافحة غسل الأموال وقانون سوق المال وقانون الإيداع والقيد المركزى للأوراق المالية وقانون تنظيم المناقصات والمزايدات وقانون إعادة تنظيم الرقابة الإدارية وقانون إنشاء المحاكم الاقتصادية وقانون تنظيم الرقابة على الأسواق والأوراق المالية غير المصرفية.

ترسانة من قوانين الرقابة نشهد منجزاتها كل يوم.

القوة الناعمة المصرية ومقوماتها

بداءة، من المهـــم التنبيه أن مفهوم القوة الناعمة كأحد مقومات قـــوة الدولة وأحد أدوات تأكيد مكانتها ودورها الإقليمى والدولي، لم يعد هذا المفهوم والدعوة إلى تفصيله واستثماره مقصوراً على دولة مثل مصر وإنما تعداه إلى قوى عظمى صاعدة مثل الولايات المتحدة والصين والهند. والواقع، إنه على المستوى الدولي، كان عالم السياســـة الأمريكى جوزيف ناى هو أول من صك تعبير القوة الناعمة، وأنه فعل هذا بعد أن أدرك إفراط إدارة بوش الابن فى استخدام القوة المسلحة فى حربها ضد العراق بكل تداعياتها السلبية الداخلية والخارجية على الولايات المتحدة، ولذلك أصدر جوزيف ناى عام 2004 كتابه "القوة الناعمة والنظام الدولي". فى هذا الكتاب جادل ناى أن الولايات المتحدة بما تملكه من عناصر القوة الناعمة: الثقافية، التكنولوجية، الجامعات، الدبلوماسية، نظام الحياة، بـــل والطعام والأزياء..إلخ، يمكن أن تقنع دولاً أخرى بما تريدها أن تحققه بأكثر من اســـتخدام القوة والقسر.

سفير د. السيد أمين شلبي

sams_maadi@yahoo.com

وقد توسع جوزيف ناى فى هذا المفهوم حين أصدر عام 2010 كتابه "مستقبل القـــوة" ترجمه إلى العربيـــة المركز القومـــى للترجمة، وراجعه كاتب هذه السطور. وقد ناقش فيه مقومات قوة الدول العسكرية والاقتصادية، النفوذ الســـياسي، مؤكداً أن القوة الناعمة إن لم تكن بديلاً عن هذه العناصر، فإنها يمكن أن تدعم تأثيرها.

ويبـــدو أن إدارة باراك أوباما اقتنعت بهذا المفهوم وتبنته من حيث إدراكها لحدود القوة العســـكرية خاصة إذا مورســـت بشـــكل منفرد كما فعلت إدارة جورج بوش، وإن كانت وزيرة خارجيته قد اســـتبدلت مفهوم القوة الناعمة بـ"القـــوة الذكية" حيث لم تستبعد عامل القوة الصلبة.

أما الصين فـــإن قادتها رغم ما تحقق من معـــدلات نمو اقتصـــادى دعمت مكانتها فى العالـــم إلا أنهم اعتبروا أن هذه المكانـــة فى حاجة إلى أن تدعم من خلال قوة الصين الناعمة وفى جوهرها الثقافة الصينية ومـــا تحمله من قيم السلام والبناء، لذلك فقد بدأوا يدعون فى مؤتمـــرات الحزب مـــن 2006 إلى التواصل مع العالـــم ثقافياً وإعلامياً

وبدأ تأسيس معاهد كونفوشيوس فى العواصم الأساســـية فى العالم كمراكز لنقل الثقافة الصينية وكذلك إنشـــاء القنوات الفضائية باللغة الإنجليزية.

فإذا انتقلنـــا إلى موضوعنا وهو القوة الناعمـــة المصرية ودورهـــا فى تعزيز مكانة مـــصر فى منطقتها، فإن أول ما يجب أن نســـتدعيه أن مكانة مصر فى العالم العربـــى منذ الأربعينات وحتى الســـتينات كانت بفعل قوتها الناعمة متمثلة فى مفكريها، طه حسين، العقاد، أحمد أمـــين.. إلخ، وفقهائها من أمثال الســـنهورى الذين وضعوا دســـاتير دول عربيـــة، وأســـاتذة الجامعات الذين أسسوا الجامعات العربية، كما تلقت أجيال مـــن الطلبة العرب العلم فى الجامعـــات المصرية، هذا فضلاً عن دور الفنون المصريـــة من غناء حيث لقبت أم كلثوم "بسيدة الغناء العربي" وغيرها من المطربين والمطربات، وأفلام الســـينما المصرية التى كانت تملأ كل بيت عربي، وكذلـــك المجلات الثقافية المصرية: الهلال الثقافية، الرســـالة، الكاتب المـــصري. والتى كان المثقفون العرب ينتظرونها شهرياً.

غير أنه من الأمور المشجعة ما نشهده مـــن بدايـــات صحوة ثقافيـــة تبدو بشكل منتظم فى أنشـــطة مؤسسات وزارة الثقافة، المجلس الأعلى للثقافة، المركز القومى للترجمـــة، دار الأوبرا، وما تقدمه من أنشـــطة فنية مصرية وعالميـــة، وإصدارات الهيئـــة العامة للكتاب من كتـــب ومجلات ودوريات ثقافية، وصحوة المسرح، وفرق الفنون الشـــعبية، يضاف إلى أنشطة وزارة الثقافة، الأنشـــطة الخاصة الثقافية، فضلاً عن أنشـــطة مكتبة الإسكندرية والتى أصبحت بحق تمثل نافذة مصر على العالم ونافذة العالم على مصر. مع هذه الجهود الجادة لاستعادة مقومات الثقافة المصرية ودورها فى القوة الناعمة المصرية فى محيطها العربي، ثمة حاجة

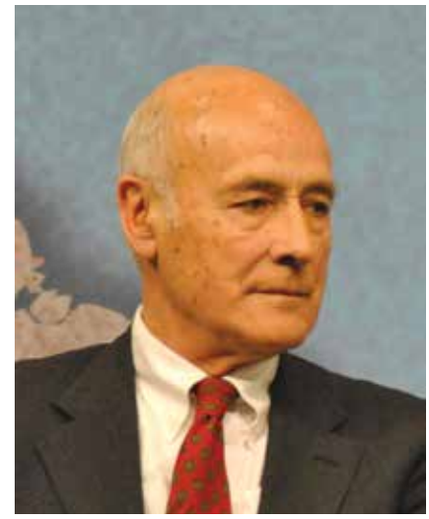

جوزيف ناي
أول من صك تعبير القوة الناعمة

إلى جهود مضاعفة أخذاً فى الاعتبار أن دولاً عربية، مدعمة بإمكانياتها المادية بنت وتبنى قدراتها الثقافية من جامعات، ومؤسسات وأنشطة ثقافية وما أصبح يعرف بـ"الدبلوماسية الثقافية" بما تعقده من مهرجانات ثقافية وخاصة فى مجال السينما، وما تصدره من سلاسل الكتب والدوريات والمجلات الثقافية، وما تعلنه من جوائز ثقافية للأعمال الفكرية والثقافية. هذا الواقع هو الذى يدعونا أن تبدى الدولة المزيد من الاهتمام وإدراك دور الثقافة كأحد مقومات النهضة الشاملة وبناء الإنسان المصرى باعتبار أنه هو الذى سوف يبنى هذه النهضة.

وقد يوحى ما تقدم أن تأثير القوة الناعمة المصرية مقصور على المنطقة العربية ولكن فى الواقع إن مصر تمتلك من مقومات القوة الناعمة ما يجعل تأثيرها عالمياً تتمثل سياسات مصر فى ثلاثة مقومات للقوة الناعمة فى العالم، وتعنى بها الأزهر الشريف، الآثار المصرية، ثم علماء مصر فى الخارج، والواقع أنه فى هذه الظروف بالذات التى يتعرض فيها العالم للإرهاب وجماعاته التى تنسب نفسها زيفاً للإسلام، فإن العالم يتطلع ويحتاج إلى الأزهر الشريف باعتباره يحمل رسالة الإسلام الوسطي، المعتدل، الداعى للسلام والتسامح والتعايش بين الشعوب المتقبل للآخر، وهى الرسالة التى علينا أن تصل إلى مجتمعات العالم وخاصة المجتمعات الأوروبية والأمريكية، والحقيقة أن الأزهر وخاصة فى السنوات الأخيرة، وبفعل إمامه الأكبر موضع الاحترام فى العالم، إنما يعمل على تأكيد رسالته، للعالم الخارجي، ولعل المؤتمرات التى يعقدها وتضم حكماء المسلمين والمسيحيين، والوثائق التى تصدر عنها، وزيارات فضيلة الإمام الطيب لعواصم عالمية توجها بزيارة الفاتيكان ولقائه بالغ الدلالة مع البابا فرانسيس، وزيارته الأخيرة لمصر والأزهر، كل هذا يجب أن يعرف به ويتطلب فى ضوء ممارسات جامعات التطرف وتشويهها للإسلام يتطلب تكثيفاً لدور الأزهر وتواصله مع العالم من خلال تحديد أدواته لإبلاغ رسالته وتعرف أن الأزهر قد استحدث آلية "المرصد" الذى يعمل على رصد الدعاوى المشوهة للإسلام والرد عليها وسيبقى أن تتأكد أن رسائل المرصد تصل إلى المناطق والمجتمعات المستهدفة باللغة الدقيقة والأسلوب الذى يتلاقى مع ثقافة هذه المجتمعات، وإعداد كفاءات تمتلك الثقافة الدينية المستنيرة للقيام بهذه المهمة.

أما العامل الثانى فى القوة الناعمة المصرية فيتمثل فى جولات نماذج من الآثار المصرية التى تأسر خيال المجتمعات الأجنبية، ويدرك من عاصر جولات هذه النماذج مدى إقبال هذه المجتمعات على مشاهدتها، الأمر الذى يتطلب وضع خطة منتظمة لعرض نماذج من الآثار واختيار العواصم والمدن الكبرى فى العالم لجولات هذه الآثار سوف تتضمن هذه الخطة بالتأكيد ضمان أمن وسلامة هذه الآثار وحمايتها. ونثق أن السلطات فى هذه العواصم سوف تعمل على ضمان هذه الحماية. أما المقوم الثالث للقوة الناعمة المصرية فيتمثل فى الرصيد الذى تملكه مصر من العلماء فى الخارج والمناصب المؤثرة التى يشغلونها فى الجامعات ومراكز البحث والمؤسسات المختلفة، وهم بذلك يمثلون صورة مشرقة لمصر تستوجب التواصل معهم وربطهم بقضاياها ونثق أنهم مستعدون لذلك. ومن المشجع إعادة إنشاء وزارة الهجرة كتأكيد جديد للتواصل بين مصر وجالياتها فى الخارج خاصة العلماء منهم وأن يكون لديهم بشكل منتظم التفاصيل الدقيقة، البعيدة عن الطابع الدعائي، لما يحدث فى مصر من جهود وخطط للنهوض الشامل. ومن المشجع أن السيدة وزيرة الهجرة تنتمى للجهاز الدبلوماسى المصري، وقادرة على التواصل المنتظم مع علماء مصر فى الخارج.

ولعل شخصيات مثل إبراهيم شحاتة، سعيد النجار، أحمد زويل، مجدى يعقوب، مصطفى السيد، فاروق الباز، ومحمد العريان وآخرين. فما قدموا لمصر هى نماذج للعديد من علماء مصر فى الخارج المستعدين لتقديم علمهم وخبراتهم للنهوض بمصر، وهذا يجعلنا نذكر أن صعود قوى مثل الصين يعود إلى حد كبير إلى علمائها فى الخارج الذين لبوا نداء بلادهم لكى يشاركوا بعلمهم وخبراتهم فى عملية التنمية والنهضة.

وباعتبار أن كاتب هذا المقال من أبناء جهاز الدبلوماسية المصرية، ما يجعله يعتقد أن دور الدبلوماسية المصرية سواء فى الداخل أو بعثاتها المنتشرة فى العالم أساس فى الاستخدام الأمثل للمقومات الثلاثة للقوة الناعمة المصرية التى تحدثنا عنها، من حيث التنسيق المنتظم سواء مع الأزهر الشريف، أو وزارة الآثار أو وزارة الهجرة والمصريين فى الخارج أو وزارة الثقافة.

الإصلاح الثقافى فى مصر

تصدينا فى مقالتين سابقتين إلى القوة الناعمة المصرية، وعرّفناها على أنها سلوك قومى عام، تعرض إلى تجريف عنيف وصل بها إلى الحالة التى نحن عليها الآن، مما استلزم إزاحة ما تراكم عليها من عوامل بعضها أصيل وبعضها دخيل ووصف الطرق إلى تحقيق هذا، حتى تستعيد مصر سلوكها العام وذائقتها القومية التى تمزج بين تراثها الناصع وحداثيتها البراقة التى تم وأدها بفعل فاعل، ونختتم المقالتين هنا بمقال ثالث، يحاول تلمس الطريق إلى تحقيق هذا على صعوبته.

حسام نصار

وكيل أول وزارة الثقافة سابقاً للعلاقات الثقافية الخارجية

hossam.nassar@redcondevelopment.com

منارة حضارية وبوتقة حداثية

لقد مرّت مصر فى تاريخها الحديث بمحاولتين جادتين لخلق ذائقة قومية عامة كادتا أن تفرزا صناعة أمة، لها وعى عام مشترك، ورغبة فى عيش مشترك، على جغرافيا واحدة، يصعب التأثير على مفردات حياتها مهما كانت النوائب، كالأمة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الصينية إلخ.. حاول الخديوى إسماعيل عمل هذا ونجح إلى حد كبير، وجعل القاهرة منارة حضارية وبوتقة حداثية انصهرت فيها كل عناصر الأمة على اختلاف روافدها، وشهدت ثورة ١٩ تجليات هذا الوعى المشترك الجامع أفرز فيما بعد ما اصطُلح على تسميته بالحقبة الليبرالية.

ثم كانت محاولة عبد الناصر، الذى استخدم هذا الرصيد الإسماعيلى فى محاولة لخلق أمة ذات وعى تنموى له أبعاد إقليمية وعالمية، ونجح هو الآخر إلى حد كبير فى جعل القاهرة منارة دولية وإقليمية كان لها أثرها الذى زلزل الركائز الاستعمارية فى المحيطات العربية والإفريقية والآسيوية، كما شهدت مصر فى عهده تنمية لم تشهدها الحقبة الإسماعيلية.

ومن العجيب أن كلتا المحاولتين شهدتا ضربات استعمارية، لعبت على عناصر التطرف الكامنة فى تراث الأمة المصرية، لتهدم تلك الذائقة القومية الوليدة، وكانت جماعة الإخوان هى معول الهدم ووسيلة استدعاء التطرف لضرب المشروعين فى مقتل.

كانت الأمة قبل ثورة 52 جاهزة تماماً للانقضاض الإخوانى عليها بعد فشل النخب السياسية والاجتماعية والثقافية فى الدفاع عن المدّخرات السلوكية للحقبة الإسماعيلية، ولولا قيام ثورة 52 لسقطت مصر مبكراً فى المستنقع الإخواني. وهكذا كان الحال بعد ثورة يناير 2011، نجح الإخوان بالفعل فى الانقضاض على مصر، بعد فشل ثان للنخب السياسية والاجتماعية والثقافية فى الحفاظ على المكتسبات الحداثية للمشروع الناصري.

هناك وعى فطرى لدى الأمة المصرية

قد كان هناك وعى فطرى لدى جموع الأمة المصرية – وعى غير مدرَك فى الحقيقة – ألهم تلك الجموع سواء فى يوليو 52، أو فى يونيو 2013 بأن المشروع الإخوانى لا يتوافق مع رغبات هذه الأمة، واستشعرت خطورته رغم تفشيه ونجاحه فى التغلغل إلى الذائقة القومية العامة، فانتفضت فى يوليو 52 تؤيد حركة الجيش، وانتفضت فى يونيو 2013 تطلب تحرك الجيش.

إن هذا الوعى الفطرى غير المدرَك كلية هو فى الحقيقة المبتغى بعمليات الإصلاح الثقافى لتحويله إلى وعى مدرك رشيد ومستدام يقف حائلاً أمام الهجمات الرجعية والردّات الظلامية فى المستقبل، وهو السبيل إلى صناعة أمة على الطُرز

تمثال نهضة مصر للفنان محمود مختار

الحديثة تملك ما يحصنها ضد أية محاولة لتغيير أنماط حياتها وسلوكها القومى الحداثى العام.

والمحاولة الثالثة لصناعة أمة تبدو فرصها كبيرة فى ظل انكشاف الغطاء عن زيف الخطاب الرجعى الإخوانى، ولكنها محاولة فى غاية الصعوبة فى ظل التشظى المجتمعى الذى تعرضت له مصر على مدار عقود، فإضافة إلى الفشل النخبوى المزمن سياسياً واجتماعياً وثقافياً، تجد حالة غير مسبوقة من التشرذم يصعب معها إيجاد نسق عام أو ذائقة قومية لامّة.

فالناظر الآن إلى قاهرتى إسماعيل وعبد الناصر، سوف يرى نخبته الاجتماعية منفصلة تماماً عن باقى الأمة فى جيتوهات اختاروها – أو اختيرت لهم – بها سكنهم ونواديهم ومدارسهم وجامعاتهم وأماكن تسوقهم وترفيههم، وانزووا تماماً عن قيادة السلوك العام. والنخبة الثقافية هى الأخرى تشرذمت، ما بين مؤيد ومعارض للنظام فى حالة شقاق وعداوة لم يشهدها المجتمع المصرى من قبل، وأما عن النخبة السياسية فحدث ولا حرج، كلٌّ يبحث عن غنيمته.

لم تعد القاهرة كمركز للتنوير الحضارى وعاء جامعاً يحتضن ثقافة ينتجها الجميع ويستهلكها الجميع حدودها الدنيا مشتركة بنسبة كبيرة بين أطياف الأمة، فأصبح لكل طائفة ثقافتها الخاصة، تنتجها البيئة الحاضنة وتأخذ عنها فى عزلة شبه كاملة، أصبحت القاهرة معها وكأنها ليست مدينة قوامها التمدين والمدنية، وإنما مجرد بقعة جغرافية متعددة العشوائيات قوامها الفوضى والتردى السلوكى والانعزالية، وربما كان مشروع العاصمة الإدارية الجديدة فى باطنه رؤية للملمة هذا الشتات الاجتماعى مرة أخرى فى قاهرة ثالثة، ولكنها إلى الآن فكرة وعاء يفتقر إلى المحتوى العام الذى يخلق أمة ذات سلوك قومى جامع، مؤثر، رشيد، ومستدام، يكون قدوة تنويرية لبقية مراكز مصر الحضرية والريفية.

قاهرة جديدة تطل علينا

لم تعد إذن قاهرة إسماعيل بصحافتها وتياتروهاتها هى صائغة وجدان الأمة، ولا قاهرة ناصر ببثّها المسموع والمرئى هى صانعة مستقبل الأمة، إنها قاهرة جديدة تطل علينا من أطباق استقبال بث فضائى معلقة على عشوائيات الطوب الأحمر، إنها قاهرة السوشيال ميديا واليوتيوب، إنها قاهرة التويتر، إنها قاهرة فن الأندرجراوند، إنها قاهرة البوابات والصحف الإلكترونية، لقد فقدت

الإلهة ماعت إلهة الحق والعدل والنظام في الكون، على هيئة سيدة تعلو رأسها ريشة النعام رمز العدالة

القاهرة مركزيتها الثقافية وسط كل هذا الركام، بل فقدت وحدتها الثقافية فى محيطها ذاته.

وهنا تكمن الصعوبة الشديدة فى التصدى لهذا الواقع الاجتماعى المتشتت متعدد اللغات الاجتماعية والثقافية، إذ كيف نريد ثقافة جامعة ونحن فى حاجة إلى ترجمان اجتماعى بين كل طائفة والأخرى؟ والارتكان إلى الوسائل القديمة فى التوجيه الثقافى لا طائل من ورائه، ماسبيرو يعاني، الصحافة الورقية تندثر، السينما تنتحر ويتحول نجومها إلى إعلاميين، الثقافة الجماهيرية مثقلة بالموظفين وبقصور ثقافة تئن من البذخ فى الإنشاء والشُح فى التمويل والصيانة، الأوبرا تخاطب ذات الجمهور ولا تستطيع الانتشار، المسرح تحول إلى تياتروهات لبيع الضحك، والاستهداف الثقافى فى تلك الحالة المستعصية لا يمكنه أن يصل بالمجتمع أو بالأمة إلى حالة من التناغم الاجتماعى دون أن

يكون لـــه تعددية شرائحية تتميز بوحدة الرســـالة وتعددية التوجه والمنابـــر، وهى صياغـــة ثقافية من أصعـــب الصياغات فى خلقها، ناهيك عن السيطرة عليها فى ظل تعدد منابر الضخ الثقافي.

والشرائحيـــة الثقافيـــة مطلوبة وبشدة، وبدونها يستحيل صياغة وجدان أمة تملك وعياً مشـــتركاً وســـلوكاً قومياً وذائقـــة عامة، والشرائحية ذاتها يجب أن تتميز بتعددية الأبعـــاد، شرائح عُمرية، وشرائح نوعية (جندرية)، وشرائح فئوية، وشرائح جغرافية وسيبرانية، تتقاطع فيما بينها رأســـياً وأفقياً لتخلق مصفوفـــة المحتوى الثقافى ووســـائل إيصاله لـــكل شريحة طبقاً لمستواها الإدراكى وذائقتها الخاصة والتدرج بها حتى تتقارب مع نظائرهـــا فى الإدراك والذائقة لتنعكـــس على الســـلوك القومى العام الذى يمكـــن – بل يجب – قيـــاس مؤشرات ترقيـــه، يصبح معها – أو بعدها– الجميع فى حالة إدراكية متقاربـــة تحصّنهم أولاً ضد الاستهداف الثقافى الخارجي، وتنمّى فيهـــم ثانياً الحس النقدى الذى يسمح بقبول الثمين وطرح الغث جانباً.

ثقافة قومية تنموية

وللتدليل على مفهـــوم الشرائحية الثقافية التى تتوخّى تحويل الثقافة فى مصر من ثقافة نخبوية إلى ثقافة قومية تنموية، نسوق فى هذا المقال أمثلة لشرائح خمـــس، تتنوع فى كيفية استهدافها طبقاً لمعطياتها وإدراكاتها وآليات الوصول إليها، وهى النشء كشريحة عمرية لأنهم يمثلون المســـتقبل الـــذى لم يتم تشويهه ثقافياً بعد أو التشويش عليه سياســـياً، والمرأة كشريحة نوعية لأنها المدرسة الأولى وصاحبة الوقت الأكـــبر مع النشء، وطائفة عمال التشـــييد والبناء كشريحة فئوية تضم ملايين المصريين وهى طائفة مهمشـــة ثقافيـــاً بطبيعة عملهـــا وتكوينهـــا الاجتماعي، وطائفـــة أبناء الريـــف كشريحة جغرافية لها خصوصيتها الثقافية الأصيلة فى تناقضاتها بين السماحة والتطرف، والسيبرانيون كشريحة اتصالية أفقية تضم المترددين على شبكات التواصل الاجتماعى حيث إنهم يمثلون الآن أضخم التجمعات التى تضم كافـــة شرائح المجتمع الرأسية.

التربية قبل التعليم

التربيـــة قبل التعليـــم للنشء هو هدفنا، والتربية الثقافية على وجه الخصوص، بحيث يمضى النشء معظم سنوات تعليمه الابتدائى فى مسار تربوى يمثل الحصة الأكبر فى بنيانـــه المعرفي، يقـــوم عليها موجهـــون ومحركـــون ومربّون ثقافيـــون من خـــارج المنظومة التعليمية ولكن بالتنســـيق معها، ويتم استقدامهم من كليات الآداب بعناية فائقة، وكذلك من أكاديمية الفنون والمركز القومى للأوبرا بعد التوسع فى انتشارهما الجغرافى وفى مهامهما التربوية والبعد بهما عن طبيعتهما النخبوية بهدف تنخيب (إن جاز الاشـــتقاق) باقى الأمة، ويتـــم التركيز فى الأربع ســـنوات الأولى من المرحلـــة الابتدائية على تثقيف النشء مـــن حيث الفنون الأدائية، والموســـيقى، والتمثيل، والشعر والكتابة والتشكيل لخلق أجيال مبدعـــة ومتذوقة للجمال والفن ومتشوقة للمعرفة، مع عمل صندوق خاص لجوائـــز التميز الأدبى والفنى والثقافى للمتميزين منهم، ليصبحوا قدوة لغيرهم.

المرأة هى المربيـــة الأولى، والموجه

الدائم، وهى وزيرة تعليم الأسرة، ووزيرة اقتصادها، ويجب أن تتكاتف كل أجهزة الدولة من أجل الرفع من شأنها وتمكينها معرفياً واقتصادياً لتحصينها وتحصين النشء من الاستقطاب تحت حاجة العوز المعرفى أو الاقتصادي، المجلس القومى للمرأة يجب إعادة هيكلته أو إنشائه من جديد وتكليفه بتلك المهام القومية بالتعاون مع الصندوق الاجتماعى للتنمية فى استهداف مباشر دون وسائط إعلامية، وتكوين منظومة هرمية للنصح الاجتماعي، بحيث يتولى كل ناصح اجتماعى عدداً من الأسر بهدف التوجيه المعرفى والاجتماعى والاقتصادى مع إيلاء أهمية كبرى للمرأة المعيلة.

ملايين من عمال التشييد والبناء، يسّمون باللغة الدارجة «صنايعية»، متروكون تماماً، طبيعة عملهم الشاقة تستنزفهم بدنياً فى عمل شاق ومضن لمدد تتراوح ما بين عشر إلى اثنتى عشرة ساعة يومياً، دون تلقى أى شكل من أشكال الاستهداف الثقافي، ويمكن إنشاء إذاعة خاصة بتلك الطائفة الكبيرة تخاطبهم أثناء عملهم عن طريق أبناء لتلك المهنة، تتناول حياتهم المهنية الشاقة، وطريقة تنمية أساليب حياتهم، وأنماط استهلاكهم، وترقيهم المهنى والادخاري، وتوجية النصح الفنى لهم شاملاً إجراءات أمنهم وسلامتهم المهنية، ووضع برامج للتثقيف والترفيه المباشر فى مواقع عملهم بالتنسيق مع الاتحادات المعنية، ووضع برامج وخطط إذاعية لترقيتهم معرفياً وسلوكياً.

يجب أن تتخلى وزارة الثقافة عن الإنفاق الباذخ على قصور الثقافة، الذى يحمّل الدولة فوق ما تطيقه من استثمارات تمويلية وتشغيلية إضافة إلى استحالة وصولها بشكلها الحالى للجماهير الغفيرة، وعليها أن تتوجه إلى إنشاء منادر ثقافية قليلة التكلفة الإنشائية والتشغيلية، بحيث تكون كل مندرة ثقافية منبراً ليس فقط للتنوير، وإنما للتنمية الريفية بشكل عام، عن طريق اكتشاف المواهب الريفية وفتح آفاق التوظيف لها والتعبير الفنى والإبداعى عن نفسها، وإدارة المنادر ذاتياً، مع تحويل المندرة إلى مجتمع إنتاجى للسلع الثقافية التقليدية وكذلك للسلع الغذائية الريفية، مع توجيه النصح العمرانى البيئى لقاطنى الريف بهدف خلق مجتمعات ريفية عمرانية متوافقة مع البيئة والطبيعة الخلابة للريف المصرى التى فقدناها وسط عشوائيات الأسمنت والطوب الأحمر.

نسيج معرفى وسلوكى متناغم

وأخيراً وليس آخراً، لابد من استهداف السيبرانيين على شبكات التواصل الاجتماعى وغيرها، عن طريق إطلاق بوابة الثقافة الإلكترونية تستهدف تأصيل وتبويب وإعداد ورقمنة المحتوى الثقافى المصرى للتواصل مع الجمهور المصرى لتعريفهم بالمخرج الثقافى الكلى لمصر عبر العصور، وإيجاد منبر فعال وواسع الانتشار للتواصل مع المجتمع المصرى عامة وشبابه خاصة، بمعطيات وتوجهات الثقافة المصرية بكافة مؤسساتها الرسمية وغير الرسمية التى تؤسس لترسيخ مفاهيم الدولة المدنية والمواطنة، مع إيجاد صيغة رسمية مصرية لويكيبيديا معرفية مصرية وتوثيقية تكون بمثابة جامعة مصرية معرفية رقمية تحفظ الأمن القومى المصرى والهوية المصرية، تستقر على مقومات ومفردات الثقافة المصرية من عمران، وإثنوجرافيا، وعقائد، ولغات، وفنون وآداب، إلخ.. وتنسق مساراتها الافتراضية وأساليب دمج الموضوعات غير الثقافية موضوعياً وجمالياً مع المحاور الثقافية والتاريخية، مدعومة بالصور، والمواد الفيلمية التسجيلية، والجرائد المصورة، والمزارات السياحية، إلخ، لاستكمال المفهوم الثقافي.

لعلك عزيزى القارئ قد لاحظت أولاً تغيّر شكل الخطاب ووسيلة إيصاله بتغيّر الشريحة المخاطبة، ولعلك لاحظت أيضاً إمكانية وضع مؤشرات لقياس المردود والأداء لكل خطاب بآلياته على حدة بشكل مباشر أو غير مباشر، ولعلك لاحظت آخراً أن الثقافة ليست مسئولية وزارة الثقافة وحدها، وإنما مشروع دولة بكامل مرافقها وأجهزتها تبتغى صنع أمة لها نسيج معرفى وسلوكى متسق ومتناغم. ولعلنا بهذا المقال، الذى اختتم ثلاثية الإصلاح المعرفى فى مصر، نكون قد ألقينا بعض الضوء من وجهة نظرنا على المشاكل التى تعترى مصر معرفياً وثقافياً وأساليب التصدى لها. وللحديث بقية.

مصر.. جديدة
صورة مصر التى نريد تصديرها للعالم

لماذا يصور الإعلام الغربى مصر بصورة سلبية فيها كثير من التحامل؟ ما هى السلبيات؟ ما هى الأخطاء التى نرتكبها؟ ما هى الأمور التى لا نقوم بها؟ ما هى الأفعال الموجهة ضدنا؟ من يرسم تلك الصور السلبية ومن يعمل على نشرها؟

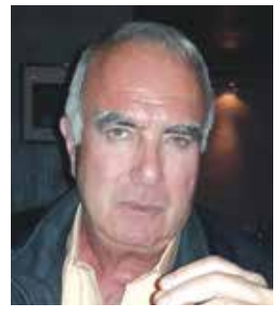

أ. د. محمد مدكور

mohamed.madkour@keyegypt.com

بادئ ذى بدء، يجب أن نقر بأننا لا نخاطب العالم بأية لغة يفهمها. فإعلامنا موجه للداخل، وللداخل فقط. وإن كان يتحدث العربية، فهى العامية المصرية تخاطب المزاج المصرى والاهتمامات المصرية. فنشراتنا الإخبارية مصرية ومواضيع برامجنا الحوارية محلية، بل ما نقدمه من دراما يغوص فى قاع مجتمع عاصمتنا مع قليل يلمس صعيد مصر من باب التغريب. وإن كان بثنا التليفزيونى والإذاعى القومى قد تدهور بعد سَبْقٍ وريادة، فالوصف لا ينطبق على قناة نايل تى ڤى بالإنجليزية أو الفرنسية، التى تبذل جهوداً للانتشار. كما أن الشبكات الخاصة وشبه الخاصة – رغم الميزانيات الضخمة التى تم رصدها لبعضها – لم تتضمن أية قناة منها برنامجاً يتيماً مقدماً بغير العربية. والحال مماثل بالنسبة للصحف المطبوعة، ولعله من نافلة السؤال عن عدد النسخ التى توزع خارج مصر من الأهرام إبدو، أو الأهرام ويكلي، أو الجورنال ديجبت خاصة فى ظل ظاهرة التدهور المستمر فى معدلات توزيع الصحافة الورقية على المستوى العالمى. أما عن وسائط العصر من شبكات التواصل الاجتماعى فرغم أن مصر تحتل مرتبة متقدمة فى العالم من حيث تزايد نسبة المتعاملين والمدونين، إلا أن الأخبار المتداولة والتعليقات والقفشات جلُّها بالعربية، بل إن التعليق على المقاطع المنقولة عن المحركات الأجنبية (يوتيوب وجوجل) قلما يكون بلغة الخبر أو التحليل الأصلية. وخلاصة القول، إننا لا نشارك فى تشكيل صورة مصر خارجها، بل إننا أبعد ما نكون عن ذلك تاركين الأمر للأعداء فالمغرضين فالمهتمين فالمجتهدين.

وتشكيل صورة مصر التى نريد تصديرها للعالم تتطلب أن نحدد ملامح تلك الصورة، ونحدد قنوات بثها ونشرها، ونختار سفراء نقلها وشرحها وإجهاض الهجوم عليها، ونخاطب العالم باللغة بل باللغات التى يفهمها، ونختار التوقيت الأمثل للوصول إلى أكبر قدر من المتلقين. والأمر لم يعد يحتمل الاجتهاد أو نشاط الهواة أو المدّعين، فهى صناعة خدمية بامتياز لها بيوت خبرتها العالمية وقواعدها وأساليب تقديمها. فمما لا شك فيه، أن مصر تتعرض لحرب إعلامية دعائية لا يتم التعامل معها

بأى قدر من الكفاءة. فما يطلق عنا من معلومات مغلوطة أو انتقادات مغرضة يجب دحضها بحجج منطقية وليس بأساليب تحد من الخدمة الإعلامية مثل تشديد الرقابة على الأخبار أو بالنفى ضعيف الحجة. فالسائد الآن إعلام القائمين على برامج حوارية أشبه «بالقذائف المنفلتة» فى اتجاهات متعارضة تتسم كلها برد الفعل ومحاولة التصدى للحرائق بعد أن تكون أتت على الأخضر واليابس.

وتتمثل عناصر ترويج الصورة السلبية عن مصر فى مفهوم خاطئ عن الحقائق المصرية من قبل المجتمع الدولي، ودعاية مغرضة تروجها قواعد الإسلام السياسى والراعين له، ودعاية سلبية تطلقها الجماعات الداخلية الرافضة لمحاولات الإصلاح المؤسسى الجارية، على تواضعها. وعلينا الاعتراف بالأسباب الحقيقية لتلك الصورة السلبية عن مصر وإعادة هندسة أسلوب إدارة نظم بثنا للمعلومات والحقائق، مع الإشارة ابتداءً إلى افتقار شبه مطلق للاستعانة بأى من محترفى تلك الصناعة ذوى الخبرة العالمية فى إدارتها.

وإن بدأنا بتحديد القائمين على تضخيم ونشر الدعاية السلبية عن مصر، فأبرزهم من لهم مصالح چيوسياسية إستراتيچية فى تقويض قدرة مصر الحرة على اتخاذ قرارها وعلى رأسهم إسرائيل وتركيا وقطر، ومن لهم دافع سياسى لإلحاق الضرر بالدولة المصرية وهم دعاة الإسلام السياسى والداعمين لهم، والجمعيات والتحالفات الدولية المنخرطة فى الترويج لقيم ثقافية أو اجتماعية مجتمعاتنا ليست على استعداد لتقبلها بعد كالنقد الحر للديانات السماوية وحرية المثلية والجوانب المتطرفة لما يعتبرونه حقوق الإنسان. والأمر يحتم علينا طرح منظور جديد مختلف عن «مصر.. جديدة» يدور فحواه حول «تمكين المواطن» بإعادة «الكرامة» إليه، حيث تمس «كرامة العيش» من 60٪ إلى 70٪ من الشعب ممثلة فى الطبقات الأقل إلى المتوسطة دخلاً، تكملها "الكرامة السياسية" التى يصبو إليها المواطنون ذوو الخلفية العلمية أصحاب العقول الإصلاحية والذين يمثلون نسبة الـ 10٪ الأشد تأثيراً فى المجتمع المصري، إذ سيؤدى طرح منظور مصر الجديدة فى تطور فجائى معاكس تماماً للدعاية المضادة التى تطرحها أبواق الإعلام الدولية عن النظام المصرى إلى تأثير إيجابى ملموس على صورة مصر السياسية والأخلاقية فيما يتعلق بحقوق الإنسان، وجاذبية مصر الاقتصادية للاستثمارات الأجنبية ليخلق لدى «متخذى القرار» و«مشكلى الرأى العام» فضولاً مستحدثاً تجاه تلك «السياسة النهضوية المستحدثة» لما تتسم به من شجاعة وانفراد وخروج عن الركود المزمن على عكس الانطباع السائد.

وتعود أهمية هذا التحول فى النظرة إلى سببين اثنين. ففى إطار الظروف الچيوسياسية الإقليمية السائدة حيث من كانوا حلفاء مقربين كتركيا وقطر وبعض الدول الغنية بإنتاجها النفطى، فقدوا نفوذهم وكثيراً من ثقلهم ودرجة احترامهم ليصبح بزوغ «مصر.. جديدة» تشارك المجتمعات الغربية قيم القرن الواحد والعشرين أكثر فائدة لقادة «العالم الحر» ولاهتماماتهم «الانتخابية»، وأفضل من اضطرارهم للتواؤم مع «أنظمة استغلالية بالية» لا تشاركهم القيم المشتركة لعصر العولمة السائد وتمثل أخطاراً أمنية حقيقية. كما أن مصر من خلال بزوغها من سبات عميق لتنخرط فى برنامج تطويرى وطنى شجاع على كافة الأصعدة، نافضة انطباع التخلف السياسى فى تعاملها مع نظمها الداخلية ومنظومة حقوق الإنسان ستعود مؤهلة للاضطلاع بدورها الإقليمى الطبيعى بصفتها الفارس المتشح بلباسه

الأبيض القادر على طرح وإنجاح الحلول السياسية الثقافية الملائمة لفض النزاعات الإقليمية المشتعلة فى العراق واليمن وسوريا ولبنان وليبيا.

ولعله من المناسب طرح تصور متكامل للبنية الأساسية المقترحة لمنظومة الإعلام والتواصل القادرة على تصدير الصورة الحقيقية لمصر مركزين على الاعتراف بالأخطاء التقليدية السائدة (وهو أمر تطرق له الرئيس السيسى مراراً) والتى يأبى المجتمع التقليدى بل وبعض شرائح الدولة الاعتراف بها والتعامل الجدى معها ويفضل سياسة الإنكار والإخفاء والتعتيم. وبلغة أخرى المطلوب التخلى عن مفهوم أن الاعتبار الأمنى يسود فوق سائر الاعتبارات؛ فضلا عن تحرير وإعلاء شأن المصادر الأربعة للمعلومات المعتمدة أى الجهات المنوط بها تجميع ونشر «البيانات الأساسية» وعلى رأسها الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، والبنك المركزى والجهات المنوط بها تدقيق وتحليل البيانات وعلى رأسها الجهاز المركزى للمحاسبات، وهيئة مصر المقاصة، والهيئات الحكومية المختلفة؛ والجهات المدنية الناشرة للآراء والتحليلات كوسائل الإعلام المحلية، ووسائل الإعلام الخارجية، وشبكات التواصل الاجتماعي، ومراكز الأبحاث والفكر العامة والخاصة، ومنظمات المجتمع المدنى والأحزاب السياسية.

وإن كانت معظم مكونات هذا المصدر الأخير تحكمها مصالح خاصة فئوية أو شخصية تدفعها للتغاضى عن حقيقة البيانات الأساسية مما يترتب عليه تصدير صور مشوهة عن الدولة تمثل أضعف حلقات سلسلة الإعلام والتواصل المصري.

وبتفصيل أوضح لنطرح مقترحاً حول إستراتيجية شاملة للإعلام والتواصل الخارجى (دور الدولة)، قوامه إقامة مجلس تنفيذى لإدارة شئون الإعلام والتواصل الخارجى يضم الجهات والهيئات والأجهزة المنتجة للمعلومات والمعنية بالتواصل الخارجي. ينبثق عنه فريق عمل للتدخل السريع فى شئون الإعلام والتواصل الخارجي. وعلى أن يحرص المسئولون عن سياسة الإعلام والتواصل الخارجى على إقامة شراكة وطيدة بين المدنيين والسياسيين من جانب، وبين الوزارات السيادية من جانب آخر.

ويقترح أن يتشكل المجلس من ممثلين عن كل الجهات فى الدولة، وعلى أن يشكل فريق عمل للتدخل السريع بالأمانة العامة للمجلس وذراعه التنفيذية، فضلاً عن مجموعة مكاتب خارجية تتكامل مع فريق العمل فى العواصم والمدن المؤثرة دولياً. (قد توكل مهام تلك المكاتب الخارجية لشركات متخصصة مشهود لها بالكفاءة). وفريق عمل التدخل السريع عليه أن يعمل بأسلوب «غرفة حرب إعلامية غير تقليدية» تأخذ المبادرة ولا نكتفى برد الفعل الدفاعى لإطفاء الحرائق بعد إضرامها. ليذهب دوره إلى تجميع شامل وعميق للنتاج الإعلامى – داخلياً وإقليمياً ودولياً – لتوقع ودرء أى هجوم إعلامى سلبى معادٍ، وإحاطة السلطات المصرية المعنية بالحملات الإعلامية السلبية المتوقعة لتنسيق اتخاذ الخطوات المناسبة للمواجهة والتصدي، وبناء شبكة من منصات البث الإعلامى للرد والتصدى السريع عند الحاجة، وإقامة علاقات

وطيدة مباشرة مع أوسع شبكة من «قادة الرأى العام» إقليمياً ودولياً لدرء مخاطر المفاهيم والتفسيرات والاختلاقات الناتجة عن الجهل أو ضعف المعلومات أو الغرض. ولنهتم بتوزيع أكثر كفاءة لمسئوليات التصدى لأنشطة الإعلام والتواصل الخارجى آخذين بعين الاعتبار التغييرات المتسارعة فى الأوضاع الجيوسياسية فى الشرق الأوسط وأفريقيا، بالأخص الهبوط فى مداخيل النفط، والاحتقان السعودى – الإيراني، وتدفقات الهجرة نحو أوروبا، والانفجار السكانى وغير ذلك من الموضوعات.

إن أمام مصر فرصة لاستعادة مكانتها السابقة كنموذج يحتذى للريادة الإقليمية الرشيدة حيث ستؤدى استعادة مصر لمصداقيتها الإقليمية والدولية إلى تحسين الاستقرار الداخلي، ووأد الآثار السلبية التى تخلفها الحملات المعادية الصادرة عن المروجين والداعمين لفكر الإسلام السياسى بالداخل وبالخارج، وتحسين صورة مصر فيما يخص اعتبارها شريكاً مؤتمناً للمجتمع الدولى فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، واستعادة سريعة لدور مصر السابق فى كونها المحرك للنهضة المجتمعية فى محيطها الإقليمي، واستعادة أهمية مصر الإستراتيجية لكل من لهم اهتمام أو مطامع بالمنطقة.

ولطرح مثال واحد لأنشطة تأخرت لعدة سنوات ننتقى «إطلاق محطة بث تليفزيونى تخاطب العالم الخارجى بلغة 2017» ليكون الإرسال باللغة الإنجليزية ثم الفرنسية وأخيراً بالعربية، ليقدم خطاب مصرى ذكى هادئ مقنع، قوامه مجموعة من شباب الإعلاميين يملكون ناصية اللغة الإنجليزية و/ أو الفرنسية ويملكون ناصية التعامل بحرفية مع الحاسبات الإلكترونية، ليقوموا بمتابعة مستمرة لكل من مجموعة مختارة من القنوات التليفزيونية، ومجموعة مختارة من أمهات الصحف ووكالات الأنباء العالمية، ومجموعة مختارة من مواقع التواصل الاجتماعي، وذلك بهدف انتقاء المواد المهاجمة، الأخطاء الفادحة، المواد الداعمة، لتقديم تعليق يومى مستفيض بغية فضح الأكاذيب، وتصحيح المواقف والتصريحات المتناقضة، وعرض الحقائق المؤكدة بشفافية واتزان، وعلى أن يقدم هذا التحليل بالتناوب مجموعة منتقاة من القمم المصرية فى السياسة والثقافة والإعلام والاقتصاد يمتلك كل منهم ناصية الإنجليزية و/ أو الفرنسية فضلا عن مصداقية واحترام دولي.

على أن تبرم اتفاقات مع قنوات مصرية للبث المباشر أو اللاحق لبرامج حوارية منتقاة مدبلجة أو مزودة بشريط ترجمة لعرض ما يبث يومياً من نقد لاذع لدحض مزاعم كبت حرية الإعلام، وعلى أن تبرم اتفاقات، على التوازي، مع أشهر القنوات العالمية واسعة الانتشار لتقديم نشرات أخبار «مصرية» تعد فى القاهرة وترسل إليهم لتقرأ من استديوهاتهم من خلال مذيعيهم الأشهر لتبث على تردد قنواتنا لاكتساب ألفة أسرع ومصداقية أعمق بين المجتمعات المستهدفة إعلامياً، حيث يتصور البدء ببث حى لمدة ست ساعات، يتكرر مرتين أو ثلاث، لتغطية أوقات الذروة لدى مختلف المناطق الجغرافية المستهدفة.

ولعل ما تقدم، قليل من فيض، يتحتم أن تتضمنه خطة قومية محكمة للإعلام والتواصل الخارجى لإعادة مصر إلى صورتها أو «ماركتها المسجلة» المستحقة.

أسماء عريقة لمدن مصرية (الجزء الثاني)

سفير محمد عهدى خيرت
makhairat@gmail.com

بلبيس:

بلدة بمحافظة الشرقية عثر بها على أحجار منقوشة ترجع إلى عصر رعمسيس الثانى، وبها أطلال معبد من أيام نختنبو الثانى (الأسرة الثلاثين وآخر ملوك مصر الفرعونية) كان مقاما باسم المعبودة باستت. ويرى بعض علماء الدراسات المصرية أن اسم "بلبيس" مشتق من اسم مدينة قديمة كانت تسمى "بر - بست" وكانت مركز عبادة باستت.

بهبيت الحجر:

بلدة شمال سمنود بمحافظة الغربية، كان اسمها فى العصر الفرعونى " بى - هبيت" وهو أصل اسمها الحالى، وكان يعبد بها المعبود حورس وأمه إيزيس. وكان بالمدينة معبد من العصور القديمة أكمله نختنبو الثانى (الأسرة الثلاثين) وأكمله أيضا بطليموس الثانى، وتهدمت جدران هذا المعبد ولكن أكثر أحجاره باقية فى مكانها وعليها نقوش مهمة.

البهنسا:

بلدة بمحافظة المنيا كانت من المدن المهمة فى العصر الفرعونى وعاصمة الإقليم التاسع عشر من أقاليم الوجه القبلى، وكان اسمها "بر - مزد" ومنها جاء اسمها فى القبطية "بمجى"، ثم أطلق عليها اليونانيون اسم أوكسيرنيوكوس، وهو اسم سمك القدومة الذى كان يقدسه أهل هذه البلدة. وذكر المؤرخ الرومانى بلوتارك قصة المعارك الدامية التى كانت تقع بين أهل المدينة وبين جيرانهم أهل مدينة "القيس" (كينوبوليس) لأنهم كانوا يأكلون هذا النوع من السمك. وكانت "البهنسا" بلدة مهمة فى جميع العصور القديمة وزاد من أهميتها مركزها التجارى، ولكن لم يعثر حتى الآن على معابدها رغم أنه من المؤكد أنه كان بها عدة معابد أحدها للمعبود ست وآخر للمعبودة تا - ورت وآخر للمعبودة رننوت. وعاشت فى "البهنسا" خلال العصر الصاوى والعصر الفارسى جالية آرامية عثر على بعض وثائقها، وازدهرت المدينة كثيرا فى العصر المسيحى وشيد فيها العديد من الكنائس.

بيهمو:

بلدة بمحافظة الفيوم بها أطلال قاعدتين عظيمتين فوق كل منهما تمثال من الحجر الرملى الأحمر للملك أمنمحات الثالث (1841 - 1792 ق.م)، ويرجح أنه كان هناك معبد، ويطلق الأهالى على هذا الأثر اسم صنم بيهمو وأحيانا كرسى فرعون.

تل أتريب:

منطقة أثرية على بعد ثلاثة كيلومترات شمال شرق بنها بمحافظة القليوبية بها أطلال مدينة قديمة كانت تدعى "حت - حرى - آب" ثم تحورت فى العصر القبطى إلى أثريباى، وكان معبودها الرئيسى هو "كم - ور" ويرمز له بثور أسود ومعه معبودة أخرى لها صفات حتحور. وكانت "حت - حرى - آب" مدينة مهمة فى جميع عصور التاريخ عثر فيها على العديد من الآثار منها مقبرة لملكة من ملكات العصر المتأخر وبعض المعابد الرومانية والكنائس، وعثر فى جباناتها على العديد من المومياوات للحيوانات خاصة الصقور.

وهناك بلدة أخرى تحمل نفس الاسم فى محافظة سوهاج أمام أخميم كان اسمها فى العصر اليوناني أتريبس وتسمى الآن أتريب وأحيانا كوم أتريب، وفى أيام قدماء المصريين كانت تسمى

”حـــت - ربيـــت“ وفى القبطية أتريبـــه، وبها أطـــلال معبدين أحدهمـــا من عـــصر بطليموس السادس عشر والثانى أقامه الملك ”واح - آب - رع“ (أبريس) من الأسرة السادسة والعشرين (588 - 568 ق.م).

تل العمارنة:

منطقة أثريـــة مهمة على الضفة الشرقيـــة للنيل بمركـــز ملوى بمحافظة المنيا، اســـمها القديم ”أخـــت - آتـــون“ بمعنى أفق آتون، وهو اسم المعبود الذى أراد إخناتون (أمنحتـــب الرابع) أن يعمم عبادته فى مصر دون سائر الآلهة وكان ذلـــك حوالى 1370 ق.م خلال عـــصر الأسرة الثامنة عشرة وقت ازدهار الإمبراطورية المصرية، ولقيـــت دعوته مقاومة شـــديدة من كهنة آمـــون أعظم الآلهـــة المصرية نفـــوذاً فى ذلك العصر وأدى ذلك إلى صراع مرير جعل إخناتون يحطم اسم آمون أينما وجـــده ويغلـــق معابده وينشئ معابد جديدة لآتون الذى كان يمثل القوة الكامنة فى قرص الشمس والذى جعله الإله الوحيد فى البلاد.

ولم يستســـلم كهنة آمون لما وقع عليهم من اضطهاد، كما لم تجد الدعوة إلى الديانة الجديدة تأييدا شـــعبيا خاصة من ذوى النفوذ، ولهذا قرر إخناتـــون ترك طيبة مدينة آمـــون ومعقـــل العبادة الآمونية ووقع اختياره على منطقة فى مصر الوســـطى فى منتصف المســـافة تقريبا بين طيبة ومنف وأمر بتشـــييد مدينة جديدة فيها لأنها - كما ذكر فى نقوشه- منطقة لم تلوث أرضها بعبادة آلهة أخرى، وقام بتشـــييد المعابد والقصور على الضفة الشرقية للنيل، وبعد الانتهاء من بنائهـــا انتقل إليها ومعه حاشيته ورجال بلاطه، كما نقل كل الوثائق والمستندات إليها. وازدهرت المدينة ازدهارا كبيرا.

وشهدت أخت - آتون الكثير من الأحداث حتى جـــاء اليوم الذى اختفى فيه إخناتون وتلته أحداث أخرى أدت إلى عودة عبادة آمون وانتقل مقـــر الملك مرة أخرى إلى طيبة وهجـــر الناس مدينة أخت - آتون واعتبرت مكاناً نجســـاً، وحطم الملك ”حور - محب“ حوالى عـــام 1324 ق.م. معابـــد آتون وأصبحت المدينة كلها أنقاضاً.

ثم نـــسى الناس الملـــك إخناتون ومدينته وأصبحت المدينة تسمى باسم عائلة أقامت بها فأصبحت تل العمارنة أو تل بنى عمران.

وحدث عام 1887م. حادثة أدت إلى تركيز الباحثين الاهتمام بهذه المدينة، وهـــى أن إحدى فلاحات القرية ذهبت إلى خرائبها لتبحث عن حجر تبنـــى به فرناً، فعثرت عـــلى ألواح من الطـــين المحروق عليهـــا بعض المكاتبـــات اتضح بعد عدة ســـنوات أنها الرسائل الدبلوماســـية المتبادلة بين ملوك مصر وملوك آسيا وحكامها، وتبع هذه الحادثـــة حفائر كثيرة وتم العثور على الكثير من الآثار.

تل اليهودية:

منطقة أثرية بالقرب من شـــبين القناطر وبها أطلال أسوار حصن كبير ربما كان فى الأصل حصناً من حصون الهكسوس، كما عثر على معبد شيده رمسيس الثالث وكانت جدرانه محلاة بألواح صغيرة من الزجاج الملون، أما اسمها الحالى فيرجع إلى تشـــييد معبد يهودى

بها إذ سمح بطليموس الرابع عام 170 م. لأحد كبار كهنة اليهود واسمه أونياس بإقامته على نسق هيكل سليمان بأورشليم ليتعبد فيه اليهود الذين استقروا فى مصر بعد طردهم من فلسطين.

تل بسطة:

منطقة أثرية جنوب شرق الدلتا بجوار مدينة الزقازيق كانت عاصمة الإقليم الثامن عشر من أقاليم الوجه البحرى، واسمها الحالى مشتق من اسمها القديم "بر - باستت"، أى معبد أو بيت باستت المعبودة الرئيسية فى المدينة. وبلغت "بر - باستت" (تل بسطة) أوج ازدهارها فى العصر المتأخر خاصة عصر الأسرة الثانية والعشرين (950 ق.م).

تل تمى الأمديد:

منطقة أثرية على مسافة ثمانية كيلومترات من السنبلاوين بمحافظة الدقهلية، وهى تجمع بين منطقتين أثريتين متجاورتين هما "تل الربع" و"تل تمى". و"تل الربع" هى أطلال مدينة "ددت" وكانت عاصمة الإقليم السادس عشر من أقاليم الوجه البحرى، وعثر بها على معبد من أيام رمسيس الثانى وابنه مرن - بتاح، كما عثر أيضا على آثار من عصر الأسرات الحادية والثانية والسادسة والعشرين. أما "تل تمى" وتسمى أيضاً تل سلام فقد عثر بها أيضاً على آثار من عصور مختلفة وخاصة العصر المتأخر.

الحيبة:

تقع قرية "الحيبة" على الضفة الشرقية للنيل جنوب مدينة الفشن بمحافظة بنى سويف، وهى تقوم على أنقاض المدينة القديمة "حت - بنو" أى بيت الطائر مالك الحزين الذى قدس بها، ولا تزال أسوار المدينة القديمة التى أقيمت فى عصر الأسرة الحادية والعشرين من الطوب فى حالة جيدة نسبياً، كما أن هناك أطلال معبد للمعبود آمون.

دمنهور:

عاصمة محافظة البحيرة، ترجع أهميتها التاريخية إلى كونها فى نفس مكان المدينة القديمة التى يرجع أصلها إلى فجر التاريخ المصرى، وكانت تعرف باسم "دمى - آن - حور" أى مدينة حورس وحرفت فيما بعد إلى دمنهور. وفى عصور ما قبل التاريخ اتحدت أقاليم الوجه البحرى فى مملكتين سيطرت إحداهما على شرق الدلتا والثانية على غربها متخذة من دمنهور عاصمة لها. وظلت دمنهور عاصمة الإقليم الثالث من أقاليم الوجه البحرى

طوال العصور الفرعونية، وكانت مركزا مهماً لعبادة الإله حورس، ولا يوجد فى دمنهور حاليا أية آثار يمكن زيارتها.

سايس:

تقع أطلال مدينة "سايس" القديمة على مقربة من بلدة صا الحجر الحالية غرب محافظة البحيرة والغربية بالقرب من كفر الزيات، وكانت تسمى " ساو"، وهو الاسم الذى حرفه الإغريق إلى "سايس". ولعبت "سايس" فى عصور ما قبل التاريخ دورا مهما ويعتقد المؤرخون أن مملكتي شمال الدلتا اتحدتا فى مملكة واحدة اتخذت من "ساو" عاصمة سياسية لها، وكانت "ساو" عاصمة للإقليم الخامس من أقاليم الوجه البحرى، ثم عاصمة لمصر كلها أيام الأسرة السادسة والعشرين، ولذا يطلق على هذا العصر اسم العصر الصاوى، وهو العصر الذى جاهد فيه ملوك هذه الأسرة فى سبيل استعادة مجد مصر القديم، ومع ذلك لم يتم العثور حتى الآن على المدينة القديمة أو على آثار تستحق الذكر

بل إن مدافـــن ملوكها التى زارها وكتب عنهـــا المؤرخ هيرودوت لم يعثر على مكانها حتى الآن.

سخا:

تقع بلـــدة "ســـخا" بمحافظة الشرقية، وذكر مانيتون أنها كانت عاصمة لملوك الأسرة الرابعة عشرة وهـــى الأسرة الســـابقة لاحتلال الهكسوس مصر، وازدهرت هذه المدينـــة فى العصريـــن الإغريقى والرومانى، ولـــم يعثر بها على آثار تذكر مـــن العصر الفرعوني وربما كان ذلك لأن عصر الأسرة الرابعة عشرة كان عصر اضطراب وفوضى، ولكـــن عثر بها على آثار ترجـــع إلى العصريـــن الإغريقى والرومانى.

سرابيط الخادم:

أهـــم مناطق جبـــال الفيروز فى ســـيناء، وهى فى جنوب شـــبه الجزيـــرة فى منطقة جبلية وعرة، وبدأ استغلال المصريين لمناجمها اعتباراً مـــن الأسرة الثانية عشرة وربما قبل ذلـــك، وأقاموا هناك معبـــداً، وكانت الإلهة "حتحور" سيدة جبل وسيناء والفيروز تعبد هنـــاك وإلى جانبها بعض الآلهة الأخرى وخاصة الملك "سنفرو" الذى ألهه ملـــوك الأسرة الثانية عشرة وكانوا يقدمون له القرابين. ومن أهـــم ما يرتبـــط بمنطقة "سرابيط الخـــادم" تلك النقوش المعروفة بالنقوش "الســـينائية" والتى كتبها بعـــض العمال غير المصريين والذين أتوا من سوريا للعمل هناك، واتضح من حروفها أنها أصل الكتابة التى استخدمها الفينيقيـــون الأوائل، وكانت أولى الخطوات لتبســـيط الكتابة، ولا يمكن تقدير قيمـــة هذه الوثيقة إلا بمعرفة أن الأبجدية اليونانية مشتقة من الفينيقية، ثم أصبحت اليونانية أصل العديد من اللغات.

سقارة:

أهم مناطق جبانة منف، تقع على حافة الصحـــراء الغربية جنوب هضبة الجيزة، ويغلب الظن أنها اشتقت اســـمها من الإله المصرى القديم "ســـوكر" إلـــه الموتى، وهى تنقسم إلى سقارة الشمالية وســـقارة الجنوبيـــة وتعد من أغنى المناطق بالآثار سواء ما تم اكتشافه أو مازال مطمورا تحت الرمال. وأهم آثار سقارة هرم الملك "زوسر" المدرج أول بناء حجرى ضخم شيدته اليد الإنسانية، كما أن بها عدداً مـــن الأهرامات من الأسرتين الخامســـة والسادسة أهمها هرم الملـــك "أوناس" آخر ملوك الأسرة الخامسة، وهرم الملك "تتى" مؤسس الأسرة السادسة، وهرم الملك "ببـــى الأول" ثانى ملوكهـــا، كذلك بهـــا العديد من المصاطب الخاصة برجال البلاط، كما يوجد بها أيضا "السيرابيوم" أو مدفن العجول المقدسة ومقابر من العـــصر المتقـــدم وجبانات من العصر المتأخـــر والعصرين الإغريقى والرومانى.

سمنود:

تقع مدينة "ســـمنود" على فرع دمياط شـــمال الدلتا وتنتشر على مقربة منها أطلال تخلو من آثار مهمة هى كل ما تخلف من المدينة القديمة التى كانت تســـمى "ثب - نتر" وكتبها الإغريق سبنوتس أصل اسمها الحالى.

وكانت هذه المدينة عاصمة مصر كلهـــا فى عهد الأسرة الثلاثين آخر الأسرات الفرعونيـــة، ومن أهم ما يرتبط بتاريخ "ســـمنود" أنها كانـــت المدينة التى عـــاش فيها الكاهن المـــصرى مانيتون الذى كان أعلم أهل مصر بتاريخ ولغة القدماء، لذا كلفه الملك "بطليموس الثانـــى" بكتابـــة تاريخها، وما كشـــف حتى الآن مما كتبه يعتبر أحد المصادر الأصلية فى دراســـة التاريخ المصرى.

ماذا تفعل بنفسها؟ وإلى أين؟ قراءة فى شخصية مصر

من هي؟ ما هي؟ ماذا تفعل بنفسها؟ وماذا يفعل بها؟ وإلى أين؟ بالعلم والعمل وحدهما، لا بالإعلام الأعمى ولا الدعاية الدعية ولا التوجيه القصرى المغرض يكون الرد.

هبة عبدالعزيز

heba.elmolla@yahoo.com

كانت تلك هى الإجابة على الأسئلة السابقة لها، كجزء مما ورد فى مقدمة كتاب (شخصية مصر) للإنسان المصرى الواعى، والجغرافى الضليع، والمفكر النادر الأستاذ الكبير «جمال حمدان» الذى عرف مصر (كما ينبغى أن تعرف) كتاريخ حى نابض بالعمل والإنتاج والإبداع والمحن والمقاومة. ووصف مصر(كما لم يصفها أحد) من قبله ولا أظن أن أحداً بعده حتى يومنا هذا استطاع أن يصفها لنا كما وصفها وصورها هو. فقد عبر عن شعوره بقصائده الفكرية فى حب مصر المتحررة المتقدمة كما أرادها وكما يريدها كل من عشق ترابها، وقد كتب عنها كمواطن أصيل مهموم بشئون وطنه، وكصاحب مشروع حضارى مصرى عربى متكامل شامل، فوصفها كمكان مرتبط بالزمان، وكجغرافيا متفاعلة مع التاريخ، وكأرض أنجبت وارتبطت بمن عليها من إنسان، فمصر هى العامل والفلاح والمثقف والفنان والسياسى والاقتصادى والإدارى. هى السلطة والجماهير. هى المتحركة فى التاريخ والمحركة له.

لماذا تخلفت وغيرى تقدم؟

سؤال عميق كان قد طرحه الأستاذ فى كتابه كمحور لما أراد الوصول إليه، ويا له من سؤال! فأحيانا كثيرة عندما أحاول التفكير للإجابة عليه، أذهب إلى بعيد حيث يتنافس أو يتصارع ببالى عالمان أحدهما من الأحلام وآخر من الأوهام، وكما هو معروف أن الأحلام تختلف عن الأوهام، فـ «الأحلام» لها قوة حضور عكس «الأوهام» التى هى حالة من الغياب أو الغيبوبة، فعندما تتملكنى بعض «الأوهام» أشعر بحزن شديد بل ويأس أحيانا كذلك، بخلاف «الأحلام» التى تمنح الشعور بالمتعة والأمل، فقوة حضور الحلم دائماً ما تكمن فى كونه يظل مؤشرا يشير إلى الطريق السليم، كما يحاول تصحيح الواقع أو الأفعال على الأرض بقوة الأفكار. وأحمد الله كثيرا أن عالم الحلم غالباً ما ينحى عالم الوهم جانباً ويتصدر هو المشهد بداخلى. ولكن، وأدرك ذلك جيدا، أنه ما بين الحلم وتحقيقه فترات انتظار، وفى العادة تكون تلك الفترات قلقة ومتوترة إلى أن يحدث التغيير، وخصوصا فى بلد بلغت مدى أصبح من الصعوبة معه أن تعود الأمور إلى سيرتها الأولى كما كانت منارة لمعانى وقيم الحضارة.

وقد تعلمنا أن على الدنيا دائماً أن تنتظر وننتظر نحن معها. ولكن متى يكون لهذا الانتظار جدواه؟ عندما ننتهى من الإجابة على سؤال «الهوية» الصعب السهل: من أنا؟ مما ينقلنا بدوره لإدراك أهمية الإجابة على السؤال الآخر وهو: لماذا تخلفت وتقدم غيرى؟ وهنا وجب علينا أن نتوقف لوضع وصياغة خطتنا الاستراتيجية العامة وتحديدنا أهدافنا القريبة والبعيدة، ثم نعجل ونستعد لوضع ذلك موضع التنفيذ، ومن ثم وضع بلدنا على أول طريق النهضة، طريق النمو والتنمية.

وقد يبدو أن أكثر ما جذبنى فكرياً ووطنياً وروحياً للتعمق فى القراءة ومن ثم الكتابة عن عاشق مصر أستاذى جمال حمدان وكتابه «شخصية مصر» هو ذلك المنظور المشترك، فمفكرنا العظيم لم يكن مجرد عالم كبير من علماء الجغرافيا أو فيلسوف وإنما هو فضلاً عن هذا وذاك صاحب مشروع حضارى مصرى، ووصف المشروع بـ(المصرى) – وهو ما ميز الكاتب والكتاب- وهو يعنى أنه يختلف بالتأكيد عن كونه مثل المشاريع الأخرى سواء الليبرالية أو القومية أو الإسلامية، وهذا الطابع فى ظنى هو أهم ما ميز مشروع جمال حمدان، حيث إنه قدم مشروعا حضاريا مصريا كامتداد متطور وخلاق لمشروع عصر النهضة، مؤصل تأصيلاً علمياً عميقاً- وتلك ميزة أخرى ميزت الكتاب أيضا، وهى

جمال حمدان

الأساس العلمى، وقد اهتم فيه بالإجابة على سؤال الخصوصية القومية، وسؤال الهوية المصرية المعلق أحياناً والمجهض أحيانا أخرى بكل أسف.

ونشعر ونحن نقرأ لجمال حمدان أنه قد بذل جهداً كبيراً للتأكيد على الهوية المصرية، وحمايتها والدفاع عنها، فى مواجهة محاولات التمييع والطمس والامتهان والاغتراب التى تتعرض لها، فضلاً عن اقتراحه لمختلف الحلول لتنميتها وتطويرها، ويبدو أن ذلك هو أساس أو مصدر التداخل فى كتابه ما بين الواقع والتقييم المرتبط بموقف فكرى.

ضرورة الفعل من أجل الإصلاح

وباختصار شديد فقد ركز الكتاب على محاور ثلاثة سأحاول إيجازها وهى: محور الرؤية الكلية التى يتداخل فيها الجانب الجغرافى بالجانب التاريخى، ومحور التفاعل بين الثنائيات المتضادة سلباً وإيجاباً، ثم محور التغيير بالعلل المادية والبنيوية والفاعلية.

إلا أنه امتد كذلك إلى ضرورة الفعل من أجل الإصلاح والتغيير ولم يتوقف عند الوصف والتقنين النظرى، فقد ختم عمله بموقف نقدى حاسم من بعض الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية (وسنتحدث عن بعض الأمثلة على ذلك فى نهاية المقال)، كما اختتم كتابه أيضا بما يشبه الخطة الشاملة للتغيير فى مختلف المجالات المصرية: الزراعية والصناعية والإنتاجية عامة. وإن كان تركيزه الأساسى على ضرورة التغيير الجذرى فى العقلية والشخصية المصرية، فعلى حد قوله إن هذا هو (الشرط المسبق لتغيير شخصية مصر وكيان مصر ومستقبل مصر). «ص ٥٤٨».

ولعلى أرى أنه من واجبنا الوطنى أن نحسن الإنصات إلى المشروع الحمدانى، وأن نحسن استيعاب دلالاته الموضوعية والنقدية ودعوته للتغيير، وأن نعمل جادين على الإضافة إليها إبداعاً فكرياً وإنجازاً علمياً، فإنتاج جمال حمدان قيمة كبيرة وليس مجرد أغنية عاطفية مسطحة فى حب مصر كما حولته العديد من الوسائل الإعلامية سواء بوعى أو بجهل، فحمدان كان عاشقاً لمصر، ولكن عشقه هذا كان نابعاً من وعيه بالحقيقة وقد تجلى فى جسارته الفكرية الملهمة لأصحاب العقول.

فلسفة توازنية

لقد وددت أن تكون آخر كلماتى هنا كما نوهت ببعض مما اقترحه الأستاذ جمال حمدان للخروج بمصر على حد قوله من مأزقها التاريخى الوجودى، ومن دوامة الصغار والهوان والأزمات المتراكبة، فقد كان يرى أن البداية لابد وأن تكون مع «الديمقراطية» ففى نظره أنها مفتاح لحل مشكلات مصر وبها تسير البلاد فى طريق الشفاء من الأمراض والسلبيات. كما استفاض فى الحديث عن الاقتصاد حيث كتب أنه يخشى على مصر من «الانفتاح الاقتصادى» وله مقولة فى هذا الصدد وهى أن (الرأسمال الأجنبى قد خرج من باب التأميم ودخل من باب الانفتاح)، فقد كان يدعو إلى فلسفة توازنية فى صيغة تجمع ما بين الانغلاق الضيق والانغلاق الواسع، على أن الأهم عنده ظل هو تنمية الإنسان الاقتصادية والمجتمعية والثقافية لصالح التحرر والتقدم. وأما على المستوى القومى فقد كان يرى أنه لا وحدة للعرب بدون زعامة مصر، وأن فكرة الحديث عن إقامة وحدة شرق أوسطية بعيدة كل البعد عن خصوصيتنا ومصالحنا، فقد كانت شخصية مصر عنده تنبع من مصالحنا بالأساس. لذا فـ «شخصية مصر» كان وسيظل كتاباً فى التغيير الاجتماعى الحضارى المستند إلى رؤية علمية موضوعية، وهو أيضا كتاب واع للتصدى لمحاولات طمس شخصية مصر فى واقعها الجغرافى والإنسانى والتاريخى والاقتصادى والقومى والثقافى والنفسى.

وفى الختام ألقى السلام على روح من قال (فالتاريخ هو الجغرافيا المتحركة، والجغرافيا هى التاريخ الثابت، وبهذين المستويين المتداخلين الأفقى والرأسى تتحدد المعالم الأساسية الكلية لمختلف الظواهر الطبيعية والبشرية، وتتداخل كذلك مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإنسانية عامة).

مصر كانت قبل التاريخ.. هكذا تحدث محفوظ

فجر الإنسان كان فى طيبة

طيبة- رادوبيس- أخيتاتون- الحسين- خان الخليلى- زقاق المدق- بين القصرين- قصر الشوق- السكرية- قشتمر- أولاد حارتنا- خوفو- أحمس- أخناتون- عاشور الناجى- الجبلاوي "كنت الأمس وأعرف الغد" أشرقت مصر للنهار من لوتس النهار، ودموع النهر، ونفحة الطين انبثقت سيدة الوجود "ابنة بتاح" مصر؛ من بيضة الأزل ساطعة مشرقة ثرية بيضاء. مدينة الجدار الأبيض "طيبة"، عين رع "هليوبوليس"، ابنة النهر "منف". فجر الإنسان كان هنا فى "طيبة". "مصر للمصريين". "الأمة المصرية". "لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا". "مصر أولا". "فجر الضمير".

أثمرت ثورة 19 المجيدة أبناء أوفياء لمفهوم وتصور "المصرية"! وضمير مصرى أصيل حرك جمود والتباس وتيه "مصر للمصريين». من أبناء الأمة المصرية الأبرار نجيب محفوظ، الذى نشأ وشاهد "نهضة مصر" مفهوما، أمة، ثقافة، شعباً، جاليات متمصرة؛ تمثالاً شامخاً جليلاً جميلاً؛ اكتتبت له الأمة المصرية كلها؛ الملك والوزير والأحزاب والمثقفون وكبار الملاك وعمال المعمار والباعة السريحة، واستجاب نجيب محفوظ للنداء الخالد "الأمة المصرية" زاغ البصر وانبهرت أمم الأرض بمظهر وهيبة الملك "توت" الراقد بين جنبات المحروسة ابنة حورس صقر السماء العين الحارسة مخلص طيبة من الشرير ست ابن سيد البر الغربى ومملكة الخروج للنهار "أوزيريس"، وسيدة النجاة، أم النور، رئيسة الديوان، ربة الخصوبة والفيضان "إيزيس". أنا المصري؛ ابن مصر سيدة الأزل التى وهبت النيل، ووهبت الحياة، وصاغت الحضارة. أم الدنيا هكذا بتلك الروح وبذلك المفهوم: "مصر

أحمد سعيد المصرى
كاتب متخصص في أدب نجيب محفوظ
elmasry.ahmed1966@gmail.com

وجدت أولا، ثم وجد التاريخ".

مصر مفجرة الثقافات والتاريخ

ترجم «مصر القديمة» لجيمس بيكى-1932- لإثبات الذات القومية المصرية الصاعدة، بعد الدستور ودولة المؤسسات والتعددية الثقافية والسياسية والعقائدية. مصر مفجرة الثقافات والتاريخ والثقافة والعظمة. مملكة مصرية ممتدة، وإرث حضارى عميق ثرى لمجد مصر الأزلى الخالد عن تاريخ مصر الفرعونى وتنوع وتسلسل المجد الثقافى والسياسى والقومى «أنا المصري» هكذا غنى المصريون. الأنا المصرية يواصل محفوظ تأصيل هويتها وعظمتها من خلال «عبث الأقدار-حكمة خوفو» 1939 تأريخ وتأسيس؛ لمصر الأزل التى سبقت التاريخ، يسرد ويرصد عصر بناة الأهرام الراسخين؛ ليقف الخلق جميعاً أمام مجد الثالوث الغامض، وقواعد المجد الخالد. أهرامات النهر والأرض والشعب وأسرة أهرام الأسرار متنوع التأويل، هكذا يسرد نجيب محفوظ كيف صنعت مصر المصريين، وأقاموا فوق أرضهم الحبيبة السمراء أوتاداً تتحدى الفناء والزمن باقية خالدة خلود الدهر والكون والجمال. وبعد معاهدة 1936 وإعلان الاستقلال الجزئى عن انجلترا المحتلة وفى ظل مجلس نواب وحكومة منتخبة من الشعب، وأثناء الصراع مع المحتل السياسى والثقافى، وتبلور الذات المصرية وفخرها بمجدها وصراعها يروى «كاتب حارتنا» الشاهد الراوى المصرى نجيب محفوظ الذى عاش ليروى حكايات حارتنا؛ يروى محفوظ 1943 «رادوبيس» الأميرة المصرية «رادوبيس» وعبر الغرام والعشق مكافحة الطغيان والفساد السياسي، والسخط على الفساد

والعصيان الشعبى وانتفاضة المصريين ضد الاستبداد السياسى والدينى، هكذا يرسخ ويؤكد ويروى فى جمالية ثقافية ودرامية مصر التى تصنع التصورات والثورات والمفاهيم وتقيم المسلات وأعمدة التاريخ ومفاتيح الحياة. مصر «عنخ» «ماعت» «آمون» «تحوت».

مصر تصوغ الجمال والحق والخير والعدل

ويأتى بطل ابنة النهر، الجدار الأبيض «طيبة» التى خرج منها الإنسان الأول من اللوتس والدمع والبيضة والكلمة «كن» هنا فى طيبة أوجد «أتوم» الوجود وخلق الوجود من المادة الأزلية وهنا سيكون الكفاح السرمدى لمصر لصياغة الجمال والحق والخير والعدل. ورفض المحتل استقلال مصر بعد أن انتصر العالم الحر على المحور الشمولى الفاشى النازى. يروى «كفاح طيبة» 1944 بعد إعلان تقرير المصير، يروى محفوظ كفاح الجدار الأبيض «طيبة» ضد الشاسو، العابيرو، الخابيرو، العامو؛ أبناء الصحراء والغبار شعث الرؤوس غابرى الثياب بربرى اللغة والسلوك، أبناء «ست» إله الصحارى والجيف، قاتل رب الحياة والبعث «أوزيريس» سيد القحل والجفاف والعفن المتجسد خنزيراً قبيحاً يقتات القاذورات، وحمارا ينهق بالقبح والعمى والتيه.

مصر وجدت أولاً، ثم وجد التاريخ

يروى محفوظ عن كفاح مصر «طيبة» مدينة الجدار الأبيض لهؤلاء الرعاة الذين هم «نجس عند المصريين» يروى كفاح المصريين تحت قيادة البطل المصرى «أحمس» وأسرته الشرعية المصرية الأصيلة ضد آكلى الجيف، الرعاة الهكسوس الغزاة قبيحى الشكل والثقافة والسلوك، غجر الهوامش، يروى كفاح طيبة والمصريين ضد عاصمة الشر «أواريس» وينتصر المصريون على إغواء «الترابيين» الصحراويين أبناء ست وغواية الرعاة الهكسوس. وتتطهر مصر من رجس الشاسو وتسترد مجدها التليد وتعيش ماعت وإيزيس وحورس ويمحو المصريون وجودهم وذكرهم فلا تسمع لهم حساً ولا ترى لهم أثراً. هكذا مصر أصل الوجود وبلدة الباحث عن الحقيقة «أخناتون» العائش فى الحقيقة المصرية، المتمرد على الكهنوت الأمونى والتسلط والجمود العقائدي، أخناتون الذى يرسخ؛ أن من مصر تكون الحقيقة؛ حيث أنت أما العرش الأزلى للمعرفة والوجود والحضارة والسياسة والأنسنة، هنا فى مصر أصل الموجودات يقف الجميع أمام عرش البر الغربى ليشهدوا ويأخذ عليهم ميثاقهم؛ إن مصر «كنت الأمس وأعرف الغد» ومصر «الخروج للنهار» مصر «متون الأهرام» مصر «ماعت» وتردد بين جنباتها كلمات ابن حارتنا؛ راوى مصر القديمة والمعاصرة «نجيب محفوظ أن: مصر كانت قبل التاريخ وستظل مصر فى البدء كانت كلمة الوجود والحضارة والإنسانية والتاريخ.

سياسات القوى الدولية فى شرق أفريقيا وتأثيرها على مصالح مصر

تتأثر المناطق الإقليمية فى العالم بسياسات القوى الدولية الكبرى، والفاعلة الرئيسية فى النظام الدولي، بل إن مصير هذه المناطق قد يرتبط فى أغلب الأحوال بالتحولات التى تطرأ على بنية وتفاعلات النظام الدولى فى مراحل تطوره المختلفة، وطبيعة سياسات الدول الكبرى فيه.

أ.د. محمود أبوالعينين
العميد الأسبق لمعهد الدراسات الأفريقية
mafrica51@yahoo.com

وسوف نتناول فى هذا المقال خلفية حول دول المنطقة وسياسات القوى الكبرى تجاهها، وتأثير ذلك على المصالح المصرية فى المحاور الآتية:

المحور الأول: خلفية حول المنطقة وسياسات القوى الكبرى تجاهها.

ولعل منطقة "شرق أفريقيا"، سواء بمفهومها الجغرافي، أو بمفهومها فى إطار الأمم المتحدة، أو فى إطار الاتحاد الأفريقي، تعتبر منطقة مصالح مصيرية للدولة المصرية عبر التاريخ، حيث تتداخل فيها مناطق عديدة، أهمها:

(1) منطقة حوض النيل، التى تضم حالياً 11 دولة بما فيها مصر.

(2) منطقة القرن الأفريقى الكبير، والتى تضم 11 دولة حالياً، ليس منها مصر (السودان، جنوب السودان، إثيوبيا، أريتريا، جيبوتي، الصومال، كينيا، تنزانيا، أوغندا، رواندا، بورندي) أى تضم 9 دول من دول حوض النيل.

(3) منطقة "منظمة الإيجاد" والتى تأسست عام 1995 باسم "الهيئة الحكومية للتنمية" ليست فيها مصر كعضو وبدأت عملها عام 1996، تضم 8 دول حالياً (جيبوتى دولة المقر، السودان، جنوب السودان، الصومال، كينيا، أوغندا، إثيوبيا، أريتريا).

(4) منطقة "منظمة الكوميسا" "السوق المشتركة للشرق والجنوب الأفريقي" والتى نشأت بهذا المسمى عام 1994، وتضم الآن فى عضويتها 19 دولة، من بينها مصر، التى انضمت عام 1998، وتضم 9 دول من دول حوض النيل والدول الأعضاء وهي: (مصر، ليبيا، السودان، كينيا، إثيوبيا، أريتريا، جيبوتي، أوغندا، الكونغو الديمقراطية، زامبيا، مالاوي، رواندا، بوروندي، زيمبابوي، سوازيلاند، موريشيوس، سيشل، جزر القمر، مدغشقر), وقد أقامت منطقة تجارة حرة فيما بينها عام 2000، تضم فى عضويتها الآن 11 دولة (مصر، كينيا، مالاوي، موريشيوس، السودان، زامبيا، جيبوتي، مدغشقر، رواندا، بوروندي، زيمبابوي) تتضمن منح إعفاء جمركى على السلع والبضائع، بشكل كامل، سوى بعض الشروط والاستثناءات (مصر والسودان، بعد المعاملة بالمثل، بلد المنشأ، القيمة المضاعفة).

(5) منطقة البحر الأحمر، وهى المنطقة الحيوية جداً للأمن القومى المصرى وتضم منطقة لها نظام جغرافى فرعي، وتشمل 8 دول، تشكل الدول العربية نسبة 84,2% من سواحل البحر الأحمر (6 دول)، إذا أضيف خليج عدن، تصبح نسبة الاستحواذ العربى 90,2% من سواحله القسم الغربي، مصر والسودان، أريتريا، جيبوتى والقسم الشرقي، الأردن، السعودية، اليمن، بالإضافة لإسرائيل (نسبة 0,2%).

(6) جماعة شرق أفريقيا EAC، وتضم 5 دول حالياً، وتشمل أوغندا وكينيا وتنزانيا ورواندا وبوروندي، كانت قد تجمدت عام 1977، وتم إحياؤها فى نوفمبر 1994 وهى جزء رئيسى من القارة الأفريقية. أحد التجمعات الثمانية الرئيسية التى ينسق بينهما الاتحاد الأفريقي.

إذن منطقة شرق أفريقيا المعنية هنا وتضم 9 دول أو عشر إذا أضفنا أرض الصومال غير المعترف بها، حيث تشمل المنطقة ما يلي: جيبوتي، أريتريا، إثيوبيا، كينيا، السودان، جنوب السودان، تنزانيا، أوغندا، الصومال وجمهورية أرض الصومال غير المعترف بها منذ إعلانها 1991 ويمكن إضافة رواندا وبوروندى فتصبح 12 دولة.

ومن ثم فإن أهمية هذه المنطقة

بالنسبة لمصر ترفعها إلى مستوى منطقة المصالح المصيرية للدولة المصرية وذلك للآتي:

(1) أنها تضم معظم دول حوض النيل (7 دول من بين 19 دولة)، بمعنى أنها لو أضيفت إلى مصر تصبح 8 دول، منها دول النيل الشرقى الثلاث، ولو أضفنا لها رواندا وبوروندي، تصبح 10 دول من دول حوض النيل.

(2) أن المنطقة ذات تأثير هائل على الدولة المصرية، سواء من حيث القدرة على تأمين حرية الملاحة البحرية فى البحر الأحمر وضمان حرية الدخول والخروج من وإلى المحيط الهندى وتأمين الملاحة فى قناة السويس، أو كذلك من حيث، التأثير على منطقة التجارة الحرة الحالية فى إطار الكوميسا، أو المستقبلية فى إطار التجمعات الاقتصادية الثلاث (الكوميسا، وجماعة شرق أفريقيا، وتجمع الساحل 26 دولة) والتى انطلقت منذ عدة سنوات فى مراحل كان أبرزها فى مؤتمر شرم الشيخ فى يونيو2015، كأساس لإقامة منطقة قارية للتجارة الحرة 2018، أى نحو نصف عدد سكان القارة البالغ 625 مليوناً وناتج إجمالى 1,5 تريليون دولار بداية 2014 أى أكثر من نصف الناتج المحلى الإجمالى للقارة فى نفس العام (2,3 تريليون).

(3) المنطقة ترتبط بإمكانيات تأمين حدودنا الجنوبية البرية والبحرية، خاصة ضد الأنشطة التخريبية والإرهابية، أو كذلك بالنسبة لتدفقات اللاجئين هرباً من مناطق عدم الاستقرار حيث يعتبر إقليم شرق أفريقيا أكثر أقاليم أفريقيا إسهاماً فى مشكلة اللاجئين والنازحين داخلياً، إذ يسهم بما يقرب من 5 ملايين بينهم 3,5 مليون نازح داخلى وأكثر الدول إسهاماً فى هذا العدد الصومال، والسودان، وكينيا وبوروندى وإثيوبيا وأوغندا وتنزانيا.

وهكذا فإن المنطقة تعتبر منطقة مصالح مصيرية بالنسبة للدولة المصرية، كما تعتبر منطقة حيوية لكل من الإقليم العربى والأفريقي، وكلاهما متصل بالحقوق والمصالح المصرية أكثر من أية منطقة أخرى فرعية فى العالم.

الملاحظ أن الدول الكبرى، تتكالب على القارة الأفريقية، منذ حركة الكشوف الجغرافية وموجة الاستعمار التقليدي، وهذا التكالب مستمر لأغراض مختلفة وبدرجات متفاوتة، حتى الآن.

لكن التكالب على منطقة شرق أفريقيا تحديداً، ارتبط بدافع مهم يتمثل فى الأهمية الاستراتيجية والجيوبوليتيكية لدول المنطقة، لاسيما بعد افتتاح قناة السويس 1869، وزيادة الأهمية الإستراتيجية والجيوبوليتيكية لدول المنطقة، كما ارتبط معامل آخر يتمثل فى كثافة التواجد الأجنبى فى المنطقة لأغراض تتعلق بالحرب الباردة وكذلك بالخليج وأزماته، أو بأزمات الصراع العربى الإسرائيلي.

ففى القرن الـ 19، وبعد افتتاح قناة السويس، احتلت الدول الكبرى العربية فى ذلك الوقت، مناطق وأقاليم حول أو بجوار قناة السويس من الجنوب، سواء فى البحر الأحمر الغربى أو شرق أفريقيا. ففرنسا احتلت جيبوتي، وإيطاليا احتلت الصومال وأريتريا، وإنجلترا احتلت السودان وأوغندا وتنزانيا، ومنطقة أرض الصومال، وغيرها. وحتى روسيا القيصرية وضعت أقدامها فى مدخل البحر الأحمر عند رأس تاجورا.

وحينما بدأ عصر التحرر الوطني، وحتى قيام ثورة يوليو 1952 فى مصر وبعد تأسيس قناة السويس، انتقل التنافس بين القطبين الكبيرين فى إطار الحرب الباردة الاتحاد السوفيتى السابق، والولايات المتحدة إلى المنطقة، فالاتحاد السوفيتى ركز على مصر، بينما ركزت الولايات المتحدة على أثيوبيا (حينما كانت تضم إريتريا)، وقام الطرفان كل بمساعدة حليفه الإقليمى فى مسألة المياه، فبينما ساند الاتحاد السوفيتى مصر فى بناء السد العالي، ساندت الولايات المتحدة أثيوبيا فى وضع خريطة للمشروعات المائية (سدود وخزانات) نحو33 مشروعاً، منها مشروع سد الحدود، أو سد النهضة كما عرف بعد ذلك.

كما تبادلت القوتان مساندة الغريمين إثيوبيا والصومال، كل ضد الآخر، وتبادلت المواقع، وكان التنافس بارزاً فى حرب الأوجادين 1978/77 .

وبعد انتهاء الحرب الباردة، تدخلت الولايات المتحدة بعد إسقاط حكومة سياد بري، عام 1991 فى إطار عملية استعادة الأمل، وانسحبت بعد خسائرها فى مارس 1994، وتبعتها القوات الدولية فى مارس 1995، واستأنفت أثيوبيا التدخل فى الصومال بدعم وتنسيق أمريكى فى ديسمبر 2006، وفى 2011 وفى السودان، ونتيجة لظهور البترول، وللتواجد الصينى الماليزى هناك، تدخلت الولايات المتحدة بمبادرات لحل الصراع والحرب الأهلية فى الجنوب، وساندت مبادرة الإيجاد، ودعمت تحالفاً إقليمياً لمواجهة حكومة الخرطوم، وانتهت بتوقيع اتفاقيات نيفاشا 2005، والتى قادت لاستقلال جنوب السودان فى يوليو2011.

وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر 2001، بدأ عصر جديد من التدخلات الدولية، المتنوعة على ضوء حقائق الوضع الخاص بالنظام الدولى من جهة، وحقائق الأوضاع غير المستقرة فى إقليم شرق أفريقيا والخليج من جهة أخرى.

المحور الثاني: طبيعة سياسات القوى الكبرى فى شرق أفريقيا فيما بعد 11سبتمبر 2001.

عقب انتهاء الحرب الباردة والانهيار السريع والمفاجيء لدول الكتلة الاشتراكية، والتى كانت تمثل الحليف الأساسى لكثير من السياسات والحكومات الأفريقية، بما فيها إقليم

شرق أفريقيا، وبعد سنوات من إهمال القوى الغربية وخاصة الولايات المتحدة – التى انتصرت فى الحرب الباردة وركزت على الأوضاع فى أوروبا حيث أهملت أفريقيا فى التسعينات تقريباً وسمى الإهمال الجديد.

لكن هذه القوى، بدأت مع بداية الألفية الجديدة تعود لأفريقيا، فى إطار تنافس جديد، وفى إطار نظام عالمى جديد، أحادى القطبية تسيطر عليه قوة عظمى واحدة، لكنه نظام يتجه للتعددية القطبية (الاتحاد الأوروبى 1992، ومنطقة أمريكا الشمالية للتجارة الحرة 1993 وتجمع منطقة الآبيك، أو التعاون الاقتصادى لدول آسيا والمحيط الهادى 1993 والذى يضم 17 دولة بداخله اليابان ودول الآسيان وكذلك كان هناك مجلس إدارة لهذا العالم الجديد، تمثل فى مجموعة الدول الثمانية الصناعية الكبرى التى كانت تضم الولايات المتحدة، كندا، انجلترا، فرنسا، إيطاليا، ألمانيا، روسيا، اليابان) وهى التى توسعت فيما بعد لمجموعة العشرين وعلى مستوى آخر، كانت الصين الشعبية، والتى تمثل قوة كبيرة صاعدة فى النظام الدولى الجديد، ولها خبرة تاريخية سابقة فى أفريقيا خاصة فى منطقة شرق أفريقيا، بدأت تبحث منذ التسعينات عن تعزيز تواجدها الاقتصادى والمنافسة على السوق الأفريقية فى ظل هذا التكالب التعددي، كما بدأت تعزيز دورها الدولى لإقامة نظام عالمى متعدد القطبية لذلك بادرت منذ عام 1996، بتكوين مجموعة شنغهاى لتضم كتلة شرقية أساسا لتشمل الصين وروسيا، وقازاغستان وطاجيكستان وقيرغستان، وهى المجموعة التى تطورت عام 2001 لتصبح منظمة شنغهاى للتعاون، وتوسعت بضم أوزبكستان للمنظمة، كما قبلت الهند وباكستان مؤخرا كأعضاء ومنغوليا وإيران كمراقبين، وهى المنظمة التى تطور دورها فى أفريقيا عامة ومنطقة شرق أفريقيا على وجه الخصوص مع بداية الألفية الجديدة، كما طور الاتحاد الأوروبى سياسته تجاه قارة أفريقيا وبناء شراكة إستراتيجية معها، كما طورت دوله الكبرى علاقاتاتها بالقارة باعتبارها منطقة نفوذ سابقة وفى هذه سوف أركز على سياسات الدول الكبرى فى هذه المرحلة، وهى الولايات المتحدة، والصين والاتحاد الأوروبى مع التركيز على انجلترا وفرنسا وإيطاليا، وكذلك على الهند وكندا وغيرها.

أولاً: السياسة الأمريكية فى شرق أفريقيا

بدأت السياسة الأمريكية تهتم بشرق أفريقيا فى سياق جديد خاصة مع مطلع الألفية الجديدة على ضوء عوامل رئيسية:

العامل الأول:

أحداث " سبتمبر 2001، وتبلور إستراتيجية أمريكية لقيادة العالم فى الحرب ضد الإرهاب" (إستراتيجية 2002-2006)، بهدف إقامة عالم آمن للولايات المتحدة وحلفائها وأصدقائها، وجعل القرن الواحد والعشرين "قرناً أمريكياً" بمعنى إقامة الإمبراطورية الأمريكية، والتحكم بصورة شاملة فى الكرة الأرضية.

وكانت الحرب ضد الإرهاب، إحدى الركائز الأساسية للاهتمام الأمريكى بمنطقة شرق أفريقيا أو ما أسمته الولايات الأمريكية باسم " القرن الأفريقى الكبير" Great Horn، منذ مبادرة كلينتون 1994، بالإشارة إلى المنطقة الساحلية.

العامل الثاني:

تأمين مصادر الطاقة من بترول وغاز، حيث دخلت أفريقيا عصر إنتاج وتصدير البترول والطاقة فى الألفية الجديدة (20 دولة أفريقية منتجة ومصدرة للبترول والغاز)، حيث اتجهت الولايات المتحدة الأمريكية للاستيراد من أفريقيا بنسبة تصل إلى 17% من وارداتها الخارجية من البترول، وبدأت تخطط لرفع هذه النسبة إلى 25% اعتباراً من 2015.

العامل الثالث:

المنافسة العالمية على الموارد والأسواق، وهذه المنافسة بدأت بين الولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبى (صاحبة النفوذ التقليدى فى أفريقيا) والصين والقوى الآسيوية الأخرى كالهند وغيرها.

وتخلصت الولايات المتحدة الأمريكية من مبدأ مونرو القديم وأطلقت العنان لعملية التنافس وحيث لم يعد هناك منطقة نفوذ مغلقة على أحد، بالإضافة إلى التركيز الأمريكى على التجارة بدلاً من المساعدات اعتباراً من عام 2000 فى ظل ما عرف بقانون الفرص والنمو الأفريقى أجوا الذى يسمح بتصدير صادرات أفريقيا للسوق الأمريكى وخاصة المنسوجات، بدون حواجز جمركية.

وقد دخلت منطقة شرق أفريقيا، والقرن الأفريقى عموماً فى إطار السياسة الأمريكية الجديدة، من هذه الدوافع الرئيسية بالإضافة إلى دوافع أخرى معلنة، وأهمها:

الاستمرار فى تعزيز الحرية وتعزيز تقدمها فى أفريقيا.

العمل مع الآخرين لنزع فتيل الصراعات فى المناطق الإقليمية وحلها وخاصة الصراع فى السودان والصراع فى الصومال، والصراع فى منطقة البحيرات العظمى وخاصة فى الكونغوالديمقراطية، وأهداف أخرى غير معلنة، مثل:

- التغلغل العسكرى وزيادة دور الجيش الأمريكى فى حماية المصالح الأمريكية فى القارة، وخاصة ضد الإرهاب والقرصنة.
- تقليص نفوذ الإسلام السياسى فى المنطقة وفى أفريقيا الكبرى.
- دعم العلاقات مع القوى الأفريقية

ذات الدور الإقليمي، أو ذات المستقبل (نيجيريا – جنوب أفريقيا– أثيوبيا)، أما مصر فكانت خارج التنسيق العسكرى الأمريكى فى أفريقيا جنوب الصحراء فى إطار الأفريكوم (AFRICOM).

مظاهر التواجد الأمريكى فى شرق أفريقيا: والأدوات والوسائل:

اتخذ التواجد الأمريكى فى شرق أفريقيا عدة مظاهر تمثلت أبرزها فى الآتى:

التواجد الأمنى والعسكرى:

وهذا أبرز مظهر، وأخطر مظهر للتواجد الأمريكى فى الإقليم. على الأقل من المنظور المصرى أو العربى أو الأفريقى وأبرز عمليات الانتشار العسكرى والأمنى فى الإقليم بصفة عامة وفى المناطق المؤثرة فى القارة بصفة خاصة، تتمثل فى الآتى:

القيادة الأمريكية الموحدة لأفريقيا (أفريكوم)، والتى تقرر إنشاؤها عام 2006/2007 وذلك كرد فعل للأحداث الإرهابية التى شهدتها منطقة شرق أفريقيا، وخاصة تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى كل من نيروبى ودار السلام 1998، وتفجير السفينة الحربية الأمريكية كول فى خليج عدن عام 2000 وتزايد نشاط تنظيم القاعدة فى منطقة القرن الأفريقى وشمال أفريقيا.

وقد وافق الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن فى فبراير 2007 على إنشاء هذه القيادة على أن تبقى فى "شتوتجارت بألمانيا" حتى يتم نقلها لمكان مناسب فى القارة الأفريقية. وحتى الآن لم تعلن أية دولة – رسمياً– عن استضافة هذه القيادة، رغم الحديث عن دول مرشحة لذلك، منها 4 دول فى شرق أفريقيا (جيبوتي، أوغندا، إثيوبيا، كينيا).

الوجود العسكرى الأمريكى فى قاعدة "كامب ليمونية"، والتى تأسست فى 2003، والقاعدة مؤجرة من جيبوتي، وتشمل حوالى 400 فرد من القوات الخاصة، بالإضافة إلى 12 قطعة بحرية عبارة عن مدمرات وسفن دورية، إضافة إلى قاعدة جوية تضم طائرات إنذار مبكر وسرب من طائرات إف16. وهذا فضلاً عن مقر قيادة القوات الأمريكية لمكافحة الإرهاب الدولى فى منطقة القرن الأفريقى ونقلها من بحر العرب إلى سفينة بانت ديبي. ويقدر البعض عدد القوات الأمريكية فى القاعدة بنحو 4000 فرد عسكري.

الوجود العسكرى أمام السواحل الصومالية، ويتكون من 8 قطع بحرية، منها حاملة طائرات، تضم 80 طائرة قتال وهليكوبتر، 10 طائرات استطلاع مبكر و18 زورقاً خفيفاً، فضلاً عن 18 ألف جندى مارينز وسفن معاونة وإمداد، ومهامها مقاومة الإرهاب وتسلل عناصر القاعدة إلى شرق أفريقيا وخاصة الصومال.

التواجد العسكرى الأمريكى فى إثيوبيا. لم يعلن عن تواجد عسكرى أمريكى فى إثيوبيا، لكن القائم هو:

- إجراء تدريبات مشتركة بين البلدين فى إطار مكافحة الإرهاب، وما بين 30 إلى 50 فرداً أمريكياً (ضباطاً وجنوداً) للمشاركة فى تأهيل 3 كتائب إثيوبية لمكافحة الإرهاب.

- أقيمت ثلاث مواقع دائمة لعمليات الطوارئ منذ عام 2007، اثنان منها فى إثيوبيا (بارلات وهورسو)، وثالثة فى جودي، لكنها أغلقت على ضوء الأحداث الساخنة فى الصومال.

- عدد غير محدد من أفراد القوات الجوية الأمريكية يعملون فى المجال الجوى الإثيوبى "لدعم عملية الدعم الفنى لبرامج المساعدة الفنية"، لكن لا توجد قواعد عسكرية أمريكية فى إثيوبيا.

- بعد سبتمبر 2011، أعلنت الواشنطن بوست، عن أن الولايات المتحدة تبنى فى إثيوبيا تجهيزات عسكرية لاستقبال الطائرات بدون طيار، لتمكين الطائرات من الهجوم على الإرهابيين من حركة شباب المجاهدين.

- قيل أن الولايات المتحدة توسع من برنامج نظام سرى لجمع المعلومات الاستخباراتية فى شرق أفريقيا وشبه الجزيرة العربية لضرب العناصر المسلحة المنتمية للقاعدة فى كل من الصومال واليمن.

وفى أوغندا، تحدث أوباما فى أكتوبر 2011 عن إرسال 100 جندى أمريكى لأوغندا، لتقديم المساعدة والمشورة فى مواجهة جيش الرب للمقاومة LRA.

وفى كينيا، نشرت الولايات المتحدة منذ عام 2005، قوة مهام خاصة بالقرن الأفريقى فى كينيا من 1500 فرد، فى شمال لامو Lamu على بعد 100كم من الحدود مع الصومال، وقد شهدت هذه المدينة الساحلية تدريبات مستمرة بين الجانب الكينى والجانب الأمريكي، وأنشأت الولايات المتحدة قاعدة جوية فى "خليج ماندا" Manda Bay فى كينيا، كما تقوم القوات الأمريكية باستخدام معسكر سيمبا Camp Simba على الشاطئ الرملى الكيني، حيث توجد قاعدة جوية كينية.

وفى سيشل، ثمة قاعدة أمريكية تحت الإنشاء أو أنشئت فعلاً منذ 2008، لمتابعة القرصنة البحرية على السواحل الصومالية وخليج عدن.

كان ثمة خطط للاستخبارات الأمريكية لإقامة قاعدة عسكرية فى جنوب السودان، لمطاردة العديد من المطلوبين من قبل الولايات المتحدة، بمن فيهم عناصر جيش الرب، غير أن أحداً لم يؤكد ذلك، ولم يعرف شئ رغم وجود الخطة.

وثمة اتفاقيات عسكرية، وبرامج أخرى، تشمل القارة الأفريقية، بما فيها شرق أفريقيا، ومن أهمها:

- القوة الأمريكية للتعامل مع الأزمات ACNF وتستهدف بناء القدرات فى مجال حفظ السلام والمهام التدريبية.

- ألف جندى يمكن حشدهم لمساعدة المنظمات الدولية والمساعدات الإنسانية .. إلخ.

- مبادرة التفاعل مع الأزمات الأفريقية ACRI حيث يتم التدريب على مختلف

المهام الخاصة لعمليات حفظ السلام، وتوفير الإغاثة الإنسانية.
- البرنامج الأفريقى لعمليات التدريب والمعونة ACOTA وبعض التدريب على العمليات العسكرية الهجومية.
- برنامج التدريب والتعليم العسكرى الدولى IMET بإشراف البنتاجون، ويقدم تدريباً مهنياً متطوراً فى الكليات العسكرية.
- أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية مؤخراً عن تشكيل ما يسمى قوة الاستجابة لشرق أفريقيا EARF، وهى وحدة جديدة فى إطار الأفريكوم.

وهذه الفترة لها علاقة بما يحدث فى جنوب السودان، بالتنسيق مع أوغندا وقبل إنشاء هذه القوة كانت الولايات المتحدة تعمل من خلال ما كان يسمى "قوة المهام الخاصة المشتركة للقرن الأفريقي" (CJF-HOA).

التأثير الاقتصادى الأمريكى فى شرق أفريقيا

تسعى الولايات المتحدة أن تكون فى مقدمة الدول الصناعية الكبرى التى تستفيد من الفرص الجديدة فى أفريقيا بوجه عام، ودمج الاقتصاد الأفريقى فى الاقتصاد العالمي.

ومن ثم اتبعت نمطاً عاماً من السياسات والإجراءات الاقتصادية فى القارة، منذ مطلع الألفية، كان أهمها:

دعم الشراكة الاقتصادية مع أفريقيا، وقد صدر بذلك "قانون الفرص والنموالأفريقي" "أجوا" الذى صدق عليه الكونجرس فى مايو2001، والذى يقوم على وضع اشتراطات لمحاربة الفساد، وتقليل الدعم الحكومي، مقابل منح معاملة تفصيلية لصادرات الدول الأفريقية للسوق الأمريكي.

تعزيز التجارة وفتح أسواق جديدة فى أفريقيا، مع توجه لمعالجة العجز فى ميزان التبادل التجارى مع أفريقيا عن طريق المنتدى الاقتصادى الأمريكى الأفريقي، الذى يستهدف إقامة منطقة تجارة حرة بين الجانبين بحلول عام 2020، بالإضافة للاقتراب من الثروات المعدنية والبترولية.

عدم الاعتماد على المعونات، كما كان الحال أيام الحرب الباردة، ولكن فى حدود مبدأ المساعدة على دعم جهود الإصلاح الاقتصادى والسياسي.

وقد انعكس هذا الوضع العام على القارة الأفريقية ككل، واستفادت دول شرق أفريقيا منه، مع ملاحظة الآتي:

تطور ميزان التجارة الأمريكى مع أفريقيا من 60 مليار دولار عام 2013 (منهم 20 ملياراً صادرات أفريقية، 40 ملياراً واردات) وارتفع إلى 150 مليار دولار عام 2015.

ركزت الولايات المتحدة على غرب أفريقيا وخليج غينيا، فى قطاع البترول والطاقة، خاصة وأن هذا الإقليم يستحوذ على 60 مليار برميل احتياطى من جملة 114 ملياراً لأفريقيا التى تحوز على نسبة 8% من الاحتياطى العالمي، أما فى شرق أفريقيا فثمة تنافس أمريكى صينى على البترول فى السودان منذ بداية الألفية، وهو ما أدى إلى التدخل الأمريكى فى مبادرة السلام الشامل فى السودان، والتى قادت لانفصال الجنوب، الذى يحتوى على 70% من بترول السودان، الذى يحظى باهتمام أمريكي.

تستحوذ شرق أفريقيا على أكبر قدر من المساعدات الأمريكية، وعلى سبيل المثال، عام 2015 كان ترتيب الدول الأفريقية من حيث حصولها على المساعدات الأمريكية فى القارة كالتالي:

إثيوبيا 871 مليون دولار
كينيا 852 مليون دولار
جنوب السودان 455 مليون دولار
الصومال 425 مليون دولار
تنزانيا 403 ملايين دولار
الكونغو 389 مليون دولار
أوغندا 353 مليون دولار
نيجيريا 338 مليون دولار
السودان 298 مليون دولار

أى أن هناك 7 دول من شرق أفريقيا هى الأعلى تلقياً للمساعدات الأمريكية، من ضمن أكبر 9 دول فى القارة والخمسة الأوائل تحديداً من شرق أفريقيا، وفى هذا السياق، تم تقديم منح أمريكية لتشجيع الاستثمار الخاص فى قطاع الطاقة فى تنزانيا، وتطوير صناعة الوقود الحيوى فى أوغندا.

وفى مجال الاستثمارات، رصدت القمة الأمريكية - الأفريقية، التى عقدت فى أغسطس 2015، رصدت استثمارات بقيمة 37 مليار دولار فى مجالات الصحة ومكافحة الإيدز، ومشروعات الطاقة، ومبادرات لبناء قدرات أمنية للعديد من الدول الأفريقية، منها كينيا فى شرق أفريقيا.

كان هذا فى ظل إدارة أوباما، الديمقراطية، وثمة توقعات بأن هذا الأمر سيتغير فى ظل إدارة ترامب الجديدة، ذات التوجهات الخاصة بمراجعة التزاماتها المالية والمساعدات التى تقدمها لأفريقيا والعالم، ما عدا إسرائيل بطبيعة الحال.

ثانياً: السياسة الصينية فى شرق أفريقيا

دخلت القوى الآسيوية، وعلى رأسها الصين، أفريقيا بثقل وتنافسية شديدة، ويتجلى أبرز مظاهر هذا التواجد الصينى فى أفريقيا عموماً، وفى شرق أفريقيا خاصة، فى الآتي:

بدأت الصين تعزيز تواجدها فى القارة الأفريقية مع مطلع الألفية الثالثة، سواء على مستوى تبادل الزيارات، أو التعاون العسكري، وتبادل التكنولوجيا والتدريب، وكذلك المشاركة فى حفظ السلام، بدون التدخل فى السياسات الداخلية للدول أو فرض مشروطيات اقتصادية أو سياسية.

فى أواخر 1999، بدأ التفكير فى إقامة المنتدى الصينى الأفريقى للتعاون فوكاك والذى بدأ أول اجتماعاته فى أكتوبر عام 2000، بهدف استراتيجى

يتمثل فى الآتى (من المنظور الصيني):
إجراء المشاورات والحوار المستمر مع الأطراف الأفريقية.
تضييق الفجوة بين الشمال والجنوب.
زيادة القدرة على المنافسة الصينية فى الأسواق الأفريقية.
البحث عن مجالات أو نظم جديدة للمساعدات الخارجية.
احتواء تايوان.

وأقيم منتدى عربى – صينى عام 2004، عقد المؤتمر الوزارى الأول فى الجامعة العربية، وعقد الثانى 2006 فى بكين، وعقد الاجتماع السابع فى الدوحة عام 2016 وتم اجتماع كبار المسئولين خلال شهر مايو2017 للإعداد للاجتماع الثامن فى الصين خلال عام 2018 وقد شاركت واستفادت من هذه الاجتماعات الأطراف العربية فى شرق أفريقيا.

رأينا الصين تتقدم بسرعة، ويرتفع ميزانها التجارى مع أفريقيا من 70 مليار دولار عام 2004، إلى 104 مليارات دولار عام 2008، إلى 120 ملياراً 2010، ثم إلى 160 ملياراً عام 2012، ثم إلى 210 مليارات عام 2013، وأصبحت أكبر دولة تتاجر مع أفريقيا على مستوى العالم.

كما قفزت الاستثمارات الصينية فى أفريقيا، وصلت فى 2014 إلى 300 مليار دولار، أى أكثر من 60 ضعفاً عما كانت عليه عام 2000.

وقد استثمرت الصين بشكل مكثف فى إقليم شرق أفريقيا، وبصفة خاصة فى إثيوبيا، التى تعد أحد الاقتصادات الأكثر نمواً، كما استثمرت الصين فى جيبوتى ما يقرب من 12 مليار دولار، فى الموانئ والمطارات للتجهيز لخلق منطقة تجارة حرة فى أفريقيا (دبى أفريقيا). هذا إضافة لتنزانيا وأوغندا، فضلاً عن الاستثمار فى البنية التحتية، وخاصة الطرق (سكك حديد أو سكة حديد بين إثيوبيا وجيبوتي). وينتظر أن يكون هناك مليون صينى هاجروا إلى أفريقيا ويعملون فيها، ونحو 2500 شركة صينية تعمل فى أفريقيا جنوب الصحراء.

فى إطار هذا التنافس والمصالح الصينية المتنامية، استأجرت الصين قاعدة عسكرية فى جيبوتى لدعم التسهيلات قرب Obock فى عام 2014، ولمقاومة القرصنة البحرية وحماية مصالحها واستثماراتها فى شرق أفريقيا جنوب الصحراء وجنوب الجزيرة العربية (نظير 20 مليون دولار سنوياً)، بينما الولايات المتحدة تدفع 63 مليون دولار فى قاعدتها. والواقع أن عدداً من الدول الأوروبية، واليابان، بالإضافة للصين والولايات المتحدة، أصبح لهم قواعد عسكرية فى جيبوتي، لدرجة أن أحد المصادر يقدر أن عدد العسكريين الأجانب فى جيبوتى قد وصل إلى نحو25 ألف فرد.

قدمت الصين قروضاً للدول الأفريقية تبلغ نحو 20 مليار يورو فيما بين 2015 – 2013.

ثالثاً: دول الاتحاد الأوروبي: صاحبة النفوذ التقليدى فى القارة.

الدول الأوروبية، صاحبة النفوذ التقليدى فى أفريقيا، ارتبطت وترتبط بشرق أفريقيا عبر أكثر من شبكة:
– شبكة العلاقات الثنائية العادية.
شبكة العلاقات الخاصة أو المتميزة، التى تربط دول المتروبول والدول الأفريقية التى كانت مستعمراتها السابقة (رابطة الكومنولث، المنظمة الفرانكفونية).
إطار العلاقات متعددة الأطراف، على أساس اتفاقية لومى المتجددة، التى تربط الآن دول الاتحاد الأوروبى مع مجموعة دول القارة الأفريقية ودول الكاريبى والمحيط الهادى ACP.
الشراكة الأفريقية المتوسطية، التى تربط دول الاتحاد الأوروبى (27 أو 28 دولة) مع دول شرق أفريقيا ضمن دول جنوب المتوسط، "عملية برشلونة" منذ 1995.
الشراكة الاستراتيجية الأوروبية – الأفريقية، وهو إطار شامل للجانبين، وبدأ بانعقاد مؤتمره الأول بالقاهرة فى أبريل عام 2000.

وبوجه عام، قفز حجم التجارة بين الاتحاد الأوروبى وأفريقيا ليصل إلى نحو 9% من حجم تجارة دول الاتحاد الأوروبى مع العالم الخارجي. ففى عام 2011 بلغ ميزان التجارة الأوروبية مع الدول الأفريقية نحو 259 مليار يورو.

وقد اضطر الاتحاد الأوروبى – فى إطار التنافس والتكالب على الأسواق الأفريقية، إلى إطلاق خارطة طريق مشتركة (2017-2014)، وتشتمل على عديد من أنواع المحفزات على التعاون (من أمن، استقرار وتنمية، ومواجهة التحديات المشتركة)، وتم تخصيص 4.5 مليار يورو للمرحلة الأولى من هذا البرنامج المشترك.

وفى هذا السياق، قالت المستشارة الألمانية ميركل، "إن التنافس الصينى ودول الاتحاد الأوروبى يجعلنا نصر على ضخ مزيد من الاستثمارات فى أفريقيا وتجاوز مسألة التنمية لأمور أخرى بدلاً من توجيه الانتقادات".

وفيما عدا "جماعة منتدى شركاء الإيجاد" ورغم التقدم فى التجارة بين أفريقيا والاتحاد الأوروبي، إلا أننا لا نرى أياً من دول شرق أفريقيا فى الشركاء الرئيسيين للتجارة مع الاتحاد الأوروبى حيث تمثل كل من (جنوب أفريقيا، الجزائر، مصر، المغرب، نيجيريا، تونس، ليبيا، أنجولا، غانا، السنغال) الشركاء العشرة الرئيسية، سواء فى تجارة السلع أو الخدمات مع الاتحاد الأوروبي.

ومن أهم الدول الأوروبية ذات الارتباط بشرق أفريقيا خاصة من الناحية الأمنية والعسكرية:

(1) فرنسا:

يتمثل الدور الفرنسى التقليدى فى القارة فى استراتيجيتها الأمنية وقواعدها العسكرية، التى يتركز أغلبها فى غرب أفريقيا، ولديها استراتيجية للتنسيق بين هذه القواعد وبين قوة الانتشار

السريع الفرنسي، والآليات الأمنية فى الأقاليم الفرعية من القارة.
ومن أهم القواعد العسكرية الفرنسية فى المنطقة، القاعدة الفرنسية فى جيبوتى FFDJ، وهذه القاعدة يدعمها اتفاقية تعاون عسكرى ومعونة فنية، وهى اتفاق ثنائى يشمل مجالات المساعدات العسكرية والفنية والمساعدات المباشرة للجيش والشرطة، إضافة للمنح الأساسية العسكرية وبرامج تدريب.
هذا بالإضافة لقاعدة فرنسية فى جنوب المحيط الهندى فى جزر "رينيون ومايوت" التابعة لفرنسا.
أما باقى القواعد الفرنسية، فتوجد فى الجابون، وكوت ديفوار والسنغال، وكذلك فى الإمارات العربية.
(2) انجلترا:
تتواجد بريطانيا فى شرق أفريقيا والبحر الأحمر، لكن تواجدها محدود، لا يرتقى لمستوى الدور الفرنسي، كما تعمل انجلترا فى إطار الاستراتيجية الأمريكية، وتدعمها. ولا يوجد تمركز للقوات البريطانية فى المنطقة، فيما عدا ميناء ممباسا فى كينيا (تسهيلات جوية وبحرية لمجموعة العمليات البحرية الموجودة لها أمام سواحل الصومال وتأمين خطوط الملاحة).
وتتكون القوة المشار إليها من 150 فرداً + عدد 5 طائرات و20 طائرة هليكوبتر + 2 طائرة إنذار مبكر (وأيضاً ثلاث قطع بحرية، مدمرة وغواصة وفرقاطة + 45 زورقاً مسلحاً).
(3) إيطاليا:
- لها خبرة فى شئون المنطقة (كانت تحتل الصومال وأريتريا).
- لها قاعدة BMNS فى جيبوتى للدعم العسكرى بها 300 فرد.
- لها قوة بحرية تتحرك قبالة الساحل الشمالى للصومال تتكون من: حاملة طائرات، 150 فرداً، 24 سفينة معاونة وإمداد.
- تعمل على استعادة مكانتها فى منطقتها التاريخية وتحاول الحفاظ على حرية الملاحة.
(4) التواجد الألماني:
- تحاول استعادة مواقع لها فى القارة الأفريقية، سواء فى إطار ثنائى أو حتى جماعى (القمة الألمانية/ الأفريقية)، أو التعاون مع فرنسا فى مواجهة الضغوط الأمريكية. ونجحت مؤخرا فى تنظيم قمة ألمانية – أفريقية حضرتها مصر فى يونيو2017.
- تواجدها العسكرى يتمثل فى 1800 فرد + 8 سفن حربية + 3 سفن معاونة + 5 لنشات بالإضافة إلى 150 فرداً بحرياً.
- تسعى لمحاربة الإرهاب، وتكثيف علاقاتها بكل من كينيا وإثيوبيا وإريتريا.
وفيما عدا ذلك، لا يوجد قوات مسلحة، لدول أخرى "فى إطار منتدى أصدقاء الإيجاد" سوى لكندا، وهو تواجد محدود يتمثل فى قوات مكونة من 5 سفن إضافة إلى 1300 جندى + 3 فرقاطات تتمركز قبالة الساحل الصومالى وفى خليج عدن بالقرب من باب المندب، وهى قوات تعمل لدعم القوات الأمريكية فى مراقبة الساحل الشرقى لأفريقيا فى إطار مكافحة الإرهاب.
أما الدور الياباني، فهو دور اقتصادى أساساً، يتمثل فى المعونات الاقتصادية والمساعدات الفنية لدول منطقة شرق أفريقيا والبحر الأحمر، وإن كانت اليابان قد أسست قوة انتشار جوى يابانى لمقاومة القرصنة DAPE وحماية السفن عام 2011.
وثمة قاعدة تركية فى الصومال الشمالي، بها 200 فرد.
رابعاً: التواجد الهندى فى شرق أفريقيا
بدأت الهند بالانفتاح على دول الجنوب والقارة الأفريقية، على غرار ما تفعله القوى الدولية الأخرى من خلال المؤتمرات المشتركة فى القمم الهندية الأفريقية، التى بدأت القمة الأولى منها منتدى "الهند أفريقيا" فى أبريل 2008 بالعاصمة الهندية، حيث حضرها 14 من رؤساء الدول الأفريقية، والقمة الثانية فى 2011 والقمة الثالثة فى 2015.
ركزت الهند على التعاون الاقتصادى والشراكة، وعلى السلام والاستقرار، والتعاون فى مجال العلوم والتكنولوجيا، والمجتمع المدني، والتنمية الاجتماعية وبناء القدرات.
وبطبيعة الحال تركز الهند، شأن الدول الكبرى الأخرى، على الأسواق الأفريقية، وعلى إمكانيات الاستفادة من البترول الخام الأفريقي، لأن هذا انعكس على حجم التجارة الهندية الأفريقية، الذى تعزز فى عام 2001 من 5 مليارات دولار إلى 36 مليار دولار عام 2009، ثم إلى 50 مليار دولار عام 2016، كما أن استثماراتها فى أفريقيا وصلت إلى 9% من جملة استثماراتها الخارجية.
تشارك الهند فى عمليات حفظ السلام فى القارة الأفريقية منذ زمن طويل، بما فى ذلك إقليم شرق أفريقيا، وثمة مشاركة هندية فى عملية الأمم المتحدة لحفظ السلام وتقديم المساعدات الإنسانية فى الصومال فى أبريل 1992، كما شاركت فى عمليات حفظ السلام فى رواندا، وشاركت فى بعثة الأمم المتحدة لحفظ السلام بين كل من أريتريا وإثيوبيا عام 2001، وكذلك فى السودان عام 2004.
وقامت الهند بوضع برنامج تنموى للمناطق الأفريقية فى إطار عمليات حفظ السلام، يطلق عليه عملية "قوس قزح" The Rainbow Operation بدأت العملية فى أريتريا حيث قامت الهند بتوفير مناطق آمنة للسكان، وإعادة بناء المدارس.
تعاونت الهند أيضاً مع سيشل فى تدريب القوات البحرية والتعاون الأمني، كما أمدتها بسفن لإقامة المنطقة البحرية.
كما قامت الهند باستئجار أرض فى شمال مدغشقر فى يوليو2007 بمبلغ 2.5 مليون دولار لبناء محطة رادار

مراقبة، باستخدام نظام الاتصالات الرقمية ذات التكنولوجيا الفائقة.
كما استأجرت "جزر أجاليا" من موريشيوس لبناء منتجع سياحى وإقامة قاعدة مراقبة للسفن وحركة الشحن من وإلى موزمبيق على طول الساحل الجنوبى لأفريقيا والهند.
كما وقعت اتفاقية مع حكومة تنزانيا لزيادة إيفاد متدربى الجيش التنزانى إلى الهند، والتواصل مع السفن الهندية الحربية الموجودة فى الموانئ التنزانية، وفضلاً عن ذلك قامت الهند بزيادة الوحدات البحرية الهندية فى المحيط الهندى قبالة السواحل الأفريقية المطلة على المحيط لمواجهة أعمال القرصنة التى تعرضت لها بعض السفن الهندية التجارية، وتم خلالها اختطاف 35 فرداً من طاقمها من قبل مسلحين صوماليين فى مارس 2006.
المحور الثالث: تأثير تدخلات الدول الكبرى على المصالح المصرية فى شرق أفريقيا
من منظور المصالح المصرية، تواجه مصر عدداً من التحديات، كما تلوح بعض الفرص من جراء هذا المشهد فى شرق أفريقيا، خاصة إزاء القوى الكبرى وتواجدها الكثيف والمتنوع.
أولاً: التحديات من المنظور الأمنى والعسكري:
منطقة شرق أفريقيا، أو القرن الأفريقى بالمفهوم الموسع، تعتبر منطقة " أزمات مزمنة" وقد زاد التواجد الأجنبى "الأمنى والعسكري" من تعقيدات الموقف بالنسبة للسياسة المصرية، وإمكانية تأمين مصالح مصر المائية تحديداً، فضلاً عن تأمين البحر الأحمر والملاحة فيه، سواء الخروج للمحيط الهندى أو الدخول للبحر الأحمر.
ولقد اقترحت مصر تشكيل قوة دولية تحت مظلة الأمم المتحدة، وتشكيل محكمة دولية بقرار من مجلس الأمن لمحاكمة القراصنة، وتم اتخاذ قرار من مجلس الأمن الدولى بتشكيل مجموعة اتصال دولية (28 دولة) بداية عام 2009، بالإضافة إلى ست منظمات إقليمية دولية، غير أن مصر رفضت دخول قوات دولية إلى مياهها الإقليمية، حتى ولو كانت لمقاومة القرصنة.
ومن جانب آخر، وفى إطار الاتفاق بين جامعة الدول العربية والاتحاد الأفريقي، تم عقد لقاء مشترك فى ديسمبر 2008، وتم الاتفاق على تشكيل قوة مشتركة من 13 دولة من شرق أفريقيا، بمبادرة من أثيوبيا للقيام بمهام خاصة فى الصومال.
وهذا ربما ينطوى على عدم قدرة الأطراف الإقليمية على الاتفاق على تشكيل إطار إقليمى موحد لإجراءات تأمين البحر الأحمر من القرصنة ومقاومة الإرهاب نظراً للانقسامات الهيكلية والصراعات المزمنة فى الإقليم.
القوى الدولية الكبرى لها مصالح فى منطقة شرق أفريقيا، خاصة فيما يتعلق بتأمين طرق الملاحة البحرية فى الممرات الإستراتيجية البحرية كمضيق باب المندب، وكذلك تأمين مرور البترول الخليجي، وكذلك الاقتراب من بعض موارد المنطقة وأسواقها خاصة البترول فى السودان (الجنوبى تحديداً)، والموارد المعدنية فى منطقة البحيرات العظمي، فضلاً عن حماية وتأمين الملاحة لإسرائيل، خاصة على ضوء تجربة حرب أكتوبر 1973. وقد ساهم التواجد الأجنبى الأمنى والعسكرى فى شعور بعض دول المنطقة بقدر من الحماية الدولية لها خاصة فى ظل التواجد العسكرى الأمريكى والأوروبي، وأن استمرار مشكلة الإرهاب أو القرصنة فى المنطقة يفيدها ولا يضيرها.
فى ظل ظروف عدم الاستقرار فى المنطقة، والحساسيات التاريخية، لم تستطع مصر إقامة منظمة إقليمية "للمنطقة" وذلك منذ محاولة تكوين الإندوجو عام 1983، وكانت "مبادرة حوض النيل" التى تأسست عام 1999، محاولة فى هذا الاتجاه، لكنها تعثرت أو لعل التواجد الأجنبى المكثف، خاصة من الناحية الأمنية والعسكرية فى المنطقة، يعرقل إمكانية تشكيل مثل هذا التكامل الإقليمي، الذى يعد فى صالح مصر وصالح الاستقرار الإقليمي. فمصر تتعامل مع الإقليم من باب الكوميسا، أى تجارياً واقتصادياً، وهذا غير كافٍ ويحتاج لجهود متجددة من جانب مصر.
إن عدم وجود رؤية إقليمية مشتركة لمنطقة البحر الأحمر وشرق أفريقيا، حيث تتداخل أطراف عربية وأفريقية، بالإضافة لإسرائيل، يكون من الصعب إقناع الأطراف المختلفة بحلول إقليمية، أو نظام إقليمى للأمن والتعاون فى المنطقة، بالإضافة إلى ذلك، فإنه من المنظور الشرق أوسطي، ينظر لشرق أفريقيا على أنها إقليم فرعى للشرق الأوسط، ومن المنظور العربى ينظر للمنطقة على أنها منطقة حدية بين الإقليم العربى والإقليم غير العربى فى أفريقيا ومنطقة تداخل، ومن ثم كان الإقليم أكثر ملاءمة للوجود الأجنبى بين الطرفين، رغبة فى السعى لفصل الإقليم العربى عن الإقليم غير العربى فى شرق أفريقيا وهى رغبة استعمارية قديمة، تعززها مصالح بعض الأطراف الإقليمية والصراعات الدينية والإثنية والسياسية فى الإقليم.
ربما لا تقدر مصر والأطراف الإقليمية فى شرق أفريقيا والبحر الأحمر على إنشاء نظام إقليمى للأمن والتعاون، وفرضه على الأطراف الدولية والإقليمية ذات المصلحة فى بقاء القوى الدولية بوضعها الراهن، خاصة وأن مصر من المنظور الأمريكى ليست محل تنسيق مشترك فى إفريقيا فى إطار "أفريكوم".
ومن ثم فربما يتعين على مصر الاتجاه نحو الخيارات الآتية:
التنسيق والعمل الجماعى تحت مظلة الجامعة العربية والاتحاد الأفريقى من خلال مجلس الأمن والسلم التابع للاتحاد لاستصدار قرار مشترك، يدين الإرهاب والقرصنة فى الإقليم، ويدعو

لمشـــاركة إقليمية فعالة ويفتح المجال لتشكيل قوة إقليمية مشتركة وتحديد مهامهـــا للمشـــاركة فى حماية المياه الإقليمية فى البحر الأحمر وخليج عدن وسواحل الصومال من أعمال القرصنة والإرهاب.

البحث فى إمكانية مشاركة مصر بقوة بحريـــة لمحاربة الإرهـــاب والقرصنة البحريـــة ولتأمـــين ممرات الســـفن التجارية وإمـــدادات البترول فى البحر الأحمر وقناة الســـويس وذلك بخلاف الأسطول الجنوبى المصرى المتحرك.

ثانياً: التحديات من المنظور السياسى والاقتصادي:

لا تشـــكل العلاقـــات الاقتصاديـــة والسياســـية للدول الكبرى، تحدياً ذا شـــأن بالنســـبة لعلاقات مصر بدول الإقليم، فـــدول الاتحـــاد الأوروبي، صاحبة النفوذ التقليدى فى المنطقة وفى أفريقيا عامة، لا توجـــد من بين دول إقليم شرق أفريقيا أية دولة من الدول العشر الأوائل كـــشركاء تجاريين مع دول الاتحاد فى القارة (سواء فى تجارة الســـلع والخدمات) على عكسها مصر التى تعتـــبر رقم 3 بعد جنوب أفريقيا والجزائـــر كشريك تجـــارى مع دول الاتحاد الأوروبي.

وعلى مســـتوى آخر، حـــاول الاتحاد الأوروبى تنشـــيط التجـــارة مع دول الإقليم وأفريقيـــا ككل لمواجهة تحدى الصين، وقاموا بإعلان خارطة طريق 2014-2017، لعمـــل نظـــام مـــن المحفزات على التعاون (أمن، استقرار، تنمية) وتخصيـــص 4.5 مليار يورو للمرحلـــة الأولى من حملـــة البرنامج الـــذى لم يكتمـــل، كمـــا أن "منتدى أصدقـــاء الإيجـــاد" ومعظمهم دول غربية، وخاصة دول الاتحاد الأوروبي، يعملون بتنسيق كامل مع دول المنطقة، أما بالنسبة للولايات المتحدة، فمازالت الصين تمثل الهاجس والمنافس الرئيسى المواجه لهم فى أفريقيا ككل، وكذلك فى شرق أفريقيا. وقـــد أدت خطة الحل لدول الإيجاد إلى فصل جنوب السودان الذى يتركز فيه أكـــبر قدر من بترول السودان 70%.

وعلى جانب آخر، تشـــكل دول شرق أفريقيـــا أكـــبر وأهـــم دول متلقية للمســـاعدات الأمريكية، وعلى ســـبيل المثال فى عام 2015، كان لدينا فى شرق أفريقيا أكبر 5 دول متلقية للمساعدات الأمريكية فى القارة الأفريقية – جنوب الصحـــراء، وهى بالترتيـــب: أثيوبيا، كينيـــا، جنوب الســـودان، الصومال، تنزانيـــا، بالإضافـــة إلى أوغندا رقم 7 والســـودان رقم 9. كما أن بعض دول الإقليم تحظى بقدر من الاســـتثمارات الأمريكية فى مجال مبادرة الطاقة وبناء قـــدرات أمنية للـــدول الأفريقية منها كينيا فى شرق أفريقيا.

والصين، تعتبر أكبر منافس دولى للدول الكبرى الأخرى، وبطبيعة الحال لدول القارة ذات الاقتصادات الناشئة، حيث يقدر أن 2500 شركة صينية تعمل فى أفريقيا، ونحـــو مليون مواطن صينى يقيمون بشـــكل دائم فى أفريقيا للعمل فى المشروعات المختلفة الاستثمارية، بما فيها دول الإقليـــم، وخاصة فى أثيوبيا وجيبوتى وغيرهمـــا، حيث إن الصين تخصص 12 مليار دولار للإنفاق على إقامـــة مطارات وموانـــئ فى جيبوتى وحدها.

الخيارات المتاحة على الجانب السياسى والاقتصادى تتلخص فى الآتي:

تعزيز التكامل الإقليمى فى إطار "منطقة التجارة الحرة" فى إطـــار دول الشرق والجنوب الأفريقـــى (26 دولة)، بحيث يتم التركيز على إعطاء الأولوية للتجارة البينية، أى الأفريقية-الأفريقية، وتنشيط منطقة التجارة الحرة داخل الكوميسا ذاتها حيث إن بعض الدول الأعضاء لم تدخلها بعد.

مراجعـــة الـــشراكات الأفريقية مع القوى الكـــبرى، وخاصـــة الولايات المتحدة، والصـــين والاتحاد الأوروبى واليابـــان، بالقدر الذى يحقق مصالح الدول الأفريقيـــة، بحيث يتم التخلص من كل مصادر الشـــكوى، ســـواء فى موازين التجـــارة أو نقل التكنولوجيا، أو استغلال النزاعات الإقليمية خاصة "مشاريع المياه فى الأنهار الدولية".

مضاعفة الجهد المـــصرى فى مقاومة الإرهاب فى دول شرق أفريقيا، وخاصة فى الصومـــال وكينيا، وحـــل الصراع الداخلى فى جنوب السودان، والتى تعتبر بؤرة خصبة لنمو الظاهرة الإرهابية فى الإقليم وتعزيز علاقات مصر مع الدول المحيطة بأثيوبيا، ســـواء كانت عربية أو أفريقية لفتح آفاق جديدة، ويمكن تفعيل الدور المصرى فى مقاومة الإرهاب بالتنسيق مع الإطار الإقليمى (العربي-الأفريقـــي)، كما يمكن التنســـيق مع الجانب الأمريكى بشكل موازٍ، خاصة فى ظـــل إدارة "ترامـــب" الجديدة فى الولايات المتحـــدة والتى تعطى أهمية كبرى لمقاومة الإرهاب.

التركيز على مشروعات الطاقة والبنية الأساسية لدول الإقليم، وخاصة طريق "القاهـــرة – الـــكاب" لإيجاد مخرج لتجارة الدول الحبيســـة، والتى تخشى القرصنـــة، وخاصـــة أثيوبيا وجنوب الســـودان. كما يمكن لمصر التخطيط لمشـــاركة ثلاثية (مصريـــة – صينية – جيبوتية) أو مـــع أية دولة من دول الإقليم للقيام بالمشروعات التنموية.

زيادة وتيرة التعـــاون والترابط المصرى مع المجتمعات والجماعـــات الأفريقية والأحزاب السياسية فى دول شرق أفريقيا.

تفعيل الشراكة المصرية السودانية مع كل من جمهورية السودان وجمهورية جنوب السودان.

وأخيراً؛ إذا اســـتطاعت مصر أن تقنع الولايات المتحـــدة بصلابـــة التوجه المصرى لمقاومة الإرهاب؛ فإننا قادرون على القيام بأعمال فعلية؛ سواء بشكل فـــردى أو ثنائى (مـــع دولة من دول المنطقة) أو فى إطـــار متعدد الأطراف لحل المشـــاكل وللتعاون والتفاهم بين دول المنطقة.

أفريقيا تستطيع.. بسواعد أبنائها..

مع انطلاق أجندة أفريقيا المستقبلية فى قمة جوهانسبرج عام 2015 أضحت القضية المحورية للعمل الأفريقى المشترك هى تحقيق التنمية بأبعادها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولاسيما وأن الله سبحانه وتعالى قد حبا القارة السمراء بثروات طبيعية وفيرة وأراض خصبة ووفرة فى المياه العذبة والثروات المعدنية وحياة طبيعية ثرية وعقول مبتكرة وخبرات علمية وعملية إذا ما اجتمعت فى أى إطار تعاونى لكانت كفيلة بإنجاحه وتحويله إلى نموذج مثالى يحتذى به فى التنمية الشاملة.

هادية الشربيني

sherfayey@yahoo.com

ومن أجل تحقيق تطلعات شعوب القارة السمراء المشروعة فإن هذا الأمر يتطلب وفقاً لما قرره الزعماء الأفارقة فى نطاق أجندة افريقيا 2063 تعزيز الجهود الوطنية والقارية لدعم وتطوير الصناعة ونقل وتوطين التكنولوجيا والاهتمام اللازم ببرامج التدريب والتعليم المهنى وعلى هذا الأساس فإن افريقيا بالفعل تستطيع ومن خلال تفعيل مبادئ أجندة 2063 الانطلاق نحو آفاق المستقبل بحيث تتولى زمام أمورها ويتحقق ما أكدت عليه «لامينى زوما» الرئيسة السابقة لمفوضية الاتحاد الافريقى خلال اجتماعات القمة الافريقية بكيجالى عام 2016 بأن مستقبل القارة التنموى يعتمد بصفة كبيرة على الاعتماد على النفس والاعتداد بالكرامة الوطنية بدلاً من الاعتماد الكلى على الشركاء من خارج القارة ومن ثم يجب على الجميع التكاتف من أجل توفير موارد التمويل الذاتى لمشروعات القارة السمراء التكاملية فى جميع المجالات.

خارطة الطريق

تهدف أجندة 2063 للاتحاد الافريقى إلى إقامة افريقيا يسودها الحكم الرشيد والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان والعدالة وسيادة القانون وجعل القارة السمراء تنعم بالسلم والأمن وتتمتع بهوية ثقافية قوية وتراث وقيم وأخلاقيات مشتركة تقود شعوبها للتنمية بإطلاق الطاقات الكامنة للمرأة والشباب لكى تصبح افريقيا لاعباً وشريكاً عالمياً قوياً وذات نفوذ. وتعد أجندة 2063 طبقاً لتأكيدات

أفريقيا تستطيع..
بسواعد أبنائها..

المفوضية الأفريقية هى خطة القارة الأصيلة للتحول الذاتى التى تسعى لتسخير المزايا النسبية لافريقيا كما ان الخطة هى بمثابة خارطة الطريق لتسلسل الخطط القطاعية والمعيارية والوطنية والاقليمية والقارية المتماسكة.

وتدعو الأجندة الأفارقة على مستوى القيادات والحكومات والمؤسسات والمواطنين إلى العمل والتنسيق والتعاون لتحقيق هذه الرؤية وتحديد برامج رئيسة للقضاء على الفقر بحلول عام 2025 وإطلاق ثورة فى المهارات والعلوم والتكنولوجيا والابتكار وتحويل الاقتصاديات الافريقية وضمان نموها وتوجهها نحو التصنيع من خلال اثراء الموارد الطبيعية وتحديث الزراعة الافريقية وزيادة القيمة المضافة والإنتاجية بحلول عام 2025.

وتعمل الأجندة على ربط افريقيا من خلال بنية تحتية ذات مستوى عالمى من خلال حملة منسقة لتمويل وتنفيذ مشاريع البنية الاساسية فى قطاعات النقل والطاقة وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات بالإضافة إلى التعجيل بإنشاء منطقة التجارة الحرة القارية بحلول عام 2017 وصولاً لمضاعفة التجارة الافريقية البيئية مرتين بحلول عام 2022.

وتحث أجندة 2063 على دعم الشباب الذى يشكل ثلث سكان القارة السمراء كمحرك لنهضة افريقيا وإسكات السلاح بحلول عام 2020 لجعل السلام حقيقة واقعة وإنهاء الحروب والنزاعات الأهلية وانتهاكات حقوق الإنسان ومنع الإبادة الجماعية.

ونصت الأجندة على تحقيق التكافؤ بين الجنسين وإصدار جواز سفر افريقى والغاء التأشيرات بين الدول الافريقية بحلول عام 2018 وقد تم بالفعل اصدار نماذج لجوازات السفر ومنحها لزعماء القارة السمراء خلال قمة كيجالى عام 2016.

وتعمل الأجندة أيضاً على تعبئة الموارد الافريقية وبناء أسواق رأسمالية قارية ومؤسسات مالية بالإضافة إلى الاستفادة من التجارب المتنوعة لمختلف البلدان والاقاليم كأساس لتحديد نهج افريقى للتحول.

دور مصر المحوري

مما لاشك فيه ان دور مصر المحورى فى القارة السمراء ينطلق من إيمانها الثابت بانتمائها الافريقى بخلاف موقعها الجغرافى المتميز الذى يجعل منها بوابة افريقيا فى نطاق ارتباطها مع العالم الخارجى وكما كانت مصر شريكاً رئيسياً لدول القارة فى التحرر والاستقلال فإنها تتطلع أيضاً ان تكون شريكة للقارة فى تحقيق التنمية ومواجهة تحديات العصر ومن ثم فإن افريقيا تحتل مكانة متميزة فى سلم أولويات السياسة الخارجية المصرية حيث شهدت العلاقات المصرية الافريقية أخيراً ومنذ يونيو 2014 عقب تفعيل عضويتها بالاتحاد الافريقى دفعة قوية واتضح ذلك جلياً من حرص القيادة السياسية المصرية على المشاركة بفعالية فى القمم الافريقية وجاء انشاء الوكالة المصرية للشراكة من أجل التنمية كرسالة قوية من القاهرة لتعزيز التعاون فى جميع المجالات التنموية والأمنية ومد دول القارة بالخبرات فى مجال الطب والزراعة والرى والتوسع فى تدريب الكوادر الأمنية بالتعاون مع القوات المسلحة والشرطة.

وأكد الرئيس عبدالفتاح السيسى فى كلمة مصر بقمة كيجالى بأنه

لا بديل عن الأخـــذ بنموذج التكامل والاندماج الاقليمى فى افريقيا مشيراً إلى ان تنمية الاقتصاديات الافريقية تحتـــاج إلى تنســـيق الجهود على المستويين الاقليمي والقارى لتنفيذ خطط محددة تتأسس اعتماداً على تقســـيم العمل بين الدول الافريقية بناءً على الميزات النســـبية لكل دولة بحيث تنعكس بالإيجاب على جاذبية الأســـواق الافريقية للاســـتثمارات وتعزيز معدلات النمو الاقتصادي.

ومن هـــذا المنطلق فإن مصر تتطلع للوصـــول لإقامة منطقـــة للتجارة الحرة الافريقية بناءً على نجاح القمة الثالثة للتجمعات الاقتصادية الثلاث «الكوميسا ـ السادك ـ تجمع شرق افريقيا» والتى عقدت فى شرم الشيخ يونيو 2015 بمشـــاركة 26 دولة افريقية.

كما ان مصر تساند الرؤية الافريقية بأهميـــة ايجاد آليـــة افريقية لحل النزاعـــات السياســـية بمـــا يدفع الاستقرار الســـياسى ويدفع بعجلة التنمية.

شراكات متعددة:

أصبحت الدول الافريقية أكثر إدراكاً بالأهميـــة الاســـتراتيجية لثرواتها المعدنية والطبيعية والبشرية حيث يبلغ عدد ســـكانها مليـــار و200 مليون نســـمة بما يجعل فيها سوق واعدة جاذبة للاستثمارات من جميع انحاء العالم وبالتـــالى فقد تنبهت دول القـــارة الســـمراء مؤخراً بأن عهد اســـتنزاف مواردها وثرواتها قد ولى ومن ثـــم كان التوجه نحو عقد منتديات للشراكـــة مع العديد مـــن القـــوى والتكتـــلات الدولية والاقليمية لجذب الاستثمارات ونقل التكنولوجيا وتوطين التصنيع سعياً نحو توفير موارد للتمويل الذاتى فى المستقبل القريب إيماناً بأن افريقيا تستطيع ان يكون لها ثقلها وصوتها المسموع فى النظام الدولى الجديد.

ومن هذا المنطلق فإن مصر كان لها دورها فى هذا النطاق ولذلك حرصت دول كالصين والهند واليابان بخلاف مجموعة العشرين وغيرهم على طرح مبادرات للشراكـــة الاقتصادية مع دول القارة الســـمراء بالتركيز على مصر ومـــن ثم تم دعـــوة الرئيس عبدالفتاح الســـيسى للمشـــاركة فى اجتماعات قمـــة مجموعة العشرين فى «هانجشتو» فى الصين تلك القمة التى صرح الرئيس الصينى خلالها استراتيجية تصنيع افريقيا.

كما أطلقت الهنـــد فى إطار منتدى «الهند افريقيا» مبـــادرات تهدف إلى تعزيز الشراكـــة مع دول القارة السمراء بناءً على ثلاث عوامل تتركز فى بناء القـــدرات والتمويل بشروط ميسرة وتنمية الموارد البشرية وبناء الجسور مع الشباب بصفتهم اساس المســـتقبل وتولى الهند تقديراً لدور مصر فى هذا النطاق.

وأخيراً وفى قمـــة مجموعة العشرين ببرلـــين والتى تم دعـــوة مصر فى المشـــاركة فيها إلى جانب عدد من الدول الافريقية تـــم طرح المبادرة الالمانية والتـــى تقوم على الشراكات مع المؤسســـات الدولية بهدف خلق مناخ مـــوات لجذب الاســـتثمارات لافريقيا بشـــكل مســـتدام لتحفيز النمو الاقتصادى بها ورفع معدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية على ان تمثل هـــذه المبادرة قيمة مضافة للمبادرة الصينية المقترحة بشـــأن تصنيع افريقيا.

وقـــد صرح الرئيـــس عبدالفتاح السيسى خلال قمة مجموعة العشرين وأفريقيا ببرلين رؤية مصر الرامية إلى أهمية تعاون مجموعة العشرين والمجتمـــع الدولى مـــع دول القارة الافريقية على الحـــد من ظاهرتين تؤثران بشـــكل فعـــال على فرص التنمية الاقتصاديـــة والاجتماعية وهما انتشار ظاهرة الإرهاب وأهمية تجفيف مصـــادر تمويله والحد من الهجرة غـــير الشرعية بدعم الحلول الســـلمية للنزاعات وبؤر التوتر فى افريقيا بما يحقق الاستقرار والنمو الاقتصادى والتأثير إيجابياً على الحد من الهجرة الشرعية.

وفى إطار المحافل الدولية فإن دول القارة السمراء تسعى بصفة حثيثة لأن يكون لها دورها فى صنع القرار الدولى والمطالبـــة بمقعدين دائمين على الأقـــل لافريقيا فى مجلس الأمن وفقاً لموقف افريقيا الموحد الذى تم صياغته فى ســـوزيلاند بما يعرف بتوافق «ايزولوينـــي» ولمصر دور مهم فى هذا النطـــاق كما كان لمصر دور مهـــم فى تمثيـــل دول القارة فى مؤتمر باريـــس للتغير المناخى والتأكيـــد على أهميـــة حماية دول القارة من اثـــار التغير المناخى بما لها من تأثيرات ســـلبية على فرص التنمية المتاحـــة بأفريقيا.. وبالفعل فإن افريقيا قطعت شوطاً مهماً فى تحقيق العديد من الأهداف الإنمائية للألفية ولاسيما فيما يتعلق بالتعليم وتمكين المـــرأة ومكافحة الأمراض والاوبئة ولكـــن مازالت هناك الكثير من التحديـــات الماثلة وجميع الآمال تنعقد الآن على إمكانية تحمل افريقيا لها فى المستقبل القريب وإنجاز خطة الطريـــق الممثلـــة فى أجندة 2063 بســـواعد أبنائها بحيث تتحول إلى قارة تنعم بالازدهار والرخاء وتسطر عهداً جديداً تودع فيه إلى غير رجعة سلبيات الماضى الأليم.

مصر فى يوم أفريقيا
تاريخ مشترك ومصير واحد

احتفلت مصر مع أشقائها الأفارقة بالعيد الرابع والخمسين لإنشاء منظمة الوحدة الأفريقية/الاتحاد الأفريقى، فى 25 مايو عام 1963، وخلال تلك السنوات عبّرت المنظمة عن التطلعات والطموحات والرؤى المشتركة للدول والشعوب الأفريقية. وقد تجسدت هذه الآمال والرؤى فى تلك الوثيقة الطموحة التى حملت عنوان "أجندة 2063" نحو مستقبل أفضل لقارتنا الأم.

ومصرُ إذْ تحتفى بكل فخرٍ بهذا اليوم العزيز من كلَّ عام، فإننا نتذكر الجهود التى بذلها الآباء المؤسّسون الذين بذلوا سعياً حثيثاً وكفاحاً مُضنياً مَن أجل أفريقيا. فلم يكتفِ الآباء الأُول بالتفكير فى هذا المفهوم عميق الدلالة Pan Africanism وإنما خاضوا نضالاً طويلاً لتحقيقه وتفعيله على أرض الواقع.

مستشارة

مروى ممدوح سالم

فى الخامس والعشرين من مايو، تذكرُ مصر دوماً مع الدول الأفريقية هؤلاء الرجال العِظام الذين لعبوا أدواراً لا تُنسى من أجل كتابة تاريخ قارتنا؛ فهذا اليوم يحملُ إلينا ذكرى وعطاء الزعماء جمال عبدالناصر، كوامى نيكروما، جوليوس نيريري، أحمد بن بيلا، أحمد سيكوتوريه، الإمبراطور هيلا سيلاسى وغيرهم. من هذا المنطلق، كان حرص مصر على إبراز وعيها العميق بأهمية هذه المناسبة التى سطرت مرحلة فريدة فى تاريخ كفاح الشعوب الأفريقية، فاستقبل الرئيس المصرى نظيره ألفا كوندى رئيس غينيا كوناكرى والرئيس الحالى للاتحاد الأفريقى، الذى حضر لزيارة مصر يوم 25 مايو وكان فى استقباله بقصر الاتحادية السفراء الأفارقة المعتمدون بالقاهرة وكذلك السيدة سامية نكروما، كريمة الزعيم الغانى كوامى نكروما، الذين تمت دعوتهم للمشاركة فى هذه المناسبة. وفى لفتة غير مسبوقة تلا ذلك خلال ذات اليوم لقاء السفراء الأفارقة والسيدة سامية نكروما، مع د. على عبدالعال رئيس البرلمان المصري، ثم مع وزير الخارجية السيد سامح شكري. وخلال نفس الشهر يوم 11 مايو كانت ظاهرة أخرى غير مسبوقة أيضاً بشأن الانخراط المصرى رفيع المستوى فى الشأن الأفريقي، وهى فى يوم واحد استقبال رئيس الدولة لنظيره الكينى أوهورو كينياتا بالقاهرة، ومشاركة رئيس الوزراء فى مؤتمر لندن حول الصومال، وزيارة وزير الخارجية لغانا حاملاً لرئيسها نانا أكوفو آدو رسالة من رئيس مصر.

ومن جانبها أطلقت وزارة الخارجية حملة إعلامية تحت مسمى "وجه مصر الأفريقي" للاحتفال بيوم أفريقيا، على صفحات التواصل الاجتماعى الرسمية الخاصة بالوزارة على موقعى فيسبوك وتويتر، مع إطلاق هاشتاج خاص بالحملة حيث تتضمن الحملة نشر مجموعة من التدوينات التى تبرز البعد الأفريقى لمصر وأهم إنجازاتها فى كافة المجالات. كما تضمنت الحملة الإعلامية أيضاً إذاعة كلمات مسجلة لوزير الخارجية، وسفير جمهورية الكونجو (عميد السلك الدبلوماسى الأفريقى)، والسفيرة مشيرة خطاب (مرشحة

مصر وأفريقيا لمنصب مدير عام اليونسكو)، فضلاً عن سفير غينيا كوناكرى (الذى تتولى بلاده الرئاسة الحالية للاتحاد الأفريقى).

وشملت الفعاليات التى نظمتها وزارة الخارجية إضاءة مبنى الوزارة فى ماسبيرو مساء 25 مايو بكلمة "أفريقيا"، بالإضافة إلى إقامة حفل استقبال حضره السيد وزير الخارجية مع ضيفة الشرف سامية نكروما كريمة الزعيم الغانى الراحل كوامى نكروما، فضلاً عن سفراء السلك الدبلوماسى وعدد كبير من الشخصيات العامة والكتاب والمثقفين والإعلاميين. وعلى الصعيد الثقافى، نظمت اللجنة الثقافية للنادى الدبلوماسى المصرى احتفالية للثقافات الأفريقية بالاشتراك مع مجلس السفراء الأفارقة جرت فعالياته بالنادى الدبلوماسى النهرى، فضلاً عن ورشة عمل حول إعادة الإعمار فيما بعد النزاعات بالتعاون بين القطاع المتعدد الأطراف بالوزارة ومركز القاهرة الإقليمى لتسوية النزاعات والتدريب على عمليات حفظ السلام.

فى السياق نفسه أقامت جهات أخرى عديدة فعاليات متعددة احتفالاً بيوم أفريقيا بالتنسيق مع وزارة الخارجية مثل لجنة الشئون الأفريقية بمجلس النواب، التى استضافت السفراء الأفارقة المعتمدين بالقاهرة ومعهم السيدة سامية نكروما، والجمعية العلمية للشئون الأفريقية، ومعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة، ومركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، ووزارة الشباب والرياضة، وهيئة تنشيط السياحة، ومكتب الاتحاد الأفريقى لدى جامعة الدول العربية، والجامعة البريطانية بالقاهرة، فضلا عن إقامة عدة محافظات مصرية منها بورسعيد والدقهلية والبحر الأحمر احتفالات خاصة بتلك الذكرى.

يؤكد ما سبق الإدراك بأن المكوّن الأفريقى جزء لا يتجزأ من هوية مصر الأصيلة اتصالاً بالروابط الجغرافية والتاريخية والنضال المشترك بين مصر وشقيقاتها الأفريقية، وهو ما أكده الرئيس عبد الفتاح السيسى فى خطابه الافتتاحى بمناسبة تنصيبه رئيساً لمصر فى يونيو 2014، حيث جدّدَ التزام مصر الثابت تجاه قارتها الأفريقية، وهو ما جسدته الجهود الكبيرة لتوطيد العلاقات والروابط مع الدول الأفريقية الشقيقة وقادتها، والحرص على حضور قمم الاتحاد الأفريقى على المستوى الرئاسي، والقيام بزيارات ثنائية لعدد كبير من الدول الأفريقية، والحرص على استقبال عدد من القادة الأفارقة ومبعوثيهم فى القاهرة.

كما تتجلّى أبعادُ هذا الالتزام فى العديد من المجالات، من بينها الإسهام المصرى فى جهود حفظ السلام فى أفريقيا، والعمل على تحقيق أهدافها. كما تعملُ مصر جاهدة على الاستفادة من عضويتها المتزامنة فى كل من مجلس الأمن الدولى ومجلس السلم والأمن الأفريقى فى إطار جهودها لمعالجة التحديات والتهديدات المتصلة بالسلم والأمن فى أفريقيا، وكذا طرح الحلول والبحث عن سبل مواجهة هذه التحديات والتهديدات. وقد طرحت مصر، كذلك، وقادت جهود التفاعل لتعزيز التعاون والتنسيق بين مجلس الأمن الدولى ومجلس السلم والأمن الأفريقي. كما جددت مصر التزامها بأن تكون لاعباً مهماً،

له دور نشـــط فى إطـــار الجهود الرامية لتحقيق التنمية المستدامة والنمو الاقتصادى وبناء القدرات فى مختلف الـــدول الأفريقية من خلال الأنشطة المكثفة فى العديد من المجالات التى تقوم بها الوكالة المصرية للشراكة من أجل التنمية.

وتدرك مصر أن القارة الأفريقية تواجهُ عـــدداً وافراً من التحديات المرتبطـــة بعـــدم الاســـتقرار السياسى والأمنى وتحدى الإرهاب والتحديات ذات الصلة بالأوضاع الاقتصاديـــة. فالإرهاب بات آفة تهدد حاضر ومســـتقبل قارتنا الأفريقيـــة، ومصر فى حربها ضد هـــذا التهديد الوجـــودي، كانت ومازالـــت، تؤمنُ بـــأنَّ الجهود الجماعية على المســـتوى القارى والعالمـــى باتت ضرورةً للتصدى لهذا التهديد، كما ترى أنَّ المواجهة من مقترب متعدد الأبعاد – أمنياً وتنموياً وفكرياً ودينياً- للتعامل مع الأســـباب المتجـــذرة لهذه الظاهرة أصبحت واجباً وضرورة.

وعلى هذا الأســـاس، فإنَّ الطريق إلى الأمـــام لاســـتيعاب هـــذه التحديات الكبـــيرة هى أن تعمل مصر وشـــقيقاتها مـــن الدول الأفريقية يداً بيد، وكتفاً إلى كتف، من أجل العمل على إحياء الروح الأفريقية الجماعية وإكســـابها مضموناً متجدداً يواكب المتغيرات والتحديـــات الجديدة. يجب على الأفارقـــة، فى هـــذا الخصوص، مداومـــة الجهود من أجل إحداث الإصلاحـــات الضروريـــة للبيت الأفريقـــي. فقضيـــة التنميـــة الاقتصادية ودعـــم الديمقراطية وحقوق الإنسان تحتاج مزيداً من الجهود من أجل التقدم فى الحركة إلى الأمـــام. وعلى ذات الدرجة من الأهمية، تأتى قضية التخلص من الفقر، وأزمـــة الديون، ومكافحة الأمراض المتوطنة، فيجبُ علينا – نحن الأفارقة– أن نتعامل مع هذه الأهداف الاســـتراتيجية على وجه السرعة وبجهود مخلصة من أجل أن تحتل أفريقيـــا مكاناً متقدماً وموقعاً مُســـتحقاً على الساحة الدولية.

إن موضوع الاهتمام الأســـاسى للعام 2017 مـــن جانب الاتحاد الأفريقى هو "تســـخير الميزات الديموجرافية من خلال الاستثمار فى الشـــباب" لتحقيـــق التنمية المســـتدامة. ففى واقع الأمر أن الاســـتثمارات التى تُبـــذل اليوم فى الشـــباب الذيـــن يمثلون أهم ثروات القارة الأفريقية ســـوف تحدد مســـار التنمية فى أفريقيا خلال الخمســـين عاماً القادمة، وموقع القارة مـــن أجل تحقيق شـــعار "أفريقيا التى نريدها"، أفريقيا قويـــة، وموحدة كفاعل وشريك مؤثر فى الشئون الدولية. وتدعم مصر من جانبها بقوة هذه الرؤية، أخذاً فى الاعتبار الضرورة الماسة لتحويل القدرات الضخمة للقارة من الشباب بين سكانها إلى عائد ديموجرافى إيجابي.

ولعله من الأهمية بمكان التأكيد على أنّ أحد الأهداف الرئيســـية للسياســـة الخارجيـــة المصرية يتمثـــل فى دعم شـــقيقاتها من الـــدول الأفريقية عـــبر مناطق وأقاليم قارتنـــا المختلفة من أجل الوصول إلى أقصى الإمكانات وبناء قدرات قويـــة لمواجهة التحديات، فالعلاقات المصرية الأفريقية التى تضرب بجذورها فى عمق التاريخ تســـتندُ إلى عهـــود وعقود من التضامن وسوف تستمر وتزدهر لنجنى جميعاً ثمارها فى المستقبل الأفضل لأفريقيـــا التى يجمعها تاريخ مشـــترك ويربطها مصير واحد.

الآثار الاقتصادية العالمية لتغير أسعار البترول

شـــهدت أسواق البترول العالمية تقلبات حادة خلال العامين الأخيرين، معظمها نشأ من خلفيات سياســـية احتدم فيها صراع القوى الكبرى لإحكام السيطرة على منابع الطاقة في العالم، وخاصة الدول التي تلعب أو ترغب في لعب أدوار قيادية في منطقتها أو على المســـتوى العالمي، حيث تعتبر الطاقة بكافة صورها وأشكالها (بترول خام- غاز- مشتقات بترولية- كهرباء) هي المحور الأساسي للتنمية الاقتصادية والمجتمعية ومحاربة البطالة.

م. أسامة كمال
وزير البترول والثروة المعدنية الأسبق
okamal@petroleum.gov.eg

تشير التقارير الصادرة عن البنك الدولى إلى ارتباط وثيق بين أسعار النفط ومتوســـط الناتج القومى ومعدلات البطالة، حيث تم تقسيم دول العالم إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: وهى تلك البلاد التى تتنوع مصادر دخلها وإيراداتها وتهتـــم فى المقـــام الأول بتعظيم القيمـــة المضافة مـــن مواردها المتاحة ســـواء كانت طبيعية أو ماديـــة أو بشرية وتلعـــب دوراً محوريـــاً على المســـتوى العالمى بامتلاكهـــا للتكنولوجيا، وتهتم بتأمين احتياجاتهـــا من الطاقة (دول العالم الأول).

الفئة الثانية: وهـــى البلاد التى تحـــاول النهوض مـــن خلال اســـتغلال ما لديها من طاقات محدودة (طبيعيـــة أو بشرية) فى توفير حيـــاة كريمة لمواطنيها اعتمادا على عنـــاصر التقدم غير المتوافرة لديهـــا ولكن تعمل على اجتذابها من خلال الإرســـاليات التعليميـــة لأبنائهـــا بالخارج (تجربـــة الهند- أقوى ســـابع اقتصاد عـــلى مســـتوى العالم 2015) أو اســـتقدام أصحـــاب التكنولوجيا للاســـتثمار بحزمة من الحوافز والضمانات (تجربة الصين- ثانـــى أكبر اقتصاد على مستوى العالم 2015).

الفئة الثالثة: وهى البلاد التى تمتلك ثـــروات طبيعية وبشرية وتعتمـــد على مـــوارد ريعية غير تكنولوجية (تصدير خام البترول أو الثروات المعدنية- السياحة- الممرات الملاحيـــة) ولا تعمل على اســـتقدام التكنولوجيـــا بقدر اهتمامها بالاســـتثمار، ومن ثم

أسعار البترول العالمية خلال الفترة ٢٠٠٨ - ٢٠١٦

الآثار الاقتصادية العالمية لتغير أسعار البترول

أصبحت مطمعاً أو صيداً سهلاً للفئتين السابقتين بالرغم من تخطى نصيب الفرد من الناتج القومى فى بعض هذه البلاد لأقرانهم فى الفئتين الأولى والثانية.

مما تقدم يسهل الآن تحليل وتقييم مستويات الأسعار التى شهدها العالم فى العامين الأخيرين، ومدى تأثيره على مناطق الصراع فى العالم من خلال ثلاثة مشاهد محددة:

أزمة القرم ورد الغرب عليها بإضعاف الاقتصاد الروسى بخفض أسعار البترول، وهو يمثل من 50-40 % من إجمالى الناتج القومي، وكيف انعكس ذلك على خفض قيمة الروبل ليصل سعر تحويل الدولار لأكثر من 80 روبلاً خلال الربع الأول من 2016.

استسلام إيران للضغط الأمريكى وتوقيع اتفاقية الانتشار النووى وفقا لضوابط ومعايير محددة مقابل رفع العقوبات الاقتصادية المفروضة عليها، بعد انخفاض عائدات النفط ومشتقاته، وهى تمثل أكثر من 80 % من إجمالى الصادرات.

معاقبة الدول الخليجية المؤيدة لمصر بعد ثورة 30 يونيو والتى يمثل النفط أكثر من 80% من عائدات الدخل بها، بل وتأليب الحروب الطائفية من حولها كما نرى فى سوريا واليمن والعراق وليبيا، مما كان له أثر سلبى على مجموعة الدول الخليجية بتأجيل بعض المشروعات التنموية بها وظهر أثره الإيجابى بتفهم المملكة السعودية لإبعاد المخطط وإصرارها على استمرار الإنتاج بدون تخفيض ووضع سياسة جديدة للمملكة حتى عام 2030 لا تعتمد على النفط كأكبر مصدر للدخل.

توصيف لموقف أسعار النفط حالياً وانعكاسها على الاقتصاد العالمي:

عقب دخول العالم فى الصراعات المشار إليها، بدأت الدول الكبرى فى استخدام كل الأساليب غير العسكرية مثل الأدوات الاقتصادية (ميزان التبادل التجاري) والتكنولوجية (النفط الصخري) لمواجهة مد أسعار الطاقة الذى وصل إلى ذروته فى الربع الثالث لعام 2008 حيث بلغ سعر برميل النفط 140 دولاراً، وانهار بعدها مع تداعيات الأزمة الاقتصادية ليصل إلى ما دون 45 دولاراً فى بداية 2009، إلا أن أسعار النفط عاودت الارتفاع مرة أخرى لتتخطى حاجز 100 دولار بنهاية 2011 وتستمر الأسعار فى التذبذب حول هذا السعر حتى الربع الثانى من 2014، ليبدأ بعدها مسلسل الانهيار التام وتتدنى أسعار النفط ى ما دون 25 دولاراً فى الربع الأول من 2016، وتعد تكلفة الإنتاج من أهم العوامل التى تحدد القاع الذى يمكن أن تصل إليه أسعار النفط فى العالم، حيث لا يمكن للأسعار أن تبقى أقل من هذه التكلفة لفترات طويلة نظرا للتبعات التى ستطرأ على هذه الصناعة وخروج العديد من منتجى النفط مرتفع الكلفة من الحلبة. تتأرجح تكلفة

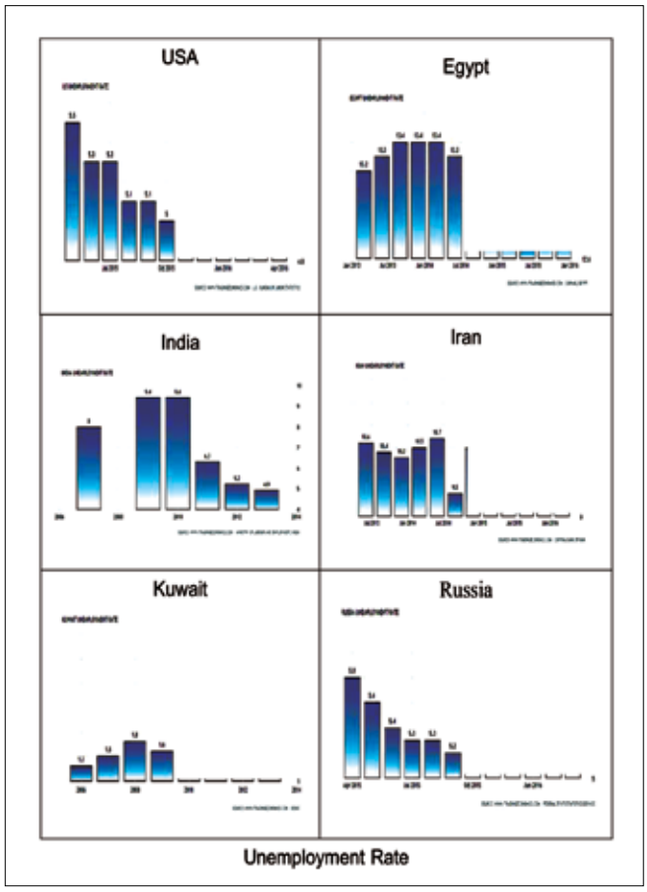

Unemployment Rate

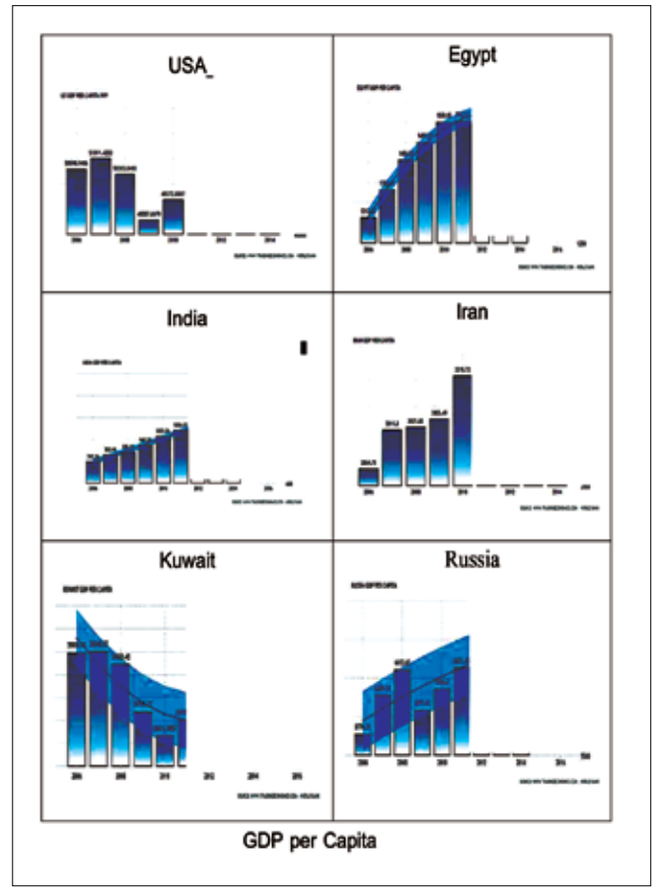

GDP per Capita

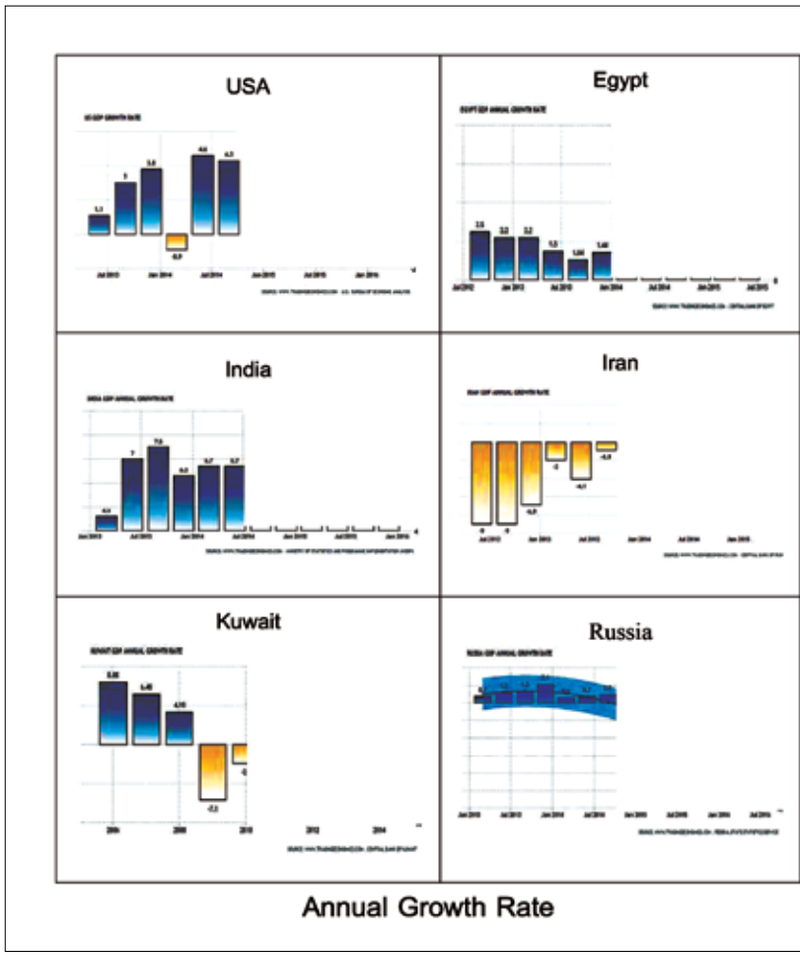

Annual Growth Rate

استخراج النفط فى العالم (تكاليف استثمارية + تكلفة تشغيل) طبقاً لطبيعة ونـــوع النفط، علما بأن التكاليف تختلف من حقل لآخر، حيـــث إن تكاليف الحقول البرية الضخمة مثـــل حقل "الغوار" فى الســـعودية أو حقل "برقان" فى الكويت تقل بكثير فى حين تكون تكلفة الإنتاج فى الحقول البحرية بالمياه الضحلة أكثر، أما تكاليف الحقول فى المياه العميقة كما هو الحال فى خليج المكسيك والحقول فى البرازيل وغرب إفريقيا ووسط البحر المتوسط فهى مرتفعة جدا.

نعيد نشر هذا المقال الذى نشر فى العدد السابق نظرا لأهميته

القيادات الكاريزمية وتجارب التنمية فى آسيا

« مهاتير محمد » فارس التنمية الماليزية جزء « 1 »

«إن الشيء الذى غدا أهم من ثروتى المادية هو محافظتي على حســـن سمعتي، لا لأنى أردت أن أكون محل إعجاب، ولكن لأنى لم أشـــأ توريث أبنائى وأحفادى شيئا يخجلهم بعد رحيلى.. أعتقد أننى بذلت كل ما فى وسعى وأنا مرتاح الضمير، مع أنه سيتواجد دائما أشخاص يحاولون أن يلطخوا اسمى ولطالما قبلت بهذه الحقيقة لكنى بحســـب ظنى لن أترك خلفى ما يعيبنـــى «من مذكرات مهاتير محمد طبيب فى رئاسة الوزراء».

سفير رضا الطايفي

taifyreda@yahoo.com

1- تولى مهاتـــير محمد منصب رئيـــس وزراء ماليزيا على مدار اثنين وعشرين عاما خلال الفترة من 27 يونيو 1981 حتى إعلان قرار اســـتقالته طواعيـــة أمام اجتماع الجمعيـــة الوطنية لأمنو مساء 22 يونيو 2002، ولم يكن شـــغله للمنصب وليد مصادفة حيث ســـبق ان مـــارس العمل السياسى من خلال العمل الحزبى وخوضه أكثر من معركة انتخابية ليكون عضوا برلمانيا، كما يشغل منصبين وزاريـــين.. حيث عين وزيرا للتربيـــة والتعليم ثم وزيراً للتجارة الدوليـــة والصناعة ثم تولى لاحقا منصب مساعد رئيس الوزراء قبل أن تقوده الأقدار لتولى المنصب التنفيذى الأول والأهم فى ماليزيا والذى حقق خلاله عصر النهضة الماليزية.

شخصية عصامية

2- هو شخصية عصامية وخلطة اجتماعيـــة فريـــدة.. فهو هندى بالوراثة.. ماليزى مالاوى بالمولد والنشأة مســـلم بالديانة علمانى بطريقـــة التفكير والممارســـة العملية.. آسيوى الهوى والانتماء وهو ما عكســـه تحيزه الشـــديد للثقافة الآســـيوية وإعجابه الذى لم ينقطـــع بالتجربـــة اليابانية والكوريـــة الجنوبية فى التنمية فى مواجهة ما وصفه «وهم التفوق الأوروبـــى.. هو طبيـــب بحكم الدراســـة جعل مـــن تخصصه سبيلا لخدمة ومعالجة الفقراء.. وهو ســـياسى من طـــراز رفيع انحاز للفقراء والطبقة الوسطى فى بلاده فكان التفافهم حوله هو سر شعبيته الجارفة وأحد مفاتيح النجاح لتجربته التنموية.

3- حرص مهاتير محمد منذ بداية شغله منصب رئيس الوزراء على الإسراع بتحويـــل ماليزيا إلى بلد صناعى واعتماد سياسة خارجية أقل موالاة للغرب والكوجنوليش البريطانى. حيـــث كان يرى أن الصناعة تســـاعد على رفع كفاءة الاســـتخدام الاقتصادى للأرض، فبينما يمكـــن لنصف هكتار من الأرض الزراعيـــة إطعـــام أسرة واحدة فإنـــه يمكن لقطعة أرض مماثلة خصصت للصناعة إتاحة حـــوالى خمســـمائة فرصة عمل وتوليد ثروة لأمثال ذلك العدد.

رؤية لدولة عصرية

4- وقـــد وضع لاحقاً ما ســـمى رؤية مهاتـــير 2020 تمثلت أهم ملامحها فى أن تصبح ماليزيا فى خـــلال 30 عاما ابتداء من فبراير 1991 دولـــة عصريـــة فى إطار النمط التاريخى الماليزى الخاص، مع عدم المساس بالفضائل والقيم الماليزية المتميـــزة، دولة متقدمة فى إطار القالـــب الثقافى الماليزى الخاص وعـــدم التفريط فى قيم ماليزيا الروحيـــة والأخلاقية مع الإبقاء على ماليزيا موحدة.

اســـتهدفت هذه الرؤية الوصول بمتوسط دخل الفرد السنوى إلى 16 ألـــف دولار، وتحقيق معدل

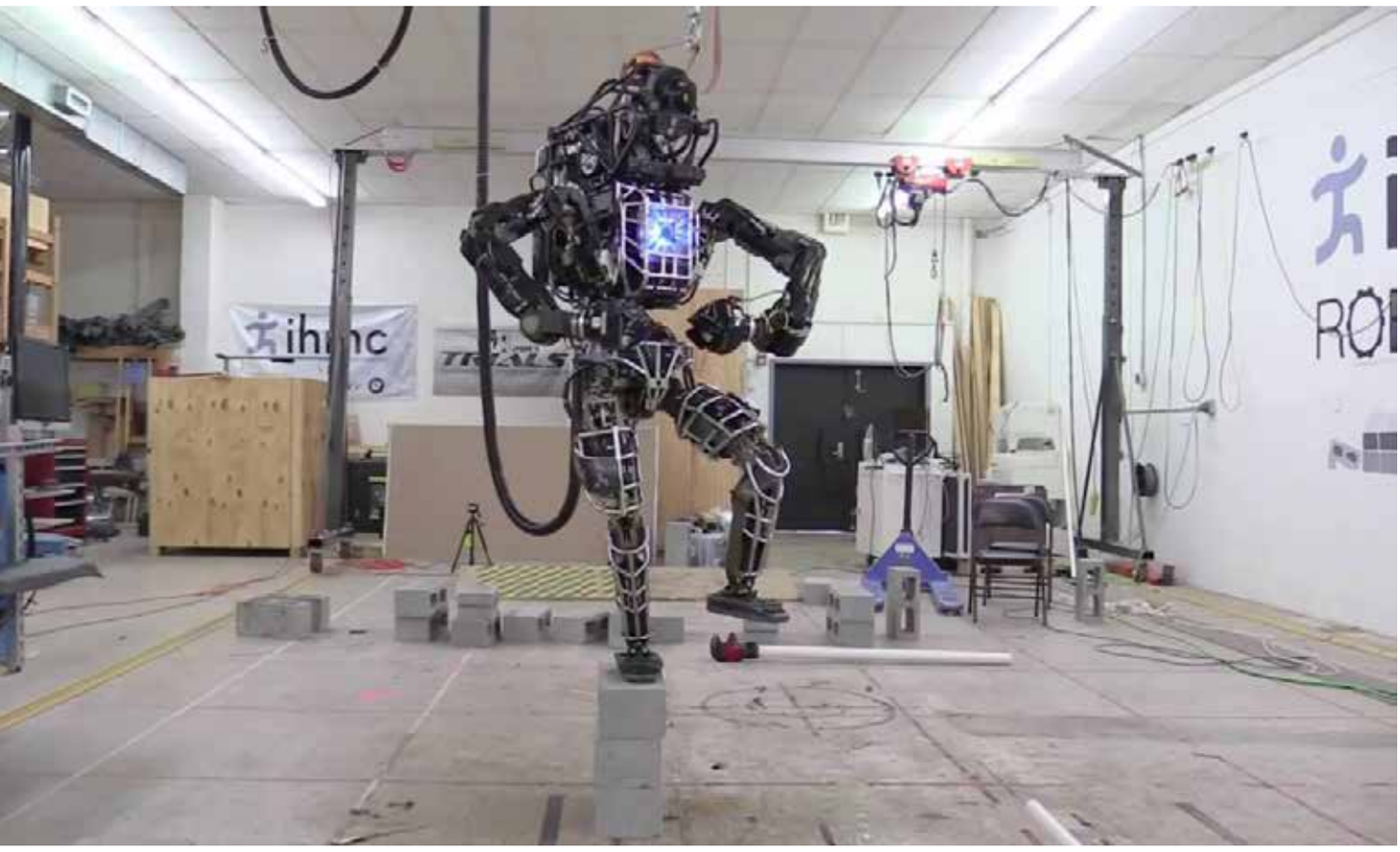

نمو متواصل بمتوسط 7% سنويا على مدار ثلاثين عاما وتميزت أهم ملامحها فى أن تصبح ماليزيا دولة ديمقراطية ناضجة بناء على روح التوافق واختراق الحواجز العرفية والانصهار الوطنى بين كافة فئات المجتمع الماليزى من ملاويين وهنود وصينيين ـ تحقيق اختراق فى مجال العلوم والتكنولوجيا بحيث تصبح ماليزيا دولة منتجة للتكنولوجيا وليس مجرد مستهلك لها ـ تجنب عقلية دولة الرفاهية التى تحكم المفاهيم الغربية ـ احتضان ثقافة رعوية تكون مبنية على أساس اسرى قوى مرن مع تشجيع توجه عدم الاعتماد الكامل على الدولة والعمل على تجنب الأضرار الاجتماعية التى ألحقتها النظم الرأسمالية والشيوعية على حد سواء ـ بناء اقتصاد معرفة قوى متنوع يتمتع بقدرة تنافسية وديناميكية كاملة ـ تشجيع نمو طبقة وسطى قوية بالمعنى الاجتماعى والواسع وليس بالمعنى الاقتصادى فقط ـ التركيز على تكنولوجيا المعلومات وتشجيع دراسة العلوم والهندسة سواء فى الداخل أو من خلال المنح الدراسية فى الخارج ـ تشجيع عمليات البحث العلمى الإبتكارات.

اقتصاد المعرفة:

استهدف إذن مهاتير من خلال هذه الرؤية أن تكون بمثابة خريطة طريق لدخول ماليزيا بنجاح وقوة وثبات إلى عالم الحداثة العلمية والاقتصادية والتكنولوجية وضعا فى الاعتبار تعذر نجاح ماليزيا فى تحقيق ذلك ما لم تجعل من الانسان الماليزى من خلال التربية والتعليم طاقة خلاقة قادرة على تحقيق التقدم والتحديث مع الحفاظ فى نفس الوقت على القيم والهوية الآسيوية بصفة عامة والماليزية بصفة خاصة.. وهو ما يؤكد ان مهاتير كان يدرك ويضع فى اعتباره منذ البداية ان عمليات التحديث والتنمية والاندماج مع الاقتصاديات العالمية الكبرى، سوف تصطدم على سبيل اليقين بالعديد من المحاذير وتحديات العولمة التى ظل يشدد على اهمية تحصين الماليزيين تجاهها سواء بالتعليم او بالتمسك بخصائص الطابع القومى الماليزى فى مواجهة ظاهرة التهجين الثقافى المرتبطة بالعولمة وعالم السماوات المفتوحة.

5- كان الاهتمام بالتصنيع واحدا من أهم ركائزه التنموية فحرص على التحول من الاقتصاد الضعيف

القائم عـــلى مجرد تصدير بعض المواد الخام وبصفة خاصة المطاط والقصديـــر إلى اقتصاد صناعى قوى يساهم فيه قطاع الصناعة والخدمات بنسبة 80% من الناتج المحلى الاجمالى وبحيث تبلغ نسبة صادرات الســـلع المصنعة 85% من اجمالى صادرات ماليزيا.

التصنيع الحديث:

وقد تميزت عمليـــة التصنيع فى ماليزيـــا بالتدرج مـــن مرحلة صناعة إحلال الواردات الصناعات الغذائيـــة ـ مواد البنـــاء ـ التبغ ـ البلاســـتيك ـ الكيماويات» إلى مرحلة الصناعـــات التصديرية «المنســـوجات ـ زيـــت النخيل ـ المطاط ـ الالكترونيات ـ الاخشاب» فمرحلة الصناعات الثقيلة اعتمادا على المواد الخام الماليزية «الحديد والصلب ـ السيارات» ثم الانتقال إلى مرحلة الصناعات عالية التقنية وذات القيمة المضافة وما أسماه التصنيـــع العنقـــودى بالاعتماد على دور المؤسســـات فى التنمية الصناعية «هيئة التنمية الصناعية ـ الهيئة الإنتاجية القومية ـ هيئة تنمية التجـــارة الخارجية ـ هيئة التصنيع الثقيل».

التأثر باليابان:

وقد تأثر مهاتـــير محمد فى ذلك بالتجربة اليابانية التى لم يخف ولعه بها طوال الوقت وإلى حد ما التجربة التنموية الكورية، حيث أشـــار فى مذكراته إلى ان زياراته لليابان والتى لـــم تكن بغرض التنزه أو الفســـحة قد فاقت عدد الخمســـين زيارة، وأنه قد لفت نظره خلال زيارته الأولى لها عام 1961 أن اليابان قد اســـتردت عافيتها سريعا بعد هزيمة الحرب العالمية الثانيـــة ربما أسرع من اللازم ومـــن الطبيعى مما جعله يعتمد عليها فى تجربته التنموية فى بلاده وحينمـــا قرر التوجه إلى التصنيع قرر فى نفس الوقت تحديد التكنولوجيا المستخدمة وتحديد الأهداف الماليزيـــة ودوافعها من التصنيع، وذكر على سبيل المثال أنه حين قرر بدء عملية الصناعات الثقيلة قدر فى ذلك الوقت أن الدول الغربيـــة المتقدمة باتت أقل رغبة للقيام بهذه الصناعات بســـبب تزايـــد تكاليف إنتاجهـــا لديها وبخاصة تكاليف العمالة والمواد الخام، وهو ما أعطى ماليزيا ميزة نسبية تؤهلها للتوجه بنجاح إلى هذا النوع من الصناعات.

6- ومن بـــين رؤاه وتوجهاته فى هذا المجال، يشـــير مهاتير محمد إلى أنه برغم تأثره بما كان يدور حوله فى اليابان وكوريا الا أنه كان منفتحا على كل الأفكار والتجارب الاقتصادية بما فيها الشـــيوعية التى استعان بها بفكرة الخطط الخمســـية للتنمية فى ماليزيا، إلا أنه لم يكن أبدا من أنصار امتلاك العمال لكل وسائل الإنتاج ويرى أن ذلك ليس منطقيا وليس عمليا.

احترام العمل:

والمســـاواة فى نظره مبدأ جميل وبـــراق، لكنـــه فى الممارســـة الاقتصادية معيب، فلا مفر فى أى مجتمع من وجود أغنياء وفقراء وفى هذا السياق أيضا يرى مهاتير محمد ان الاضرابات العمالية التى هى ثقافة غربية فى الأساس تؤدى على عكس ما يســـعى منظموها إلى تراجـــع وتدنى الاســـتثمار، تقليل الفرص الوظيفية المتاحة، كبح التنمية وتدنى الاجور، وهو ما يـــؤدى فى النهاية إلى الإضرار بمصالح كل من العمال وارباب العمل وعملية التنمية والشـــعب والاقتصاد والدولة.

التعليم كلمة السر:

7- كان الاهتمـــام بالتعليم هو بمثابـــة كلمـــة الـــسر فى نجاح التجربـــة التنمويـــة فى ماليزيا، حيث فطن مهاتـــير محمد منذ البداية إلى أهمية التعليم فى إنجاح عمليات التنمية من حوله فى دول مثل اليابان وسنغافورة وكوريا الجنوبيـــة وغيرها وقـــد واتته الفرصة عندما عين وزيرا للتربية والتعليم عام 1974 حيث حرص على رصـــد 20% مـــن الموازنة القومية للإنفاق على التعليم وهى نسبة تفوق ما خصصته ماليزيا فى موازنتها لنفقات الدفاع فى ذلك الوقت كما حـــرص على التركيز على دراســـة العلوم والرياضيات والهندســـة واقتصاديات النمو مع ربـــط التعليم بالتنمية وإيلاء أهمية للتعليم الفنى بهدف توفير موارد بشرية تخدم وتنفذ خططه وبرامجه التنموية، كما حرص على إيفاد بعثـــات للتعليم فى الخارج بمتوســـط يبلغ 50 ألف طالب ســـنويا، تعليم اللغات الأجنبية وخاصـــة الانجليزية وتشـــجيع عمليات الترجمـــة للتعرف على تجارب الآخرين والاستفادة منها، ولضمان المحافظـــة على المعايير الدوليـــة فى العمليـــة التعليمية،

التعليم هو الركيزة الاساسية للنهضة فى ماليزيا

شجع مهاتير محمد على عمل ترتيبات واتفاقيات «توأمة دراسية» مع العديد من المؤسسات التعليمية الاجنبية المرموقة بما يسمح للطالب بإتمام السنتين الأول فى ماليزيا مع إتمام السنوات الدراسية المتبقية فى الخارج، حيث ساهم ذلك كما يشير مهاتير محمد فضلا عن تخفيض نفقات التعليم، فى منح الطلبة الخريجين ـ وفق هذا النظام ـ شهادات تحمل اسماء المؤسسات التعليمية الاجنبية المناظرة علاوة على ذلك أولى اهتماما خاصا بإنشاء معاهد التدريب المهنى فى مجالات الهندسة الميكانيكية والكهربائية واصبح هناك تسعة أفرع للتدريب الصناعى فى مختلف الولايات الماليزية فضلا عن حرصه على تزويد المدارس بالحاسبات الالكترونية وربطها بشبكة الانترنت وإنشاء المدارس الذكية لتدريس مواد متخصصة عن أنظمة التصنيع المتطورة وشبكات الاتصال ونظم استخدام الطاقة الصديقة للبيئة حيث يتم التعليم وفقا لقدرات الطلاب ومستوياتهم العلمية مع إشراكهم فى نفس الوقت فى عملية اختيار المناهج.

البحث العلمى اساس التقدم:

8- هذا وقد حظى البحث العلمى باهتمام خاص من قبل مهاتير محمد ترجمه الميزانية المرصودة للبحث العلمى وإنشاء العديد من مراكز البحث العلمى المتخصصة وسياسته لتدعيم وتقنين العلاقة بين الجامعات الماليزية ومراكز البحوث من جانب وبين مؤسسات القطاع الخاص من جانب آخر بحيث لم تعد الحكومة مطالبة وحدها بالقيام ودعم كافة الأنشطة البحثية، بل بدأت تشاركها فى ذلك المؤسسات المالية والاقتصادية المختلفة.

9- ولعل فى تجربة التعليم فى ماليزيا العديد من الدروس المستفادة التى لو عكف وزير التربية والتعليم وخبراء وزارته على دراستها هى وغيرها من تجارب تعليمية عديدة ناجحة لما كان ذلك هو حال التعليم فى بلادنا علما بأن الفرص مازالت قائمة لوضع استراتيجية تعليمية مناسبة لواقعنا المصرى لمعالجة الخلل القائم فى المنظومة التعليمية من مبان ومناهج ومدرسين وطرق تعليمية وخطط تطوير دورية.

10- وحول رؤيته للمظاهرات الطلابية، يشير رئيس وزراء ماليزيا الاسبق ان الطلاب المنهمكين فى المظاهرات والسياسة العنيفة لا يمكنهم تكريس الوقت الكافى للدراسة، وان التعليم من الأهمية بمكان بحيث ينبغى عدم السماح لأى شىء كمظاهرات الطلبة لإعاقته فلا ينبغى للجامعات أن تتحول إلى مسرح للتحريض السياسى..

صديقى اليابانى

عرفته أثناء جولة سياحية لعدة أيام فى جنوب تركيا، يابانيا جاء بمفرده، وفى يده آلة التصوير. يرتدى ملابس ليس بها ما يلفت من الشكل واللون. ينصت بإمعان، ولا يبادر أحداً بالحديث، أو الجلوس إلى جواره. تكاد لا تشعر بوجوده، فحتى لو وجه للمرشد سؤالا عاديا، يبدو وكأنه فى غاية الدهشة والشغف والرجاء للرد والشكر الجزيل لهذا التفضل بالاستجابة. مع ما ظننته من مبالغة منه فى التأدب بحكم تقاليد موروثة، لا تتيح للفطرة التلقائية الانطلاق والتمتع بالحياة بعلاقات قلبية مثمرة ومبهجة، إلا أننى بحثاً عما هو وراء تلك الأفكار المسبقة، قررت مشاغبته بالتدريج.

سفير د. هادى التونسي

arabemaluco@hotmail.com

بدأ الحديث نمطياً، معلومات أولية نتبادلها عن كل منا. هو أستاذ جامعى فى علم القانون الجنائي، لكن بلاده ليس فيها من الجنايات ما يكفى لشغل أوقات عمله، فتوفده فى أجازات دورية لعدة أشهر فى بلدان أخرى، ينهمك فيها فى مزيد من البحث فى المكتبات فى مجال عمله للتعرف على التجارب الدولية، بالإضافة إلى اهتماماته الثقافية لإثراء نفسه بفنون وآداب وتاريخ ومعارف تلك الدول.

لكن تواضعه وعقليته الباحثة المندمجة تجعلانه يمتنع عن التفاخر بالنفس، وعن البحث عن تقدير الغير واهتمامهم بمشاركتهم الحديث فى مجال عمله، بل يطلق تلك العقلية لاستكشاف المزيد من مصادر المعرفة المتاحة من حوله.

وهكذا بدأ الحديث عن السياسة التى جلبت أحداثها فى العالم العربى استقطاباً وخلافات شخصية وتجريحاً وتخويناً،لأستكشف أنه متابع جيد، ينصت باهتمام، ويزن الأمور من جديد، فيبدى التقدير البالغ إذا اقتنع بشئ، أو تلقى معلومة مهمة. يتحدث على مهل، ويجاهد للتعبير بأدق وأرق الكلمات، التى يضغط على حروفها عند النطق، لتنقل صدق القناعة والشغف. ويبدو وكأنه طرف حانٍ على مرامى الجميع، يستوعب الكل حتى تكاد لا تصدق أنه من الممكن أن يعادى أحدا، أو يغضب من أى استنتاج أو حقيقة يسمعها. ولو استؤنف الحديث فى يوم تالٍ لوجدته قد رجع إلى مقالات وكتابات على الشبكة العنكبوتية، ويجئ لمقارنة الأفكار واستئناف البحث بدهشة طفل، واندماج باحث، وتفانى ناسك، جعل من مكتبته صومعة، تنسيه الوقت والجهد والمألوف من مباهج الحياة، حتى تكاد تصدق أنه قد تخلى عن الأنا.

عدنا بعد الرحلة إلى فيينا، وتعددت اللقاءات لممارسة الرياضة، فوجدته دائماً مستعداً بعيداً عن الاشتراط لمشاركة، قد تظنها مجاملة، ولكن تثبت الأحداث أنه يتمتع برغبة كريمة فى إسعاد الآخر، ومرونة بالغة مع اكتفاء واستقلالية يستطيع بها أن يستفيد ويتمتع بالوقت المشترك بشكل ما، وبلا حدود.

تكشف الأيام عن مدى الصدق والالتزام، إذ تجده يجاهد للبحث عن أقيم هدية يسعد شريكة حياته بها، مهما كلفته، تجده

يدعوك إلى أفخم المطاعم لتتعرف على مأكولات بلاده على أفضل وجه. يحدد الموعد قبلها بأسبوع، ويجئ قبل الموعد، ويشكر لك قبول الدعوة. ثم يبعث برسالة إلكترونية بعد المناسبة معبراً عن مدى سعادته وشكره للمشاركة. شاهدت فى التليفزيون حفل نهاية العام للموسيقى الكلاسيكية، الذى يحضره نجوم المجتمع ومشاهير السياسة والفن من النمسا والعالم، فوجدت الكاميرا مسلطة عليه تكراراً. سألته فى مقابلة تالية إن كان من الحاضرين، فرد بتواضع بالإيجاب، لأنه حصل على تذكرة بسعر مخفض، واستجابة لفضولى أفاد بأنها بستمائة وأربعين يورو، أى ما يزيد على اثنى عشر ألف جنيه. ويقيناً لو لم أشاهده فى التليفزيون لما أثار الأمر من أساسه.

فى غمرة مشاغل الحياة التى يخوضها بعض منا، بقدر من الوحدة، وقدر من البحث عن التقدير، وقدر من التعجل، قد لا نستطيع أحياناً أن نتجنب البحث عن نقاط تميزنا عن الآخرين، ولا نقدر على استبعاد الأفكار المسبقة والمصالح الشخصية، فننتج عالماً من الصراع، البقاء فيه للأقوى، حتى لو كان بأمان مؤقت، وعلى حساب الآخرين، حتى لو أثار ذلك مشاعر سلبية كالعداء والكراهية وتلوث الصفاء. لكن ماذا لو تمهلنا لنمعن النظر فى من حولنا، فقصة ذلك الصديق التى نسجها فضولى قد تظهر شيئاً جديداً: ماذا لو لم أكن ألحظ فى ذلك الصديق مدى العناية والتفانى والتواضع والدقة والكرم والمصداقية والرقة والتأدب والحساسية والحنان؟ الإنسان عدو لما يجهله، فلماذا لا نفهم ثقافات وتقاليد تلك الشعوب، لننتقى منها ما يناسبنا؟

سألته عما يميز المجتمع الياباني، فأجاب بأنه الانتماء للمجموع، وليس للفرد. فهل يحقق ذلك الانتماء الطوعى السلام للجميع ومصلحة الفرد كحصيلة نهائية؟ وهل امتدت تلك المسالمة من بعضهم إلى المستوى العالمى من خلال علاقاتهم الفردية بالأجانب؟ تساؤلات قد تريدون إعمال الفكر فيها، إذا ما أعجبكم ذلك الصديق.

وصديقـى أنـا أيضـا

استفاض الصديق العزيز وزميل الدفعة السفير د. هادى التونسى فى مقاله «صديقى الياباني» فى عرض الصفات الحميدة التى يتحلى بها صديقه، حيث عرض بأسلوبه الشـيق مدى صدق صديقه اليابانى والتزامه وتفانيه وتواضعه ودقته ومسالمته ومصداقيته ورقته وأدبه الجم ورقيه وانتمائه للمجموع، وهو ما دفعنى دفعاً لاستثمار هذه المناسبة لإضافة المزيد من الثناء على اليابانيين كشعب، والذين أتيحت لى فرصة معرفتهم عن قرب طوال فترة إقامتى كسفير فى طوكيو من عام 2011 إلى عام 2015.

سفير هشام الزميتي

hisham_elzimaity@yahoo.com

فقـد وصلت إلى هنـاك فى وقت شديد القسوة والصعوبة بالنسبة لليابانيين الذين تعرضوا فى 11 مـارس 2011 لكارثـة ثلاثية الأبعاد ضربت الأقاليم الشمالية الشرقية من البـلاد، هى زلزال مدمر بقوة 9 ريختر، وتسونامى شـديد القـوة زاد ارتفاع مياه المحيـط فيه عن ثلاثـين مترا، وتوقف نظام تبريد أحد المفاعلات النوويـة فى فوكوشـيما، مما اضطرهم - كإجراء أولى - لإدخال مياه المحيط لتبريد المفاعل إلى أن يتعاملوا مع هذه الأزمة الخطيرة.

وبرغم ارتفاع حصيلة الخسائر البشرية والمادية والدمار الشامل الذى لحق بالأرض وما عليها، إلا أن تعامل اليابانيين المنضبط مع الموقف الكارثـى كان أبرز دليل على أن حسـن الإعداد والتأهيل والتدريب المسبق على التعامل مع الكوارث قد جعل عمليات الإغاثة أشبه بسيمفونية أخلاقية يتفوق فيها كل عازف على نفسه مقدما أجمل ما عند النفس البشرية من صفات جميلة وخلق رفيع.

فحين بـدأت شركـة الكهرباء المسئولة عن تشـغيل المفاعلات النوويـة فى تجهيـز طاقم من مهندسـيها للدخول إلى الموقع لمعاينة الخسائر عن قرب وتحديد تصورهم لكيفيـة معالجة أزمة توقف التبريـد، فوجئ الجميع بمجموعـة من المهندسـين من كبار السن المتقاعدين قد حضروا من تلقاء أنفسـهم إلى الموقع - رغـم انقطاع سـبل المواصلات تماما فى المناطق المنكوبة - وكل منهم يرتـدى الأوفرول الرمادى المخصـص لأوقـات الطوارئ والكـوارث، حيث أعلنـوا أنهم سيؤدون مهمة الدخول إلى المفاعل لتقدير الموقف بدلا من المهندسين الشـبان قائلين إن هؤلاء الشبان هم استثمار الشركة ومستقبلها، وأنه ينبغى الحفاظ عليهم وعدم تعريضهم للخطر، مضيفين أنهم كمتقاعدين يسـعدهم التضحية من أجل الشركة التى عملوا بها، ومن أجل المجتمع ككل. هذه هى أخلاق اليابانيين.

وخلال تلك الأزمـة، وبعد توابع الزلزال المخيفة سـلم المواطنون متعلقات شـخصية وجدوها فى الشوارع إلى أقسام الشرطة قدرت قيمتها بأكثر مـن مائة مليون دولار ولم تمتد يد أى مواطن على ما لا يخصه. هكذا اليابان.

وحـين زارنا وزيـر الخارجية الأسـبق محمد كامل عمرو أصر على الذهاب إلى المناطق المنكوبة لمـؤازرة أصدقائنـا اليابانيين والإعـراب عن تضامن شـعب مصر معهـم فى محنتهم. فقمنا

بزيارة عمدة سوماسيتي، تلك المدينة التى شاهدها الملايين عبر شاشات التليفزيون وهى تدمر بالكامل حيث نتذكر جميعا منظر الطائرات الرابضة فى المطار والمنازل والسيارات التى كان التسونامى يسحبها بقوة إلى أعماق المحيط. وكان عمدة تلك المدينة التعيسة قد ذهب للاطمئنان على أسرته فلم يجد منزله الذى اختفى وبداخله كل أفراد عائلته، زوجته ورضيعهما وأمه وأبوه، فما كان منه إلا أن عاد لمباشرة عمله ومساعدة الآخرين. فلما سألناه كيف استطاع أن يتماسك بعد أن فقد أسرته ومنزله ويذهب لإنقاذ الآخرين. أجاب بتلقائية «لقد انتخبنى سكان المدينة لكى أخدمهم وأقف إلى جانبهم وقت الشدة.. أما حزنى على من فقدت فسيظل فى قلبى ولكن واجبى كعمدة للمدينة أن أساعد من يحتاج للمساعدة». هذا مثال من اليابان.

وقد يتصور البعض أن إعجاب المصريين بأخلاق اليابانيين مسألة حديثة نسبيا، إلا أن ذلك الإعجاب له جذور تاريخية عبر عنها أكبر شعراء مصر فى قصائد عديدة، فأمير الشعراء أحمد شوقى بك «1868 - 1932» نظم أكثر من قصيدة عن اليابان منذ 1904 «قصيدة نصرة اليابان»، وقصيدة «مصر تجدد نفسها بنسائها المتجددات». وكان فى هذه القطعة يطالب نساء مصر بالاقتداء بالمرأة اليابانية التى استفادت من علوم الحضارة الغربية وتركت العادات والقيم الضارة بمجتمعها. كما نظم فى 1904 قصيدة «خطر الجراد» التى شبه فيها هجوم الجراد على الزرع بهجوم جنود الميكاد على أعدائهم (الميكاد فرقة من الجيش الياباني). كما نظم شوقى أيضا قصيدة «بنك مصر» «1925» التى أنشدها فى الاحتفال بوضع حجر الأساس لبنك مصر ممتدحا الملك فؤاد الذى تأسس البنك فى عصره، وحيث شبهه بملوك اليابان بناة الحضارة. وحين ضرب زلزال مدمر مدينتى طوكيو ويوكوهاما عام 1926 وحطمهما تماما نظم شوقى قصيدة «طوكيو» تضامنا مع شعب اليابان فى محنته.

أما شاعر النيل حافظ إبراهيم «1872 - 1932» فنظم عدة قصائد عكست كلها إعجابه باليابان وبفتاة يابانية كانت تعالج الجرحى أثناء إحدى المعارك:

أنا يابانية لا أنثني
عن مرادى أو اذوق العطبا
أنا إن لم أحسن الرمى ولم
تستطع كفاى تقليب الظبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم
وأواسى فى الوغى من نكبا
هكذا الميكاد قد علمنا
ان نرى الأوطان أما وأبا
ملك يكفيك منه أنه
انهض الشرق فهز المغربا

لقد نلت شرف لقاء صاحب الجلالة الامبراطور اكيهيتو أكثر من مرة، وهو رمز الدولة، يحبه ويحترمه اليابانيون، وهو عالم متخصص فى علم الحياة البحرية Marine Biologist ويتابع باهتمام قضايا الطاقة والبيئة.

فوفقا لتقاليد البلاط الامبراطورى تتم دعوة السفير الذى أمضى ثلاث سنوات فى طوكيو للغداء على مائدة صاحب الجلالة والامبراطورة ميتشيكو. وخلال تلك المناسبة الفريدة بالنسبة لى تحدث جلالته عن أهمية التعليم لتقدم الأمم، مشيراً إلى مقال نشره فى إحدى الدوريات العلمية تناول فيه كيف حرص أجداده منذ عهد أيدو «1603 - 1868» مرورا بعهد ميجى «1868 - 1912» على جلب كل كتاب أو بحث جديد من الغرب أو من الصين إلى اليابان لدراسته والاستفادة منه، مضيفا أنه سعيد بأن تسهم اليابان، من خلال الجامعة المصرية اليابانية للعلوم والتكنولوجيا «ببرج العرب» فى تأهيل الشباب المصرى وفى تطور مصر ونهضتها العلمية. وقد خرجت يومها من القصر الامبراطوري، وإعجابى قد تضاعف بهذه الأمة التى صارت - بفضل العلم والعمل - هى التى تحدد المعايير بالنسبة للعالم كله، فى العلوم والفنون والموسيقى والغناء والرسم والنحت وكل ما يطلق العنان لطاقات الإنسان وقدرته على الابتكار والتجديد والتقدم.

التكنولوجيا والابتكار إنجاز يابانى.. هل تحققه مصر؟

عنـــد معرفة ظروف اليابان بعد دمار الحرب وخصائص اليابان من حيث الســـكان والمساحة وندرة الموارد الطبيعية، فإننا نكون أكثر قبولاً للحديث عما يشبه المعجزة التى تحققت عبر سنوات من الاجتهاد والعمل الشاق لتكييف التكنولوجيات الأجنبية والتحول إلى إنتاج تكنولوجيات أصلية مكنت اليابان من تصنيع منتجات فريدة غزت بها العالم والتاريخ خير شاهد.. فالتاريخ لا يكذب.

أ. د. مصيلحى رجب

أستاذ العقاقير – كلية الصيدلة – جامعة القاهرة

المستشار الثقافى الأسبق فى طوكيو

meselhyragab@yahoo.com

سنوات من الاجتهاد والعمل الشاق:

كانـــت البداية فى مطلـــع القرن الســـابع عشر عندمـــا توحدت اليابان تحت إمرة إيزاو توكوجاوا وشـــقت لنفســـها طريقاً مميزاً فدخلت اليابان في فترة من العزلة والســـلام الداخـــلي أدت إلى رفع درجـــة اندماج وتفرد الســـكان اجتماعيًا وساهمت فى تماسكهم، وتم ترحيـــل الأجانب وحظر على اليابانيين السفر للخارج. أدركت اليابان أن المـــوارد البشرية هى ســـلاحها الوحيد إلى التقدم الذى تسعى إليه وأن الإنسان هو محور وأســـاس هذا التقـــدم، فاهتمت بالتعليم وساعد ذلك على سهولة الانتقال من العصر الإقطاعي إلى عصر الدولـــة الحديثة أثناء فترة الميجـــي) 1868– 1912) حيث وصلت نســـبة التعليم بين الرجال إلى أكثر من 80 %، وبين النساء من60 % إلى 70%، وتم إدخال المزيد مـــن أفكار تقليدية إلى التعليـــم تتعلـــق بالعلاقات الإنسانية والأخلاق والقومية وحب الوطـــن. فى عـــام 1872أصدر الإمبراطـــور موتســـوهيتو الذي عـــرف بـــ(الميجـــي) أول قانون للتعليم الأساسي في اليابان، وقال إنه "ســـوف يبحث عن المعرفة ويقتفـــي أثرهـــا فى كل أنحاء العالم" فاستعان بنظام التعليم الفرنسي واهتـــم بتدريس العلوم والرياضيـــات فى مراحل التعليم المختلفة. وبعد الحـــرب العالمية الأولى (-1914 1918) توجـــه للولايـــات المتحدة لرفـــع كفاءة القطاع الصناعي الياباني ونقل الإدارة الصناعية والمعرفة التقنية لها، وقد كانـــت "الروح يابانية والمعرفـــة غربية" فأنتج تصاعداً اقتصادياً لأول قوة شرقية خارج نطاق القـــوى التقليدية "أوروبا والولايات المتحدة" وتكون نسيج شـــديد التماســـك "لتحالفات تكنولوجية" من الدولة بأجهزتها مع الشركات اليابانية العاملة في مجالات الصناعة والتجارة والمال مكونة فيما بينها ما عرف باتحاد زايباتسوا.

الإنسان هو محور وأساس التقدم:

يقول الدكتور جوجى ســـاكوراي أول أســـتاذ للكيميـــاء فى جامعة طوكيو والمعروف بمثال الوطنية - إن الحـــرب العالمية الأولى كانت "منحة من السماء" مهدت لبداية حقبة مهمـــة في تاريـــخ العلوم والتكنولوجيـــا اليابانية الحديثة فكشفت الغطاء عن النقص الشديد فى المواد الخام الأولية من الأصباغ والصودا الكاويـــة والتكنولوجيا اللازمة لصناعة الغزل والنسيج، الحديـــد والصلـــب، الكيماويات والأدوية، وشـــجع ذلـــك اليابان على انتهاج سياســـة لدعم البحث العلمى والابتـــكار بهدف تأمين الموارد واخـــتراع البدائل وإقامة صناعة ذاتية الاســـتدامة مستقلة عن التكنولوجيا الغربية. فى1914 تقدم ساكوراي إلى لجنة الصناعة الكيميائية بمقترح لإنشـــاء معهد

التعليم في اليابان بعد دمار الحرب العالمية الثانية

لبحوث الكيميـــاء لدعم البحوث الأساســـية وكان ذلك نواة لإنشاء معهد ريكـــين الذى تم افتتاحه فى 1917 وأصبـــح واحداً من أفضل مراكز الأبحـــاث فى العالم. وخلال الحرب ظهرت صناديق حكومية وأهلية لدعم البحـــوث والابتكار وأنشـــئت معاهد بحثيـــة تابعة للجامعات تم اعتمادها بمرســـوم امبراطورى وخصصت لكل منها هيئة بحـــوث وميزانية منفصلة لتطوير البحوث والابتكار. فأنشىء فى 1916 أول معهـــد للأمراض المعدية تابع لجامعة طوكيو الملكية وتبعه معهد لأبحـــاث الطيران فى ذات الجامعة. وبعـــد الحرب تم التوسع فى إنشـــاء هذه المعاهد فى الجامعات الملكية فى عموم اليابان. استغلت الحكومة الدعم الشعبى لدور البحث العلمى والتكنولوجى فى تقدم البلاد وبـــدأت بالتوازى فى الاهتمـــام بالتعليـــم العالى فى تخصصات العلوم والهندسة. وفى عهد تاكاشي هارا أول رئيس وزراء مسيحى لليابان بدأ التوسع فى إنشاء جامعات ومراكـــز بحثية وكليات تكنولوجية ومدارس فنية فى ربوع اليابان. نجح الدكتور ســـاكوراي فى 1920 فى إنشاء المجلس القومى للبحـــوث GAKKEN الذى ضم أعضاء من الجامعـــات والمراكز البحثية ورجال الصناعة والقوات المسلحة، وكان مهمته التنسيق بين الجهات البحثية اليابانية ووضع الخطط والإعـــلان عن مخرجاتها فى الداخل والخارج، واستطاع هذا المجلس فيما بعـــد تحرير العلوم اليابانية من الاســـتحواذ والفكر الألمانى. واســـتضافت طوكيو فى 1926 المؤتمـــر العلمـــى الثالث لدول المحيط الهـــادى كان هدفه الرئيـــسى تقليـــل الاحتقان بين اليابـــان وكل من الولايات المتحدة واستراليا، واستخدام العلم كقوة ناعمة لتقديم اليابان للعالم كدولة متقدمة، مدنية ومتحضرة.

إنشاء الجمعية اليابانية لتطوير العلوم:

بعد الحرب وفترة الكســـاد التى مرت بها اليابان وزلزال الكانتو المدمـــر فى 1923 تأثـــر البحث العلمى بشـــكل ســـلبى قبل أن ينهض مرة أخرى فى 1932 بعد إنشاء الجمعية اليابانية لتطوير العلوم واستكملت اليابان تطوير سياساتها وقدراتها العلمية حتى وصلت فى الفـــترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية إلى مستوى تقني عال في العديد من الصناعات مثل صناعة الحديد وبناء السفن والصناعـــات الكيميائية، بينما ظل القطاع الزراعي والصناعات المرتبطة بـــه وصناعـــة الآلات متخلفة إلى حد كبير، ولم تتمكن اليابان من إنتاج ســـيارات من تصميمها الخاص باستثناء عدد قليل ردئ الجودة حتى استطاعت تويوتا فى عـــام 1935 أن تنجح فى إنتاج أول سيارة بعد عدد من المحاولات الفاشلة.

نظام متقدم لتدريس العلوم ونشر المعرفة:

بعد الحرب العالمية الثانية تحررت القاعدة العلميـــة وبدأت اليابان في تطوير تقنيات متقدمة وتلقى الباحثون الدعـــم من العديد من المؤسسات، واهتمت الدولة بدعم وتطوير التقنيات المحلية وتحسين نظـــام تدريس العلـــوم ونشر المعرفة مما أدى إلى رفع مستوى الثقافة العلميـــة لليابانيين ومهد الطريق للتنميـــة في وقت لاحق، وكان للترخيص بنقل التكنولوجيا دور مهم في تحسين جودة المنتج ورفع كفاءة الإنتـــاج في مختلف الصناعات مثل الحديد والصلب والإلكترونيات والمواد الكيميائية، وصولاً إلى منافسة الولايات المتحدة مباشرة واستطاعت شركة فوجي إنتاج أول حاســـوب إلكتروني في البلاد عام 1956.

بعد عام 1970 كانت اليابان قد

التكنولوجيا والابتكار إنجاز يابانى

حققت جـــزءاً كبيراً من طموحها وتجاوزت الفجـــوة وانتقلت من كونها دولة مستوردة للتكنولوجيا لدولة مصنعة لها، وتعاملت بشكل علمى مع مشكلة النفط وارتفاع سعره في 1974، 1979، فاتخذت إجراءات للتحكـــم في الصناعات كثيفة الاستهلاك للطاقة، وأطلقت حملة قومية شاملة لتغيير سلوك الشـــعب فيما يخص الاستهلاك، وشـــجعت عمالقة الصناعة على أن يتجهوا لابتكار مصادر أوفر، وسبقت هوندا شركات مثل فورد وجنرال موتـــورز والعالم بأكمله باخـــتراع أول محرك ســـيارات صديق للبيئة وموفر للطاقة بدعم مـــن الحكومة، وبمـــرور الوقت تحول توفير الطاقة إلى ســـلوك عام. ظل التعاون بين الجامعات والقطـــاع الخـــاص لابتـــكار تكنولوجيـــات جديـــدة يحظى باهتمام المجتمع الياباني، فيقدم القطاع الخـــاص أكثر من70% من إجمالى الدعم للبحث العلمى بينما تقدم الحكومة اليابانية ما لا يتجـــاوز 20% وحوالى10% تقدمهـــا مصـــادر أهلية أخرى، وسمح للمؤسســـات الصناعية بزيادة مساهمتها فى الجامعات، فبلغت فى عـــام 1986 أكثر من 1503 ملايين دولار، ثم ارتفعت لتصل إلى 2918 مليوناً فى 1996 ، وحصلت الـــشركات على مقاعد للموهوبـــين فى الجامعات، وبلغ عدد الجامعات التى تمنح مقاعد للشركات حوالى 100 جامعة. وفى المقابل منحت الحكومة الشركات إعفاءات ضريبية كلية أو جزئية، وأنشـــات لذلك الحدائق/المدن العلمية، ففى أوائل 1970 أنشأت مدينة تســـوكوبا العلمية وتبعها مدن أخرى حتى أصبح فى اليابان الآن أكثر مـــن 100 مدينة علمية تضم مؤسسات تحتضن الأعمال الإبداعية وتمولها، وأخرى تقوم بإعـــداد الأبحـــاث، وثالثة تقوم بتطبيقها، لذلك تجد اليابان بلداً رائداً في البحـــث العلمي، خاصة في بحـــوث المـــواد والتكنولوجيا والبحـــوث الطبيـــة الحيويـــة والبحوث الأساسية وعلوم الحياة، وأصبحـــت صناعة الســـيارات والسفن والصناعات الإلكترونية اختصاصاً يابانيـــاً، وأحد رموز التفوق والنجاح لهذا البلد واحتلت اليابان المركـــز الثاني في مجال الاتصالات والتكنولوجيا الحيوية.

أفضل بيئة ملائمة للابتكار:

الإنفاق السخى لليابان على البحث العلمي والابتـــكار بأكثر من 144 مليار دولار ســـنويا (المرتبة الثالثة بعد الولايات المتحـــدة والصين في 2011، والثانية بعد الولايات المتحدة في نسبة إنفاق الشركات على البحث العلمي) جعلهـــا تأتى عالميا ضمن أفضل بيئة ملائمة للابتكار، وثالث أفضل نظام تعليم أساسي، وأصبح لديها العدد الأكبر من المهندســـين والتقنيين نسبة إلى عدد السكان بعد الولايات المتحدة وإسرائيل.

ومع اهتمام اليابان المتزايد بالبحث العلمى والتكنولوجيا تبنى السيد كوجى أومى وزير المالية السابق فى 2004 فكـــرة إقامـــة منتدى سنوى للعلوم والتكنولوجيا يعقد فى مدينة كيوتو لمناقشـــة العديد من القضايـــا الأخلاقية والبيئية الشـــائكة التى قد تنشـــأ نتيجة للتقدم العلمـــى والتكنولوجى. يدعى لهذا المحفل أقطاب العلوم والبحـــث العلمـــى والابتكار من مختلف أرجاء العالم، بالإضافة إلى رؤســـاء وممثلى كبرى المؤسسات والمجموعات الاقتصادية العالمية واليابانيـــة المتصلـــة بمجالات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وذلك للتنســـيق والتعاون الدولى لحل كثير من هذه القضايا.

مسئولية اجتماعية حقيقية:

عندما ســـئل الدكتـــور هاجيمي ياماشينا - الأستاذ بجامعة كيوتو- عـــن سر نجاح المعجـــزة اليابانية

أجاب "إنه التأهيل الثقافي والمهني للعامل الياباني، فهو لا يعمل أكثر من زميله في أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة بل يعمل أفضل". إن الجامعة والمدرسة هما القوة الضاربة وأما الذخيرة فهي الانضباط الذاتي، فلا حاجة لتعيين جيش من المراقبين والمفتشين يقضي النصف الأول منهم أوقاته في حراسة ومراقبة النصف الآخر، وهو ما يجب علينا أن نفكر فيه عن علاقة التعليم والبحث العلمي بالتنمية الاجتماعية فى مصر. وعلى الرغم من الدعم الذى تقدمه أكاديمية البحث العلمى وصناديق الدعم الأخرى للمشروعات التنموية والابتكار فإن التعليم والبحث العلمى لا يضطلعان بأية مسئولية اجتماعية حقيقية، من حيث الإسهام في قيادة المجتمع نحو رفاهية الإنتاج، وتطوير مفاهيمه تجاه مبادىء الانضباط وحب العمل.

فى النهاية يمكن القول إن اليابان استطاعت أن تقدم نموذجاً ناجحاً لحضارة عريقة بعد أن تمكنت من صياغة معادلة ثقافية تجمع بين المعاصرة والأصالة واستطاعت تحديث البلاد دون انفصال أو انفصام عن الموروث الثقافى والحضارى.

أهمية الجامعة المصرية اليابانية للعلوم والتكنولوجيا:

لذلك علينا أن ندرك أن مشروع نقل التكنولوجيا أو استنباتها من اليابان يستلزم تهيئة بيئة علمية خصبة تجعل البحث العلمي أولوية وطنية، وأن ينتقل من مستوى الاستهلاكات الدعائية إلى مستوى الممارسات الفعلية في الخطط والبرامج، وتفعيل التطوير وجعله هدفاً وطنياً وقومياً يسبق كل ما سواه من الأهداف. علينا النهوض بمجتمع البحث العلمي على مستوى بناء العلماء أنفسهم وعلى مستوى المراكز العلمية المجهزة بمتطلبات البحث العلمي السليم، علينا ضمان الاستقرار في مجالات البحث العلمي وفق خطة وطنية، تأخذ في الحسبان أولويات الحاجة الاجتماعية للعلم والتقنية لبناء صناعات محلية مدعومة بأبحاث علمية هادفة. ويعد إقامة الجامعة المصرية اليابانية للعلوم والتكنولوجيا ببرج العرب قرب الإسكندرية أهم حدث علمي في السنوات الأخيرة حيث تتولى اثنتا عشرة جامعة من أكبر الجامعات العلمية اليابانية إيفاد المدرسين إلى مصر في سابقة هي الأولى من نوعها. ومن جانب آخر فإنه مطلوب المعادلة بين البحوث الأساسية والبحوث التطبيقية وفتح قنوات التفاعل بين مراكز الأبحاث في الداخل، وتشجيع التعامل مع مثيلاتها في الخارج، بما يضمن استخدام العلم من أجل البناء والتطوير في جميع المجالات، بما فيها بناء قاعدة علمية صلبة، والتأكيد على ضرورة رعاية مؤسسات البحث العلمي وفك ارتباطها مع الوزارات الخدمية التي دائماً ما يكون موضوع البحث العلمي في ذيل اهتماماتها الطويلة العريضة. ومن المهم تخصيص ميزانيات مقبولة وسخية للبحث العلمي من الدخل القومي فهذا منصوص عليه في المادة 23 من دستور 2014 بتخصيص نسبة من الإنفاق الحكومى للبحث العلمى لا تقل عن 1%من الناتج القومى الإجمالى تتصاعد تدريجياً حتى تتفق مع المعدلات الدولية، وعلى غرار ما تفعله الدول التي حققت معدلات ملفتة في النمو، وذلك إلى جانب تخصيصنا نسبة 4% للتعليم الأساسي و2% من التعليم العالي، بهدف الارتقاء بمنظومة التعليم والبحث العلمي. هذا ما فعلته اليابان، ونأمل أن تفعله مصر.

مصر وتوترات الاقتصاد السياسى العالمى

يمر الاقتصاد العالمى حالياً بعدة تغيرات سياسية واقتصادية يصعب التكهن بآثارها بدقة الآن، ويهدف هذا المقال إلى رصد أهم التطورات الحديثة ثم يتطرق إلى كيفية مواجهة مصر لتحديات تلك التطورات التى تتزامن مع التغير التدريجى فى موازين القوى السياسية والجغرافية بما فى ذلك من تبعات على الصعيدين المحلى والعالمى.

خلفية تاريخية

تم تصميم النظام العالمى لما بعد الحرب العالمية الثانية بهدف تحقيق قدر أكبر من الاستقرار والأمان للدول ودعم جهود التنمية لرفع معدل النمو الاقتصادى وتفادى التقلبات التى حدثت فى الثلاثينيات من القرن الماضى والتى تسببت فى الكثير من الآثار السلبية، ومع أن النظام لم يكن مثالياً، إلا أنه أدى واجبه بقدر كبير من النجاح.. فقد أدخلت تعديلات عليه ليواجه ويتعامل مع الأحداث والأزمات المتتالية خلال الستين عاماً منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ومن أهم تلك الأحداث نتذكر ما يلى:

موجة استقلال الدول النامية، ظهور اتحادات إقليمية بما فى ذلك الاتحاد الأوروبى، توقيع اتفاقات تجارة إقليمية، تقلبات كبيرة فى أسعار النفط، تحرشات الحرب الباردة، حروب كوريا وفيتنام والشرق الأوسط، هدم جدار برلين وتوحيد ألمانيا، عولمة الإنتاج والتوزيع، اضطرابات فى أسواق المال الدولية نتيجة لتعدد الأزمات، تسارع معدل التطورات التكنولوجية، الهجوم الإرهابى على نيويورك فى سبتمبر 1102، وتزايد الأحداث الإرهابية فى أوروبا وأمريكا وآسيا وأفريقيا بما فى ذلك مصر.

وقد ساهم نظام التجارة العالمى فى دعم النمو فى الدخول والثروات بمعدل

أ.د. طلعت عبدالملك

أستاذ الاقتصاد الدولى

ورئيس مجموعة مساعدات التنمية بباريس

malek00@gmail.com

فاق ما تم تحقيقه من قبل فى ظل بيئة تشجع حرية التجارة طبقاً لقواعد متفق عليها وتحد سياسات الحماية والانغلاق على الأسواق العالمية، ويدعم هذه الجهود قيام البنك الدولى بتوفير التمويل اللازم لعملية التنمية بشروط ميسرة ودور صندوق النقد الدولى فى الحفاظ على استقرار أسعار العملات والحد من تقلباتها.

وبالرغم من تعدد التحديات الناجمة عن هذه التطورات، إلا أن حدوثها تم على فترات متباعدة سمحت للنظام القائم بالتأقلم معها كما سبق ذكره وتفادى أو تقليل آثارها السلبية، وساعد على ذلك إجراء بعض الإصلاحات فى إجراءات وملامح النظام سواء فيما يختص بمنظمة الأمم المتحدة أو البنك الدولى أو الصندوق وغيرها من المؤسسات العالمية والإقليمية.

موجة الأزمات المعاصرة

ومع أهمية الأحداث المشار إليها إلا أننا بصدد تغيرات وتوترات تختلف عما سبقها من حيث نوعيتها ومدى آثارها المتوقعة على النظام الحالى.. فقرار المملكة المتحدة بالانسحاب من عضوية الاتحاد الأوروبى وانتخاب دونالد ترامب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية أحدثا ما يمكن تشبيهه بزلزال يعصف بالاقتصاد العالمى.. كما أن هناك أحداثاً أخرى لها مغزاها وتأثيرها.. ونذكر منها صعود روسيا كقوة دولية بارزة، وتميز الصين كأكبر اقتصاد عالمى، واستمرار كوريا الشمالية فى تحدى المجتمع الدولى باختبار الصواريخ الباليستية، وتزايد المعارضة لآثار العولمة، وتصاعد دور الأحزاب اليمينية، وتفاقم الهجمات الإرهابية بقيادة القاعدة وداعش، وآثار ما يسمى بالربيع العربى محلياً ودولياً، والهجوم على الشبكات الإلكترونية، والآثار السلبية للتغير المناخى.. ومن الممكن إضافة أحداث أخرى إلى هذه القائمة ولكن ما سبق يكفى لغرض هذا المقال.

انسحاب المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبى:

أحدث قرار الانسحاب صدمة تهدد استقرار الاقتصاد العالمى إلى مدى يصعب التكهن به حالياً.. وتبدأ مفاوضات الانسحاب قريباً للاتفاق على شروطه وتكلفته.. ومع اختلاف الآراء على آثار الانسحاب، فإن هذا القرار يشجع من يعارضون عضوية الاتحاد على الضغط لانسحاب دولهم.. وقد فشلت المعارضة فى جهودها حتى الآن وهو ما انعكس على نتائج انتخابات الرئاسة الفرنسية حديثاً، إلا أنه لا يمكن تجاهل هذه الضغوط إلا إذا تم علاج نقاط الضعف فى

مؤسسات الاتحاد الأوروبى دون تأخير.. فتصاعد أصوات المعارضة يمثل إنذاراً لقيادات الاتحاد بتعبئة الجهود لحمايته من هزات وأزمات أخرى قد تهدد كيانه ككتلة اقتصادية وسياسية كبرى.

أما بالنسبة للمملكة المتحدة، فأغلبية الآراء «مدعمة بنتائج الدراسة التى أعدها صندوق النقد الدولى» تشير إلى أن قرار الانسحاب لم يكن موفقاً حيث إنه اعتمد على معلومات شائبة فى تقدير آثاره الإيجابية والسلبية، وأن بريطانيا ستعانى عدة آثار سلبية اقتصادياً بخروجها.. إلا أن بعض المراقبين يرون أنها لم تكن فى يوم من الأيام «سعيدة» بعضويتها إذ كررت طلب استثنائها من بعض قرارات وسياسات الاتحاد.. وعلى ذلك قد يكون الانسحاب فى مصلحة الطرفين.. وعلى المملكة المتحدة أن تجد دوراً جديداً لها فى الاقتصاد العالمى والسياسات الدولية، وهو أمر أصبح أكثر تحدياً فى ضوء فشل تريزا ماى فى الحصول على أغلبية برلمانية فى الانتخابات التى تمت منذ أيام واضطرارها للاستعانة بمساندة من أحد الأحزاب الصغرى لتكوين حكومة جديدة.

الانتخابات الأمريكية

أدت الانتخابات الأمريكية وتنصيب دونالد ترامب رئيساً إلى هزات سياسية واقتصادية داخل أمريكا وخارجها.. إذ إن تصريحاته ووعوده الانتخابية وما جاء بعدها من قرارات أكدت رغبته فى تغيير النظام العالمى القائم لتحقيق ما سماه باستعادة مكانة أمريكا كدولة عظمى، وذلك بانتهاج سياسات وطنية تتحدى الأسس المتعارف عليها دولياً واتباع أسلوب المواجهة المستفزة فى التعامل مع شركاء أمريكا.

كما شكك ترامب فى جدوى منظمة الأمم المتحدة وفاعلية اتفاقية حلف شمال الأطلنطى واتفاقية التجارة مع دول آسيا والمحيط الهادى، وتحدى سياسات الصين والاتحاد الأوروبى من حيث آثارها على الاقتصاد الأمريكى وفى الوقت نفسه أعلن العزم على تقليص مساعدات أمريكا للدول النامية والحد من الهجرة إليها من العالم الإسلامى وبناء سور على حدود المكسيك لإيقاف الهجرة غير المشروعة. ومنذ أيام أصدر ترامب قراره بالانسحاب من اتفاقية باريس للمناخ، وكرر وعده الانتخابى بزيادة المخصصات المالية للقوات المسلحة وذلك لن يتأتى إلا بتخفيض أوجه الإنفاق فى مجالات أخرى.

ومن الناحية الإيجابية صرح برغبته فى ترشيد الإدارة الفيدرالية وتبسيط الإجراءات التى تنطبق على قطاع الأعمال وخفض الضرائب على الدخل بهدف الدفع بمعدل نمو الاقتصاد وخلق فرص عمل جديدة، كما أشار إلى تصميمه على محاربة الإرهاب على المستوى الدولى.

ولنتساءل الآن عن احتمالات نجاح سياسات ترامب المعلنة... من الصعب التنبؤ بمدى تحقيق الأهداف وراء هذه السياسات، فالرئيس الأمريكى مازال فى أوائل فترة رئاسته.. إلا أن بعض المراقبين يرون أن التصريحات والقرارات التى صدرت قد أحدثت أضراراً فى الداخل والخارج مما يدعو لتوقع المزيد منها فى المستقبل إلا إذا تغير الأسلوب الحالى فى التعامل مع التحديات التى تواجه الولايات المتحدة، وحتى الآن لم تتخذ قرارات محددة لتنفيذ الجانب الإيجابى من تصريحاته باستثناء مواجهة الإرهاب كما نذكر فيما بعد.

وتشير ردود الفعل على سياسات وتصريحات ترامب إلى استعداد شركاء أمريكا لاتخاذ إجراءات وقائية للدفاع عن مصالحهم والاعتراض على جوهر هذه السياسات.. فقد أعلنت المكسيك اعتراضها على بناء السور وأصرت فى حالة بنائه على عدم تحمل تكاليفه بالرغم من إصرار الرئيس الأمريكى بتحمل ذلك بطريقة أو أخرى.

وأظهرت عدة دراسات عدم جدوى السور فى تحقيق الغرض منه كما أشارت إلى انخفاض عدد المهاجرين من المكسيك فى السنوات الأخيرة نتيجة للتحسن فى أداء الاقتصاد المكسيكى وزيادة فرص العمل.

وفى الوقت نفسه أعلن زعماء الاتحاد

الأوروبى أنه أصبح من اللازم تقليل الاعتماد على أمريكا كشريك فاعل فى مجال الدفاع المشترك وما يتعلق به من مسائل.. كما صدر بيان مشترك من الاتحاد الأوروبى والصين يؤكد احترامهما للالتزامات الخاصة بحماية البيئة فى ظل اتفاقية باريس ويدعو ترامب لاحترام التزامات أمريكا.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الضغوط تلاقى قبولاً كبيراً فى الأوساط العلمية والاقتصادية والسياسية فى أمريكا على كافة انتماءاتها وحذرت الإدارة الأمريكية من توابع الاستمرار فى السياسات الحالية سواء من حيث التغير المناخى أو زيادة الميزانية العسكرية التى يتوقع أن تؤدى إلى تسابق دولى لرفع مستوى التسلح بما يهدد السلم العالمى.

وبالرغم من كل ذلك ليس هناك ما يدل على أى تغير محسوس فى سياسة أمريكا الحالية، ومع أن بعض مؤيدى ترامب يعيدون التفكير وبدأوا يشككون فى جدوى هذه السياسات، إلا أن معظم أنصار ترامب مازالوا يساندونه، وفى الوقت نفسه يتعرض فريق الرئيس الأمريكى لتحقيقات من مكتب الاستخبارات الفيدرالى ومن الكونجرس للتعرف على مدى تورط أعضاء الفريق فى إجراء اتصالات مع روسيا خلال الانتخابات بهدف التدخل لصالح ترامب.

روسيا:

نجحت روسيا فى استعادة مركزها كإحدى القوى الكبرى دولياً تحت رئاسة بوتين.. وتمكن الاقتصاد الروسى من الاستمرار فى النمو بالرغم من القيود الاقتصادية المفروضة عليه نتيجة التدخل العسكرى فى أوكرانيا.. وتلعب روسيا دوراً عسكرياً فى سوريا لدعم نظام بشار الأسد فى عملياته العسكرية ضد القوات المعارضة بما فيها القاعدة وداعش.. وفى الوقت نفسه تساند أمريكا بعض جماعات المعارضة للنظام مما أدى إلى تفاقم حدة الخلاف بين روسيا وأمريكا حول كيفية هزيمة داعش.

وفى عام 1991 تم الاتفاق مع منظمة حلف الأطلنطى على إنشاء علاقات لتبادل المعلومات والتشاور بينهما فى شئون الدفاع والأمن ثم تعدى هذا إلى تكوين مجلس مشترك لتدعيم العلاقات القائمة.. إلا أن حلف الأطلنطى قرر تجميد هذه العلاقات على أثر العدوان الروسى على أوكرانيا وهو الأمر الذى لايزال يعكر صفو العلاقة بين الحلف وروسيا.

وهناك تكهنات بأن روسيا حاولت التدخل فى نتائج الانتخابات الأمريكية وما تلاها من انتخابات الرئاسة الفرنسية عن طريق اختراق الشبكات الإلكترونية فى مراكز الاقتراع.. وهو اتهام تنكره السلطات الروسية بشكل قاطع.. ويرى البعض أن استمرار هذه التوترات يهدد بالعودة إلى الحرب الباردة بين الطرفين.

ويرى البعض الآخر أن تصرفات وتدخلات روسيا فى السنوات الأخيرة تعكس نيتها فى تأكيد دورها كدولة عظمى وتشير إلى أطماع توسعية فى الشرق الأوسط لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية وعسكرية.. وليس هناك ما يشير إلى اتجاه لتغيير المنهج الحالى.. ولذا فإن على القوى الغربية أن تقرر كيفية التعامل مع روسيا فى صورتها الحديثة دون أن يؤدى ذلك إلى زيادة حدة التوتر.

كما أن روسيا تلعب دوراً مهماً فى محاربة الإرهاب مما يلقى استحساناً من المجتمع الدولى، ولو أنه من الضرورى التوفيق بين جهود الدول المشاركة فى هذا الأمر والتنسيق بينها.

الشرق الأوسط:

من المعروف أن الولايات المتحدة

سحبت قواتها العسكرية من العراق بعد غزوه وأحدث هذا التدخل نكبات مازالت آثارها واضحة حتى الآن.. وقد أدى هذا الانسحاب إلى ظهور ثغرة أمنية وعسكرية انتهزتها داعش بالتغلغل السريع والسيطرة على معظم أنحاء العراق بما فى ذلك حقول البترول.. وامتد التغلغل ليشمل سوريا ثم ليبيا واليمن.. ونتج عن ذلك حالة من عدم الاستقرار والتوتر فى العراق وسوريا ثم أصاب منطقة الشرق الأوسط بأجمعها التى فقدت ثروات وموارد ضخمة وانكمشت معدلات النمو فيها بشكل ملحوظ، بالإضافة إلى الخسارة الفادحة فى الأرواح والممتلكات.

ويتفق الجميع على أن استئصال داعش وما يشابهها من جماعات إرهابية سوف يستغرق فترة طويلة وأن طردهم من العراق وسوريا لن يكون نهايتهم إذ أن لديهم القدرة على توسيع نطاق أنشطتهم دون الحاجة لحشد قوات كبيرة من مقاتليهم طالما حصلوا على التمويل والدعم اللازم خاصة من قطر وتركيا.

ومن الممكن أن يؤدى قرار دول

الخليج ومصر وليبيا بقطع العلاقات الدبلوماسية مع قطر إلى الحد من هذا التمويل.. وهناك أيضاً إجراءات إضافية ترصد تحركات الأموال المشبوهة للتعرف على مصادرها واتخاذ اللازم لإيقافها.. ولكن نتيجة هذه الخطوات تنتظر رد فعل واضح من قطر التى تساندها تركيا وإيران فى تمويل الإرهاب.

ومع أهمية العمليات العسكرية لتصفية العناصر الإجرامية وأساليبها البربرية، إلا أنه من الضرورى تعبئة الجهود المدنية خاصة فى مجالات التعليم والدين والثقافة لتوعية المواطنين ونشر ثقافة الاعتدال والتسامح.. إذ أن آثار التخريب كلفت ومازالت تكلف ضحاياها الكثير من أرواح الأبرياء ومن الموارد المالية المخصصة لتحقيق الاستقرار والأمان.. ومثال على ذلك ما حدث للسياحة فى مصر على مدار السنوات الماضية بالإضافة إلى تقليص العائد من العملات الأجنبية وزيادة العجز فى الميزان التجارى وميزانية الدولة.. وقد زاد من حدة هذه المشاكل ما حدث من تهجم على المواطنين الأقباط وعلى كنائسهم بهدف إحداث فتنة طائفية وتفاقم حالة عدم الاستقرار فى المجتمع المصرى.

الآثار على عملية التنمية:

ليس من الغريب فى ظل هذه التطورات أن يعانى الاقتصاد العالمى من عدة آثار انعكست على تقلبات البورصات العالمية وارتفاع مستوى المخاطر وما يصاحب ذلك من ارتفاع تكلفة الجهود اللازمة لاستمرار حالة التأهب واليقظة.. ويمكن تلخيص أهم هذه الآثار فيما يلى:

1- ارتفاع مستوى القلق والغموض بالنسبة لما يمكن أن يحدث من صدمات وأزمات مما أدى إلى كبح النية فى ضخ استثمارات جديدة وخفض معدلات النمو.. ويزيد من حدة هذه الآثار الاتجاه لتحويل جانب أكبر من الميزانية العامة لتمويل لوازم الدفاع والاستعداد العسكرى على حساب مخصصات المساعدات الأجنبية وميزانيات الخدمات والأنشطة التى تتطلبها عملية التنمية.

2- اتباع أمريكا لسياسات وطنية وحمائية يهدد استقرار نظام التجارة العالمى ويشجع الدول على العودة لنظام الاتفاقيات الثنائية وهو نظام أثبت عدم لياقته للارتقاء بمستوى التنافس وتحسين استخدام الموارد محلياً ودولياً.

3- تؤدى التوترات المشار إليها بدورها إلى زيادة الضغوط على الأسواق المالية إلى الحد الذى قد يتسبب فى حدوث أزمة خطيرة كما حدث عام 2008 عندما انهارت الأسواق المالية وزادت حدة تقلبات أسعار العملات، ونتج عن ذلك حالة من الذعر بين المستثمرين وانخفاض ملحوظ فى معدلات النمو.

4- وجود جهود متناثرة للقضاء على الإرهاب تنقصها رؤية وخطة متكاملة يقلل من فاعلية هذه الجهود ويشجع المجموعات الإرهابية على التغلغل فى مناطق جديدة سواء فى الشرق الأوسط أو غيره من المناطق وزعزعة استقرارها وأمنها.

وتؤدى هذه الآثار فى مجموعها إلى تكاثف السحب فى أجواء الاقتصاد العالمى وتأجيل القرارات الاستثمارية وما يتبعه ذلك من ضغوط سلبية على معدلات النمو وهو الشعور الذى غلب على مناقشات المشاركين فى المنتدى العالمى السنوى فى أوائل هذا العام.. ومن المتوقع استمرار هذا الشعور حتى يتم إيجاد حلول لأهم التحديات الحالية ومنها توتر العلاقات بين أمريكا وشركائها، عدم استقرار النظام التجارى والمالى العالمى، تبعات انسحاب المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبى، وكيفية إعادة الاستقرار والأمن فى العراق وسوريا بعد طرد داعش وأنصارها.

آفاق أكثر إشراقاً:

ليس هناك شك فى أن الأحداث المشار إليها تدعو إلى الشعور بالإحباط وخيبة الأمل، إذ لا يمكن تجاهل آثارها السلبية.

ومع ذلك فإن هناك عدة تطورات إيجابية تدعو إلى التفاؤل.. وأهمها بروز دور الدول النامية وخاصة الاقتصاديات الناشئة فى الاقتصاد العالمى.. ومن المتوقع أن تضم الدول العشر الكبرى الصين «فى المقام الأول»، الولايات المتحدة، الهند، اليابان، روسيا، البرازيل، المملكة المتحدة، فرنسا والمكسيك بحلول عام 2020.. كما يتوقع انضمام عدد أكبر من الاقتصاديات الناشئة إلى هذه القائمة خلال السنوات القادمة لتحل محل بعض الدول المتقدمة.

ما هى الأسباب وراء هذا التغير فى هيكل الاقتصاد العالمى؟

من المعروف أولاً أن معدل النمو فى الدول النامية عموماً كان ولايزال يسجل أرقاماً أعلى مما هو الحال فى الدول المتقدمة.. ويرجع ذلك إلى ارتفاع معدل الاستثمار وانخفاض متوسط أعمار السكان، وزيادة دخول الطبقات متوسطة الدخل فى الدول النامية..

لذلك من المنطقى أن تمثل هذه الدول فرصاً أكبر لاجتذاب الاستثمارات محلياً ودولياً لاستخدامها فى تمويل قطاعات السلع الاستهلاكية والرأسمالية.. هذا بالإضافة إلى أن بعض الدول النامية تستثمر فى الخارج بمعدل متزايد لاقتناء شركات أجنبية واعدة أو تدعيم مراكزها فى الأسواق الخارجية، ويقدر المختصين أن الاقتصاديات الناشئة ستمثل ثلثى إجمالى الدخل العالمى وثلثى إجمالى الاستهلاك العالمى بحلول عام 2030 «مقارنة بـ50 % حالياً».

من هذا نرى الأسباب والعوامل وراء إعادة هيكلة وتوزيع موازين القوى الاقتصادية والسياسية العالمية لصالح الاقتصاديات الناشئة وهى اقتصاديات لديها القدرة على الاستمرار فى النمو دون الاعتماد على الدول المتقدمة، إلا أن ذلك يتجاهل الترابط الوثيق بين الدول والذى يعتبر من إيجابيات النظام العالمى القائم.

الصين:

تحتل الصين حالياً المركز الأول بين الدول من حيث حجم اقتصادها نتيجة لتحقيق معدل نمو سنوى مرتفع على مدى ربع قرن.. وبالرغم مما تحمله المواطنون من تكلفة لبلوغ هذه النتيجة فإن الاقتصاد الصينى يتميز بحركية وحيوية يكاد يكون لا مثيل لها فى العصر الحديث، فهى تمكنت من تضييق الفجوة التكنولوجية مع الدول المتقدمة واستحدثت ببيئتها الأساسية فى عدة مجالات كما اقتنت مبالغ ضخمة من الاحتياطيات بالنقد الأجنبى وأضافت ملايين من فرص العمل لمواطنيها.. وتجد الصين نفسها الآن فى مفترق الطرق بالنسبة لتحديد سياسات النمو فى المستقبل خاصة وأن معدل النمو قد انخفض فى السنوات الأخيرة.. وقد يمثل هذا البطء فى النمو

حالياً فرصة تمكن السلطات من تحديد أفضل السبل للتعامل مع عدة تحديات وأهمها آثار التغير المناخى وتفاقم التلوث الذى أصبح يهدد صحة المواطنين، واستشراء الفساد، ونقص الطاقة اللازمة للنمو، واتساع الفجوة فى الدخول، بالإضافة إلى الآثار السلبية لانتعاش الثروة العقارية إلى درجة قد تؤدى إلى أزمة مالية يصعب السيطرة عليها، وعدم كفاءة النظام البنكى.. لذلك من المتوقع أن يعتمد معدل النمو مستقبلياً على ماهية القرارات والتعديلات فى السياسات القائمة.. ويعتقد الخبراء أن الاقتصاد الصينى سيستمر فى ريادته والتغلب على هذه المشاكل.. وقد قيل إن القرن العشرين ينتمى لأمريكا.. وكل الدلائل تشير إلى أن القرن الحالى ينتمى للصين.

المخاطر العالمية:

كيف تؤثر التغيرات والأزمات السابق ذكرها على مستوى المخاطر العالمية؟ تناولت ندوة من الخبراء هذا الموضوع وعرضوا خلاصة ما انتهت إليه دراساتهم أثناء المنتدى الاقتصادى العالمى الأخير.. وتتلخص توقعاتهم فى الآتى فى إطار السنوات العشر القادمة: يحتل الأثر السلبى للتغير المناخى المقام الأول، يليه احتلال حدوث تغيرات مناخية قاسية، تفحل أزمة الغذاء، زيادة عدم الاستقرار المجتمعى خاصة فى الدول التى تعانى من تلك الآثار.

أما بالنسبة للمستقبل القريب، يتوقع الخبراء أن تحتل الهجرة الاضطرارية المقام الأول، يليها زيادة التنافر بين الدول، ارتفاع معدل البطالة، وإخفاق بعض الحكومات فى اتباع أساليب الحوكمة الرشيدة، كما أشاروا إلى أن أزمة الهجرة إلى أوروبا والهجمات الإرهابية على مستوى العالم قد يتسببان فى زعزعة حالة الاستقرار العالمى إلى درجة خطيرة قد تصل إلى ما كان عليه الحال أثناء الحرب الباردة.. وأشار الخبراء إلى أهمية تدارك مدى ارتباط هذه المخاطر ببعضها البعض وهو ما يدعو لأخذ ذلك فى الحسبان عند صياغة السياسات اللازمة للحد من الآثار السلبية.

كيفية مواجهة التحديات والمخاطر العالمية:

كيف يمكن لمصر تحديد مسار فعال لحماية الاقتصاد والمجتمع من آثار الأزمات والاضطرابات العالمية؟

ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال فى الحيز المتاح فى هذا المقال.. وبالتالى سنكتفى هنا بالإشارة إلى بعض الأسس التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار، أولها التعرف على مواطن القوة والضعف فى الاقتصاد المصرى - وهناك عدة دراسات تم استخدامها فى صياغة «رؤية مصر 2030» التى

يمكن الالتجاء إليها بعد تحديثها على ضوء التطورات التى حدثت بعدها.
وقد سبق نشر مقال فى هذه المجلة «عدد أبريل» تولينا فيه استعراض التحديات التى يواجهها الاقتصاد فى الأمدين القريب والبعيد وكيفية التغلب عليها.. بعد ذلك يحسن أن نستفيد من خبرات دول سبقتنا فى مجال التنمية ونستوعب الدروس المستفادة من تلك الخبرات والتى نلخصها فيما يلى:

أولاً: بناء القدرة على الصمود

ليس فقط لمواجهة الأزمات ولكن أيضاً للقدرة على التعافى واستمرار الجهود لتحقيق أهداف التنمية.. ويمكن تشبيه هذه القدرة بوثيقة تأمين ضد الآثار السلبية للأزمات والنكسات العالمية، إلا أنها لا تأتى عنوة أو دون تكلفة.. فزيادة القدرة على الصمود تتطلب إجراءات لرفع مستوى الاحتياطيات من النقد الأجنبى وأساسيات الاستهلاك، ونظام بنكى قوى بالإضافة إلى مؤسسات قادرة على القيام بمهامها بفعالية وبموارد أقل ويربطها شبكة من التعاون والتنسيق للتحرك دون تأخير فى مواجهة المخاطر.. كما تتطلب سياسات لتلافى الاعتماد المفرط على سلعة واحدة أو سوق واحدة أو مصدر واحد فى أنشطتها التجارية.. وأخيراً يجب تأكيد أن القدرة على الصمود ليست مسئولية الدولة فقط وإنما تعتمد على مشاركة قطاع الأعمال الخاص والمنظمات غير الحكومية.. وفى هذا السياق، تمثل الخطوات التى يتخذها واضعو السياسة لدمج هذه العوامل كجزء متكامل مع مختلف السياسات تحدياً مهماً.

ثانياً: الانفتاح على الاقتصاد العالمى:

إن التعامل مع ظروف عدم التأكد والاستقرار لن ينجح باتباع سياسات موجهة للداخل «سياسات وطنية حمائية»، إذ إنه ليس فى قدرة أى دولة حماية اقتصادها وراء حواجز تجارية.. فبالإضافة إلى كون هذه الحواجز مخالفة للقواعد والإجراءات المتفق عليها فى ظل منظمة التجارة العالمية «هذا باستثناء متطلبات التعامل مع الإغراق»، نجد أن أفضل الحلول يتمثل فى زيادة القدرة التنافسية والارتقاء بمستوى جودة السلع والخدمات الموجهة للأسواق الخارجية.

ثالثاً: كفاية قدرات الإنتاج المحلى:

إن زيارات الرئيس السيسى لمختلف الدول تهدف إلى تعريف قياداتها بموقف مصر وجهودها فى محاربة الإرهاب وطمأنتها على أمن وسلامة سياحها وإلى توثيق العلاقات الاقتصادية معها.. ولا شك فى أن هذه الزيارات ساهمت فى إيجاد فرص للمصدرين المصريين فى تلك الأسواق.. ولكى تتحقق الزيادة المرجوة فى صادرات مصر يجب العمل على:

1- متابعة نتائج زيارات الرئيس من جانب وزارتى الخارجية والتجارة الخارجية أولاً بأول لتحديد ما يتطلبه كل سوق ومدى حدة المنافسة فيه.

2- توسيع القدرات الإنتاجية فى القطاعات المصدرة بما فيها الزراعة والصناعة والخدمات من حيث الكم والجودة.

رابعاً: المرونة:

من المعروف أن نجاح أى خطة فى مواجهة الطوارئ يعتمد على مدى مرونتها حتى يمكن إدخال التعديلات اللازمة دون تأخير خاصة فى ظل التغير السريع فى الأحداث العالمية.. وذلك يتطلب كفاءات إدارية محنكة لتقرير ما يلزم تعديله.

خامساً: توزيع الدخل:

لم يعد معدل النمو المقياس الوحيد لنتائج التنمية أو يضاف إلى ذلك نمط توزيع الدخل فى المجتمع للتعرف على مدى استفادة المواطنين من نتائج النمو.. ويؤدى اتساع الفجوة بين مستويات الدخل فى المجتمع إلى حالة من عدم الرضا والصراع الاجتماعى.. ومن هذا يتضح أهمية اتباع سياسة رشيدة لتوزيع الدخل باستخدام الأساليب الضريبية وغيرها، والحد من التهرب الضريبى والفساد بصوره المختلفة من جانب الأفراد والشركات.

سادساً: تمويل التنمية:

تتطلب عملية التنمية تعبئة الموارد المحلية والأجنبية، وتقوم عدة دول من بينها مصر بالاستفادة من المصادر الدولية مثل البنك الدولى وما يماثله بالاقتراض ويكون ذلك عادة بشروط سخية من حيث الفائدة على القرض وفترة السماح اللازمة لسداده.

كما تقوم الدول النامية أيضاً باستخدام أسواق الأسهم والسندات الأجنبية فى الحصول على تمويل إضافى بشروط يتم التفاوض عليها.. وليس هناك ما يشيب الاستعانة بهذه المصادر طالما أدى توظيف التمويل فى أنشطة تدر عائداً يكفى لسداد القرض وتكلفته من فوائد ورسوم.. ومع كل ذلك يجدر أن نتذكر أن المدخرات القومية هى الملاذ الأخير لتمويل التنمية.. ولهذا فإنه من الأهمية اتخاذ سياسات تشجع على رفع مستوى الإدخار القومى الذى ثبت من تجارب الدول الناجحة أنه يمثل أحد الأركان الأساسية لبلوغه أهداف التنمية المستدامة.

وفى ختام هذا المقال نشير إلى أن مقدرة أية دولة على التعامل مع التقلبات والصدمات فى الاقتصاد العالمى تتوقف على مدى قدرتها على الصمود أمام الآثار السلبية وعلى رفع كفاءة مؤسساتها لتؤدى دورها بفاعلية.. كما نشير إلى أن التنمية المستدامة تعتمد على توفير بيئة تتميز بالأمن والاستقرار، وتوزيع للدخول مبنى على أسس العدالة الاجتماعية، وعلى توافر الخدمات التعليمية والصحية لكافة أفراد المجتمع.. تلك هى الأعمدة الثلاث التى تساند جهود التنمية فى أى مجتمع.

طريق الحرير.. رؤية عربية

العلاقات بين الصين والدول العربية أصبحت متشعبة وتشمل مجالات كثيرة، ونتناول هنا مشروع طريق الحرير الجديد والمعروف رسمياً باسم مبادرة الحزام والطريق One Belt, One Road ويختصر عادة إلى OBOR (وأستخدم فى هذا المقال الاسم الشائع "طريق الحرير" الجديد أيضا حيث ارتبط هذا الاسم بالطرق الواصلة من والمؤدية إلى الصين مصدر الحرير وأكبر تاجر له على مر التاريخ)، وكيف يمكن لنا كعرب الاستفادة منه على أساس المبدأ الذى روجت له الصين وأصبح شائعاً فى مصطلحات السياسة العالمية وهو التعاون والتبادل على أساس الكسب أو الفوز المشترك win-win cooperation وباتباع قواعد اقتصاد السوق.

سفير عبدالفتاح عزالدين

afmecairo@gmail.com

وأرى أنه يجب إيلاء اهتمام كبير بهذه المبادرة للأسباب الأساسية التالية:

أولاً: أن هذه هى أضخم مبادرة فى التاريخ سواء من حيث الحجم أو الامتداد الزمنى والجغرافى.

وتقدر الصين أن تصل الاستثمارات فى هذه المبادرة إلى 16 تريليون دولار أمريكى. وأعلنت الصين أن المبادرة مفتوحة لجميع دول العالم. كما قدر الاقتصاديون الصينيون امتدادها زمنياً إلى منتصف القرن الحالى!

ثانياً: أن الدول العربية فى احتياج شديد إلى الاستثمارات والتكنولوجيا والخبرات الفنية وإلى زيادة حجم التجارة والتعاون فى التغلب على الصعوبات المالية وتنشيط السياحة والتبادلات الشعبية وهى العناصر التى تقدمها المبادرة، كما تحتاج الدول العربية إلى الانفتاح الثقافى والإعلامى على العالم كله ومنها دول الشرق فى آسيا وهو ما توفره هذه المبادرة أيضا، وذلك لمواجهة الأفكار المتطرفة التى أخذت فى الانتشار.

ثالثاً: أن من الأهداف الرئيسية للمبادرة مساعدة الدول الصغيرة والدول الجزرية والدول الحبيسة والدول المتوسطة النمو على استكمال بنيتها التحتية، وتحديث الصناعة ونقل التكنولوجيا وزيادة التواصل والتفاعل والتبادل الثقافى والعلمى والإعلامى وربط الدول المشاركة بمواصلات واتصالات حديثة أرضاً وبحراً وجواً.

وما تم إنجازه منذ الإعلان عن المبادرة عام 2013 يبشر بنجاح كبير حيث تم هذا العام تشغيل خط سكك حديدية للنقل بين مدينة إى أو (قرب شنغهاى فى الصين) ولندن، كما تم الانتهاء من خط السكك الحديدية الذى يربط بين أديس أبابا وجيبوتى على البحر الأحمر. وكذلك انتهى العمل فى خط السكك الحديدية الذى يربط بين مدينة تشونغ تشينغ فى وسط الصين وميناء دويسبورج الألمانى (وهو أكبر ميناء داخلى فى العالم).

وأقامت الصين قاعدة لوجستية لها فى جيبوتى، كما تقوم بتطوير ميناء جوادار فى باكستان على المحيط الهندى وميناء بيريه اليونانى على البحر المتوسط. ووقعت الصين وثائق تعاون مع حوالى 68 دولة للتعاون فى تنفيذ المبادرة، وعدد الدول والهيئات المشاركة آخذ فى الازدياد ومن قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

خلفية العلاقات العربية الصينية:

1- تواجهت الحضارة الصينية مع الحضارة الإسلامية فى موقعة نهر طلاس عام 751 ميلادية عندما حاول أبو مسلم الخراسانى نشر

الإسلام فى بلاد ما وراء النهرين وفى أعقاب المعركة تصالح الطرفان، ولم تحدث بينهما معارك أخرى.

2- جاورت الحضارة الإسلامية الحضارة الصينية فى سلام منذ ذلك الحين، بينما تحاربت الحضارة الإسلامية مع الحضارة الغربية (فى العصور الوسطى والحديثة). وكذلك ذهبت الدول الغربية للسيطرة على الصين خلال الفترة من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن العشرين (ويطلق عليها الصينيون مصطلح "قرنى المهانة").

3- تجاورت الحضارتان لحوالى 1300 عام وأصبحت أجزاء كبيرة منهما تحت حكم المغول خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر (أى كانتا عضوين فى الإمبراطورية المغولية).

4- نقلت الحضارة الإسلامية المخترعات الصينية المهمة وهى البوصلة والبارود والورق والطباعة إلى الغرب، بينما استفادت الحضارة الصينية من علوم الفلك والطب والكيمياء عند المسلمين.

5- زادت الظروف المواتية للتنمية الاقتصادية السريعة فى الصين منذ اتباعها سياسة الإصلاح والانفتاح من عام 1979 مما أدى إلى أن يصبح اقتصادها أكبر اقتصاد فى العالم منذ حوالى ثلاث سنوات، وتكونت لديها فوائض مالية ضخمة وهو ما ساعد على محاولة استثمار هذه الفوائض فى إطار مبادرة الحزام والطريق وبما يفيد مساعدة التنمية الاقتصادية فى الدول النامية وتنشيط الاقتصاد العالمى الذى مازال يعانى من تبعات الأزمة المالية العالمية فى عام 2008.

6- منذ مؤتمر باندونج عام 1955 واعتراف مصر بجمهورية الصين الشعبية نشطت العلاقات العربية الصينية، وتبادل الطرفان التأييد فى القضايا السياسية، كما وصلت تجارة الصين مع العالم العربى إلى 220 بليون دولار فى العام الماضى.

7- وقعت 7 دول عربية (من مجموع 22 دولة) اتفاقات مع الصين للتعاون فى مشروع طريق الحرير (الحزام والطريق) حتى الآن. وبهذا فإنها تشارك مع 60 دولة أخرى فى البناء الاقتصادى الذى قد يؤدى إلى تخفيف التوترات فى بعض مناطق العالم.

مبادرة طريق الحرير الجديد:

أطلق الرئيس الصينى شى جين بينغ فى سبتمبر 2013 مبادرة إقامة الحزام الاقتصادى لطريق الحرير (البرى) ثم أطلق فكرة التعاون لإقامة طريق الحرير البحرى للقرن الواحد والعشرين فى 3 أكتوبر 2013. ومجموع الفكرتين هو مبادرة الحزام والطريق.

كان طريق الحرير القديم عبارة عن عدة طرق متشعبة فى ثلاثه محاور هي:

طريق الحرير البرى الشمالى / طريق الحرير البرى الجنوبى / طريق الحرير البحري.

وكلها تبدأ من الصين وتمتد شرقاً وغرباً حتى تصل إلى ميناء البندقية فى إيطاليا والإسكندرية فى مصر عبر البحر الأحمر من الجنوب وعبر الشام من الشمال.

وقد أصدرت مكتبة الإسكندرية منذ ثلاثة أعوام الموسوعة الثقافية عن طريق الحرير باللغة العربية.

ويتضح من دراسة الخرائط أنه، كما كان لطريق الحرير القديم عدة طرق متشعبة فى الصين فإنه فى طرفه الغربى الواقع فى العالم العربى أيضاً به طرق تتشعب وترتبط مع طرق تجارية أخرى قديمة فى المنطقة.

من أهم هذه الطرق الطريق الذى يربط بين العراق ودول الخليج العربى والطريق البحرى الذى يربط بين الهند ودول الخليج العربى وساحل عمان ثم البحر الأحمر.

ويوجد طريق برى آخر من الشام يتشعب إلى كل من مكة والمدينة ثم اليمن جنوباً كما يتشعب من الشام أيضا غرباً إلى الإسكندرية ثم إلى دول شمال أفريقيا العربية: ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

وهذا الطريق هو نفس «طريق الحج» الذى يمتد من موريتانيا إلى ساحل البحر المتوسط ثم يدخل مصر إلى نهر النيل ثم إلى موانئ البحر الأحمر ومنها بحراً إلى جدة.

كما أن طريق الحج فى غرب أفريقيا يمتد من المغرب إلى موريتانيا ودول غرب أفريقيا ويعرف أيضا باسم

طريق الحرير.. رؤية عربية

«طريق الذهب».

كما يربط الطريق البحرى المعروف باســـم «طريق التوابل» الآتى من أندونيسيا شرقاً إلى الهند وسواحل عمان واليمن والصومال وجيبوتى وأريتريا والحبشة وجنوب السودان والسودان إلى مصر شمالاً عن طريق كل من ساحل البحر الأحمر (ونهر النيل عن طريق القنوات التى كانت تربطهمـــا) وله فرع آخر يســـير جنوباً إلى شرق أفريقيا. أما «طريق البخور» فيتطابق تقريبا مع طريق الحرير البحرى من الهند إلى سواحل عمان واليمن ويتفـــرع إلى فرعين شمالى فى البحر الأحمر وعلى سواحله الغربية وآخر جنوبى إلى ســـواحل شرق أفريقيا ويطلق عليه أيضا فى هذا الجزء من شرق أفريقيا «طريق البخور».

مما ســـبق يتضح أن الدول العربية تترابط ترابطاً وثيقـــاً مع بعضها ومع الدول المجاورة لها منذ القدم بطرق برية وبحرية تجارية مهمة ترتبـــط بطريق الحريـــر ويصبح على دارســـينا ومعاهدنا أن يوثقوا الخرائط التاريخية للطرق وترابطها خاصةً وأن العالم العربى كان قلب العالم القديم كما كان التجار العرب من أنشط التجار على طريق الحرير القديم.

ومن المهم توثيـــق الطريق القديم من ناحيـــة الاتصال الثقافى ولإحياء الكثير من «الصناعـــات التقليدية» التى اشـــتهرت بها مـــدن العالم العربـــى وتصبح مصـــدراً لدخل كبير بالإضافة إلى اكتســـاب المدن الواقعة عليه «أهمية سياحية» كبيرة تستحقها بجدارة.

مجالات التعاون فى المبادرة:

مجالات التعـــاون «الأساســـية» هى تنسيق السياســـات – تسهيل المواصلات والاتصـــالات– التعاون التجـــارى والاســـتثماري– تعزيز التداول المالي– التبادلات الودية بين الناس.

ذكـــرت خطة العمـــل الصينية أن المبـــادرة تتفق وأهـــداف ومبادئ ميثاق الأمـــم المتحـــدة والتعايش السلمى الخمس وهى مبادئ تؤمن بها الـــدول العربية خاصة فى إطار حركة عدم الانحياز.

ألقى الرئيس شى جين بينغ كلمة فى افتتاح الاجتماع الوزارى الســـادس بمنتدى التعاون العربى الصينى فى يونيو 2014 طرح أثناءه أن يكون إطار التعاون مع العرب هو صيغة «1+2+3» وأوضح أن.

1- تعنى التعاون فى مجال الطاقة وهو المحور الرئيسى.

2- وتعنى جناحان أحدهما البنية التحتيـــة والآخر تســـهيل التجارة والاستثمار.

3-كما تعنى دعم التعاون فى ثلاث تكنولوجيات متقدمة وهى الطاقة النووية والأقمار الصناعية والطاقة المتجددة.

فى كلمة الرئيس الصينى فى 21 يناير 2016 فى جامعة الـــدول العربية بالقاهرة أوضح الإطار الســـياسى للتعاون مع العـــرب كما خصص جـــزءاً كبيراً للتعـــاون الاقتصادى والثقـــافى فى إطار مبـــادرة الحزام والطريق. وقد عدد الرئيس الصينى الكثـــير مما تحقق، كما أشـــار إلى بعض ما هو قادم وهو كثير مثلاً:

ســـتقيم الصين مركزاً للدراسات الصينية العربية للإصلاح والتنمية.

ستعقد الدائرة المستديرة للحوار بين الحضارتين العربية والصينية.

زيارات متبادلة لـ 100 شـــخصية دينية.

التعاون فى أمـــن الإنترنت لمكافحة الإرهاب.

التعاون لإنفاذ القانـــون وتدريب رجال الشرطة.

التعاون فى الإنتاج فى جميع المجالات الإنتاجية.

تجديد اتفاقيات شراء النفط طويلة الأجل.

آليات تجارية واستثمارية لمجالات

جديدة للتعاون.
تبادل العملات والاستثمارات.
توسيع حجم التسويات التجارية بالعملة الصينية.
الإسراع فى تسهيل الاستثمار.
الإسراع بإنفاذ التكنولوجيا المتقدمة (القطار فائق السرعة– الطاقة النووية– الفضاء– الطاقة الجديدة– الهندسة الوراثية– إلخ).
التعاون فى مجالات النفط والقروض والمشروعات والحدائق الصناعية.
الشراكة التكنولوجية والعلمية.
10 مختبرات فى مجالات الزراعة الحديثة– المعلومات– الاتصالات– – نظام بيدو للأقمار الصناعية.
مشاريع الطاقة الإنتاجية بـ 15 مليار دولار.
قروض تجارية بـ 10مليارات دولار.
قروض ميسرة بـ 10 مليارات دولار.
صندوقان للاستثمار مع الإمارات وقطر بـ 20 مليار دولار.
الاستفادة المتبادلة بين الحضارات.
مشروع المائة والألف والعشرة آلاف (ترجمة 100 كتاب صينى وعربي– تبادل زيارات 100 خبير وجامعة– 1000 فرصة تدريب لقادة الشباب العربي– دعوة 150 قيادة عربية لزيارة الصين– 10 آلاف منحة دراسية– 10 آلاف منحة تدريبية– زيارات متبادلة بين 10 آلاف فنان صينى وعربى).

إن هذه النماذج سوف تؤدي– كما هو واضح من كبر حجم أرقامها وتنوع مجالاتها– إلى تفاهم وتفاعل كبيرين بين الصين والعالم العربى لم يحدث مع أية دولة من خارج المنطقة من قبل لأنها تعد بتوفير الكثير مما يطمح إليه العرب.

أدوات تنفيذ المبادرة:

الأدوات الموجودة حالياً فى هذه المبادرة– كما تبين من بدايات تطبيقها- تتضمن:

1- ممرات اقتصادية: وأهمها ممر الصين– بنجلاديش- ميانمار– الهند– وكذلك ممر الصين- باكستان (هناك تخطيط لستة ممرات كبرى حتى الآن).

2- مشروعات اقتصادية: تم الاتفاق على ميناء بحرى جديد فى باكستان (جوادار) وعلى إقامة خط سكك حديدية سريع من موسكو إلى بكين وخط سكك حديدية آخر من الصين إلى إيران.

3- أنشطة ثقافية متنوعة مثل زيارات الفرق الفنية- الندوات والليالى الثقافية.. إلخ.

4- مصادر تمويل: تم حتى الآن إيجاد مصدرين مخصصين لتمويل مشروعات طريق الحرير الجديد، وهما بنك آسيا للاستثمار فى البنية التحتية وصندوق طريق الحرير.

هذا بالإضافة إلى مشاركة بنوك وهيئات مالية فى الصين وفى الدول الأخرى وكذلك بنوك وهيئات إقليمية ودولية فى التمويل.

إذا استعرضنا ما سبق يتضح أنه يمكن إيجاد ممر اقتصادى بين الصين ومنطقة الشرق الأوسط عبر إيران والعراق.

وقد أشار أحد الباحثين فى ندوة بمركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت فى فبراير 2017 إلى أن إقامة ممر اقتصادى بين باكستان وإيران ودول منطقة الخليج العربى قد يكون دافعاً لتعاون هذه الدول اقتصاديا مع بعضها ويقلل من التوتر السياسى بمنطقة الخليج.

واستلهاماً من المبادرة أقترح أن ندرس تقديم "مشروع لإقامة ممر اقتصادى يربط شرق أفريقيا" ويمتد من أثيوبيا والصومال وإريتريا إلى جنوب السودان والسودان ومصر (أى مسار "طريق البخور" القديم)، وبالطبع يمكن ضم دول أخرى عليه مثل كينيا وأوغندا، مع الأخذ فى الحسبان إمكانية المزيد من الدول وفق خطط التكامل أو التنسيق الاقتصادى والتفاهم بين دول المنطقة ولا يخفى أهمية إقامة مثل هذا الممر.

ومن المهم فى إطار التكامل الاقتصادى العربى استحداث فكرة "الممرات الاقتصادية" بين الدول العربية والتى يمكن أن تترابط مع غيرها من الممرات، ومنها الممرات على طريق الحرير، وربما مستقبلاً ممرات أفريقية تتصل بالممرات العربية.

أما المشروعات الاقتصادية فيمكن للدول العربية أن تطرح العديد من المشروعات بطريقة فردية أو جماعية خاصة فى المجالات التى ذكرها الرئيس الصينى فى كلمته الأخيرة بالقاهرة ومن أهم هذه المشروعات البنية التحتية والمواصلات والاتصالات.

ولدى جامعة الدول العربية مشروعات عديدة فى إطار خطة التكامل الاقتصادى العربى والسوق العربية المشتركة، كما يمكن أن تطرح دولتان عربيتان أو أكثر بعض المشروعات الضخمة المشتركة مثل نقل الكهرباء أو إقامة خطوط سكك حديدية أو كابلات الألياف الضوئية.. إلخ للاستفادة من

التعاون الصينى التقنى والمالى فى إقامتها.

أما الأنشطة الثقافية فإن مجالها متسع للغاية نظراً لثراء الحضارتين الصينية والعربية، وقد طرح الجانب الصينى الكثير من الخطط والمشروعات المنتظر أن يتعاون الجانب العربى فى تنفيذها بل وفى ابتكار مجالات جديدة بما يعود على الجانبين بفوائد جمة.

وأود أن أركز هنا على الأهمية الاقتصادية والثقافية والإعلامية القصوى للصناعات والحرف الثقافية والفنية، وأهمية اكتساب المعرفة والتقنيات والوسائل الثقافية الحديثة والتى تفوقت فيها دول شرق آسيا وحققت بها كوريا الجنوبية مثلاً نجاحات عالمية.

وبالنسبة لمصادر التمويل فبجانب المصدرين الماليين المشار إليهما فإن هناك مصادر أخرى يمكن أن تساعد فى تمويل مشروعات طريق الحرير الجديد نظراً للتداخل الجغرافى مثل صندوق منظمة شنغهاى للتعاون بالإضافة إلى صندوق الاستثمار الصينى الإماراتى والصينى القطرى وأى صناديق مشتركة جديدة للاستثمار سواء بين الجانب الصينى والجانب العربى أو بين دول عربية. كل هذه يمكن أن تضيف إمكانيات استثمارية للمشروعات..

الأدوات العربية لطريق الحرير الجديد:

1- جامعة الدول العربية لديها العديد من الأجهزة مثل المجلس الاقتصادى العربى والصناديق والبنوك والمنظمة العربية للتعليم والعلوم والثقافة، وهى أجهزة ومنظمات لها خططها والتى يمكن أن تفيد فى التنسيق بين خطط التكامل العربى والاستفادة من الإمكانيات التى توفرها مبادرة الحزام والطريق بحيث يمكن الإسراع بالتنمية العربية.

2- كما ذكرنا لدى الدول العربية صناديق تعاون وصناديق استثمار، ويمكن إنشاء صناديق مشتركة مع الصين على غرار ما فعلته الإمارات وقطر.

3- فى الخطط القومية للدول العربية مشروعات عملاقة وربما بالتركيز عليها يمكن خدمة التنمية السريعة ومواجهة مشاكل مثل البطالة، ويجب أن يعدوا دراسات الجدوى ووسائل التخطيط والتمويل.

4- من المهم إقامة "وحدة" داخل جامعة الدول العربية تضم "متخصصين فى الشئون الصينية" لمتابعة هذه المبادرة وتقديم المشورة للجامعة وأعضائها نحو كيفية الاستفادة منها على الوجه الأمثل وفى إطار مفهوم المكسب للجميع.

5- على الدول العربية أن تشجع التخصصات الدراسية المتعلقة بالصين من حيث اللغة والثقافة والسياسة والاقتصاد والإعلام حتى يمكن إعداد "كوادر" جديدة من المتخصصين المتعمقين الذين يفيدون فى فهم وبناء التعاون مع الصين القوة الصاعدة. فرغم انتشار دراسة اللغة الصينية فى الجامعات العربية الآن إلا أنها تكاد تقتصر على اللغة وأحياناً الأدب دون التاريخ والاقتصاد والجغرافيا والسياسة والتجارة والاستثمار والنقل والطاقة والعلوم وغيرها من الموضوعات المتخصصة.

6- وفى حالة مأسسة طريق الحرير (كما ذكرت فى مقال رؤية مصرية لطريق الحرير) فإن كثيراً من المدن العربية العريقة يمكن أن تستضيف أجهزة ومؤسسات تابعة لطريق الحرير (وقد سمعت اقتراحا من الإخوة السودانيين الذين شاركوا فى ندوة طريق الحرير بالقاهرة فى يوليو 2015 عن ترشيح ميناء سواكن ليكون مقراً "لمتحف طريق الحرير" إذا تم التفكير فى إقامة مثل هذا المتحف).

7- إعداد قوائم من جانب كل دولة عربية بالأفراد المؤهلين للاستفادة من التبادلات التى أعلنتها الصين فى مجالات التدريب والثقافة.

8- يجب أن تبدأ مراكز البحوث العربية بتقديم أفكار وتصورات "جديدة" لاستفادة الدول العربية فرادى وأقاليم فرعية وكمجموعة واحدة من محتويات وإمكانات مبادرة طريق الحرير الجديد وأن تضع فى الاعتبار فكرة الممرات الاقتصادية وإمكانية مدها ليس فقط فى المشرق العربى وإنما مدها إلى دول المغرب العربى أيضا.

9- يجب على المؤسسات والهيئات العربية المشتركة العديدة أن تفكر فى طرق الاستفادة من المبادرة. ومثال على ذلك قيام اتحاد غرف المستثمرين العرب فى إبريل 2017 بطرح إنشاء اتحاد مستثمرى طريق الحرير وجعل مقره القاهرة مع نشر تقرير عن كيفية تعاون المستثمرين العرب مع مبادرة طريق الحرير.

قمة منتدى طريق الحرير:

عقدت فى بكين يومى 14 و15 مايو 2017 وتعتبر هذه القمة خطوة مهمة للغاية لأنها أكدت أهمية المبادرة بالنسبة للعالم كله. ولعل الإشارة إلى بعض التطورات المهمة

التى حدثت فيها يلقى الضوء على ما يجب أن تقوم به الدول العربية حيال المبادرة الصينية:

أ- اشترك فى المنتدى 100 دولة حضر القمة فيها 29 رئيساً ورئيس وزراء بالإضافة إلى عدد كبير من الوزراء، وقد مثل مصر فيها السيد/ طارق قابيل وزير التجارة والصناعة.

ب- أعلنت الصين رفع استثماراتها إلى تريليون دولار وأنها تستثمر حاليا 150 بليون دولار فى مشروعات طريق الحرير منها 75 بليون دولار فى مجال السكك الحديدية، و16.7 بليون دولار فى مجال المطارات، و17.5 بليون دولار فى مجال الموانىء، و17 بليون دولار فى مجال القنوات المائية (وربما يستخدم جزء منها فى المشروع الإيرانى لمد قناة من بحر قزوين فى شمال إيران إلى الخليج العربى والتى تفتح مخرجاً بحرياً خارجياً لدول وسط آسيا) بالإضافة إلى مشروعات أخرى متنوعة.

ج_ شاركت فى المنتدى 7 دول عربية هى: مصر- الكويت- قطر- الإمارات- سوريا- السعودية-تونس. ويتساءل الصينيون عن أسباب عدم حضور أى رئيس عربى للقمة.

يمكن تفسير هذا الغياب على أساس أن الدول العربية التى وقعت اتفاقات مع الصين بشأن التعاون فى مبادرة طريق الحرير هى 7 دول فقط وقد حضر ممثلوها وإن غاب قادتها لأن بعضهم كان قد زار الصين منذ فترة قصيرة (مثل ملك السعودية الذى أعلن توافق رؤية السعودية 2030 مع المبادرة الصينية) أو أنه من المقرر أن يزورها البعض الآخر قريباً، وعلاوة على هذا فقد تزامن مع قمة المنتدى زيارة الرئيس الأمريكى الجديد إلى منطقة الشرق الأوسط وعقد عدة قمم معه لمواجهة مشكلة الإرهاب الملحة فى المنطقة والتى تهدد كيان دول المنطقة تهديداً خطيراً.

د- اشترك عدد من رؤساء دول أمريكا اللاتينية، وعرضت السيدة ميشل باشليه رئيسة شيلى عدة مقترحات منها إرساء كابل ألياف ضوئية بحرى بين أمريكا اللاتينية وآسيا لزيادة إمكانات التواصل الحديث والسريع connectivity بين القارتين. ويدلل هذا الاقتراح على اهتمام دول أمريكا اللاتينية أيضا بالمشاركة فى وبالاستفادة من مبادرة طريق الحرير.

التناول الإعلامى للمبادرة:

من الواضح أن وسائل الإعلام العربية لا تولى اهتماماً كافياً لأهداف المبادرة الصينية وتطوراتها وتأثيراتها بما يجعل المسئولين والمواطنين يهتمون بها وبما يتناسب وأهميتها للاقتصاد العربى والعالمى. ويكفى هنا ذكر أن مجموع الاستثمارات الصينية فى الممر الاقتصادى بباكستان قد بلغ 48 بليون دولار وأنه وفر فرص عمل لـ 700 ألف عامل حتى الآن.

وقد طلب مسئولون صينيون من العرب ألا ينظروا إلى مبادرة الحزام والطريق باعتبارها تنافسا استعماريا بين القوى الكبرى لأن الصين لا تنافس الولايات المتحدة، كما أن تاريخ الصين يخلو من استعمار أية دولة وأن ثقافتها تعكس عقلية تؤمن بالسلام (سور الصين العظيم فى شمالها يمتد لعشرة آلاف كيلومتر وهدفه الدفاع عن الصين ضد غزوات قبائل الشمال).

خاتمة:

لقد وقعت 7 دول عربية حتى الآن على اتفاقيات تشارك مع الصين بشأن هذه المبادرة، كما أصبحت 7 دول عربية أعضاء مؤسسين فى البنك الآسيوى للبنية التحتية.

إن مبادرة طريق الحرير فكرة عبقرية لدفع التنمية الاقتصادية على مستوى العالم، وما أحوج العالم العربى لهذه التنمية فى عالم يتقدم بسرعة وفى ظل صعوبة الوفاء بمعظم احتياجات المواطن العربى حتى الآن.

إن هذه المبادرة المفتوحة لكل دول العالم بما فيها الدول التى لم تكن واقعة على طريق الحرير القديم- كما أعلنت الصين- يجعل منها وسيلة مهمة للدول العربية للتعاون فيما بينها ومع الصين وغيرها من الدول (خاصة الدول المجاورة) من أجل التنمية.

وقد يكون من الواجب على الدول العربية وجامعتهم العربية التى قادت إنشاء منتدى التعاون العربى الصينى أن يحشدوا الجهود للاستفادة من هذا المشروع ضخم الأبعاد عالمى الامتداد، خاصة فى ضوء مسارعة الكثير من دول العالم فى أربع قارات إلى المشاركة فيه، وفى ضوء إتمام مشروعات ضخمة فيه بالفعل، وفى ضوء الخبرة التاريخية فى التعامل السلمى والودى مع الصين.

إن على الدول العربية فرادى ومجتمعة (جامعة الدول العربية) وعلى القطاعين الاقتصاديين العام والخاص فيها، عليهم جميعاً أن يبتكروا الوسائل وأن يفكروا فى أنسب الصيغ وأن يتحركوا بخطى مرسومة واثقة للاستفادة من مشروعات هذه المبادرة لتحقيق الحلم العربى فى الحرية والسلام والتنمية والتحديث والوحدة.

وزير الثقافة

تحت رعاية الكاتب الصحفى حلمى النمنم وزير الثقافة قام د. أيمن عبدالهادى رئيس قطاع العلاقات الثقافية الخارجية بتكريم الرابطة عن التعاون الفنى بين الرابطة والوزارة وكرمت أيضا الفنانة ابتسام هانم العشيرى بصفة شخصية لمجمل أعمالها الفنية وقد تم تكريم العديد من سفراء الدول والفنانين والمبدعين الذين ساهموا فى إثراء المجال الفنى والثقافى خلال الموسم الحالى منهم سفراء الأرجنتين - السعودية - البرتغال - الإمارات - اندونيسيا. تسلمت درع الرابطة الفنانة أميمة قنديل رئيسة لجنة الأنشطة بالرابطة.

نشاط مكثف

تتويجا لموسم الرحلات هذا العام قامت الرابطة بتنظيم رحلة بديعة لقصر عائشة فهمى على نيل الزمالك ويعد المبنى تحفة فنية رائعة وما يعرض داخله لنخبة من فنانى مصر والعالم

زيارة قصر عائشة فهمي

المشرف والمساعدة فى الوصول لهذه النخبة الممتازة من الضيوف، وأيضا أشكر عضوات الرابطة ابتسام هانم العشيرى ونهاد هانم سيف اليزل وهادية المنياوى ود. مايسة حمادة فى مساعدتنا وسامية شرارة.

جعل الزيارة مثمرة وممتعة إلى اللقاء فى الموسم القادم. إن شاء الله.

نشاط الرابطة

فى ختام نشاط الرابطة لهذا العام اجتمعت عضوات الرابطة بنادى الدبلوماسى النهرى استعرضنا نشاط الرابطة خلال العام والذى غطى معظم احتياجات زوجة الدبلوماسى خارجيا وداخليا فقد تنوع النشاط بشكل كبير هذا العام بدأ بضيوف شرفنا بحضورهم فى كافة مجالات الحياة السياسية لواء مراد موافى والاقتصادى د. أحمد درويش والاجتماعية د. زينب شاهين وشرفتنا أيضا بالحضور الوزيرة نبيلة مكرم وزيرة الهجرة وأيضا احتفالا بعام المرأة سويا مع المجلس القومى للمرأة ورئيسته د. مايا مرسى وعضوته السفيرة منى عمر وكان لقاء فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب من أجمل وأنجح لقاءات العام. أشكر عضوات الرابطة على تعاونهن وحضورهن

فنانات الرابطة يوم تكريم وزارة الثقافة

وفى النشاط الجانبى المساعد لعضوات الرابطة ابتسام هانم العجائن، ونهاد هانم الاتيكيت والبروتوكول، وهادية فى دروس الطبخ مع آمنة الهاتمى ومايسة فى درس السوشى مع سفارة اليابان - وسامية شرارة فى تنسيق الموائد والزهور.

ألف شكر للجميع مرة أخري

انتخابات الرابطة

للأسف الشديد اضطررنا أن نلغى الانتخابات التكميلية والجمعية العمومية طبقا لتعليمات التضامن

السيدة أميمة قنديل رئيسة لجنة الأنشطة بالرابطة تتسلم درع التكريم

«الجهة الإدارية المشرفة على الرابطة» نظراً لإصرارهم على عدم شرعية الانتخابات التى أجريت فى ديسمبر 2015 لعدم تطابق الأسماء المرسلة مع كشوف الأسماء «عضوات الرابطة» الموجودة بالدفاتر وقد طلبت الجهة الإدارية تنقية الدفاتر وإعادة الانتخابات مرة أخري، ونحن بصدد القيام بما طلبته الجهة الإدارية، وسوف نعلن عن فتح باب الترشيح حين الانتهاء من تنقية الدفاتر وعقد جمعية عمومية سوف يعلن عنها لاحقا.

الدراسات المستقبلية ومجتمع المعرفة

اختلف المجتمع جذرياً في عصر المعلومات والإنترنت عنه فيما مضى، ويكفي في هذا المجال أن نتذكر أن مصنع فورد للسيارات الذي سبق وأدخل فكرة خطوط الإنتاج واهتم بالإنتاج الأضخم لصناعة السيارات قد أغلق أبوابه عام 2007 في بلده الأم بالولايات المتحدة نظراً لمنافسة مصنع تويوتا له الذي نجح في إدماج المعرفة بصناعة السيارات فكانت مبيعاته الأعلى.

وإذا كانت تويوتا تنافس فورد فهو أمر منطقي عرفناه في علم الاقتصاد، ولكن الجديد جاء على لسان المدير التنفيذي لشركة مرسيدس للسيارات الذي أكد أن منافسيه ليست شركات سيارات أخرى ولكنها شركات جوجل وأبل وأمازون، بالإضافة إلى المنافسين الثلاثة التقليديين وهم الموت والضرائب والتغيير.

نمط مجتمعى غير مسبوق:

هذه التصريحات تعني أننا أمام مجتمع من نمط جديد غير مسبوق، تكتسح فيه صناعة البرمجيات الصناعات التقليدية التي تعودنا عليها، وهو ما يتطلب تغيير نمط تفكيرنا وأسلوب حياتنا وفقاً لملامح هذا المجتمع الجديد الذي بدأ في التبلور في الألفية الثالثة وكان وليداً للثورة الرقمية في بعدها المعلوماتي، إذ أن أكبر شركة تعمل في مجال النقل في العالم وهي شركة »أوبر« لا تملك سيارة واحدة من الناحية العملية ولكنها تملك برنامج كمبيوتر وتعمل وفقاً لاحتياجات العميل، وتبعتها شركات أخرى مثل »كريم« وهناك شركات عقارية لا تملك أي عقار ولكنها بفضل ما تملكه من برنامج كمبيوتر أضحت واحدة من أكبر شركات الفنادق في العالم، مما جعل شركات السياحة تتحالف في إطار شركات عملاقة لمواجهة هذه التطورات وإلا واجهت المنافسين التقليديين: الضرائب والتغيير والموت.

في نفس هذا المجتمع الجديد نفاجأ أن ولاية كاليفورنيا الأمريكية تشرع أول قانون مرور في العالم للسيارات ذاتية القيادة لانتشارها غير المتوقع بالولاية قبل الموعد الذي كان محدداً لها على مستوى مختلف الولايات في أمريكا، وهذا يعني أن المجتمع يفرض احتياجاته التي عبر عنها المواطنون، وهذه التغييرات الواضحة وأمكن رصدها تخفي وراءها تغييرات اجتماعية أقوى فمثلاً ستختفي المعاملات المالية النقدية لأن أساس الاقتصاد ككل حتى على مستوى التجزئة سيتحول بالكامل إلى التعامل الائتماني بفضل البطاقات الذكية، وشركات التأمين ستخضع لإعادة هيكلة في ضوء تناقص دخلها من قطاعات التأمين على السيارات والعقارات لأن الملكية الشخصية للسيارات ستقل مع تزايد ملكية أوبر والشركات الشبيهة بها لأسطول النقل، والعقارات ستكون أكثر تأميناً في ضوء تطوير صناعات البناء وانتقالها إلى الصناعات الذكية المطبوعة بفضل انتشار الطابعات ثلاثية ورباعية الأبعاد، ولذا تشير بعض الدراسات المستقبلية إلى أن المجتمع الصناعي الذي كان سائدا في الاقتصاديات المتقدمة حتى السبعينات من القرن العشرين سيفقد قرابة مائتي مهنة ووظيفة مع مطلع الربع الثاني من القرن الحادي والعشرين وستتزايد الأهمية النسبية لبعض الوظائف في مقدمتها مبرمجو برامج الكمبيوتر، وستظهر وظائف جديدة تتسق واحتياجات المجتمع.

سفير د.عزمي خليفة

مستشار الدراسات المستقبلية

azmyhkhalifa@gmail.com

تفكيرنا ونمط حياتنا اختلف:

في هذا الإطار فإن عصر الثورة الرقمية الذي بدأ على استحياء منذ مطلع سبعينات القرن العشرين وأطلق عليه العلماء عصر ما بعد التصنيع أو عصر ما بعد الحداثة، انطلق مع بداية استخدام الانترنت في مطلع التسعينات، وتطور بصورة لافتة للنظر مع بدايات الألفية الثالثة قد نجح في أن يعبر عن نفسه بظهور وتطور ما سمي أولاً »بمجتمع المعلومات« ثم تطور إلى »مجتمع المعرفة« وهو المجتمع المشار إليه أعلاه، وهو نمط جديد من المجتمعات غير مسبوق في شكله وهياكل مؤسساته، وتفاعل الصراع السياسي بداخله، وأطراف هذا الصراع، ونتائجه، والتحولات الاجتماعية الناتجة عنه، وقيمه والإطار الفكري الذي يحكمه، ونمط السلطة المتولد عنه، ونمط انتشارها، ونمط الاقتصاد الذي يتعامل فيه، بل إن أسلوب تفكيرنا ونمط حياتنا قد اختلف وفقاً لمتطلبات هذا المجتمع، وهذا المجتمع هو محور هذا المقال، الذي أطرحه على نخبة تمثل كريمة المجتمع المصري التي تتاح لها فرصاً للمعرفة لا تتاح لغيرها بحكم تنقلاتهم في الخارج بين مجتمعات متباينة في درجة النمو ومن ثم يمكنهم تطوير هذه الأفكار مستقبلاً حذفاً وإضافة، بهدف تطوير المجتمع المصري بالدرجة الأولى.

أولاً: ظهور المجتمع الشبكي:

يصاحب أي تغيير تكنولوجي تغييراً

سياسياً وفكرياً في المجتمع الذي أخذ أشكالاً بدائية ووسيطة حتى صلح وستفاليا ثم أخذ شكل الدولة القومية حتى نهاية القرن العشرين حين اتضح أن المجتمع يخضع لتحولات مهمة أطلق عليها مجتمع ما بعد المصنع أو ما بعد الحداثة (المابعديات) مما سيغير من شكل المجتمع والدولة والنظام الدولي بالتالي إلى الشكل الشبكي والنظام العالمي الشبكي، وإن كان الصراع بين القديم (الدولة القومية ذات السلطات الثلاثة المستقلة) والجديد (الدولة الشبكية) سيظل قائماً لفترة قادمة إلا أن الجديد ينتصر في النهاية.

وعادة ما يأتي اكتشاف التغيير السياسي والفكري والاجتماعي بعد التطور العلمي، وهذا ما حدث مع الثورة العلمية الرقمية فقد تم رصد التغيير في المجتمع في السبعينات بفكرة المابعدية وكانت أهم الملامح الرئيسية:

1 - ظهور نمط جديد من الاحتجاج السياسي في أوروبا الغربية في منتصف السبعينات ترتب عليه التغييرات السياسية في اليونان والبرتغال وأسبانيا.

2 - تأكيد هذا النمط الجديد للاحتجاج السياسي في أوروبا الشرقية وفى الصين: (الميدان السماوى) وفى اجتياح حائط برلين 1989.

3 - تحولات السلطة في الاتحاد السوفيتي في الثمانينات وتزايد حركة الانشقاق السياسي وظهور جيل الأدباء الجدد وانهيار الاتحاد السوفيتي في النهاية وانفراط عقده.

4 - تطور الاقتصاد العالمي بشكل لم يكن متوقعاً نتيجة العولمة خلال آخر عقد بالقرن العشرين وأول عقد بالقرن الحادي والعشرين فزاد الناتج العالمي من 22 تريليون دولار عام 1990 إلى 53 تريليون دولار عام 2007 كما زادت قيمة التبادل التجاري خلال نفس الفترة بمعدل 133% وذلك بالرغم من زيادة عدد سكان العالم وثبات الموارد المتاحة.

5 - ظهور أساس جديد لتقسيم جديد لدول العالم بدلاً من التقسيمات الدارجة مثل الشرق والغرب، الدول النامية والدول المتقدمة، دول الشمال والجنوب..الخ.

6 - ظهور أنماط جديدة من القوة (القوة الناعمة والقوة الذكية والقوة السيبرية) نتيجة دخول المعلومة في مقومات القوة.

7 - ظهور نمط جديد من نظم الحكم السياسي نتيجة تغير نمط السلطة التقليدي: حاكم ومحكوم، ليصبح الحكم تشاركياً مستنداً إلى الديمقراطية التشاركية بدلاً من الديمقراطية النيابية المعروفة

وقد ثبت أن هذه التغييرات ترجع إلى ثورة علمية متكاملة ذات ثلاثة أبعاد هي ثورة المعلومات وثورة البيوتكنولوجي وثورة النانوتكنولوجي. وهذه أول مرة في التاريخ الإنسانى يتعرض فيها المجتمع لثلاث ثورات علمية متكاملة في وقت واحد، وبالرغم من أن هذه الثورات في ثلاثة مجالات علمية مختلفة إلا أنها ذات جذور واحدة تتمثل في الثورة الرقمية. ولذا فإنها ثورات مترابطة ومتكاملة في آن واحد، مما أدى إلى سرعة تبادل المعلومات بما ينذر بأن التغيير سيكون عميقاً وشاملاً وسريعاً. ويكفي أن نتذكر أن سرعة تبادل المعلومات خلال الحرب الأهلية الأمريكية عام 1865 كانت 30 كلمة في الدقيقة وكانت وسيلة الاتصال الرئيسية هي التلغراف، إلا أن هذا المعدل ارتفع إلى 192 ألف كلمة في الدقيقة خلال حرب الخليج عام 1991وذلك بفضل استخدام الكمبيوتر، ووصل عام 2010 إلى 5 ملايين كلمة في الدقيقة بفضل تطوير قدرات الكمبيوتر.

وحتى نربط التغيير التكنولوجي بصورة مباشرة بنمط تفكيرنا وتفاعلنا في المجتمع نتساءل ماذا تعنى دقيقة بالنسبة لتغيير العالم؟ خلال هذه الدقيقة يتم كتابة ما يلي على مواقع التواصل الاجتماعي على الانترنت:

80 ألف حالة من الأحوال status فى الفيس بوك.

20 ألف إيميل.

100 ألف تغريدة على تويتر.

250 صفحة جديدة على الشبكة العالمية للمعلومات.

500 دقيقة من التدفق الموسيقى.

تحميل 1 ميجا من الصور عالية الجودة.

تحميل من 2-5 ميجابايت من فيديوهات يوتيوب.

تحميل من 3- 4 ميجابايت من الألعاب والتطبيقات.

هذه التغييرات تعني ببساطة التفاعل الشديد بين البشر على مستوى العالم بغض النظر عن أماكن تواجدهم، وعن مستواهم الثقافي، وعن دياناتهم، وعن ناتج هذا التفاعل، وقد انعكس نمط التفاعل الاجتماعي على ثورات وسط أوروبا عام 1989 إذ أن ثورة بولندا استغرقت عشر سنوات، بينما ثورة المجر أخذت عشرة أشهر، وثورة ألمانيا الديمقراطية أخذت عشرة أسابيع، بينما ثورة تشيكوسلوفاكيا أخذت عشرة أيام وثورة رومانيا لم تأخذ سوى عشر ساعات ويرجع هذا التفاوت أساساً إلى سرعة تداول المعلومات وتجنب أخطاء الثورات السابقة، فكلما كان التفاعل في تبادل المعلومات أعلى كلما كان التغيير المجتمعي في معناه الواسع أسرع بالرغم من وقوع هذه الثورات في مرحلة متزامنة.

ثانياً: ظهور مجتمع المعرفة:

ظهر مجتمع المعرفة كنتيجة منطقية على الثورة الرقمية وتطورها وخاصة في محتواها المعلوماتي، ومن ثم تجسدت ثورة المعلومات فى الواقع الافتراضى الذى فرض سرعة تبادل المعلومات، وهذا الواقع الافتراضى يتكامل مع المكون المادى لهذه الثورة العلمية باعتباره عالماً يتكون من الجزيئات الإلكترونية وتحكمه قوانين خاصة به تتنافى مع قوانين علم الفيزياء التقليدية، ومتخطية لحدود الواقع المادى كما عهدناه قبل ظهور نظرية الكوانتوم مما أدى إلى إمكانية تحقيق ما كان مستحيلاً لتسقط بذلك الحاجز بين الممكن والمستحيل.

ففى الثمانينات تطور الواقع الافتراضى بفضل تعاون وتفاعل القوات المسلحة الأمريكية وناسا والمؤسسة العلمية الأوروبية نتيجة تطويرهم نظام حاسب

آلى تفاعـــلى يولد صوراً ثلاثيـــة الأبعاد ومحاكاة لحرب بالشرق الأوســـط تحدد دور الطيران فيها وهـــو المشروع الذي قامت به مؤسسة راند من قبل. وقد غيّر هذا الواقع الافـــتراضي مختلف المكونات الاقتصادية والسياسية والثقافية والقيمية أي غيّر المجتمع بصورة جذرية كاشـــفاً أن الأساس في التغيير هو السعي لتغيير المعادلة الاقتصادية بين النمو الســـكاني وثبات الموارد وتدهـــور البيئة، فقد ثبت أن التكنولوجيا هـــى حلقة الوصل بين المؤسســـات الاقتصادية المختلفة، ونقل وتوثيق المعلومات التى تهتم بحركة رأس المال والاستثمار وبالتالى فالمعرفة مكون أســـاسى من عناصر الإنتـــاج إلى جانب رأس المال والعمـــل والأرض و(التنظيم) كما ثبت أن اقتصاديـــات المعرفة عامل حاســـم فى تراكم الثروة كما تمت إعادة هيكلة السوق الاقتصادى ووجود شبكات للمبدعين لتطوير الإنتاج (وهي التجربة التي قادتها شركة بروكتور آند جامبل) وأجمع العلماء على أن الوحدة الرئيســـية لهذا المجتمع هى الشـــبكة، وأن السمة الرئيســـية لهذا المجتمع هى التشـــبيك والتفاعل، ومن ثـــم فالعولمة مجرد أداة لتغيير المجتمع.

فكما كان المجتمـــع الصناعى تعبيراً عن الرأسمالية من خلال ابتكار فكرة السوق الذى أصبح مجـــالاً للمعاملات التجارية والتفاعـــلات الاقتصادية بنـــاء على آلية العرض والطلب كما طرحها كارل بولانى فى مؤلفه التحـــول العظيم، فإن مجتمع المعلومات أيضاً هو شكل جديد من أشكال الرأســـمالية وهى رأسمالية كونية وأكثر مرونة من سابقتها، فإذا كان التفاعل بين العرض والطلب هو أســـاس ديناميكية وتحولات المجتمع الصناعى فإن مجتمع المعلومـــات يكتســـب ديناميكيتـــه من التفاعل بين ثنائية الشـــبكة والذات لأن الرأســـمالية فى طورهـــا العولمى الحالي تواجه قوى اجتماعية تتحداها تتمثل فى تشكيلة واسعة من الحركات الاجتماعية تدافع عـــن الخصوصية الثقافية، وقدرة البشر على صناعة مستقبلهم بل والتحكم فيه، وفى حماية البيئة التى يعيشـــون في إطارها.

ويقصد بالشبكة نمط جديد من الأشكال التنظيمية للمجتمع المعاصر تتكون على أساس طوعى نتيجة الاستخدام الواسع لوسائل الاتصال التفاعلية التي طرحتها ثورة المعلومـــات (الكمبيوتر والإنترنت)، ومعنـــى ذلـــك أنـــه إذا كان الـــصراع الاجتماعي في المجتمـــع الصناعي يدور بين مصالح ماديـــة طبقية مختلفة فإنه في مجتمع المعرفة يدور حول الأنشـــطة الفكرية الثقافية التى يحاول فيها البشر تأكيد هويتهم فى ظل انتشـــار اللا يقين العلمي وعدم الاستقرار السياسي والتغير الاجتماعـــي الاقتصـــادي الهيكلى الحاد والعميق للأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فتصوغها فى شـــكل شبكات ديناميكية، ومن ثـــم تصبح الهوية هى عملية بناء المعنى استناداً إلى سمة ثقافية أو مجموعة ســـمات ثقافيـــة تكون لها الأولوية بالنسبة لمصادر المعنى الأخرى، وتصبح أنماط الهوية ثلاثة:

أ- هويـــة إضفـــاء الشرعية، وهى هوية المؤسسات المســـيطرة بالفعل فى المجتمع لكى تدعم ســـيطرتها على باقى الفاعلين الاجتماعيين ولكى تعطى معنى عقلانى لهذه الســـيطرة تسعى لنشره من خلال الخطاب السياسي للسلطة.

ب- هوية المقاومة، وهى هوية الجماعات التى تشعر أنها مستبعدة من المشاركة فى التعبير عن نفسها بحكم منطق الهيمنة الذي تفرضه مؤسســـات إضفاء الهوية التي هي مؤسسات الوضع القائم بالفعل، وهـــى هوية عادة ما تـــؤدى إلى صياغة مجتمعات محلية داخل الدولة تتناســـب مع ظروف القهر الذى يخضعون له.

ج- هوية المشروع المستقبلى، وهى الهوية التـــى تتمتع بها الحـــركات الاجتماعية الجديدة بغض النظر عن مســـمياتها، والتى تسعى إلى التغيير الشامل للمجتمع ومثالها جماعات الإســـلام السياسى التى تسعى للقضاء على الدولة المدنية وإقامة دولة دينيـــة، أو الحـــركات الاجتماعية الشـــبابية التي تستهدف دعم الدولة مع إقامة دولة ديمقراطية تشاركية تستوعب التنوعات الاجتماعية الثقافية المتعايشة في الدولة.

والنتيجة أن كل عمليـــة لبناء الهوية فى المجتمع ســـتؤدى إلى نتـــاج مختلف فى الدولة بمعنى أن بناء هوية دينية متشددة مثلا لابد وأن تـــؤدى إلى نظم اجتماعية ومؤسسات سياســـية مرتبطة بها، بينما إقامـــة هوية مدنية محلية ســـتؤدي إلى ظهور مؤسسات محلية. ومن ثم لا يمكن فصل التنمية السياســـية عـــن التطور التكنولوجـــى، أو لا يمكن فصل علاقات الإنتاج عن قوى الإنتاج أي لا يمكن فصل الإطار الثقافي عـــن الإطار المادي للعملية الإنتاجية. وعليه فمجتمع المعرفة يختلف عن جميع صور المجتمعات السابقة عليه وحتى عن المجتمـــع الصناعى وكلاهما

ينتمى للرأسمالية والتطور الصناعى.
ت فالتطـــور التكنولوجى الـــذى أثمر مجتمع المعرفة مختلف عما ســـبقه من ثورات علمية فيما يلى:
أ-الثورة العلمية فيما ســـبق كانت تقوم على اختراع: اكتشـــاف الكهرباء أو الآلة البخارية أما الثـــورة العلمية الآن فتقوم على ثلاث ثورات فى ثلاثة ميادين مختلفة فى العلم :الفيزياء والأحياء والرياضيات.
ب- العنصر الأساسى فى التطوير العلمى اليوم هو المســـتخدم واحتياجاته وليس الصانع والرغبة فى الربح.
ج- فى المجتمعات الســـابقة كانت القيم المسيطرة هى القيم المادية زيادة الربح- أما اليـــوم فالقيم المســـيطرة هى القيم الفكرية غير المادية (المســـاواة والعدالة الاجتماعيـــة والحريـــة وتحقيق الذات) وهـــدف المخترع تحقيق الـــذات وإفادة البشرية وزيادة تفاعلهم.
د- المجتمعات السابقة كان الاختراع يأتي أولاً ثم يتغير المجتمع أما اليوم فالمجتمع يتطور ويفـــرض احتياجاتـــه العلمية ويناقشها مقدماً، ويتم تطوير المنتج بناء على الاحتياج وهنا نلاحظ أن المســـتخدم جزء في حقيقـــة الأمر من عملية التطوير العلمـــي من خلال مرحلـــة الإبداع التي تعني تطبيـــق التكنولوجيا في المجتمع، ومن ثم تصبح عملية التفاعل في المجتمع ثلاثية بين العلم والتكنولوجيا والمجتمع.
ت إسقاط الحواجز الزمنية والجغرافية والسياسية:
بناء على ذلك فقد تبلورت أولاً أنشـــطة اقتصادية وسياسية واجتماعية أثرت على تركيبة المجتمع وأسقطت كافة الحواجز من خلال أجهـــزة الكمبيوتر منذ مطلع الثمانينـــات واســـتندت إلى الجمع بين الكمبيوتر والاتصالات أساســـاً مما أدى إلى إســـقاط الحواجز بين العلوم البحتة والعلوم الإنسانية أولاً، كما أدى لإسقاط الحواجز الزمنية والجغرافية والسياسية ثانيا، مما أدى لموت الزمن والمسافة وتآكل السيادة، وأدى ثالثاً إلى إسقاط الحواجز بين الإنســـان والآلة وهو مـــا يعبر عنه بالمرحلة ما بعد الإنسانية.

هذه التطورات أدت إلى ظهور نمط جديد للتنمية هو النمط المعلوماتى للتنمية وهو نمط يجمع بين الخصوصية والعمومية، بين المحليـــة والعالمية، فهـــو نمط قائم على المرونة والتكامل والانتشار، فلم يعد امتدادا للاقتصاد الســـابق عليه، كما أن التكنولوجيا لم تعد امتداداً لما ســـبقها، ويستند أساســـاً إلى تعبئة موارد عالمية لحل مشـــكلات محلية، ويقصد بالموارد هنا الموارد المادية من استثمارات أجنبية، وخبرات فنية، ومـــواد خام. وهذا النمط من التطور الاقتصـــادي لم يعد مرتبطاً بســـوق محلى فقط، وإنما بسوق عالمى أى أن الإنتاج المحلى أضحى إنتاجاً عابراً للقوميات سواء فى تمويله أو تصنيعه أو تسويقه أو تنظيمه، ومن هنا ظهرت فكرة سلاسل الإمداد أو الإنتاج وإدارة سلاسل الإنتاج العالمية التى اســـتهدفت أساساً توفـــير الوقت والمـــكان اللذين يترجمان في النهايـــة إلى توفير أمـــوال في العملية الإنتاجية، وهذا التغيير يعنى أن الأنشطة الاقتصاديـــة فى مجتمع المعرفة أصبحت أنشـــطة عالمية عابرة للـــدول ولكنها فى الوقت نفســـه تعمل كوحدة اقتصادية واحدة تعمل فى الوقـــت الحقيقى، ومن ثم فمجتمع المعلومات أو مجتمع المعرفة أو المجتمع الشـــبكى ما هـــو إلا مجتمع تدفق فيه المعلومات والســـلع والخدمات والبشر والأمـــوال، وفقـــاً للاحتياجات الطبيعية، وسرعـــة التدفق تحدد طبيعة المجتمـــع، ومن ثم اكتســـب المجتمع في مختلف دول العالم بعـــداً دولياً جديداً عليه، فلـــم يعد المجتمع ظاهرة محلية في عصر الإنترنت، ولكنه في قيمه، وتنظيمه، وأهدافه، وصراعـــه، وتنميته، وديناميته مجتمع عالمـــي يأخذ من العالم ويضيف إليه، وهـــذه العالمية باعتبارها قائمة على هذه التدفقات المختلفة هى المحددة للقوة والعلاقة بينهما طردية فكلما زادت درجة التدفـــق في المجتمع، كلمـــا كان المجتمع أقوى والعكس صحيـــح، ومن ثم يمكن القول إن التدفقـــات هى المحدد الرئيسى للقوة ونوعيتها ومن هنا أضحت المعلومة مكوناً رئيسياً من مكونات القوة والسلطة

في آن واحد إلى جانب العنف والثروة.
ثالثاً: خصائص مجتمع المعرفة:
إذن بناء على ما تقدم تصبح عملية إنتاج المعرفة (تفاعل البيانـــات والمعلومات) هى العملية الحاســـمة في تطور المجتمع وهدفهـــا ليـــس مجرد إقامـــة مجتمع المعلومات أو المعرفة فقط أي أنها ليست مجرد عمليـــة تنظيميـــة، ولكن هدفها إنتاج المعرفة وتداولها وتطويرها كعملية مســـتمرة وهو ما يؤدي لظهور مجتمع المعرفة كنتيجة أولا وتطوره ثانياً.
وحتى لا نخلط بين مجتمع المعرفة وغيره من المجتمعـــات يمكن تحديد خصائص هذا المجتمع فيما يلي:
-1 إنه مجتمع شـــبكي تشاركى، بمعنى أن الشبكات هي أساس قيام وتنظيم هذا المجتمع، ومن ثم فالعقد المكونة للشبكة ترجع أهميتها لدورها في تفاعل الشبكة التـــي يمكنها أن تقصي بعـــض العقد أو تضيف البعض الآخـــر وفقاً لاحتياج الشبكة نفسها، وبرنامج عملها وما يشمله مـــن قيم وأفكار، كما أنـــه ثانياً مجتمع تشاركي على أساس أن جميع المعلومات لا تنضب ولا تستهلك وإنما تتفاعل فيما بينها لتنتج معرفة نتيجة ســـيادة نسق تفكيري مفتوح يرفض احتكار المعرفة، وهو تشاركي ثالثاً على أساس قيامه على سلطة تشـــاركية بين الحكومة والمجتمع المدني الذي يتولى مراقبة إنفاق المؤسسات الحكومية للميزانية وفقاً للبنود المخصصة لها بالفعل ومشاركة الحكومة للحكم من خلال تمثيـــل منظمات المجتمع المدني في المؤسســـة التمثيلية كما هو الحال الآن في فرنسا وبريطانيا ودول الشمال والولايات المتحدة وحوالي أكثر من 30 دولة أخرى بنِسَب متفاوتة.
-2 هـــو مجتمـــع مرن لأنـــه يقوم على اســـتبعاد دائم للمعلومات غير المؤكدة، وإضافة أي معلومـــات مؤكدة، وطرح سيناريوهات متعددة للتحول الاجتماعي والسياسي، فالتعامل مع المعلومة يتطلب إخضاعها للحوكمة لأن كـــم المعلومات المتدفق على الإنترنـــت كبير جداً ويحتاج إلى التعرف ليس على مدى صحة المعلومة

فقط أولاً، وإنما أيضاً التعرف على الهدف من نشر المعلومة ثانياً بافتراض صحتها لأن هناك معلومات تطلق بهدف جذب الانتباه بعيداً عن معلومة أو موضوع آخر، وهنا أذكر الجميع بنشر نبأ قبيل حرب أكتوبر بفتح باب العمرة للجنود في الجيش المصري فرغم صحة المعلومة إلا أن نشره في الصحف القومية استهدف جذب انتباه إسرائيل بعيداً عن الحرب وهو ما حدث، بل إن بث مسلسل مثل رأفت الهجان استهدف تعميق الانقسام بين الأحزاب الإسرائيلية وإضعاف الثقة في الذات الإسرائيلية في توقيت محدد أي الهدف منه تحقيق أهداف سياسية معينة في المجتمع الإسرائيلي، وذلك بالإضافة إلى احتمالات بث معلومات كاذبة من أساسها ثالثاً، أو معلومات بها جزء صحيح وآخر خاطئ رابعاً لتحقيق أهداف سياسية مطلوبة من وراء هذا البث.

-3 أن هذا المجتمع يستند إلى الإنتاج الفكرى الذهني وليس المادى للقيم، وهذه القيم تعكس في مجملها نمطين من القيم أو التحولات الفكرية في المجتمع، الأول تحولات من القيم التقليدية المستمدة من الدين وتطبيقاتها الحرفية أو النصية في الحياة مثل التواكل والتمسك بالشكل مثل التعبير عن كافة مظاهر التدين مثل إطلاق اللحى وكتابة شعارات دينية على السيارات والحديث عن الزِّي الإسلامي وإجبار الناس على أداء الصلاة والطاعة العمياء للسلطة الدينية والنظر للزواج على أنه مؤسسة اجتماعية وسيادة علاقات الأبوة والعلاقات المحافظة المتشددة، والشعور القوي بالأبعاد القومية والتاريخية للدولة والعيش في ماضيها، إلى القيم العلمانية الرشيدة التي تشمل قيماً وأفكاراً على النقيض مما تقدم، والقيم التي تعكس الاختيارات الإنسانية مثل الحرية والعدالة الاجتماعية والتعبير عن الذات ولذا تعتبر قيم مثل الإجهاض والطلاق والانتحار قيماً مقبولة في هذا المجتمع. والنمط الثاني من تحولات المجتمع تشمل التحول من القيم الخاصة بالبقاء والحفاظ على الوضع الراهن مثل التركيز على الناتج المادي للاقتصاد كالربح والسيارة والسكن والمكانة الاجتماعية وتحقيق كافة أبعاد الأمن المادي للإنسان بما في ذلك توافر درجة دنيا من الثقة والتسامح مع الآخر وإلى قيم التعبير عن الذات مثل حماية البيئة، والتسامح مع الآخر وقبوله، وسيادة قيم التساوي بين الجنسين، والتسامح تجاه الأجانب وسلوكياتهم، وقبول قيم المطالب المتزايدة للمشاركة في صناعة القرار السياسي، والمشاركة في مناقشة قضايا الشأن العام سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

الانتقال من قيم البقاء إلى قيم التعبير عن الذات:

وفي هذا الإطار لابد من الإشارة إلى أن المضمون الاجتماعي لمجمل هذه القيم هو مضمون غربي، لا تتقبله المجتمعات العربية والإسلامية مثل الانتحار والإجهاض والعلاقة الجنسية والشذوذ فينبغي التأكيد على أن هذه القيم ليست صفقة متكاملة إما تقبل بكافة مشتملاتها أو ترفض بالكامل. فالمؤامرة الدينية والاجتماعية مطلوبة وفقاً لقيم الاعتراف بالآخر ولكن المؤكد أن الانتقال من قيم البقاء إلى قيم التعبير عن الذات كلما كان ذلك أفضل لإشباع احتياجات المواطن الفكرية وتطلعاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكلما انتقلنا من القيم التقليدية إلى العلمانية كلما كان ذلك أفضل لإشباع احتياجاته الحداثية، ومن ثم تتزايد الأهمية النسبية لكل من يعمل في خدمات الكمبيوتر، مثل الصيانة والبرمجة، لأن هذه القيم لا تبث عبر وسائل الاتصال التقليدية فقط، ولكن تبث عبر وسائل الاتصال الاجتماعية وشبكات التواصل الاجتماعي، فالفيس بوك يشجع على نشر قيم التعبيرعن الذات، بينما تويتر يشجع على قيم الإنجاز والدقة والسرعة، وتفاعل هذين المحورين للقيم معاً يعكس الانتقال إلى القيم الذهنية

المتعلقة بالإنسانية وحقوق الإنسان، والكرامة الاجتماعية، وحماية البيئة، والمحافظة على المناخ، والديمقراطية التشاركية، والعدالة الاجتماعية، وهي قيم مجتمع المعرفة ذى التنظيم الشبكي.

-4 المعلومة مصدر القوة فى المجتمع الشبكى للمعرفة، فالمعرفة أصبحت مكوناً أساسياً من مكونات السلطة والقوة في الدولة الشبكية، إلى جانب المكونين التقليديين وهما العنف ممثل في الجيوش النظامية للدول والثروة ممثلة في الاقتصاد والثروات السائلة والعقارية ومختلف عناصر الإنتاج من أرض وعمل وتنظيم ورأس مال، وهذا يعني أن هيكل السلطة في مجتمع المعرفة ثلاثي الأبعاد: معرفة، وقوة، واقتصاد أي أن المعرفة أضيفت إلى سيف المعز وذهبه وبالتالي فالسلطة هنا متوازنة يمكنها تحقيق أهدافها.

إضافة لذلك فإن مرونة المعرفة ورخص ثمن المعلومات والبيانات والتشارك فيها وسرعة توليد المزيد من المعلومات المستحدثة، جعلها أهم مكون من مكونات السلطة على الإطلاق فالعنف لم يختف كوسيلة لتكوين الثروة، ولكن طالما أن المال أصبح الحافز الجديد لقوة العمل والسيطرة الاجتماعية فإن علاقات السلطة في الدولة قد اختلفت على مدار القرون الثلاثة الأخيرة. وإذاً رغم كل الحديث عن القيم الذهنية إلا

أن تغير وظيفة وشكل العنف في الدولة فقد أصبح تراكم الثروة هاجساً قوياً في نهاية العصر الصناعي التقليدي وكان دخول المعلومة إلى مقومات السلطة إيذاناً بتغيير العلاقة بين المقومات الثلاثة بحيث أصبحت المعلومة في المقدمة لإنتاج الثروة مما طور أساليب النشر إلى النشر اللحظي مما أدى إلى تحولات واسعة في طرق الإنتاج وتزايدت الحاجة إلى عمالة معرفية وليست عمالة صناعية، وظهر الصراع في المجتمع بين هذين النوعين من العمالة أي عمالة تعتمد على الشبكة ترتبط بنظم الإنتاج المعرفية والمعارضين لها من عمالة صناعية تدافع عن نمط الإنتاج الكبير وخطوط الإنتاج ولذا اعتبر كاستلز أن هذا الصراع أساساً بين الذات والشبكة مما أدى لظهور أنماط جديدة من الاقتصاد مثل الاقتصاد الذكي أى الاقتصاد الناعم القائم على انتشار سلاسل الإنتاج وحيث تنشر عمليات إنتاجه وتمويله وتسويقه عبر العالم أجمع وحيث يستند الإنتاج فيه إلى المعرفة وليس إلى قوة العمل.

6- تعدد مراكز صنع القرار على أسس تشاركية بمعنى أن تنظيم سلطات الدولة يقوم على تعدد مراكز اتخاذ القرار وتعدد مستوياتها لأن القرار يتخذ عبر شبكات مؤثرة في جميع مستويات المجتمع، شبكات تمثل السلطات الثلاثة وتنفيذيين ومفكرين ومثقفين ومؤسسات مجتمع مدني، فالسلطة في مجتمع المعرفة تنتشر انتشاراً واسعاً.

7- مجتمع تفاعلى بصورة مختلفة عن التفاعل في المجتمع الصناعي لأنه لا يمكن اتخاذ القرار إلا عبر الشبكات، وفي ظل تدفق سريع للمعلومات، وبأدوات اتصال سريعة جداً هي الحاسب الآلي الذي أسقط الحواجز الزمنية والجغرافية والسياسية وأسهم بصورة مباشرة في إسقاط الحواجز بين العلوم البحتة والعلوم الاجتماعية وبين الإنسان والآلة وتطوير الذكاء الاصطناعي. فالتفاعل في هذا المجتمع له منطقه الخاص في ظل كونه تفاعلاً لحظياً وفي ظل موت الزمن وموت المسافة مما يؤكد قيام الأنساق الفكرية المفتوحة وتعدد سيناريوهات حل المشكلات، وبناء النماذج اللازمة للتعرف على مختلف أبعاد هذه المشكلات وفقاً لأساليب ومناهج التحليل اللاخطية مثل نظرية الفوضى والتحليل الشبكي وبناء السيناريوهات والتفكير خارج الصندوق.

تحديات عديدة أمام الدولة القومية:

والخلاصة الرئيسية هنا أن تحولات المفاهيم الرئيسية للعلوم الاجتماعية وعلاقات السلطة، والسلطة نفسها وإعادة هيكلتها، والقوة وتحولاتها وعلاقة الدولة حول تنظيم المجتمع، وتفاعلاته، وإكسابه الهوية، والصراع الاجتماعي وأطرافه وآلياته بالمجتمع، ودور المواطن كانت ناتج علاقة تفاعل ثلاثية الأبعاد هي العلم ممثلاً في الثورة الرقمية، وتطبيقاته المختلفة أي التكنولوجيا وأخيراً المجتمع، فقد تعرض المجتمع والدولة لتغييرات على المستوى الكلي نتيجة استخدام الإنترنت، أي تغييرات في السلطة وهيكلها وعلاقات القوة التي تشكلها، كما أن بعض تطبيقات الإنترنت ساهمت في إحداث تغييرات على المستوى الجزئي للدولة والمجتمع مثل الوظائف، أو مفهوم الامتداد الإقليمي للدولة، أو إعادة تعريف المجتمع الخاضع للدولة، وعالمية المجتمع وذلك إضافة إلى تأثر القيم والأفكار والمبادئ الاجتماعية السائدة للتغيير نحو القيم الذهنية غير المادية الدافعة للتطور السياسي.

وختاماً:

فإن ظهور مجتمع المعرفة على النحو السابق وانتشار الشبكات التي تمثل وحدة هذا المجتمع على النحو السابق يطرح تحديات عديدة على الدولة القومية، فالمجتمع بوصفه أحد المكونات الرئيسية لهذه الدولة قد تغير شكلاً وموضوعًا، والتغيير تم في نفس وقت تغيير مفهوم الدولة القومية نفسها كلياً وجزئياً، والأخطر أن القيم الثقافية قد تغيرت وغيرت معها من أنماط الحياة وأسلوب تفكيرنا، وهو ما أدى إلى ارتباك الدولة نتيجة ظهور تحديات جديدة لم تكن موضع عنايتنا، وحتى لا نبدأ بجلد الذات هذه التغييرات شملت كل دول العالم بدون استثناء، ولكن غاية ما في الأمر أن هناك دولاً حقق المجتمع المدني فيها استقلالاً وتطوراً سمح له القيام بدوره لمساعدة الدولة في الحكم فاستطاع استيعاب التغييرات المجتمعية حتى إن دولة مثل فرنسا استقبلت رئيساً من خارج الأحزاب ومن داخل مؤسسات هذا المجتمع، وأصبحت مواجهة هذه التغييرات ضرورة لا غنى عنها من خلال تحول مؤسسات الدولة ذاتها وسلطاتها للشكل الشبكي، خاصة وأن جميع مؤسسات النظام العالمي الجديد تقوم على الشكل الشبكي، إلا أن هذه التحولات قد لا يكون مرغوبا فيها في ظل نظم الحكم الملكية والحكم الفردي، لأن معنى ذلك تحول جزء من السلطة التي تتمتع بها الحكومات في هذه النظم إلى شبكات المجتمع المدني، وهو ما ترفضه هذه الحكومات، والغريب أن هذه التحولات ستتم بصورة حتمية وعشوائية نتيجة استخدام الدولة لتكنولوجيا المعلومات ووسائل الاتصال الحديثة القائمة على استخدام الإنترنت، مما يستدعي التعرف على سبل امتصاص صدمة المستقبل الذي أضحى واقعاً ولعل هذا قد يكون مقالاً مستقلاً.

نظرة على عالم التكنولوجيا الحديث

لقد أصبحت محادثات التواصل الاجتماعى مصدراً مهماً لمعرفة المعلومات الشخصية والتوجهات الفكرية ووسيلة رقابة على كل المستخدمين، حيث تعتمد مؤسسات وحكومات وشركات ومراكز بحثية متنوعة على هذه البيانات المتاحة وتخزينها وتحليلها بعمق كبير ومن ثم تقوم بتوجيهها بطرق مختلفة تخدم أغراض المؤسسة التى تستفيد من هذه البيانات والمعلومات.

أ.د. نوح صبرى المتولى

nouh.sabri@gmail.com

الأستاذ بكلية الحاسبات والمعلومات – جامعة القاهرة

لذلك فإن وسائل التواصل الاجتماعى أصبحت الصورة المرئية والمعبرة لما يدور بعقول المستخدمين من أفكار ومعتقدات وتوجهات وآراء وانطباعات شخصية لملايين المتسخدمين فى العالم كله فى زمن واحد.

سنتحدث فى هذا المقال عن بعض المفاهيم المهمة فى عالم تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات المتنوعة والمتجددة بشكل يومى فى حياتنا المعاصرة. وسيتطرق حديثنا أيضاً عن بعض التخوفات والمحاذير والاحتياطات الواجبة لمستخدمى هذه التكنولوجيا، وبالأخص حجم المعلومات الشخصية التى تحتوى على معلومات سلوكية واعتقادات وتوجهات ثقافية خاصة بالشخص المستخدم لهذه التكنولوجيا ومدى تعرض هذه البيانات والمعلومات الشخصية للاختراق أو الاطلاع عليها أو استغلالها والاستفادة بها دون علمه. وغالبا ما يتم بيع هذه المعلومات الشخصية لشركات تجارية لها أغراض تسويقية لمنتجاتها، أو تباع هذه المعلومات إلى مؤسسات دولية مهتمة بمعرفة بعض البيانات عن سلوك وتوجهات الأفراد بشكل عام على مستويات مختلفة.

عصر الإنترنت والاتصالات

يشهد عصر الإنترنت تطوراً كبيراً فى سهولة عملية الاتصال والتواصل لتوفر أجهزة المحمول - سواء ما كان منها من أجهزة اتصالات ومحادثات- وأجهزة الكمبيوتر لمعالجة البيانات الصوتية والمرئية والتواصل مع الآخرين بكفاءة وسرعة عالية؛ تتم هذه الاتصالات بشكل سلكى أو لاسلكى لتسهيل عملية الاتصال بشبكة الانترنت بطرق مختلفة ومتنوعة مما ينتج عن ذلك توفر كم كبير وهائل من المعلومات والبيانات الضخمة والعملاقة فى الثانية الواحدة. فعلى سبيل المثال فإنه تقدر عمليات البحث اليومية التى تتم على موقع بحث جوجل حوالى خمسة مليارات عملية وفى زيادة مستمرة.

ويعد البحث والتنقيب عن معلومة فى الإنترنت واحداً من أنشطة الاتصال والتواصل فى عالم الانترنت كالمحادثات الصوتية والتعليم والتعلم والبيع والشراء، التى تتم باستخدام تطبيقات وبرامج مميزة ذات كفاءة وشهرة كبيرة عالمية فى تقديم الخدمات على مستوى كبير من الجودة والإتقان مما يحظى ذلك على رضا وسعادة مستخدمى هذه التكنولوجيا الحديثة.

ومن المعلوم أن عدد مستخدمى (الفيس بوك) هو مليار مستخدم وعدد مستخدمى (تويتر) هو نصف مليار، يشارك كل واحد من هؤلاء المستخدمين بملف كامل وتقرير مفصل لحظى ووقتى عن كل شئ يقوم به بالإضافة إلى معلوماته الشخصية والفكرية والأنشطة المختلفة التى يمارسها كل هذا موثق نصيا أو بالصوت والصورة والفيديو.

عالم المحمول – البداية والتطور

بدأ ظهور تكنولوجيا الموبايل أو المحمول أو الجوال فى ثمانينات القرن الماضى فى الدول

الإسكندنافية وبدأ يتطور ببطء فى الولايات المتحدة الأمريكية من عام 1983 حتى ظهر ما يسمى بثورة الاتصالات الآن مؤخرا والمشهود بها فى كل أنحاء العالم حيث بلغ عدد الموبايلات المتاحة (7 مليارات) أى ما يعادل محمول لكل شخص، والزيادة مستمرة نظراً لامتلاك كل إنسان الآن محمولاً أو أكثر لتعدد الاستخدامات والأغراض والرفاهية.

لقد خلقت هذه الأجهزة المحمولة عالماً متقارباً اختصرت فيه المسافات بشكل كبير، مما ساعد جميع المستخدمين من أنحاء العالم على التقارب والتواصل والتعارف والمشاركات الاجتماعية والإنسانية والعلمية بشكل سريع وفعال. حتى أصبح العالم كله فى قبضة يد واحدة من خلال جهاز بسيط خفيف الوزن يستطيع كل واحد أن يحمله ويتصفح من خلاله كل أنواع المعارف والمعلومات المتاحة على شبكة الإنترنت ويشارك برأيه ويضيف تعليقات وآراء شخصية على كل مقالة أو موضوع فى أى مجال من مجالات العلم والمعرفة؛ وبذلك أصبح صوته مسموعا وكلمته لها وجود فى أى وقت وفى أى مكان. ومن ثم فإن مسئولية أصحاب المشاركات والمعلومات فى هذه المواقع كبيرة جدا تقع على عاتقهم من خلال تحرى الصدق والحقيقة فى كل جوانب المعرفة والمعلومات التى يتبادلونها ويتواصلون بها.

البيانات الشخصية تحت المراقبة

إن تكنولوجيا الاتصالات اللاسلكية والمتمثلة فى صورة شبكات المحمول أو الجوال هى أداة محركة وفعالة ومؤثرة فى عالم التجارة الإلكترونية والتعليم وغيرها من التطبيقات المهمة فى حياتنا اليومية.

ويعد استخدام المحمول واحداً من أهم وسائل المراقبة على المستخدمين من خلال معرفة وتتبع أماكن تواجدهم ومن يتواصلون معهم فى أى وقت. وهذه التكنولوجيا قائمة فى أساسها على تعقب ومعرفة وتتبع المتصلين من خلالها من أجل الحفاظ عليهم وعلى وجودهم فى أماكن مجهولة.

ويتجلى هذا الأمر بوضوح من خلال استغلال شبكات التواصل الاجتماعى مثل شبكة (الفيس بوك وتويتر) والقائمة على تكنولوجيا المحمول ووسائل الاتصال اللاسلكى من حيث إنها فى الأصل هى شبكات تواصل قائمة على تجميع بيانات المستخدمين ومعلومات دقيقة عنهم بشكل تفصيلى والاستفادة من هذه البيانات لبيعها لمن يحتاجها من شركات الدعاية والإعلانات وصناع السينما العالمية وغيرها من الجهات المهتمة بتحليل بيانات المستخدمين والاطلاع على توجهاتهم ومعرفة أفكارهم. وهذا باختصار ثمن مجانية استخدام هذه التكنولوجيا مقابل اختراق الخصوصية والتصنت واستغلال المعلومات والبيانات التى يتواصل بها المستخدمون فى صفحاتهم الخاصة على هذه المواقع.

وهناك بعض الحقائق المهمة عن حجم المعلومات التى تطلع عليها وسائل التواصل الاجتماعى الأكثر شهرة، مثل الفيس بوك وتويتر؛ حيث يقوم موقع فيس بوك وغيره يوميا بجمع كمية بيانات تقدر بواحد (بيتا بايت) وهو حجم كبير وضخم من المعلومات؛ كل ما تقوم به هذه المواقع هو فقط تجميع البيانات وبيعها واستغلالها لأغراض تخدم شركات الإعلانات

والدعاية من خلال الاطلاع ومعرفة أذواق واحتياجات المستخدمين وآرائهم وانطباعاتهم عن بعض المنتجات ومدى جودتها وكفاءتها، مما يساهم هذا فى زيادة حجم المبيعات والأرباح للشركات المنتجة. وكل هذا يتم من خلال الاستفادة بالمعلومات والبيانات التى تبيعها وتستغلها شبكات التواصل الاجتماعى بجهل من مستخدميها أو باستسلام كامل لهذه المواقع ومساعدتها مجانيا بنشر هذه المعلومات والبيانات دون احتياط وبحسن نية فى أحيان كثيرة.

ولا يخفى علينا أن مثل هذه الإعلانات المعروضة على وسائل التواصل الاجتماعى والمقدر قيمتها بملايين الدولارات، قد تكون قائمة على الاستغلال لعقلية ومستوى ثقافة مشاهدى هذه الإعلانات على هذه المواقع وقد تكون الإعلانات موجهة ومؤثرة بقدر كبير حيث إنها تكون معروضة بشكل جذاب وفعال ومرح مما يساعد ويؤثر على اختيار المستخدمين لهذه المنتجات وترويجها وشرائها أيضا.

إن الحقيقة الدفينة فى وجود هذه المؤسسات العملاقة الكبيرة القائمة على كم وحجم البيانات والمعلومات الشخصية المتداولة بيسر وسهولة من المستخدمين، تكمن فى تحقيق أرباح هائلة وباهظة من خلال الاستفادة بهذه البيانات وبيعها، ومعرفة خصوصيات وأفكار الأشخاص المتواصلين على هذه المواقع؛ ولذلك نجد أن رأس مال هذه المؤسسات هو الحصول على هذه البيانات والإنفاق على تكنولوجيا التحليل والتنقيب فى هذا الكم الهائل من البيانات على مستوى العالم للحصول على المعلومة المفيدة بكل صورها وأشكالها.

ومن الحقائق المهمة التى يجب أن نعلمها أن وكالة الأمن القومية الأمريكية تحصل على جميع بيانات مستخدمى هذه المواقع على حد سواء، وتستطيع تعقب مصادر المعلومات وتحديد أشخاص وهوية المتعاملين والمتصلين على هذه الشبكات بكل يسر وسهولة، كما تقوم شركة جوجل متمثلة فى خدمة (جوجل ماب) بتحديد سير اتجاهات السيارات من مكان إلى آخر عبر الأقمار الصناعية وتوجيه قائد السيارة إلى التجول ومساعدته على السير فى الشوارع والطرقات العامة بكل يسر وسهولة، وهذه خدمة ملموسة ونافعة ومؤثرة بشكل رائع فى حياتنا وفى أسفارنا وتنقلاتنا اليومية؛ ولكن يجب أن نعلم أنه فى المقابل: مكنت هذه الخدمة شركة جوجل من الاطلاع على أدق تفاصيل وعناوين مواقع السكن والإقامة وأيضا عناوين مواقع المؤسسات والمنشآت المهمة التى لها خصوصية وسرية كبيرة.

فعلى جميع المستخدمين معرفة هذه الحقائق وهذا ما ينبغى أن ننوه عنه بالتفصيل فى معرفة أساليب الحماية والوقاية من الاختراق واستغلال هذه البيانات وانتهاك الحرية الشخصية فى استخدام هذه المواقع ووسائل التكنولوجيا الحديثة؛ وعلينا أيضاً أن نأخذ فى الاعتبار المنافع العديدة التى تقوم بها هذه المواقع من مساعدة التعرف على العمليات الإجرامية من تعقب بيانات تجار المخدرات والأعضاء البشرية والمهربين..الخ.

فعلينا جميعاً الاهتمام بهذا الأمر ومراعاة التوازن وترشيد الاستخدام وزيادة الوعى فى التعامل مع مثل هذه المواقع، وإدراك المصالح والمنافع التى يحصل عليها المستخدمون والأضرار والمخاطر التى يجب أن يكونوا على حذر كبير منها.

خطوة إلى الأمام

علينا أن ندرك أهمية هذه التقنية الحديثة وواقعها الملموس فى حياتنا اليومية بقدر إدراكنا لمخاطر الانزلاق فيها بالكلية والسماح والتهاون مع خصوصية معلوماتنا وبياناتنا الشخصية التى ربما تستغل ويستفاد بها سلبيا على مستوى الفرد والمجتمع؛ وقد يبدو الأمر هينا فى عدم الاهتمام بمعرفة وتداول واستغلال بياناتنا الشخصية والاطلاع عليها ولكن الأمر ليس بهذه البساطة على وجه الحقيقة؛ فيجب علينا أن نعلم ونحذر من مخاطر أُولِى التنصت والتجسس على بياناتنا الشخصية حفاظا على أمننا الشخصى فى المقام الأول وعلى استغلال هذه المعلومات بشكل قد يضر بنا وبوطننا أيضا من كشف معلومات ليست من طبيعتها أن تكون مادة تصلح للتداول على الملأ فى مواقع التواصل الاجتماعى وشبكة الانترنت.

رغم قرار ترامب بالانسحاب
اتفاق باريس للمناخ صمام أمان للبشرية

أحـــد الوعود التى قطعها الرئيـــس الأمريكى دونالد ترامب على نفســـه فى حملته الانتخابية أن تنسحب بلاده من اتفاقية باريس لحماية المناخ لما يراه من أضرارها على اقتصاد بلاده وما تمثله من ضياع لفرص العمل. وكان لقراره الذى أعلنه أول يونيو بعد عودته من قمة مجموعة السبع الصناعية المنعقدة بإيطاليا ردود فعل سلبية سواء على مستوى الشركاء بالمجموعة أو المستوى الدولى أو المحلى. ورغم شعور الاستياء الذى ساد الزعماء المشاركين لعدم مساندة الولايات المتحدة لسياســـة حماية المناخ، أعربت المستشـــارة الألمانية أنجيلا ميركل عن أملها فى أن تتمكن ألمانيا بحلول موعد انعقاد قمة العشرين التى تســـتضيفها هامبورج خلال شـــهر يوليو الجارى من صياغة خط مشترك يحظى بموافقة الجميع. ورفضت، كما رفض الجميع، مطالبة ترامب بأن يكون هناك تفاوض جديد حول الاتفاقية التى وقع عليها 191 دولة لتكون أكثر إنصافاً لبلاده.

إيناس نور

inasnour@hotmail.com

ووفق الاتفـــاق الذى وقعه الرئيس الســـابق أوباما فى نهاية ولايته فى نوفمبر الماضى فإن الولايات المتحدة تتعهد بخفض انبعاثات الغازات بما يتراوح بين 28-26 % من معدلات 2005 بحلول 2025. ويشـــكك ترامب فى صحة التأثير البشرى على التغير المناخى بالرغم من التقارير الدولية التى تؤكد ذلك. ولا تتوقف التكاليف التى يجب تدبيرها فقط عـــلى الأضرار التى يتســـبب فيها التغير المناخى، بـــل هناك حاجة لتوفير اعتمادات تمويل للتحول إلى استخدام الطاقات المتجددة بديلا عن الفحم والنفط.

تأثير التغير المناخى

يقصد بتأثير التغير المناخى اختلال فى الظـــروف المناخيـــة المعتادة كالحرارة وأنـــواع الرياح والأمطار التـــى تتميز بهـــا مناطق الأرض نتيجة تطور النشاط الصناعى على مدى الـ150 عاماً الماضية بسبب حرق الوقود الأحفـــورى (الفحم والبترول والغـــاز) لتوليد الطاقة حيث ينبعث من ذلك الحرق غازات ضارة منها ثانى أكســـيد الكربون والميثـــان، وتتســـبب فيما يعرف بالاحتبـــاس الحـــرارى. ويتوقع ارتفاع تأثيره فى العقود القادمة من خلال شدة التقلبات الجوية كزيادة غزارة الأمطـــار أو الفيضانات أو العواصف والأعاصير أو الجفاف، وهو ما يترتب عليـــه أيضا زيادة مســـاحات التصحر والانهيارات الأرضية وذوبـــان الجليد وارتفاع منســـوب مياه البحار والمحيطات ونقص فى الميـــاه العذبة وتراجع أو تلف المحاصيـــل. ويؤدى تواتر موجات التقلبات الشديدة للطقس إلى أضرار اقتصادية بالغة. وتعتبر المجتمعات الأفقـــر الأكثر تضرراً مما يهدد جهودها المبذولة للتنمية. وتشـــير الإحصائيـــات إلى أن عام 2016 كان الأشـــد حرارة منذ بدء تسجيلها. وأعلنت الأمم المتحدة فى نوفمبر الماضى عـــن ارتفاع معدل درجات الحرارة بمقدار 1,2 درجة مقارنـــة بمعدلات مـــا قبل الثورة الصناعية فى القرنين الـ18 و19. وتخصص الأمم المتحدة 100 مليار دولار سنوياً لصندوق المناخ.

فى تقرير لمنظمـــة "جرين بيس" التى نشـــأت فى 1971 بفانكوفر بكندا، ومقرها فى أمستردام، كشفت

الإحصائيات عن أن تغير المناخ يودى بحياة 150 ألف شخص سنويا، ويهدد بانقراض 20% من أنواع حياة البرية بحلول 2050. وهذا الرقم مرشح للزيادة إلى الثلث ما لم يتحرك المجتمع الدولى. وأكد التقرير أن هناك فرصة لوقف الكارثة إذا تحركنا.

بداية الإدراك

سجل القرن الـ19التفات بعض العلماء الغربيين إلى فكرة تأثير النشاط البشرى وانبعاثات الغازات الناجمة عن حرق الوقود على حرارة الجو، وذهب البعض للترحيب بارتفاع معدلات الحرارة ما بين 6-4 درجات مما يجعل البشرية تعيش تحت سماء أكثر دفئا. هذا ما كان يتوقعه سفانت أرينيوس الفيزيائى السويدى الحائز على نوبل فى الفيزياء.

أما التحرك الدولى المعاصر للاهتمام بظاهرة التغير المناخى وتأثيرها الضار على حياتنا فيرجع إلى عام 1979 حين عقد أول مؤتمر فى جنيف، بدعوة من المنظمة العالمية للمدن، بحث خلاله خبراء البيئة الأوضاع المناخية وحذروا من التأثير السلبى لزيادة انبعاث الغازات وتأثيرها على الغلاف الجوى وإمكانية حدوث تغيرات مناخية كبيرة دوليا وإقليمياً. وقتها قدرت الأمم المتحدة أن التكلفة السنوية المترتبة على ذلك تتراوح بين 40- 170 مليار دولار سنويا حتى عام 2030.

وجاء مؤتمر باريس للمناخ عام 2015 تكليلا للتحرك الممتد لعقود ونجح فى أن يوقع على اتفاقه دول العالم وليحول الاتفاقية الإطارية لكيوتو إلى خطة عملية للتحرك بدءاً من 2020 حين ينتهى سريان بروتوكول كيوتو المبرم فى 1997 والذى يعد أول إطار ينص على حق الشعوب فى حماية البيئة ويلزم الدول الصناعية بخفض انبعاثات الغاز. وفى إطاره تعهدت الدول بخفض انبعاثات 6 أنواع من الغاز فيما بين عامى 2016-2008 بمعدل 5% مقارنة بمستوى1990. ولم يضم الاتفاق الصين والهند ودول صاعدة أخرى رغم أن بعضها مسئول عن كميات كبرى من الانبعاثات فالصين تتصدر وتليها الولايات المتحدة وتحل الهند فى المركز الثالث.

الخروج الأول

فى عام 2001 انسحبت الولايات المتحدة من اتفاق كيوتو رغم أنها وقعت عليه فى 1998 خلال ولاية الرئيس الديمقراطى بيل كلينتون ونائبه آل جور الذى كرس جهوده فيما بعد لحماية البيئة وفاز فى 2007 بجائزة نوبل للسلام عن جهوده وتحركه الدولى النشط لتوعية الرأى العام بأهمية الحفاظ على البيئة من أضرار التغير المناخى. وبرهن آل جور بحملته الدولية واسعة النطاق أن من الممكن للفرد أن يحرك الأمور حتى لو لم يكن يتولى منصبا رسميا. كما فاز آل جور فى فبراير 2007 بجائزة أوسكار عن فيلم "حقيقة مقلقة" الوثائقى الذى عرض فى 2006 بدور العرض السينمائى فى دول العالم.

وكان صاحب قرار انسحاب الولايات المتحدة من بروتوكول كيوتو الرئيس الجمهورى جورج بوش الابن حيث أشار إلى أن توزيع الأعباء غير منصف ولا مقبول ويستثنى دولاً نامية من الالتزام بالاتفاق. وكان يخشى أن يؤدى البروتوكول إلى ارتفاع أسعار الطاقة. وأرجع البعض قراره إلى تراجع الأداء الاقتصادى ونقص الطاقة، فلم يرغب حينذاك فى اتخاذ ما يفاقم الوضع. وأشار المحللون فى ذلك الوقت إلى أن والده قد خسر الانتخابات أمام منافسه كلينتون عام 1992 لإهماله الجانب الاقتصادى لصالح تركيز الاهتمام على السياسة الخارجية. واعتبرت هذه الخطوة ضربة قوية للجهود الدولية لمواجهة التغير المناخى، فبدون الولايات المتحدة يفقد الاتفاق قيمته. ولم يرغب بوش فى أن يبدو غير مرن إزاء الجهود الدولية، وأمر الحكومة بطرح بعض الأفكار بديلا عن كيوتو لا يستثنى الدول النامية ولا يعاقب الولايات المتحدة. كما دعا القائمين على التكنولوجيا

للقيـــام بدور حاســـم فى خفض الانبعاثات الضارة وخفض التلوث. وتبع انسحاب الولايات المتحدة كل من كندا وأستراليا. وفى عام 2004 صدقت روسيا على الاتفاق واعتبرت منقذا له. وبـــدأ سريانه فى 2005 حيث صدقت عليه 136 دولة كان حجـــم انبعاثاتها من الغازات يبلغ 62% من إجمالى المعدل العالمى.

الخروج الثانى

ســـجل قرار الرئيـــس الأمريكى دونالد ترامب بالانسحاب من اتفاق باريـــس لحماية المنـــاخ الخروج الثانى للولايـــات المتحدة من اتفاق يخص حمايـــة الأرض من التغير المناخى رغم أنها المســـئول الثانى بعد الصين عـــن انبعاثات الغازات الضارة، وهـــى أكبر قوة اقتصادية عالمية. وأرجع ترامب قراره إلى أنه يرغب فى دعم عمال بلاده تمشـــيا مع شعاره "أمريكا أولا". غير أنه حصد انتقادات واســـعة النطاق فى الداخل والخـــارج. وتعهد العديد من حـــكام الولايـــات الأمريكية ومؤسسات صناعية كبرى وشركات بالالتزام بما نص عليه الاتفاق، بل

إن شركات الوقود والطاقة تعهدت بالاستمرار فى خطة باريس ورأت أن قرار ترامب خاطئ من الناحية الاقتصادية ولا يتمشى مع المستقبل. ورأت المستشـــارة الألمانية أنجيلا ميركل أن قرار ترامب يفتح الطريق أمام الصين لمـــلء الفراغ، موضحة أن حتى السعودية استعدت لفترة ما بعد النفط. وأكدت أن ترشـــيد اســـتهلاك الطاقة هو هدف مهم للاقتصاد ليس فقط بسبب التغير المناخى إنما لأسباب أخرى عديدة. الرئيس الفرنسى ماكرون لفت فى رد فعله على قرار ترامب إلى أن التغير المناخى واقع قائـــم ويضر الدول الأكثر فقرا. وذكـــر رئيس وزراء كندا ترودو الرئيس الأمريكى بمدى النجاح الذى تحقق فى محاربة تآكل طبقـــة الأوزون وكيف أمكن إقناع القائمـــين عـــلى الصناعة بخفض انبعاثات الغازات الضارة. وأكدت اليابان والصين والقادة الأوروبيون أن الاتفاق سيظل قائما حتى بدون واشنطن.

يذكر أن عملية انسحاب واشنطن لا تكون ســـارية إلا فى نوفمبر من عام 2020 أى بعد أربعة أعوام من توقيعها وفق المعايير المطبقة، وهى الفترة التى ستشـــهد الانتخابات الرئاســـية القادمـــة. ومـــن غير المعروف بالطبع من سيفوز فيها، لذا لا يعول البعض بشكل كبير على قرار ترامـــب، رغم أنه قال إننا غير موجودين اعتبارا من الآن. العديد من حكام الولايات والعمد والعلماء ورجال الصناعة ورؤساء جامعات وأكثر من 100 شركـــة يعكفون على تشـــكيل تحالف برئاسة عمدة نيويورك الســـابق مايكل بلومبرج لوضع خطة تتعلق بكيفية تحقيق أهداف اتفاق باريـــس. وقال بيل بيدوتو عمدة بتســـبيرج: الأمر لا يعتمد على العاصمـــة، فالتطبيق العملى لا يتم فى واشـــنطن وإنما فى أنحاء مختلفة بالبلاد. ونحرص على أن يظل الأمر كذلك.

ويؤكد الخبراء أن توليد الطاقة من مصادر متجددة كالشمس والرياح فى الولايات المتحدة حقق تقدما كبيرا ليس بســـبب اتفاق باريس وإنما بفضل الرغبـــة فى تحقيق التطور. وقال رئيس شركة جنرال إليكتريك: على الصناعة أن تتولى قيادة المسيرة وألا تعتمد على الحكومة.

ما لم نتحرك

توضح الدراســـات أنـــه ما لم يتم اتخاذ إجـــراءات عاجلة للحد من مخاطـــر التغير المناخـــى، يمكن للتداعيات أن تدفـــع 100 مليون شـــخص آخر لمعاناة الفقر بحلول 2030، وتصـــل قيمة خســـائر الكـــوارث الطبيعية إلى 520 مليار دولار. وتشهد التجمعات السكانية تغيرا كبيرا وهو ما يتطلب أخذه فى الاعتبار لدى إعداد خطط التنمية. ويحتاج العالـــم على مدى 15عاما القادمة إقامـــة بنية تحتية جديدة معظمها بالدول النامية ومتوسطة الدخل بتكلفة 90 تريليون دولار، لذلك مـــن المهم اتخـــاذ خيارات صحيحة لإنشاء بنية تحتية قادرة على مواجهة آثار التغير المناخى.

ما بعد القرار

ولا يقف قادة العالم دون التفكير فى كيفيـــة الرد على قـــرار ترامب، ويجرى التفكير فى أن تفرض الدول

اتفاق باريس للمناخ صمام أمان للبشرية

التى تربطهـــا علاقات تجارية مع الولايات المتحـــدة ضريبة كربون تتراوح مـــا بـــين 10-6 % على وارداتها من الولايات المتحدة. وتبلغ قيمة التجارة الأوروبية مع الولايات المتحدة بما يقدر بـــ 400 مليار دولار أى أن نسبة الضريبة ستتراوح بين 25 - 40 مليار دولار ســـنويا. وبدأ مسئولون فى كندا والمكسيك فى بحث فرض ضريبة الكربون.

مصر وتداعيات التغير المناخى

تعـــد مصر من أكثر الـــدول تأثرا بتداعيات التغير المناخى، كارتفاع مســـتوى ســـطح البحر، والفقر المائـــى، وتدهور الصحـــة العامة والأنظمـــة البيئية ممـــا يؤدى إلى خسائر اقتصادية تقدر بالمليارات. كما يتأثـــر أمنهـــا الغذائى حيث يتوقع انخفاض إنتاجية المحاصيل الزراعيـــة كالقمـــح والأرز نتيجة ارتفاع درجات الحـــرارة ونقص موارد المياه إلى جانب غرق أراض زراعيـــة بالدلتا نتيجـــة ارتفاع منســـوب البحر وزيـــادة ملوحة الأرض. كذلك يؤدى ارتفاع درجة الحرارة لزيـــادة الحشرات والآفات والأمراض الزراعية مما يتوقع معه انخفاض بنســـبة 8% من الإنتاج الزراعى وارتفاع نســـبة البطالة فى القطاع الزراعـــى بمعدل 39 %، وارتفاع أسعار الغذاء ما بين 16-68% بحلول2060.

ووفـــق تقرير للبنك الـــدولى فإن ارتفاع منسوب البحر بمقدار متر يؤدى لغـــرق 970 ألف متر مربع من أراضى الدلتا الزراعية وارتفاع ملوحة مخزون المياه الجوفية. وقد رأســـت مصر لجنة المناخ بالاتحاد الأفريقى لمدة عامين فيما بين 2015 و2017 حيث تخلفها الجابون. كما أنها تســـتضيف المبادرة الأفريقية للطاقة المتجددة حتى عام 2020، كما أعلن الرئيس السيسى فى اجتماع لجنة الرؤســـاء الأفارقـــة المعنية بالتغير المناخـــى على هامش القمة الأفريقية الدوريـــة يناير الماضى. وقامت مصر كمنسق للجنة بإطلاق المبادرة الأفريقية للتكيف والمبادرة الأفريقية للطاقة المتجددة فى مؤتمر باريس للمناخ. وقالت وزيرة البيئة الفرنســـية التى حضرت اجتماع أديس أبابا بوصفها رئيس مؤتمر باريس للمناخ إن المبادرة الأفريقية هى المنتج الوحيـــد لمؤتمر باريس الذى تم تفعيلـــه حيث خصصت فرنســـا وألمانيا 5 مليـــارات يورو لمشروعات المرحلة الأولى من مبادرة الطاقة المتجددة. وحصلت مصر من إجمالى المساهمة الفرنسية التى تبلغ مليارى يـــورو على 53% من قيمة مشروعات طاقة الرياح و43% من مشروعات الطاقة الشمسية وذلك فى إطار اتفاق وزيرى البيئة المصرى والفرنسى خلال مباحثات جرت فى باريس فى سبتمبر الماضى.

محطات مهمة

تعرض "جرين بيـــس" لمحطات مهمـــة فى جهود التحـــرك الدولى لمواجهـــة التغير المناخـــى. ومنذ ســـبعينات القرن المـــاضى أدرك العلماء أن هذه الظاهرة ستشـــكل تهديدا خطيرا عـــلى العالم. لذلك تم عقـــد أول مؤتمـــر دولى حول المناخ فى جنيف عام 1979. وتأكد خلال العقود التالية أن النشـــاط البشرى يتحمل جانباً من مسئولية هذا التغير. وفى 1988 استضافت تورنتـــو/ كندا لأول مـــرة علماء وممثلين حكوميين من دول مختلفة لبحث ســـبل الحماية من التغيرات المناخية. وتعهدت الدول الصناعية بصورة طوعية بخفض انبعاثاتها من ثانى أكســـيد الكربون بنسبة 20% بحلـــول 2005. وفى نفس العام تأسســـت الهيئة الحكومية للتغير المناخـــى المنبثقة عن الأمم المتحدة حيـــث تقوم بجمع النتائج العلمية مـــن قطاعـــات البحوث المختلفة، وتحدد مـــا وصلت إليه الأوضاع وتطرح إمكانيات التحرك. فى 1992 عقدت قمة الأرض بريودى جانيرو التى شـــهدت قيام الدول الصناعية إقرار اتفاقية الأمم المتحدة

الإطارية للمناخ والتى تعهدت الدول فيها بخفض مستويات الانبعاثات بحلول عـــام 2000 إلى معدل عام 1990 دون إلـــزام وإنما بصورة طوعية، إذ رفضت الولايات المتحدة ودول أخرى فـــرض الأمر إلزاميا. وانتظمت الاجتماعات الدورية لمثلى الاتفاق الإطارى للأمم المتحدة وبدأت الصورة تتبلور بشكل أكبر حول مدى التغير المناخى. كما شهد عام 1997 اتفاق الدول الصناعية فى مؤتمر الأمم المتحدة الثالـــث للمناخ إقرار اتفاق ملزم عرف بـ "بروتوكول كيوتو"، وكان أكثر شـــمولا مـــن تفاهمات ريو، وحدد معـــدلات انبعاث عام 1990 كمرجعية وأساس لمزيد من خفض المعدلات. وشهدت السنوات التالية مفاوضات ماراثونية لمناقشة التفاصيل وشروط التطبيق، وكان هناك دائما من يعترض ســـواء من جانب المؤسسات الصناعية أو بعض الحكومات.

وفى أوائل عام 2001 نشر المجلس تقريـــره الثالث مؤكدا المســـئولية الرئيســـية لانبعاثات ثانى أكسيد الكربـــون الناجمـــة فى الاحتباس الحرارى. وعقب إعـــلان التقرير قررت الولايات المتحدة انســـحابها بعد أن أعلن مسئوليتها عن معدل 25% مـــن انبعاث ثانى أكســـيد الكربون على مســـتوى العالم. وفى مؤتمر بون الذى عقد بعد شهور من الانســـحاب الأمريكى قرر المجتمع الدولى الإبقاء على بروتوكول كيوتو وبدأت عملية التصديق. وفى فبراير 2005 بدأ سريان البروتوكول بعد أن صدقت 191 دولة على المرحلة الأولى منـــه والتـــى تمتـــد ما بين عامى 2008-2012 وتحدد فيها مســـتويات الخفض للدول الموقعة بـــ5% عن مستويات 1990. ثم تلا ذلك مؤتمرات فى بالى/أندونيســـيا وبوزنان/بولنـــدا. وكان للأزمـــة المالية والاقتصادية عام 2008 أثرها فى تراجـــع اهتمام الدول الصناعية لتولى دور ريادى لحماية البيئة. ولم ينجح مؤتمر كوبنهاجن عام 2009 فى التوصـــل إلى اتفاق ملزم لتوفير حماية دولية أكبر للمناخ نظرا لأن الدول الأكثر إنتاجاً لانبعاثات ثانى أكسيد الكربون كالولايات المتحدة ودول الاتحـــاد الأوروبى والصين والهنـــد كانت تعرقـــل التفاوض. فى 2010 شـــهد مؤتمر المناخ فى كانكون/المكســـيك إقرار ما فشل مؤتمر كوبنهاجن فى إصداره، ومن بين ذلك: إنشـــاء صندوق لحماية البيئـــة، وتحديد مســـتوى الحد الأقصى لارتفاع درجة الحرارة بأقل من درجتين، وتأمين التنوع البيئى، واتخاذ إجراءات ضد إزالة الغابات، وتأمين حقوق الســـكان الأصليين. وأظهرت القـــرارات قدرة المجتمع الـــدولى مـــرة أخرى عـــلى اتخاذ القرارات. وكانـــت بوليفيا الدولة الوحيدة التى عارضت حتى النهاية تلك القرارات.

وشـــهد عام 2012 انعقاد مؤتمر الدوحة الذى أقـــر المرحلة الثانية لبروتوكول كيوتو، غـــير أن عددا قليلا مـــن الـــدول الصناعية قبل بالالتزامات التى تفرضها، ورفضت كندا وروسيا واليابان أن تحدد فترة زمنية لمزيد من خفض الانبعاثات. إلى ذلك لم تكن هناك قرارات محددة لدعم الـــدول النامية المتضررة من التغير المناخى، وتم تمديد سريان بروتوكول كيوتو حتى عام 2020. وأعقب ذلك تمهيد الطريق استعدادا لإبرام اتفاقية لحماية المناخ بحلول عام 2015 حيث استضافت باريس المؤتمر الدولى للمناخ الذى ســـجل نجاحـــاً فى توصل الدول الصناعية والصاعـــدة إلى تحرك مشـــترك لمواجهة التغـــير المناخى. وقدمت الدول المشـــاركة برامجها الوطنية لمواجهـــة التغير المناخـــى. كما تم الاتفاق على تخصيـــص معونات ماليـــة للـــدول الناميـــة لتطبيق برامجها لمواجهـــة التغير المناخى. وقد استضافت مراكش فى نوفمبر الماضى المؤتمر الســـنوى للمناخ. وكان أهم ما ميزه الرغبة المشتركة للجميع لمواجهة تلك المشكلة، فيما عدا موقف الولايـــات المتحدة الذى شابه الغموض. وأهم ما تم إعلانه فيه أن 45 دولة ستتخلى تماماً عن اســـتخدام البترول والغاز والفحم بحلول منتصف القرن.

وتستضيف بون فى الفترة من 17-6 نوفمبر القادم مؤتمر الأمم المتحدة الســـنوى للمناخ، ولكن الرئاسة ســـتكون لفيدجى التى لا تسمح بنيتها كجزيرة صغيرة باستضافة ما يتراوح بـــين 15 ألفا و20 ألف مشارك. وكانت بون قد استضافت المؤتمـــر فى 2001 ويأتى انعقاده عقب إجراء الانتخابات التى تجرى فى 24 ســـبتمبر 2017 وتخوضها المستشارة ميركل عن حزب الاتحاد المسيحى الديمقراطى أمام مرشح الحزب الاشـــتراكى مارتن شولتز رئيس البرلمان الأوروبى السابق.

تغيـــر المنـــــاخ
تحديات التوافق بين العلم والسياسة والاقتصاد

الطبيعة لا تعترف بحدود الدولة القومية:

تغير المناخ، القصة التى تختزل مسار الحضارة الحديثة منذ انطلاق الثورة الصناعية. تحتل هذه القضية العناوين الرئيســـية للصحف ووســـائل الإعلام ووسائط التواصل الاجتماعى ولا ســـيما بعد القرار الذى أصدره الرئيس الأمريكى فى مطلع يونيو 2017 بالانســـحاب من اتفاقية باريس تنفيذاً لوعده الانتخابي، إذ يحمل هذا القرار فى ثناياه حيرة عالمنا المعاصر الذى اكتشـــف فجأة على وقع الكـــوارث الطبيعية المتواترة خلال العقود الأخيرة أن المجتمع الإنســـانى مصيره مترابـــط وأن الطبيعة لا تعترف بحدود الدولة القومية. فهذه الدولة هى من صنع البشر، مثلها فى ذلك مثل الآلة الحديثة التى أنتجتها الثورة الصناعية. ونحن اليوم نشـــهد بالعين المجردة حصيلة التفاعلات التى أطلقها الإنسان منذ نهاية القرن الثامن عشر.

لـــم يكـــن فى ذهن مـــن اخترعوا الآلات الحديثة وطريقة تشـــغيلها باســـتخدام الوقود الأحفورى من فحم أو نفط أو غاز، أن كثافة هذا الاستخدام ستخل بموازين الطبيعة التى عاش فى ظلها الإنســـان على مدى آلاف السنين. فانتقلت الثورة الصناعية من بريطانيا إلى أوروبا ثم انتشرت فى كافـــة أرجاء العالم ومع هذا الانتشار كان هناك السعى النهم نحو مصـــادر الطاقة التى توفر القوة الهائلة لتشـــغيل الآلات عوضاً عن طاقة الإنســـان أو قوة الحيوان.

لم يدرك أحد أن هذا الانتشار كان يحمـــل سرطاناً أخذ يغـــزو بيئة الإنسان ويشوه الطبيعة التى نسج البشر حياتهم اليومية مع حركتها. صحيح كان هناك فى الماضى تغيرات

سفير د. عادل عبداللطيف

adel.abdellatif@undp.org

فى المناخ ولكنها كانت تأتى فى نطاق دورة طبيعية ثـــم تعود الأمور إلى نصابها النمطي. وقد أدرك الإنسان ذلك بل استعد له. ألم يخبرنا القرآن والتوراة بقصة ســـيدنا يوســـف والسنوات العجاف.

لن تعود الطبيعة إلى ما قبل الثورة الصناعية:

ولكن التغير الذى أفرزته الحضارة الصناعيـــة يختلف. فهو غير وقتى ولن تعود الطبيعة إلى ما ســـبق أن عهده الإنسان خاصة ما قبل الثورة الصناعية. وقد استغرقت البشرية عـــدة عقود لتدرك ذلـــك على نحو يقترب من اليقـــين. فقد بدأ بعض العلماء من سنوات مضت يلحظون تغيراً فى المناخ خارج سياق دورته الطبيعيـــة. وكان الســـؤال يدور حول هل هناك نمط جديد فى طور التكوين أم أن مـــا يحدث مرجعه تدخل الإنسان بسبب إحراق الوقود الأحفورى بكثافة.

بدأت حلقـــة البحث العلمى تضيق حول علاقـــة اســـتخدام الوقود الأحفورى وما ينتـــج عن ذلك من انبعاثات بما يشهده العالم من تغير فى المناخ. ومع تزايد البحوث العلمية فى هذا المجال ارتفعت درجة اليقين بأن هذا المصدر الهائل للطاقة هو

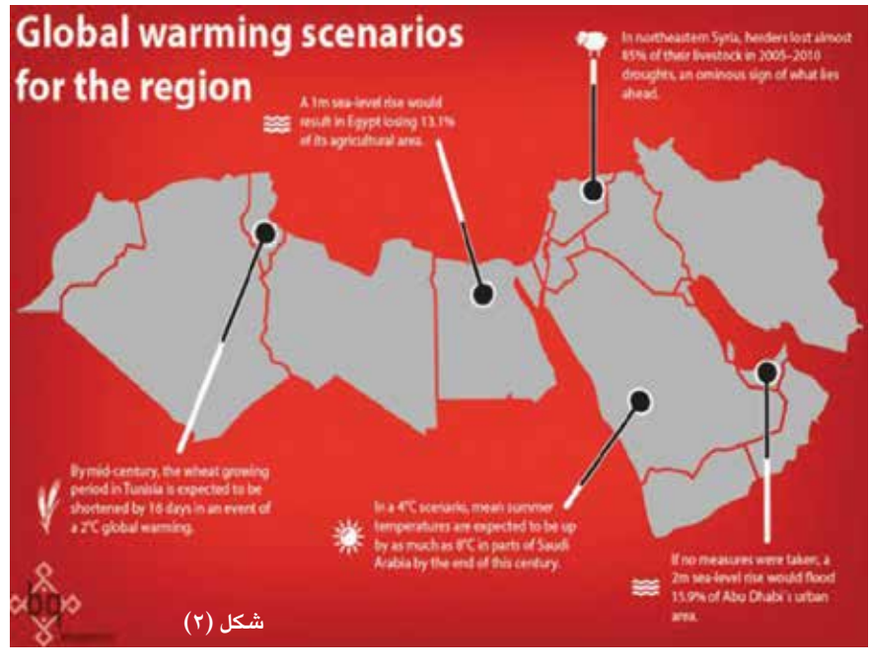

شكل (٢)

العامل الرئيسى وراء ما بدأ الإنسان يستشعره من تغير فى بيئته ويؤثر على حياته اليومية.

والحياة فى معظم الأحيان لا تكون كريمة مع الفقـــراء أيا كان مكان إقامتهـــم. فمـــن يمتهنون حرف الزراعة والرعـــى والصيد البحرى كانوا فى مقدمة من تعرضوا للآثار الضارة لهذا الخطر القادم الداهم. وبدأ الوعى بهذه المصائب المتراكمة يكتمل مع ربط خيوط ما يحدث فى مناطق النزاعات فى الدول الفقيرة بحالة التغير فى المناخ. لقد ســـمعنا وقرأنـــا عن موجـــات الجفاف فى الصومال ودارفور وشمال سوريا. كل هـــذه الكـــوارث حدثت خلال العقود الثلاث الماضية وكلها أفرزت نزاعات دامية. وتغـــير المناخ كان العامل المشـــترك وإن كان لا يمكن اعتباره العامـــل الوحيد فى تأجيج نـــيران العنف والإبـــادة والانتقال القـــسري. الدرس الـــذى تعلمته الإنسانية ولا تزال تتعلمه بقسوة أن الحضارة الصناعية بقدر ما أسهمت فى التقـــدم وفى ارتقاء مســـتويات المعيشة فإنها أيضاً كان لها نصيبها فى إلحاق الشقاء وخاصة بمن هم فى القاع، فالمجتمعـــات الفقيرة والتى تفتقر إلى العلم والمعرفة والكفاءة فى تســـيير الأمور وقعت فى براثن الكوارث الطبيعية التى فى معظمها الآن هى من فعل الإنسان الحديث الذى بدأ مســـيرته منـــذ قرنين فى شمال غرب أوروبا.

قبول القيادات السياسية لما يقوله العلماء:

ولكن كيـــف توصـــل العلماء إلى هذا الربط بين اســـتخدام الوقود الأحفورى وتغير المناخ وكيف توافق المجتمع العلمى العالمى حول ذلك؟ وكيف توافقت القيادات السياسية فى عالمنا حـــول قبول مـــا يقوله العلمـــاء والاتفـــاق جماعياً حول إجراءات لوقـــف التدهور فى حالة المناخ والسعى نحو تثبيت درجات الحـــرارة عند مســـتويات محددة علماً أن ذلك ســـيترتب عليه تكلفة اقتصادية.

بدأ العلمـــاء فى استشـــعار تأثير الإنسان على المناخ منذ نهاية القرن التاســـع عشر. ولكن هذا الأمر لم يتثبت إلا ما بعـــد الحرب العالمية الثانية وتســـارعت وتيرة وانتشار دائرة البحث فى هـــذه الظاهرة فى ســـتينات القرن العشريـــن. ولم يحدث توافق ســـياسى عالمى حول ضرورة دراســـة هذا الأمر بشكل جماعى إلا فى نهاية الثمانينات من القرن الماضى مع تأســـيس الهيئة الحكومية الدوليـــة المعنية بتغير المناخ عـــام 1988 داخل منظومة الأمم المتحدة بـــين كل من المنظمة العالمية للأرصاد الجوية وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة.

ومن هنا بـــدأت مســـيرة البحث العلمى المشـــترك حول تغير المناخ لدراســـته من النواحـــى العلمية والفنيـــة والاقتصاديـــة والعلمية. وكان للتقرير الأول الذى أصدرته الهيئة أثـــر بالغ فى صياغة اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشـــأن تغير المناخ التى اعتمدت فى إطار مؤتمر البيئة الذى عقد فى ريودى جانيرو عـــام1992. وقد وضعـــت هذه الاتفاقية إطـــار العمل الذى يهدف إلى تثبيت مستوى غازات الدفيئة فى الغلاف الجوى وذلك بهدف تجنب «التدخلات الخطيرة الناشـــئة عن أنشطة بشرية».

وأصبـــح من الواضـــح علمياً على نحو يقترب من اليقين أن التغير فى درجات الحـــرارة يعود إلى انبعاث غازات الدّفيئة (انظر الشـــكل 1 الذى يوضح ارتفاع نســـبة ثانى أوكسيد الكربون). فإحراق الوقود الأحفـــورى وإطلاقـــه كميات من ثانى أوكســـيد الكربون وغيره من

غازات الدفيئة يكفى لحبس المزيد من الحرارة فى الطبقة السفلى من الغلاف الجوى ومن ثم تؤثر فى المناخ العالمي. كما يؤدى ارتفاع درجة حرارة الأرض إلى إطلاق سلسلةً من التأثيرات البيئية التى بدورها تتفاعل مع غيرها من التحديات لتحدث عقبة رئيسية أمام التنمية المستدامة.

تضارب مصالح الدول السياسية والاقتصادية:

ولذا بدأ العالم يشهد محاولات مواكبة المسار السياسى للمسار العلمي. وبالرغم من تزايد درجة اليقين العلمى منذ التسعينات من القرن الماضي، إلا أن ذلك كان يصطدم بمصالح الدول السياسية والاقتصادية. فهناك الانقسام بين الشمال والجنوب حول النظام الاقتصادى العالمي، وهناك مواقف الدول المنتجة للنفط فى الجنوب تواجهها مواقف الدول الجزرية الصغيرة أيضاً فى الجنوب. ثم هناك مواقف الدول الصناعية فى مواجهة الصين والهند. فهاتان الدولتان لم يكن لهما تاريخياً مسئولية عن الانبعاثات ولكنهما مع سرعة نموهما الاقتصادى وبسبب حجمهما الديمغرافى أصبحتا تحتلان مواقع متقدمة فى قائمة الدول صاحبة النصيب الأكبر عن الانبعاثات. وداخل الدول الصناعية كان هناك انقسام بين أوروبا والولايات المتحدة وخاصة فى ظل حكم الجمهوريين. ويلاحظ أن الموقف الأمريكى كان يقترب من المواقف الأوروبية وبقية الدول الصناعية بشكل عام فى ظل حكم الديمقراطيين، وتجلى ذلك فى قمة ريودى جانيرو 1992 فى عهد الرئيس كلينتون ونائبه آل جور، وكذلك مؤخرا عند التوصل لاتفاقية باريس 2015 فى عهد الرئيس أوباما.

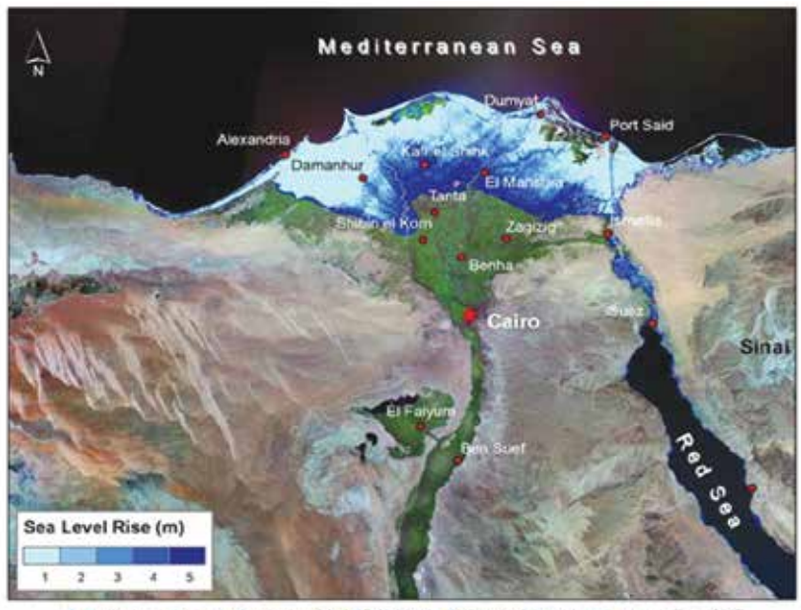

الشكل ٣ المصدر: https://mrgeogwagg.wordpress.com/2015/07/01/lesson-6-climate-change-in-egypt

اتفاقية باريس نقطة تحول مهمة فى تاريخ البشرية:

ولذلك كان التوصل إلى اتفاقية باريس نقطة تحول مهمة فى تاريخ البشرية لأنها تمثل التوافق بين كافة الأطراف، مع العلم أن ما تم الاتفاق حوله لا يعدو أن يكون فى إطار التعهدات الطوعية من قبل الدول والذى أطلق عليه «المساهمات المعتزمة المحددة وطنياً». وبموجب هذا الاتفاق (الذى تم اعتماده فى ديسمبر 2015 ودخل حيز النفاذ فى نوفمبر 2016)، تلتزم دول العالم بالحد من ارتفاع حرارة الأرض إلى أقل من درجتين مئويتين بنهاية هذا القرن. ولتحقيق هذه الغاية، ينصّ الاتفاق على أن تراجع جميع البلدان التزاماتها كل خمس سنوات بغية خفض انبعاثات غازات الدفيئة التى تتسبب بها. ويجب أن تسجّل كل مساهمة من المساهمات المقرّرة المحدّدة وطنياً تقدماً مقارنة بالمساهمة السابقة.

ومنذ عام 1992 كانت الحكوماتُ فى العالم تعمل على بناء الأرضية المشتركة للتعامل مع قضية تغير المناخ. وتمحورت الجهود حول مجالين وهما: التَّخفيف، للحدُّ من الانبعاثات الإجماليّة فى أقرب وقتٍ ممكن، ومع الوقت، من أجل تجنُّب أسوأ السيناريُوهات لوطأة التَغيُّر المناخيّ فى المستقبل. ومع أنّ جهود التَّخفيف ضرورية إلا أن الدول عليها أيضاً اتِّخاذُ إجراءاتٍ مسبقة لتخفيض المخاطر والحدِّ من الأضرار التى يسبّبها تَغيُّر المناخ. وهنا يأتى المجال الثانى والمعروف باسم التَّكيُّفُ الذى يعتبر ضرورياً لمعالَجة الآثار الناتجة من الاحتِرار الذى سيَحدث حتى بحسَب السِّيناريُوهات المقدَّرةِ لأدنى استقرار.

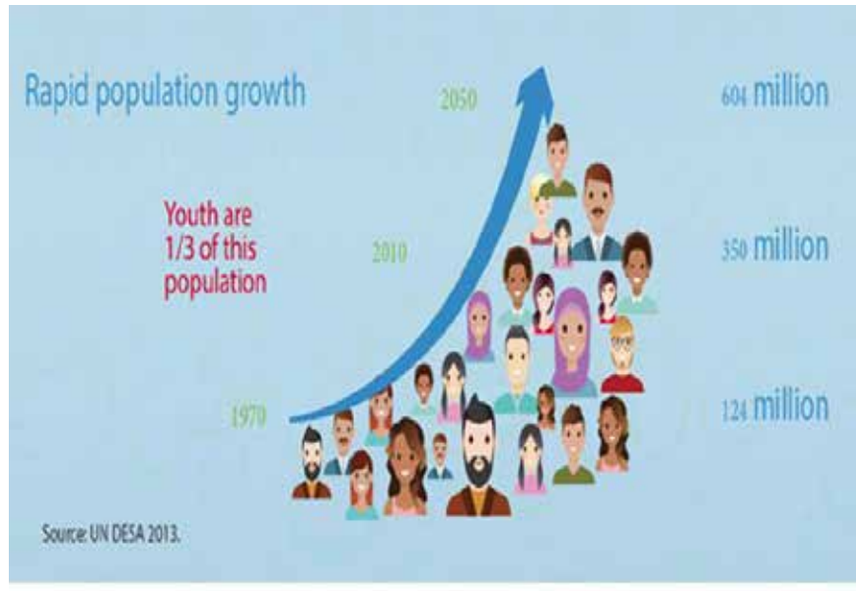

الشكل 1: المصدر /http://www.arab-hdr.org

تغير المناخ فاق التوقعات العلمية:

إن الأرض تشهد تغيراً فى المناخ بمعدّل فاق معظم التوقعات العلمية. والعديد من المجتمعات تعانى من الجانب السلبى الناجم عن تغير المناخ. وفى المنطقة العربية بدأ الناس بالفعل فى التأثر بمفاعيل التَغيُّر المناخيّ. فقد شهدت هذه المنطقةُ فى السنوات القليلة الأخيرة عددًا متزايداً من الأحداث المناخيّة المتطرِّفة مثْل الجفاف، والفيضاناتِ الخاطِفة، والأنواء العاصفة. الشكل 2 يوضح سيناريوهات ارتفاع درجة الحرارة وتأثيرها المحتمل على المنطقة العربية.

وقد يُؤدِّى ارتفاعُ مستوى سطح البحر إلى غمْر المناطق الساحليّة الطويلة فى المنطقة العربيّة (انظر الشكل3)، حيث تتجمَّع الغالبيّة الساحقة من السُّكّان. يُمكن أن تُلوِّث الميـاهُ المالحةُ المياهَ الجَوْفيّة، ما يـؤدِّى إلى تدهْورٍ حادٍّ للأراضى وخسائرَ فادحةٍ فى التنوُّع الحيويّ. وبقراءة الواقع السورى فى السنوات التى تعرض فيها لموجة جفاف فى الفترة الواقعة بين 2008 و2010 يمكن لنا أن نستوعب طبيعة العلاقة المعقدة بين تغير المناخ والتأثير على الأمن المائى والغذائي، وكذلك كيف يمكن أن تؤدى السياسات وردود الفعل من جانب الحكومة فى التقليل أو التضخيم من تأثير هذا التغير الحاصل فى المناخ.

خسائر اقتصاديّة واجتماعيّة وبيئيّة ضخمة:

ومع أنّ الضَّررَ المرتبطَ بهذه الأحداث نادرًا ما قِيسَ كمِّيًّا، فإنّ التقديراتِ الأوّليّة تُشير إلى تكاليفَ اقتصاديّة واجتماعيّة وبيئيّةٍ ضخمة وإلى خسائرَ يُمكن أن تُقيِّد التَّنمية فى دول عديدة. ولهذه التَغيُّرات تأثيراتٌ فى كلّ المجتمعات تُراوح من تخفيض النُّمُوّ الاقتصاديّ إلى زيادة عدم الاستقرار، وتاليًا تُمثِّل تحدِّياتٍ استراتيجيّةً تُضاف إلى تحدِّيات المساعدة الإنسانيّة.

ويُضخِّم النُّمُوُّ السُّكّانيّ تحدِّياتِ تَغيُّر المناخ من خلال تَزايُد الطَّلب على الغذاء والماء، فيما يَضع كذلك ضُغوطًا متزايِدة على استخدام الأراضي. وقد تَضاعَف عددُ سكّان البلدان العربيّة (انظر الشكل 4) ثلاثَ مرّاتٍ تقريبًا بين 1970 و2010، قافِزًا من 128 مليونَ نسَمة إلى 360 مليونًا. وتتنبَّأ الأمم المتَّحدة بأن يَصل عددُ سكّان المنطقة العربيّة بحلول 2050 إلى 600 مليونَ نسمة – أى 240 مليونًا أكثرَ ممّا هو عليه فى عام 2010.

وينطوى تَغيُّرُ المناخ على إمكان التّسبُّب بعدَم الاستقرار أو النِّزاع. فمحاولات السُّكّان فى المناطق المتضررة مواجَهة آثار تغير المناخ قد تَشمل الهجرةً غيرَ الطوْعيّة، أو منافَسة جماعاتٍ أخرى من السكان على الموارد الشحيحة، أو إثقالَ كاهِل قدرات الحُكم المحلّيِّ أو الوطنيّ. وقد يؤدى ذلك إلى نزاعاتٍ محلِّيّة وتوتُّراتٍ متصاعِدة حول الموارد مثلما حدث فى دارفور فى السودان. من الضرورى دراسة تداعيات تغير المناخ المحتملة على الأمن فى سياق التهديدات أو الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والبيئية الموجودة مسبقاً، والتى هى عوامل رئيسية فى أمن الأفراد والمجتمعات والدول.

أكبر التحديات فى عصرنا:

إن تغير المناخ هو واحد من أكبر التحديات فى عصرنا، وجميع البلدان، ولا سيما البلدان النامية، قليلة المناعة فى مواجهة الآثار الوخيمة المترتبة على تغير المناخ ولأنها تعانى بالفعل من تفاقم تلك الآثار، مما يشكل خطراً أكبر يهدد الأمن الغذائى والجهود المبذولة للقضاء على الفقر وتحقيق التنمية المستدامة، إن التخفيف من آثار تغير المناخ والتكيف معها يشكلان أولوية آنية ملحة للحفاظ على استقرار عالمنا.

مصر ودبلوماسية مواجهة التغير المناخي

أعلن الرئيس الأمريكى دونالد ترامب انسحاب بلاده من اتفاق باريس لمواجهة التغير المناخى فى بداية شهر يونيو 2017، مشيراً إلى أن الولايات المتحدة ستتخلى عن اتفاق باريس الذى يفرض أعباء مالية واقتصادية ضخمة، ولكنها متفتحة للتفاوض بشأن اتفاق آخر. وكان الرئيس الأمريكى قد زعم إبان حملته الانتخابية العام الماضى أن الاتفاق سيكلف الولايات المتحدة خسارة ثلاثة تريليونات دولار من إجمالى ناتجها القومى وستة ملايين ونصف مليون وظيفة بينما سيحابى منافسيها الاقتصاديين من أمثال الصين والهند بشكل كبير.

وبهذا الإعلان تخرج الولايات المتحدة من اتفاق يضم كل دول العالم تقريبا (ما عدا سوريا ونيكاراجوا) ويتصدى لواحدة من أهم قضايا القرن الحادى والعشرين عن طريق إلزام الدول، سواء كانت فقيرة أم غنية، بتقليل انبعاثات ما يطلق عليها الغازات المسببة للاحتباس الحرارى الناتج عن احتراق الوقود الأحفوري، الذى ينحى عليه العلماء باللائمة فى ارتفاع درجة حرارة كوكب الأرض. وفى مواجهة هذا الإعلان الصادم، راوحت ردود الفعل الدولية بين الصدمة والغضب وأيضا التصميم على مواصلة الجهد المشترك الذى يمثله اتفاق باريس لمواجهة التغير المناخي، حيث سارع الاتحاد الأوروبى والصين بالتأكيد على أنهما سيواصلان العمل معاً لتنفيذ اتفاق باريس الهادف إلى مواجهة التغير المناخي. ومن ناحية أخرى،

أ. د. أحمد قنديل
a.kandil1974@gmail.com

انتقد الرئيس الأمريكى السابق باراك أوباما، الذى وقع اتفاق باريس، مباشرة هذا الإعلان متهماً إدارة ترامب بـ"رفض المستقبل". وأصدر قادة فرنسا وألمانيا وإيطاليا بياناً مشتركاً يؤكد على أن الزخم الذى ولده اتفاق باريس فى ديسمبر 2015 لا يمكن التراجع عنه، وأن هذا الاتفاق هو "أداة حيوية لكوكبنا ومجتمعاتنا واقتصاداتنا". وعبرت كندا عن "خيبتها الشديدة" لقرار الرئيس ترامب، كما عبرت رئيسة وزراء بريطانيا، تيريزا ماي، أيضاً عن خيبة أملها وأبلغت الرئيس ترامب فى اتصال هاتفى أن الاتفاق يحمى "رخاء وأمن الأجيال المستقبلية". وأدان قادة دول الشمال (السويد وفنلندا والدنمارك والنرويج وأيسلندا) خطوة الانسحاب الأمريكية.

ويمكن تفسير ردود الفعل الغاضبة تجاه الانسحاب الأمريكى من اتفاق باريس بعدة عوامل، لعل من أهمها أن الولايات المتحدة تعد ثانى أكبر مصدر لانبعاث غاز ثانى أكسيد الكربون فى العالم بعد الصين، لذا سيكون لانسحابها تأثير فعلى لأنها، من ناحية، تسهم بنسبة نحو 15 فى المائة من انبعاثات الكربون فى العالم، كما أنها، من ناحية أخرى، مصدر مهم لتقديم التمويل والتكنولوجيا للدول النامية لدعم جهودها لمكافحة ارتفاع درجات الحرارة. كما أن ثمة مخاوف أيضاً من اتباع دول أخرى للولايات المتحدة فى نهجها هذا أو إبداء التزام أقل بأهداف اتفاق باريس.

الانسحاب الأمريكى من اتفاق باريس، فى ظل إدارة الرئيس ترامب، وتأكيد عدد كبير من الدول الكبرى فى العالم على ضرورة تطبيق هذا الاتفاق، ربما يضع مسئولية جديدة على الدبلوماسية المصرية فى الفترة القادمة، خاصة بعدما صدق مجلس النواب المصرى فى 4 مايو 2017 على قرار رئيس الجمهورية رقم

566 لسنة 2016 بشأن الموافقة على اتفاق باريس لمواجهة التغير المناخي، والذى وقعته الحكومة المصرية فى 22 إبريل 2016 ضمن 171 دولة بمقر الأمم المتحدة بنيويورك. وكانت الإرادة السياسية المصرية فى المساهمة مع كافة الفاعلين البارزين لمواجهة التغيرات المناخية العالمية واضحة بشدة عندما شارك الرئيس عبد الفتاح السيسي، فى أول مشاركة من نوعها على الإطلاق لرئيس مصرى فى مؤتمر دولى يتعلق بالمناخ، فى مؤتمر باريس للتغير المناخي، الذى انعقد فى ديسمبر 2015. حيث كانت هذه المشاركة من جانب الرئيس السيسى رسالة واضحة للعالم تعكس مدى اهتمامه واقتناعه بخطورة التغير المناخى العالمي، وأهمية مواجهته بشكل ناجع لتحقيق المصالح المصرية من ناحية، وإنقاذ كوكب الأرض من الدمار البيئى الذى أصبح يهدد استمرار الحياة البشرية من ناحية ثانية.

ومن جهة ثانية، تبنت الحكومات المصرية المتعاقبة عدداً من الخطط والسياسات والمشروعات لمواجهة تحدى التغير المناخي، بما يتماشى مع خططها الوطنية للتنمية وتتكامل معها. فعلى مستوى السياسات، تمت صياغة واعتماد رؤية 2030 للتنمية المستدامة فى مصر، كما تم تحديث الإستراتيجية الوطنية للتكيف مع التغيرات المناخية. وعلى مستوى المشروعات، تشهد مصر توسعاً ملموساً فى مشروعات البنية الأساسية والنقل، والتى من شأنها الإسهام فى دعم جهود مصر فى خفض الانبعاثات المتسببة فى ارتفاع درجة حرارة الأرض، فضلا عن المشروعات الخاصة بالتكيف، مثل حماية الشواطئ الشمالية ودلتا نهر النيل، والتى تعد من أكثر مناطق العالم هشاشة أمام التغيرات المناخية. كذلك، تم تفعيل عمل المجلس الوطنى للتغيرات المناخية، الذى يضم فى عضويته كافة الهيئات المعنية بمواجهة الأخطار والتهديدات الناجمة عن تغير المناخ.

وفى هذا السياق، لاشك أن الدبلوماسية المصرية يجب أن يكون لها دور رائد فى تنفيذ اتفاق باريس لمواجهة التغير المناخى بشكل ناجح. فهذا الاتفاق من شأنه، حال تنفيذه على أرض الواقع، أن يمكن مصر من تحقيق أهداف الإستراتيجية الوطنية للتنمية المستدامة 2030 وما قد يعترضها من عقبات بسبب الآثار السلبية للتغير المناخي، من خلال فتح الآفاق أمامها، للاستفادة من الدعم المقدم من الدول المتقدمة (فى مجالات التمويل، ونقل التكنولوجيا، وبناء القدرات). وهنا يشار إلى أن الحكومة المصرية، فى تقريرها بشأن "المساهمات المعتزمة المحددة وطنياً"، والذى قدمته فى نوفمبر 2015، قد قدرت احتياجاتها من التمويل لتطبيق برامجها للتكيف والتخفيف فى مواجهة التغير المناخى العالمى فى الفترة من 2020 إلى 2030 بحوالى 73 مليار دولار، مع إمكانية زيادة هذا الرقم فى ضوء

معـــدلات التضخم وتغير ســـعر الصرف.

وشـــددت الحكومـــة المصريـــة أيضـــاً على أن الجهـــود الوطنية بمفردهـــا لن تتمكـــن من تلبية طموحاتها للمساهمة فى الجهود الدولية الرامية إلى مواجهة التغير المناخي. هـــذا فى الوقت الذى من المتوقع فيه أن تزداد مســـاهمات الجهات المانحـــة فى تمويل المناخ بشكل كبير فى الســـنوات المقبلة، خاصة مع تأكيـــد اتفاق باريس للتغير المناخـــى على تقديم 100 مليار دولار سنوياً ابتداء من عام 2020.

مخاطر جسيمة

تزداد أهمية الـــدور الذى يمكن أن تلعبه الدبلوماسية المصرية فى مواجهة التغـــير المناخى فى ضوء المخاطر الجسيمة التى يمكن أن تعانى منهـــا الدولة والمجتمع فى مصر نتيجة التداعيات الســـلبية الخطـــيرة المترتبة عن هذا التغير. فمن ناحيـــة، حذر تقرير التنمية البشرية العالمـــى لعام – 2007 2008، الصـــادر عـــن البرنامج الإنمائـــى للأمم المتحـــدة، من إمكانية تعرض ملايين المواطنين المصريـــين، القاطنين فى شـــمال الدلتا، للتهجير بسبب الفيضانات التى ربما تنتج عن ارتفاع منسوب مياه البحر المتوسط نتيجة ذوبان الجليد فى القطب الشـــمالى بفعل ارتفاع درجة حرارة الأرض.

ومن ناحية ثانية، يشير عدد من الخـــبراء إلى أن التغير المناخى قد يؤثر سلبياً على الأمن المائى المصري، فيما يتعلق بالموارد المائية المتاحة لمصر، خاصة ميـــاه النيل، التى يعتمد عليها المصريون، بنسبة 95 فى المائة، لتلبية الاحتياجات المائية فى الشرب والزراعـــة والصناعة وتوليد الطاقة، والملاحة، وغيرها. حيث أفادت العديد من الدراسات بأن التدفـــق الطبيعى لنهر النيل ســـوف يتراجع باستمرار، خلال السنوات القادمة، بسبب الجفاف وانخفاض هطـــول الأمطار على أحواض النيل العليا.

ومن ناحية ثالثة، تواجه دلتا نهر النيل (ســـلة الغذاء للمصريين) تهديـــدات كثيرة نتيجـــة التغير المناخي، مما سوف يؤثر مباشرة على الأمن الغذائى المصري. فمن جهة، ســـيؤدى ارتفاع مستوى ســـطح البحر المتوسط إلى زيادة ملوحة ومستوى المياه الجوفية فى الأراضى الزراعيـــة، وكذلك زيادة ملوحة البحيرات الشمالية العذبة، وبالتالي: فقدان مســـاحات كبيرة مـــن الأراضى الزراعية الخصبة (تتراوح بـــين 12 إلى 15 فى المائة من إجمـــالى مســـاحة الدلتا)، وخفض الإنتاج النباتي، وتغير فى أنواع ومكونات الثروة الســـمكية التى تعتـــبر المصـــدر الرئيسى للبروتين السمكى فى مصر، والذى يعد مصدراً غذائياً مهماً ورخيصاً للفقراء. وفيمـــا يتعلق بإنتاجية الثروة الحيوانية، ســـتقود زيادة درجـــة الحـــرارة إلى إصابـــة

الحيوانات بالإجهـــاد الحراري، وستؤدى أيضاً إلى ظهور أمراض جديـــدة فى الحيوانـــات، مثـــل مـــرض اللســـان الأزرق وحمى الوادى المتصدع، وهو الأمر الذى سيضعف كثيرا من إنتاجية هذه الحيوانات من اللحوم والألبان.

وبالإضافـــة إلى كل ذلك، تشـــير التقارير والدراسات أيضا إلى أن التغير المناخى ســـوف يكون له آثار ســـلبية بالغة على المصريين فى قطاعات الطاقـــة، والصحة، والســـياحة، والمناطق الحضرية والإســـكان والطـــرق، والتنوع البيولوجي.

أدوار متعددة

للتقليل من الآثار السلبية للتغير المناخى على حياة المصريين، يمكن للدبلوماسية المصرية العمل على عدة مســـتويات لتعزيز التعاون الدولى فى هذا المجـــال، منها على سبيل المثال، ما يلي:

أولاً: تيسير استنباط استراتيجيات

وخطـــط وإجـــراءات للتكيف والتخفيف على المستويين الوطنى والمحلي.

وثانياً: النفاذ إلى طائفة عريضة من آليات التمويل المحدد الأهداف عـــلى الصعيد المتعـــدد الأطراف وعلى الصعيد الإقليمـــي. وهنا، يشـــار إلى أن كثـــيراً من وكالات الأمم المتحدة والمنظمات الإنمائية الدولية والمنظمات غير الحكومية قد وفرت معلومـــات ومنهجيات ومبادئ توجيهيـــة للتعامل مع التغير المناخـــي؛ كما أنها دعمت المبـــادرات العالميـــة والإقليمية وشجعت وضع اســـتراتيجيات وطنيـــة للتكيف فى كل من الدول النامية والدول المتقدمة.

ومن ناحية أخـــرى، يوفر التعاون الإقليمى فى مواجهة التغير المناخى منافع محتملة من حيث التخفيف من حدة آثار تغير المناخ. صحيح أن فاعلية المبادرات الإقليمية فى مواجهة التغير المناخى لا تـــزال محدودة حتى الآن، إلا أن الكثير من المراقبين يؤكد على أن بعض سياسات المناخ ستصبح أكثر فعالية من الناحيتين البيئيـــة والاقتصادية إذا ما نُفذت عبر مناطق واسعة. وفى ضوء ذلك، ينبغى على الدبلوماســـية المصرية بحـــث كافة فرص دفـــع وتعزيز التعاون الإقليمـــى لمواجهة التغير المناخي، ولاســـيما فى إطار جامعة الدول العربية، والدول المطلة على البحر المتوسط، وأفريقيا، والشرق الأوسط.

كمـــا يجـــب أيضاً أن تنشـــط الدبلوماســـية المصرية فى تعزيز التعاون الإقليمى والدولى فى عدة مجالات من أبرزها:

- تحســـين القـــدرات البشرية والمؤسسية لتقييم مخاطر التغير المناخي، ورصدهـــا، والتخطيط المتكامل للتعامل معها.
- تعزيز التنســـيق بين الجهات الوطنية المختلفة المعنية بمواجهة التغير المناخي.
- تشجيع النقاش والتعاون حول مخاطر وتهديدات التغير المناخى ذات الاهتمام المشـــترك مع الدول الصديقة والمجاورة، وفى مقدمتها القضايا التالية:
- تعزيز الأمن الغذائي.
- إعداد آليات لتســـوية النزاعات المحتملة العابرة للحدود على المياه.
- الاســـتفادة من المســـاعدات الإنمائية الخارجية فى بناء القدرات المحلية للصمود فى مواجهة التغير المناخي.

وفى الختـــام، ينبغى التأكيد على أن مصر، دولـــة ومجتمعاً، عليها العمل بجدية لتنفيذ اتفاق باريس لمواجهـــة التغـــير المناخى خلال السنوات المقبلة، لما يحمله من آثار إيجابية فى المدى الطويل والمتوسط. ومن أجل تحقيـــق ذلك، لابد أن تقوم الدبلوماسية المصرية بلعب دور محورى لتعزيـــز التعاون الدولى والإقليمـــى فى هذا المجال، خاصة وأن القيادة السياســـية المصرية على وعى وإدراك كاملين بأهمية ذلـــك فى تحقيق المصالح القومية العليا.

د. أحمد قنديل

هو خبير الشئون الدولية والآسيوية ورئيس برنامج دراسات الطاقة فى مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية.

البيئة فى مصر القديمة

اهتم المصرى القديم اهتماماً كبيرًا بالبيئـــة المحيطة به، والبيئة هى كل ما يحيط بالإنسان من أشياء ومؤثرات. ولا يقتصر تعريف البيئة على البيئة الطبيعية كالماء والهواء والتربة، بل تشـــمل المبانى والحدائق وكل ما يضيفه الإنســـان فى محيطه الحيوي، كما تشتمل على المؤثرات كالأصوات والروائح والملوثات وغيرها. وقد اهتم الإنسان المصرى منذ بداياته الأولى على أرض مصر بكل ما يحيطه من بيئة طبيعية، فدأب على إرسال الحملات لكل شـــبر من أرض مصر، بما فيها الصحارى والجبال والأودية.

أ. د. راندا بليغ
أستاذة ورئيسة قسم الآثار المصرية
كلية الآداب، جامعة المنصورة
randa_baligh@yahoo.com

فنجد كتابات وخربشات فى مناطق نائية مثل محاجـــر طرة ووادى الحمامـــات ووادى جواســـيس وسرابيط الخادم بسيناء، وغيرها. فكان أجدادنا المصريين يرسلون بعثات لاستكشـــاف مصر وعمل حـــصر لأرضهـــم لاســـتغلالها الاســـتغلال الأمثل. فـــكان أحد الأســـاتذة المتخصصين فى التربة من هيئة المســـاحة الجيولوجية يقول إن المصريـــين القدماء قد اكتشـــفوا من قبلنـــا كل محجر ومنجم ومـــورد فى أرض مصر، عدا البترول وأشياء بسيطة مثل فوســـفات أبو طرطور بالقرب من الواحـــة الخارجة بالصحراء الغربية. وعمل المصرى على زراعة أرضه ذات الطين الأســـود الجيد، كما استغل الصحراوات والجبال واستخرج منها ما يفيده، وعرف خواص النباتات واســـتخدمها فى العلاج وكطعام صحى، كما عرف الزراعـــة واســـتئناس الحيوان، وجلب من خارج مصر فصائل من النبات والحيـــوان مفيدة له مثال الرمان والدجاج، والحصان.

البيئة فى أخلاق المصرى القديم:

اهتم المصرى القديم بالقبر كمنزل للأبدية وترك لنا فى قبوره العديد من الرسوم والنقوش والكتابات التى عكســـت حياتـــه الدنيوية. فكان الفرد عنـــد الموت يردد ما يعرف بالاعتراف الإنكاري، وهو عبارة عن 42 عملاً ســـيئاً ينفى الشخص أنه قام بها أثناء حياته. فنلاحـــظ أن أهم ما كان المصرى ينفيه هو قيامـــه بتلويث النهر العظيم أو الماء. وكان يقول أيضا أنه لم يؤذ الماشية أو يسرق أرض جاره. وكان يقـــول أيضًا أنه لم يقم بعمل ضوضـــاء أو يتحدث بصوت مرتفع. ومن ضمن أقواله المتفرقة:

«لم ألوث النهر العظيم، لم أوقف الفيضان، لم أوقف انســـياب ماء الجار، لم أعامل الحيوان معاملة سيئة، لم أرفع صوتي، لم أزد فى الكلام، لم ألوث نفسي» (من بردية آنى الشـــهيرة من الأسرة الحادية والعشرين بالمتحـــف البريطانى بلندن).

أما عن البيئـــة المحيطة بالمصرى فقد راعى فيها الجمال على كافة المستويات. فعلى مستوى الجمال الشـــخصى كان يتجمل ويتعطر ويصفف شـــعره ويشذبه. وعلى مستوى العمارة المدنية والدينية والجنزيـــة، بـــل والحربية، كان يراعى النســـب التى تريح العين كما كان يضيف زخارف ولمسات جمالية لأغلب المباني. وقد جعل المصرى مـــن بلده بلـــدًا زراعيًا بالدرجـــة الأولى. وبالإضافة إلى الحقول المزروعة وحدائق الفاكهة، اعتاد المـــصرى أن يصمم حدائق غنَّاء خاصـــة فى القصور الملكية ومنازل الأغنياء. فوصلت لنا صور لحدائق مصممة بعناية وحرفية، فكانت الأشجار والنباتات الأخرى توضـــع بالحديقة بشـــكل فنى على مسافات محددة من بعضها

نموذج أو ماكيت لمنزل وحديقة من مقبرة مكت رع، الأسرة الحادية عشرة.

منظر لتعريشة عنب ولعملية تصنيع النبيذ من مقبرة نخت بطيبة، الأسرة الثامنة عشرة.

وبشكل منتظم، كما كان المصرى القديم يضع حوضًا أو عدة أحواض ماء فى الحديقة ويكون فيها أسماك، وأحيانا طيور كالبط، وزهور لوتس. ويدل ذلك على أن فن تصميم الحدائق المعروف بالـ Landscaping عرفه المصرى قبل سائر الأمم. وعند مدخل معبد حتشبسوت بالبر الغربى بطيبة تم العثور على بقايا أشجار جلبت من بلاد بونت بالجنوب، وزرعها المصرى عند مدخل المعبد. وكانت الحدائق تضيف البهجة على البيت، وتوفر الأوكسجين والترطيب حول المنزل. وهناك إشارة بالقرآن الكريم لمدى الرفاهية التى تمتع بها المصرى فى منازله وحدائقه الغناء وحقوله فى قوله تعالى: "كم تركوا من جناتٍ وعيون (25) وزروعٍ ومقام كريم (26) ونَعمةٍ كانوا فيها فاكهين (27) " (سورة الدخان الآيات 25-27).

ومن ضمن استغلال البيئة الاستغلال الأمثل، توصل المصرى فى الزراعة لطرق الحرث باستغلال طاقة الحيوان كالثور، والبذر والحصاد بالمنجل والسكين، ونزع الغطاء عن القشرة والتذرية أو رمى البذور فى الهواء لتنفصل القشرة بتأثير الهواء. وكان يقوم باصطياد الطيور والأسماك والحيوان فى الطبيعة، بالإضافة إلى قيامه باستئناس الطيور وبعض الحيوانات بغرض الاستفادة منها، بل وتوصل إلى تربية الحيوانات المنزلية كالقط والكلب بغرض الترفيه. واستغل النهر والبحار فى الإبحار بالمراكب طلبًا للرزق، كما استغل المراكب فى التنقل وصيد الأسماك، وكان للمراكب استخدام فى الحرب حيث أنشأ الجيش المصرى أسطولًا حربيًا فى الدولة الحديثة. وأكبر دليل على معرفة المصرى ببيئته واستغلالها أنه أدرك أن مصر تفتقر للأخشاب الجيدة المتينة التى تحتاج لكم كبير من الأمطار لتنمو، فكان يقوم بجلب خشب الأرز أو الـ"عش" الجيد من لبنان، وكان يجلب خشب الأبنوس من الجنوب. وقد استخدم خشب الأرز منذ الدولة القديمة على أقل تقدير، فى بناء المراكب الضخمة مثل مركب خوفو بالجيزة، كما استخدم المصرى خشب الأرز فى العمارة.

أما عن التخطيط العمرانى فلدينا عدة نماذج تبين إنجازات المصرى القديم فى هذا المضمار، ومنها جبانة الجيزة والمصاطب أى المقابر الخاصة بأفراد الأسرة المالكة وكبار الموظفين. وقد قسمت جبانة الجيزة من الدولة القديمة بخطوط واضحة وشوارع متوازية ومسافات موحدة بين الوحدات. هناك أيضًا تخطيط لمدينة تل العمارنة أو "آخت أتون" عاصمة أخناتون بمحافظة المنيا الحالية. وكان المصرى القديم يهتم اهتمامًا كبيرًا بالاتجاهات، فكان يصمم كثيرًا

منظر يبين عدة عمليات زراعية من الحصاد للتذرية لنزع القشرة عن البذور، الدولة الحديثة.

البيئة فى مصر القديمة

من المبانى المهمة إما موازية للنهر أو متعامدة عليه بحيث تكون واجهتها مطلة عليه. وهذا شيء متوقع فى بلد كان النهر العظيم قوام حياته. وكان المصرى يراعى اتجاهات الهواء وبالطبع الشمس فى بنائه، ففى أغلب المعابد المصرية، بل وفى بعض الكنائس القبطية الأرثوذكسية المبكرة بالدلتا (حوالى القرن الرابع الميلادي)، نجد أن المعبد مصمم بحيث تتعامد الشمس على أجزاء منه فى أوقات محددة. ومن أشهر تلك الأمثلة معبد أبو سمبل بالنوبة ومعبد الكرنك بالأقصر ومعبد أبو الهول بالجيزة. ورغم اهتمامه بالشمس لأغراض عقائدية إلا أنه عرف فوائدها أيضًا لصحته وزرعه. وكان المصرى يراعى فى زخرفة مبانيه أن ينقش أو يصور مشهدًا للبحر الأحمر مثلًا فيرسمه على الحائط الشرقى للمبنى حيث يقع جغرافيًا فى الشرق، وإذا صور الصحراء الغربية كان يصورها على الحائط الغربي، وهكذا.

أما عن البيئة الصحية والمسكن الصحى فبالإضافة للحدائق الغناء التى كانت تحيط بمنازل علية القوم، ومراعاة اتجاهات المنازل ليدخلها الهواء والشمس، حظى المصرى القديم برفاهية وجود حمام بالمنزل. ورغم ندرة المنازل أو القصور التى وصلت

منزل بحديقة من مقبرة نب آمون من الأسرة الثامنة عشرة بطيبة.

منظر من مقبرة نب أمون من الدولة الحديثة يبين صيد الطيور بالعصا، وبالأسفل منظر لأسماك مختلفة كان المصرى القديم يقوم بصيدها أيضًا.

منظر من مقبرة نب آمون من الأسرة الثامنة عشرة بطيبة يبين عازفة لناى مزدوج بينما ترقص فتاتان وتصفق باقى الفتيات على الإيقاع.

ماكيت خشبى لمركب وطاقم من الأسرة الحادية عشرة، متحف المتروبوليتان بنيويورك.

إلينا من تلك الفترة الزمنية، فقد تم العثور على مقعد مرحاض أو حمَّام يماثل تمامًا ما نطلق عليه فى العصر الحالى اسم "حمَّام بلدي"، بقصر الفرعـــون أمنحتب الثالث مـــن الأسرة الثامنة عشرة بغرب طيبة. وتم العثور على مواســـير فخارية كانت تحمل الماء الفاتر، بل والماء الساخن للحمام. وكان بالقصر مواسير مفتوحة من أعلى أو مسارات لضخ الماء، ومواسير للـــصرف. وربما كانـــت المنازل البسيطة لا تحتوى على مثل تلك الأشياء، لكن المعابد الكبيرة كانت تحتوى على بحيرات ماء ليستحم بها الكهنـــة الذين كانوا يحلقون شعر أجسامهم بالكامل إمعانًا فى النظافة.

أما عن المخلفات الصلبة (القمامة) وطرق التخلص منها، فلم يكتشف الخبراء كثيرًا من المخلفات التى قد تدلنا على أسلوب حياة المصريين، لكن حياة المزارعين تكشف لنا أن ممارسات المصريين القدماء كانت صديقة للبيئة حيـــث إنها كانت قريبة الصلة بممارسات المزارعين فى مصر حتى وقت قريب. فكان المصرى القديم يستخدم السماد الطبيعى ويستفيد برماد المواقد فى تغطية مخلفات الإنسان، ثم يعيد استخدامها كسماد عضوي، كما كان يستغل كافة أجزاء النباتات أو الـــزرع وأجـــزاء الحيوان من جلده ومـــن عظامه حتى لا يهدر أى جزء منه.

الخلاصة:

حافظ المصرى القديم على التوازن والصحـــة بحياته عـــن طريق ملاحظة وفهم البيئـــة المحيطة

بردية نخت من طيبة، الأسرة الثامنة عشرة بالمتحف البريطاني، وفيها المتوفى وزوجته أمام الإله أوزوريس والإلهة ماعت، وخلفهما مبنى كالمنزل وأمامهما بحيرة تحيط بها الأشجار.

البيئة فى مصر القديمة

به، واستغلالها لإســـعاده، كما عمل على الحفـــاظ عليها. وكان حريصًـــا على أن يحيط نفســـه بالجمـــال وبالخـــيرات النافعة له كالمـــاء والهواء والشـــمس، والخـــضرة والـــزرع والحدائق. وكان المصرى القديم يهتم كذلك بالمؤثرات الحســـنة من موسيقى الطبيعة كصـــوت الماء وأصوات الطيور، والموســـيقى التى تعزف بواسطة آلات موســـيقية، فكثيرًا ما نجد مناظر لآلات موســـيقية متنوعـــة مـــن آلات وترية وآلات نفخ هوائيـــة، وأدوات تعتمد على الدق. واهتم بالزراعة واستئناس الحيوان والصيد بأنواعه من صيد البر والبحر. باختصار، لقد برع المصرى فى حصر موارده ومعرفة مـــا ينقصه كالأخشـــاب الجيدة والبخـــور والتوابل وغيرها فكان يجلبها من الخـــارج، فى الغالب عن طريق المقايضة بسلع كانت متوفرة عنده ومطلوبة عند الأمم

منظر للمخابز الملكية للملك رمسيس الثالث من الأسرة التاسعة عشرة، مقسم بخطوط أفقية، ونلاحظ أشكال المخبوزات المختلفة ومنها ما يحاكى الحيوان.

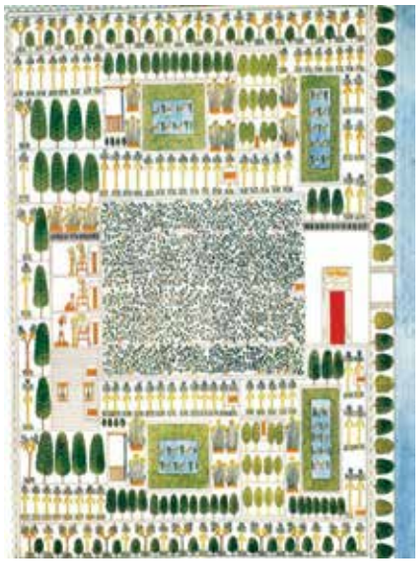

منظر لحدائق سن نفر من الدولة الحديثة.

منظر من مقبرة سن- ندجم من الدولة الحديثة بالبر الغربى بطيبة، يبين صاحب المقبرة وزوجته وهما يقومان بالزراعة (هو يحرث وهى تلقى بالبذر).

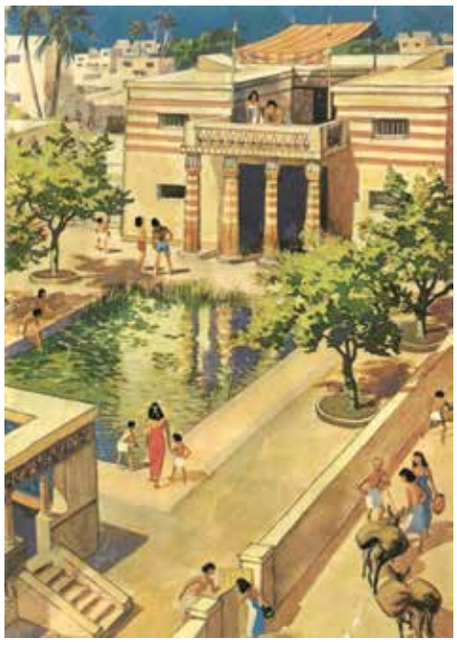

تخيل لمنزل وحديقة من وحى الآثار المصرية القديمة.

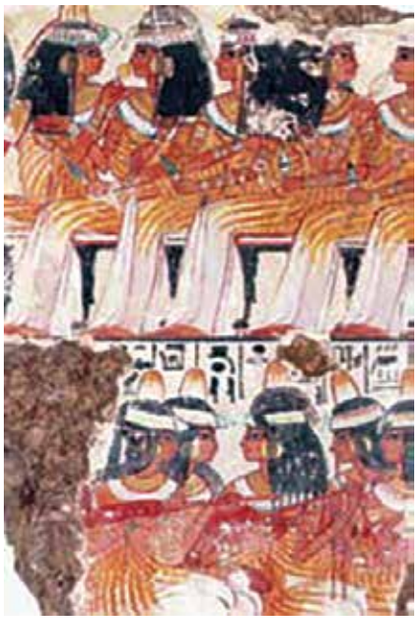

الأخرى، كالذهب والبردى الذى احتفظ المصرى القديم بسر صناعته. أما الزراعة تحديدًا فقد كان فيها سبَّاقًا وتعلم العالم من أساليب المصرى الزراعية، كما عرف المصرى القديم مبكرًا استغلال الحبوب كالشعير وأنواع من الحنطة فى عمل المخبوزات، ولا يزال الخبز مهمًا للغاية لدى المصرى ويمثل قوام الغذاء لدى الكثير من الأسر المصرية.

تاريخنا العظيم
مودة وتسامح

فـرعون الخـروج

طالما شـغل خروج بنى إسرائيل من مصر اهتمام الكثيرين باختلاف عقائدهم وثقافاتهم، لما له من أهمية دينية وتاريخية وسياسية على حد سواء، فقد وردت قصة الخروج فى الكتب السماوية (العهد القديم والقرآن الكريم)، وارتبطت على مر الزمن بالصراع العربى الإسرائيلي، وادعاء الإسرائيليين بأحقيتهم فى أرض فلسطين، وكذلك للتدليل على وجودهم فى مصر منذ بداية العصر الفرعونى ومن ثم زعمهم بأنهم بناة الحضارة المصرية القديمة. وسوف تحاول السطور التالية تفنيد الآراء المختلفة التى تناولت هذا الموضوع، وتتبع ما توافر من أدلة وشواهد (حتى الآن) وتحليلها والاجتهاد فى الوصول لنتائج علمية مبنية على مقدمات منطقية مع التأكيد بأن ما سوف يتم تناوله هنا ما هو إلا محاولة تحتمل الإثبات أو النفى فى ضوء ما قد يكتشف من أدلة جديدة.

لم تمدنا المصادر المصرية القديمة بأية معلومات عن موضوع الخروج، غير أن كلمة "إسرائيل" قد وردت مرة واحدة على أحد الآثار المصرية القديمة كما سوف يتم تناوله فيما بعد. ولذلك فلم يكن من بد لدى العلماء الأجانب من الاعتماد على ما جاء عن هذا الموضوع فى العهد القديم، فى أغلب الأحيان، وعلى ما ورد فى القرآن الكريم. وعليه فقد اجتهد المؤرخون فى محاولة لكشف النقاب عن ذلك اللغز ومعرفة من هو فرعون موسى، فهناك من ادعى أنه حدث إبان عصر الأسرة الثامنة عشرة فى عهد الملكة حتشبسوت (1458 -1507 قبل الميلاد) ورأى آخرون أن الخروج قد حدث فى عصر الأسرة التاسعة عشرة (1189 -1292 قبل الميلاد) فى عهد رمسيس الثانى أو ربما مرنبتاح. بل ولقد وصل البعض حد المبالغة واعتبار أن الخروج قد تم فى عهد الملك ببى الأول فى عصر الأسرة السادسة (2287 -2331 قبل الميلاد).

أ.د. محمد إبراهيم على
وزير الآثار الأسبق
moibrahim53@gmail.com

ولا يخفى على أحد أن السبب الأهم فى الرغبة فى إرجاع حدوث واقعة الخروج إلى أقدم الأزمنة فى التاريخ المصرى هو سبب سياسى بحت وذلك فى محاولة إثبات تواجد اليهود فى فلسطين قبل ظهور الفلسطينيين على مسرح التاريخ فى الأسرة العشرين (1189 قبل الميلاد).

الرأى الأول: حتشبسوت.. هناك من يرجح أن فرعون موسى هو الملكة حتشبسوت، ولكن باستقراء الأدلة نجد هذا الترجيح غير دقيق، إذ أنه من المعروف أن هذا الفرعون، كما ورد فى الكتب السماوية، كان رجلاً وأن زوجته هى التى طلبت منه أن يتبنى الطفل موسى كى يتخذونه ولداً. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: "وقالت امرأة فرعون قُرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون"[1].

وهذا الدليل القرآنى يهدم بلا أدنى شك ذلك الرأى من أساسه، إذ أن فرعون الخروج يجب أن يكون رجلاً وليس امرأة. ومن ناحية أخرى جاء فى العهد القديم: "ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف"[2].

ومعنى هذا أن فرعون موسى جاء بعد سيدنا يوسف عليه السلام بفترة طويلة لدرجة أنه لم يكن قد سمع عنه. وإذا اعترفنا أن سيدنا يوسف عليه السلام كان معاصراً للهكسوس فى عصر الاضمحلال الثانى، فلا بد أن يكون الخروج قد حدث فى فترة أبعد من زمن الأسرة الثامنة عشرة التى يقع فيها حكم حتشبسوت. وأكثر من هذا فقد جاء فى العهد القديم أن المصريين

1 سورة القصص، الآية 9.
2 سفر الخروج، الإصحاح الأول، الآية 8.

تمثال راكع للملك ببى الاول

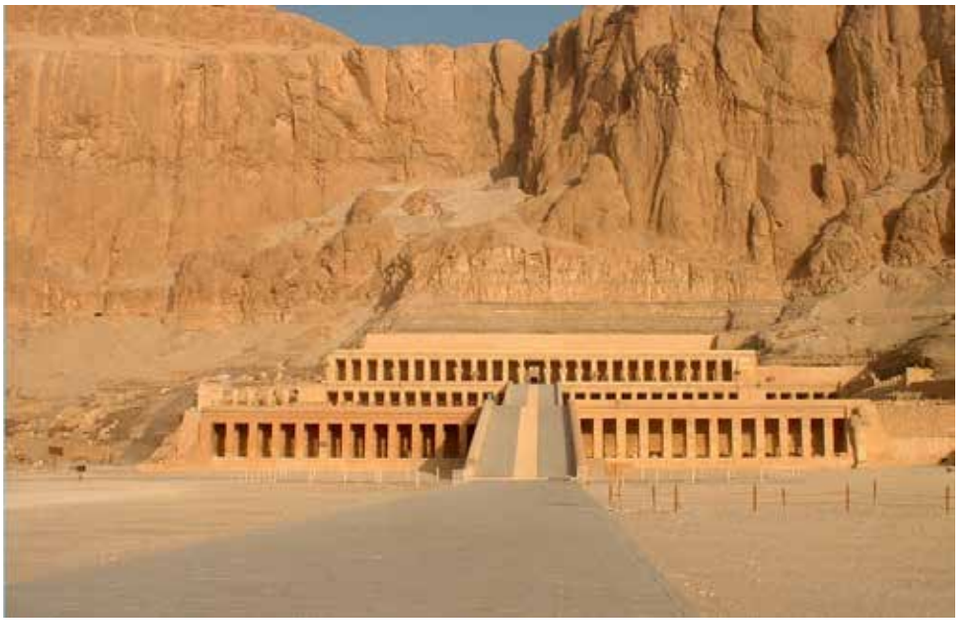

المعبد الجنائزى للملكة حتشبسوت بالدير البحرى غرب الاقصر

سخروا بنى إسرائيل فى بناء مدينتى مخازن "فيثوم" و"بر-رمسيس" حيث يقول: "فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس."[3].

ومن المعروف أن بر- رمسيس هى عاصمة الرعامسة ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وهى تقع فيما يسمى "تل الضبعة" فى شرق الدلتا، أى أنها بنيت بعد حوالى مائتى عام من حكم حتشبسوت، وعلى ذلك فلا يمكن بأى حال من الأحوال تقبل فكرة أن فرعون موسى هو حتشبسوت أو أى ملك قبل ملوك الأسرة التاسعة عشرة على الإطلاق. وجدير بالذكر أن هذه الفكرة يدعمها اليهود فى محاولة منهم لإثبات وجودهم فى مصر قبل عصر الدولة الحديثة.

الرأى الثانى: رمسيس الثانى..

وهناك رأى آخر يرجح أن فرعون موسى هو رمسيس الثانى. ووصل الباحث الإنجليزى "كنت كتشن" إلى أبعد من ذلك حيث يعتقد أن الخروج حدث فى الربع الأول من حكم رمسيس الثانى. ولتفنيد هذا الفرض والرد عليه يتحتم علينا استعراض الأحداث منذ البداية ومحاولة تصورها طبقاً لما ورد فى العهد القديم والقرآن الكريم.

جاءت لفرعون مصر قبل مولد موسى عليه السلام نبوءة تقول أنه سيولد طفل من بنى إسرائيل يضيع على يده حكم مصر. ومن ثم أمر الفرعون بقتل كل الأطفال الذكور الذين يولدون لبنى إسرائيل. وفى تلك الظروف ولد موسى عليه السلام، ولما خافت عليه أمه من القتل أوحى لها الله أن ترضعه وتضعه فى الصندوق ثم تلقيه فى اليم.

"وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين. فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين"[4]

"إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى. أن أقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتُصنع على عينى"[5].

وهكذا سار الصندوق الذى يحمل الرضيع مع تيار مياه النيل حتى قصر الفرعون. وبما أن النيل يجرى من الجنوب إلى الشمال فمعنى ذلك أن أم موسى كانت تقطن مكاناً يقع إلى الجنوب من مقر الملك الذى كان – على ذلك – يقع فى الوجه البحرى، أو بصورة أكثر تحديداً فى بر-رمسيس.

وبعد ذلك نجد زوجة الفرعون (كما جاء فى القرآن الكريم)، أو ابنته (كما جاء فى العهد القديم)

3 سفر الخروج، الإصحاح الأول، الآية 11.

4 سورة القصص، الآيات 8-7.

5 سورة طه، الآيات 39-38.

راس الملكة حتشبسوت بالمتحف المصرى بالقاهرة

تتعلق بالطفل وتقنع الفرعون أن يبقى عليه عسى أن ينفعهم أو يتخذونه ولدا. وهنا يمكن أن نستنتج أن الملك كان فى حاجة لتبنى ولد، وهو ما يبعدنا عن التفكير فى رمسيس الثانى الذى عرف بكثرة أبنائه.

ويشب موسى فى بيت فرعون حتى يصبح شاباً فتياً، ويوخز مصرياً بيده فيرديه قتيلاً. ويمكن تقدير عمره عند هذا الحدث بحوالى بضعة وعشرين عاماً. ثم يفر موسى إلى أرض مدين ويتزوج من ابنة سيدنا شعيب عليه السلام ويمكث هناك عشر سنوات. وتأتيه الرسالة وعمره يقارب الأربعين سنة، وهو السن الذى تلقى فيه غالب الرسل رسالات ربهم. ويعود موسى بأهله إلى مصر ويمر بأرض سيناء حيث كلم ربه:

"فقال الرب إنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. إنى علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم

من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة. إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً. إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين"[6].

ثم يدخل مصر ويقابل الفرعون ويعرض عليه الدخول فى دينه وأن يسمح له بالخروج ببنى إسرائيل، وفى ذلك يذكر العهد القديم:

"ثم قال الرب لموسى قلب فرعون غليظ. قد أبى أن يطلق الشعب. اذهب إلى فرعون فى الصباح. إنه يخرج إلى الماء. وقف للقائه على حافة النهر. والعصا التى تحولت حية تأخذها فى يدك. وتقول له الرب إله العبرانيين أرسلنى إليك قائلاً أطلق شعبى ليعبدنى فى البرية[7]".

ويرفض فرعون الدخول فى

6 سفر الخروج، الإصحاح الثالث، الآيات 7-8.

7 - سفر الخروج، الإصحاح السابع، الآيات 14-16.

دين موسى وأن يرسل معه بنى إسرائيل. وبسبب تكبره فى الأرض أصيبت مصر بعدة ابتلاءات كلما زاد الفرعون فى عناده. وكما ورد فى العهد القديم أن تحول ماء النيل إلى دم ثم انتشرت الضفادع فى تخوم البلاد يليها البعوض والقمل والذباب. إلا أن كل هذه المعجزات لم تزد الفرعون إلا شططاً فأمات الله كل ماشية المصريين ثم أصاب الشعب بالدمامل. ورغم كل ذلك لم يرجع فرعون عن عناده فأرسل الله رعداً وبرداً وجرت نار على الأرض فضربت كل الحقول ثم أتى الجراد وقضى على البقية الباقية حتى لم يبق شئ أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر وأخيراً خيم الظلام على أرض مصر ثلاثة أيام وأمات الله كل بكر فى مصر بدءاً من بكر الفرعون إلى بكر البهيمة فكان صراخ عظيم فى كل أنحاء البلاد لم يُشهد مثله من قبل. وهنا ألح المصريون على فرعون أن يطلق بنى إسرائيل لأن البلاد قد خربت[8].

8 - راجع سفر الخروج الإصحاح 11-7.

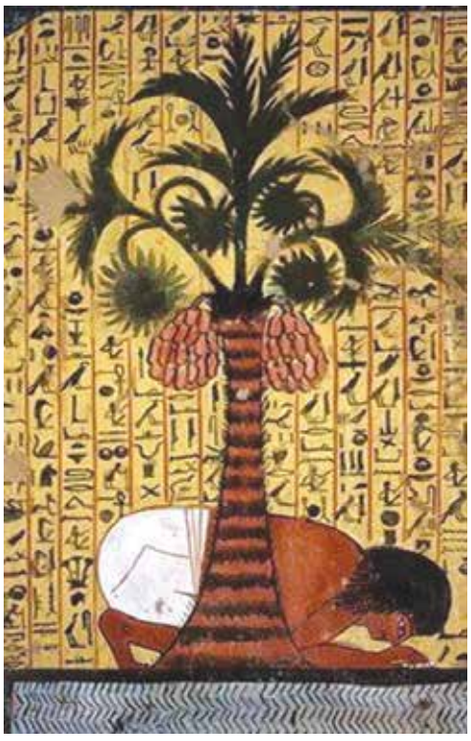

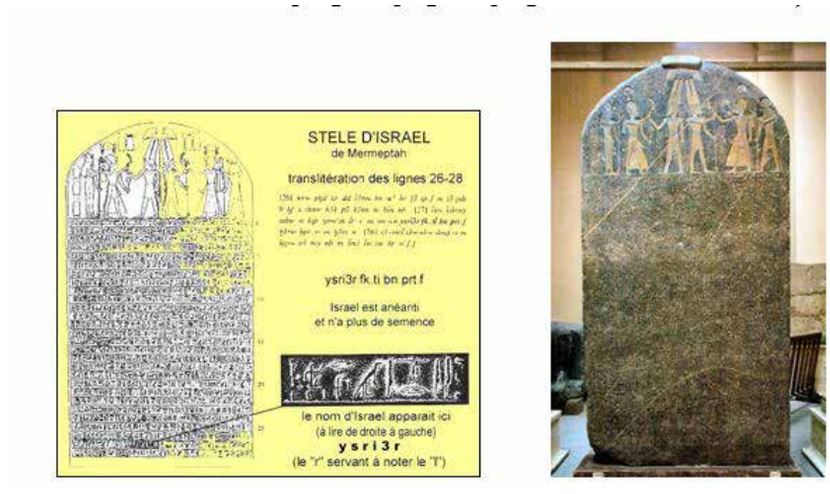

لوحة مرنبتاح (لوحة اسرائيل) بالمتحف المصرى بالقاهرة

فرعون الخروج

وباستعراض الكوارث التى حدثت فى مصر قبيل خروج بنى إسرائيل نجد أننا بصدد أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية غير مستقرة على كل الأصعدة ولا تستقيم مع ما عرف عن عصر رمسيس الثانى الذى حكم مصر حوالى سبعة وستين عاماً، كانت مصر خلالها دولة قوية مستقرة ذات سيادة ويؤيد ذلك كثرة احتفال رمسيس بعيد "السد" والتى كان آخرها فى العام 67 من حكمه أى قبل وفاته بقليل. ونتيجة لهذا الاستقرار استطاع الملك أن يعمر وأن يبنى حتى أن آثاره تغطى إلى الآن طول البلاد وعرضها.

وأخيراً يخرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل من مصر يتبعهم فرعون وجنوده، ويضرب موسى بعصاه البحر ويعبره ببنى إسرائيل بينما يغرق فرعون وجنوده، وهو الحدث الذى جاء فى تعبير العهد القديم على نحو ضمنى "فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر"[9]. أما القرآن الكريم الذى كان أكثر اهتماماً بالفرعون ذاته فقد خصه بالحديث: "فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون"[10].

إذاً فمن المؤكد موت فرعون الخروج غريقاً، وهو ما يدحض رأى كتشن الذى يقول إن الخروج قد تم فى الربع الأول من عهد رمسيس الثانى.

وقد سافرت مومياء رمسيس الثانى إلى فرنسا وتم فحصها فحصاً دقيقاً ولم يسفر ذلك عن كشف أى دليل ولو بسيط على أن رمسيس قد مات غريقاً. ومن هنا تنتفى تهمة فرعون موسى عن رمسيس الثانى. وأخيراً ولو سلمنا جدلاً أن بنى إسرائيل قد خرجوا فى عصر رمسيس الثانى، فعن من إذن يتحدث النص الذى كتب على اللوحة التى سوف يأتى ذكرها لاحقاً؟

الرأى الثالث: مرنبتاح.. أما أصحاب الرأى ثالث فيرون أن

9 - سفر الخروج، الإصحاح 14، الآية 30.

10 - سورة يونس، الآية 92.

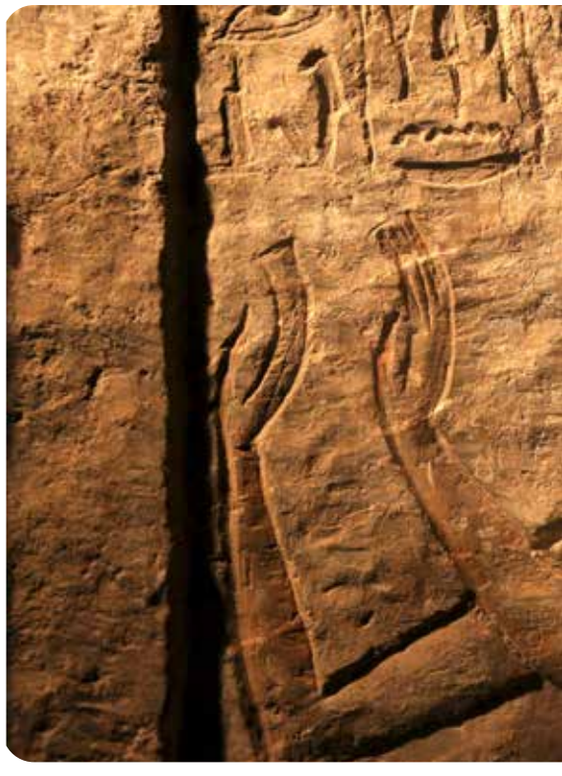

فرعـــون موسى لابـــد وأن يكون مرنبتـــاح، الابـــن الثالـــث عشر لرمســـيس الثانـــى وخليفته فى الحكم. وذلك اســـتناداً إلى لوحة هذا الملك والمعروفة باسم "لوحة إسرائيل" والموجودة الآن بالمتحف المصرى والتى ذكر عليها مرنبتاح أنه قضى عـــلى بنى إسرائيل وأباد بذرتهم.

وهنا يطرح ســـؤال ؛ هل يقصد بذلك دولة إسرائيل أم جماعة بنى إسرائيل؟ وبالرجوع للنص نجد أن مرنبتاح أشار لإسرائيل بمخصص أى أنه يقـــصد بذلك جماعة من الناس وليـــس دولة أو مدينة وإلا لكان المخصـــص أو. وكلمة أباد بذرتهم توحى لنـــا أنه قضى على نسلهم. ويمكن بذلك أن نربط بين هذا المعنى وقتل الفرعون للأبناء الذكور من بنى إسرائيل، فالذكور هم أصل البذرة وإذا قضى عليهم قضى على البذرة.

ولكن فترة حكم مرنبتاح لا تتحمل كل هذه الأحداث منذ مولد موسى عليه السلام وهروبه من مصر ثم عودته إليها بعد حوالى عشر سنوات وحتى خروجه ببنى إسرائيل وغرق الفرعون. إذ أننا نعلم أن مرنبتاح حكم لمدة تســـعة عشر عاماً فقط، وعلى هذا فإنه من الجائز أن يكون مرنبتاح هـــو الفرعون الذى قتل أبناء بنى إسرائيـــل الذكور، وهو الذى ربى ســـيدنا موسى واتخذه ولدا، أمـــا الخـــروج فيكون قد حدث فى عهد ســـتى الثانى خليفة مرنبتـــاح أو أى ملك تال. ويؤكد ذلك ما جاء فى العهد القديم من أن موسى لم يرجـــع إلى مصر إلا بعد وفاة الفرعون الذى قتل المصرى فى زمنه: "وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملـــك مصر مـــات. وتنهد بنو إسرائيل مـــن العبودية وصرخوا. فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبوديـــة"[11]. وربما كان هذا هو الرأى الأقرب للصواب، إلا أن هذا الموضـــوع لا يزال يعـــد من أهم الأسرار التى تحير بال المتخصصين سواء فى مجال التاريخ أو الدين أو السياسة.

11 العهد القديم، الإصحاح الثانى، الآية 23.

عشرة كتب شكلت العالم

على هامش الاجتماع الأخير لمجلس الأمناء لمكتبة الإسكندرية (13 – 11 مايو 2017) إبّان إحدى فترات الاستراحة، التى تتيح لنا الفرصة للتكالب على ما هو معروض فى قاعة الاجتماعات على مائدة جانبية الموضوع من مؤلفاتً شائقة فى مجالات شتى من العلوم والثقافة والفنون، استوقف انتباهى بين هذا الكم الهائل من الإبداعات كُتيب صغير يحمل العنوان المشار إليه عاليه متضمناً بين دفتيه نصاً بالإنجليزية لبحث ألقاه مدير المكتبة السابق د. إسماعيل سراج الدين فى إحدى الجامعات بالخارج. وإزاء جاذبية الموضوع لم أملك إلا أن أنتهز أول فرصة ممكنة لألتهم هذا الكتاب الصغير فى الحجم الموجز فى العرض وإن جاء دسماً فى الموضوع وقيماً فى المعنى.

الأمر الذى حمسنى أن أشرك الزملاء قراء مجلة "الدبلوماسى" فى الاطلاع على ذلك الكُتيب المتميز إلى جانب إضافات رأيت أهمية تضمينها فى سياق العرض، مما قد يحفز البعض أن يثير ذات التساؤل تجاه ذاته أو فيما بين أقرانه فى نوع من التمرين الرياضى للذهن بُغية إثراء فكر أو إيقاظ وعى أو إشباع حب استطلاع.

يستهل الكاتب بحثه بإثارة تساؤل يوضح أنه وجه إليه فى مناسبات عدة عن تقديره الشخصى لأمهات الكُتب التى تركت بصمات غائرة على مسيرة التطور الإنسانى، الأمر الذى دفعه أن يمعن الفكر لاختيار مجموعة من المؤلفات لا تزيد عن العشرة، التى أسهمت بالفعل فى بناء الفكر الإنسانى بما أثر بعمق على تقدم الإنسانية وساهم فى الإضافة التراكمية لما يطلق عليه الحضارة. ويحرص محدثنا فى أكثر من موقع أن يسلط الضوء على المعايير التى استند إليها فى تحديد تلك المؤلفات العشرة موضحاً أنه ليس بالضرورة أن تكون تلك القائمة هى الأثيرة إلى قلبه، وإن كانت فى تقديرى جملة المؤلفات التى تمتع كل منها بذيوع شاسع وتأثير بارز كان من شأنهما الدفع بعجلة تطور الإنسانية.

سفيرة فاطمة الزهراء عتمان

lismoi2013@gmail.com

الكُتب المقدسة

استهل الكاتب بحثه من فرضية أن أكثر النصوص تأثيراً على البشر تتمثل فى النصوص الدينية، وعليه استند على عنصر العدد الذى بلغه كل من أتباع الكتاب المقدس (نحو 2.3 بليون نسمة)، ثم القرآن الكريم (نحو 1.4 بليون نسمة)، فكتاب Veda للديانة الهندوسية (نحو 735 مليون نسمة) لا يحددها كالكتب الثلاثة الرئيسية التى جاءت على قمة القائمة الأكثر ذيوعاً وتأثيراً على البشر، مع ملاحظة أوردها بأن أتباع بوذا لا يزيد عددهم عن 450 مليون نسمة فى العالم. وبذلك استبعدت التعاليم البوذية من تلك القائمة.

الأورجانون لـ أرسطو

أما فيما يتعلق بالَمؤلَف أو الكتاب فى معناه التقليدى، فيبدأ محدثنا رحلته بمجال العلوم والفلسفة – دون أن يغفل الإشارة ذات المغزى بأن العلوم عُرفت منذ القدم باسم "الفلسفة الطبيعية"- بالغوص إلى أعماق الكلاسيكيات الإغريقية القديمة، حين يضع مؤلف Organon على قمة سلم التفضيل، موضحاً أن تلك المكانة الرفيعة للغاية التى يتمتع بها ذلك المؤلف عبر الزمان والمكان تُعزى إلى التأثير الكاسح الذى اكتسبه منذ عصر الإغريق، مروراً بمرحلة

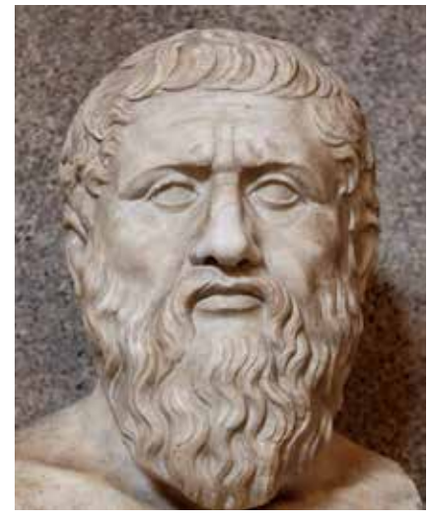

سقراط

اقليدس

العصور الوسطى، ناهينا عن تأثيره على الفلاسفة المسلمين حتى يومنا هذا، حيث يُعد هذا المؤلَف الركيزة المحورية التى يستند إليها علم المنطق المتبع فى العلوم والفلسفة. وقد سمحت لنفسى أن ألقى قبساً من الضوء على نص محاضرنا لتوضيح أن ذلك العنوان "أورجانون" هو الاسم الأكاديمى الذى يطلق على مجموعة مؤلفات أرسطو فى مجال المنطق هو كلمة إغريقية تعنى "الآلة"، سبق أرسطو فى إبداعها الفيلسوف الإغريقى "ديوجين"، وتضم مجموعة الأورجانون المؤلفات التالية: المدخل/ المقولات/ العبارة/ التحليلات الأولى أو القياس/ التحليلات السامية أو البرهان/ الجدل/ السفسطة/ الخطابة/ الشعر. كما أود أن أضيف أن "ابن المقفع" اهتم بأن ينقل الكتب الأربعة الأولى من الأورجانون، كما طالب خالد بن يزيد بن معاوية من بعض اليونانيين المقيمين فى مدينة الإسكندرية آنذاك ترجمة كُتب الأورجانون إلى العربية، وقد تُرجم الأورجانون بكتبه جمعاء ضمن حركة الترجمة التى وصلت إلى ذروتها فى "بيت الحكمة" فى بغداد فى عصر "المأمون".

العناصر أو الأصول

The Elements لـ (إقليدس/ 300 ق.م) وهو يأتى أيضاً من قلب مكتبة الإسكندرية القديمة. ويوضح الكاتب أن الدخول لهذا الكتاب الذى ألفه العالم الإغريقى "إقليدس" عام 300 ق.م يعود إلى كونه أساساً للرياضيات، ويرسى قواعد الكثير من علم الهندسة الذى نعرفه حتى اليوم، وهو من أوسع الكتب العلمية انتشاراً فى التدريس وذلك بشكل لم يتغير فى معظمه منذ 2200 عام، وقد ساهم إلى حد كبير فى تطور علم المنطق والعلوم الحديثة. وأود أن أضيف أن إقليدس قد وضع فى كتابه المكون من 12 جزءاً كافة معارف البشر المتاحة له حتى زمانه فى العلوم الرياضية وشرحاً وصياغة بأسلوب منطقى رفيع، وقد كان هذا المؤلف من أوائل الكتب فى الرياضيات إثر اختراع الطباعة؛ ويذكر أيضاً أن كتاب "الأصول" قد ترجم على يد العالم "اسحاق حنين" فى العصر العباسى، حيث مثل مادة دسمة بالنسبة لأبحاث "الخوارزمى" و"ابن الهيثم"، وغيرهم.

الحوار بين النظامين الرئيسيين للكون لـ "جاليليو جاليلى (1632)" قبل الانتقال إلى المؤلف الثالث، يشير محدثنا إلى التردد الذى انتابه حتى يصل إلى ذلك الخيار، فهو يفضى لنا بما راوده من ميل لتناول الإسهامات العلمية الجليلة المنسوبة إلى الحسن بن الهيثم ونجاحه فى التوصل إلى وضع المنهج العلمى فى نهاية القرن العاشر، كما يسرى ذلك أيضاً على أعمال "الخوارزمى" فى الرياضيات، إضافة إلى "ابن سيناء" فى الطب أو "ابن خلدون" فى علم الاجتماع، بل و"ابن الشاطر" فى الفلك. إلا أن محدثنا يوضح أن تلك القامات العظيمة قد حالت ملابسات تاريخية دون ذيوع أعمالها وانتشارها خلافاً لما حظى به علماء آخرون، كما لا يُخفى الباحث أنه كان يميل إلى وضع الاختراع الهندى للـ "صفر" بين الأعمال الكبرى لاسيما وأنه مهد الطريق لظهور العلامة العشرية واستخدامها. كما ألمح إلى الثورة التى أحدثها تبنى العرب للأرقام الهندية ونقلهم إياها للأوروبيين حيث عُرفت حتى اليوم بالأرقام العربية. لكنه أورد توضيحاً أن تلك الاختراعات أو الاكتشافات لا تمثل مؤلَفاً أو كتاباً بالمعنى المتفق عليه، إذ تأتى على غرار اكتشافات مهمة أيضاً من واقع أوراق البردى أو الأوراق المطبوعة لاحقاً، ولكنها لم تأخذ شكل الكتاب بالمعنى الحرفى ولذلك لم تتضمنها قائمة الكُتب العشرة. وعليه يستمر محدثنا فى رحلته العلمية "الانتقائية" عبر العصور ليصل بنا إلى بعد عصر النهضة بظهور مؤلف العالم الإيطالى "جاليليو" المشار إليه

عاليه، والذى يقارن فى أجزائه الثلاثة بين نظرية "بطليموس" وبين نظرية "كوبرنكس" حول علاقة الكون بالشمس، معتبراً ذلك المؤلف علامة فارقة فى تاريخ المعرفة، حيث فجر ثورة علمية حقيقية فى أعقاب عصر النهضة. ولم ينس محدثنا أن يشير إلى أن "كوبرنكس" فى حقيقة الأمر، وليس "جاليليو"، هو أول من طرح بعد عصر النهضة رؤيته الثورية المتمثلة فى مركزية الشمس بالنسبة للكون، أى أن الكرة الأرضية هى التى تدور حول الشمس وليس العكس خلافاً لما كان مستقراً عليه فى المخيلة حتى ذلك الكشف العلمى الخطير. ويشير أيضاً إلى أن نظرية كوبرنكس استندت إلى "مدرسة المرجة" التى أسسها ناصر الدين التونسى إثر سقوط بغداد على أيدى هولاكو عام 1258، فضلاً عن الدراسات الرياضية التى أعدها "ابن الشاطر" منتقداً نظرية "بطليموس" التى تمسك فيها بأن الشمس هى التى تدور حول الأرض. وقد جاء "جاليليو" ليدافع باستماتة فى مؤلفه الشهير "حوار حول النظامين الرئيسيين للكون" عن نظرية "كوبرنكس". ويُعد هذا المؤلف بمثابة طفرة علمية فى المنهج المتبع للبحث، وغدا يؤرخ به كنهاية لعصور الظلام التى غرقت فيها أوروبا طيلة القرون الوسطى نظراً لتجسيده الانطلاقة الحقيقية نحو إعمال العقل فى مواجهة الانغلاق. وقد أكد الصراع الذى فجره هذا المؤلف فى نهاية الأمر إلى إدراك أهمية استخدام المنهج العقلانى لتقديم الدلائل والتوصل إلى الاستنتاجات استناداً إلى الملاحظة والاستخلاصات المنطقية بما يمثل بالفعل حجر الزاوية لحرية التعبير وتحرر العقل الإنسانى من سطوة الجمود. وقد أمضى "جاليليو" ست سنوات فى تأليفه لذلك الكتاب مؤيداً بشكل مطلق نظرية "كوبرنكس" القائلة بدوران الأرض حول الشمس، الأمر الذى عارضته الكنيسة الكاثوليكية بشراسة، وأخذت فى ملاحقة "جاليليو" معتبرة موقفه بدعة وضلالة. وقد تمت محاكمة العالم الإيطالى وإجباره عنوة على الاعتراف بأن كل ما كتبه كان من قبيل الهرطقة. وقد تم الحكم عليه بالإقامة الجبرية حتى وفاته. وحُظر نشر هذا الكتاب، واستمر منع تداوله حتى عام 1822 حيث أُعيد نشره على نطاق واسع. وإذا كان "كوبرنكس" قد سبق "جاليليو" فى صياغة نظرية مركزية الشمس، يثار التساؤل حول مدعاة تفوق مؤلف "الحوار بين النظامين الرئيسيين للكون" فى الذيوع والانتشار على مؤلف "كوبرنكس" نفسه. ويسعى محدثنا فى محاضرته إلى تفسير ذلك استناداً إلى أن مؤلف "جاليليو" قد كُتب باللغة الإيطالية الأسهل انتشاراً من اللغة اللاتينية آنذاك، خلافاً لما جرى عليه العُرف فى الدوائر العلمية. ويشار فى هذا السياق إلى أن "دانتى" كان قد سبق "جاليليو" فى الكتابة باللغة الإيطالية حين كتب بها "الكوميديا الإلهية"، يضاف إلى ما سبق إلى أنه يُعزى عبقرية "جاليليو" أنه آثر شرح نظرية مركزية الشمس فى شكل شيق جديد متخذاً قالب مسرحية ثلاثية ، من

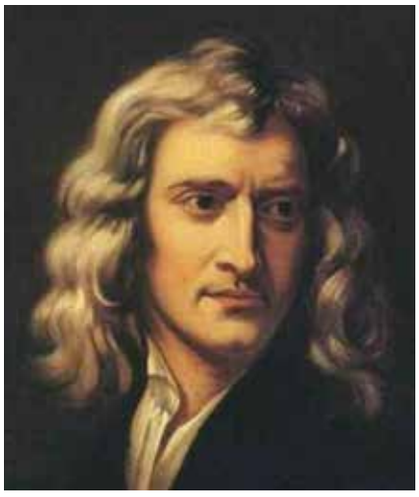

نيوتن

ثلاثة أشخاص يدور بينهم حوار حول مركزية الشمس إيجاباً وسلباً. Principia لـ "اسحاق نيوتن" تستمر قافلة العلم والفلسفة فى التقدم عبر الزمن ليتوقف محاضرنا أمام عام 1642 وهو العام الذى شهد رحيل العالم الإيطالى "جاليليو" وميلاد عالم الفيزياء والرياضيات الإنجليزى "إسحاق نيوتن"، الذى تجسدت عبقريته عام 1678 فى مؤلفه العظيم "المبادئ الرياضية للفلسفة الذى اشتهر تحت عنوانه المختصر "المبادئ" الذى يُعد حتى اليوم من أهم المؤلفات فى تاريخ العلم وذلك بعد ثلاثة قرون من نشره للمرة الأولى. ويوضح محاضرنا خصوصية ذلك المؤلف الذى نشر فى ثلاثة أجزاء، مشيراً إلى أنه على الرغم من لغته اللاتينية عسيرة الفهم ومضمونها الرياضى شديد التعقيد، إلا أن تميزه فى مسار التاريخ العلمى يعود إلى نجاحه فى دحض الاعتقاد السائد قبل "نيوتن" بعدم وجود أية قوانين تحكم الكون، وأما إذا كان هناك مثل تلك القوانين فإن فهمها يتعذر على العقل البشرى. إلا أنه بعد صدور كتاب "مبادئ الرياضيات"

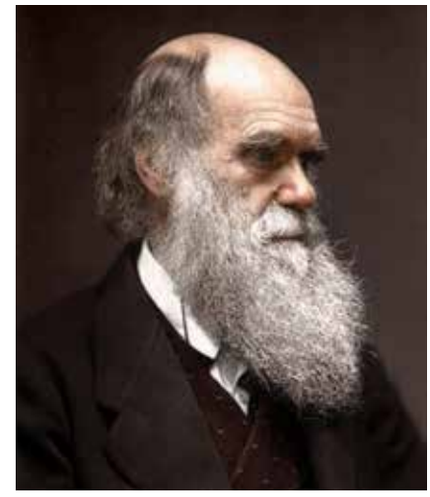

داروين

فقد انقلب المفهوم بالنسبة لرؤية العالم للكون رأساً على عقب، فقد أثبت "نيوتن" أن هناك بالفعل قوانين تحكم الكون، وأن ما يجهله الانسان أو يتعذر فهمه فى ذلك التوقيت، فسوف يستطيع الإنسان أن يستكشفه أو يتفهمه مستقبلاً. الأمر الذى مثله لا جدال طفرة هائلة فى إدراك العالم لحقائق قوانين الكون.

وأود فى هذا السياق، أن أضيف وصف "أينشتاين" للعالم نيوتن بأنه " ذلك العالم المحظوظ صاحب الطفولة السعيدة فى العلم، فكانت الطبيعة كتاباً مفتوحاً له يقرأ حروفه دون عناء". وإذا عُدنا إلى محاضرنا فنجده يؤكد أننا نعيش اليوم عالم نيوتن وإبداعاته فى النسبية والطبيعة الكمية. فمازالت قوانين نيوتن فى مؤلفه سارية والكثير من الاختراعات الميكانيكية فى القرنين الـ 19 والـ 20، حيث يظل مؤسس الميكانيكا الكلاسيكية التى أسهمت إلى حد كبير فى الثورة الصناعية ثم التطور التكنولوجى المستمر الذى نعيشه فى عصرنا الحالى.

أصل الأنواع

والانتخاب الطبيعى وبقاء الأجناس المتميزة فى الصراع حول الحياة لـ "تشارلز داروين" 1859: يرى محدثنا فى تلك النظرية تطوراً هائلاً فى تاريخ العلم، ويؤكد فى محاضرته على أنها قمة فيما توصل إليه علم الأحياء، مشيراً إلى استخدامنا إياها فى حياتنا اليومية، فهى قادرة على سبيل المثال أن تفسر كيف تكتسب الحشرات مناعة بالنسبة للمبيدات، وكيف يمكن أن تقاوم البكتيريا المضادات الحيوية. ويوضح أنه إذا ما تزاوجت نظرية "داروين" مع قوانين "مندل" للوراثة، فيفسر لنا ذلك الكثير بالنسبة لأسلوب تعاملنا مع الحيوانات والنباتات، ومن ثم تغذى تلك النظرية إدراك البشر للكائنات الحية التى تشاركنا تلك الحياة.

بيد أنه جدير بالإشارة إلى حرص محدثنا على تجنب الخوض فى السجال المدوى الذى فجرته نظرية "داروين"، حيث إننا لو محصنا تاريخ العلم والفكر الإنسانى لكان من الصعب العثور على كتاب قد فجر من مراجل الصخب والجدل بقدر مؤلف "داروين" قبل أن ينتهى به الأمر أن تعتبر هذه الفرضية العلمية أساساً من أسس الحداثة الفكرية الطليعية. إذ رأى الكثيرون أن هذا المؤلف يتنافى مع التعاليم الدينية لاسيما من ناحية ما جاء به بالنسبة للأصل غير المقدس للكائن البشرى، إلا أنه من الجدير أن نتذكر أن "داروين" الذى يُعد من أعظم العلماء التنويريين الذين عرفتهم الإنسانية وتاريخها قال إثر انتهائه من صياغة فرضيته.. "إننى فى حقيقة الأمر لا أجد نفسى قادراً بأية حال من الأحوال على التظاهر بأننى أستطيع إلقاء الضوء على هذا الموضوع العويص. إن لغز بداية الأشياء جميعها غير قابل للحل من قِبَلِنا، وأنا كواحد من الناس إزاء هذا، على أن أرضى بالبقاء لا داريَ"... كأنه إعلان عن عجز العقل العلمى عن الغوص فى التفسير حتى آخره، كقناعة تفرضها حدود المعرفة العلمية، كما سيؤكد دارسو حياة "داروين" وكتاباته بعد ذلك.

يجدر التوقف أمام حرص المحاضر على تأكيد ثقل مؤلَف "داروين" على مسار العلوم (خاصة علم الأحياء) مقارنة بإسهامات علمية أخرى سواء فى استقطابها للانتباه أو إثارتها للكثير من اللغط حولها، وإن لم يصل تأثيرها على مسار تقدم الفكر الإنسانى إلى مكانة مؤلَف "داروين"، مشيراً فى هذا الصدد على سبيل المثال إلى مؤلفات "سيجموند فرويد" فى اكتشافه للاوعى، أو جهود "كارل ماركس" فى مجال العلوم الاجتماعية التى انعكست فى التحليل الديناميكى للمجتمعات (وهو النهج الذى ظهرت إرهاصاته الأولى فى أعمال ابن خلدون)، إلا أن تأثير "كارل ماركس" اعتمد فى انتشاره أساساً على جهود "لينين" فيما بعد إلى أن غدت الماركسية/ اللينينية النظرية التى استندت إليها الأنظمة الشيوعية، وإن لم يلبث أن أثبتت حركة التاريخ عجز تلك النظرية على التأقلم مع طبيعة المجتمعات، كما لم تكتسب كتابات "فرويد" – فى تقدير محاضرنا – ذلك الأثر العميق على حركة التقدم الإنسانى مثلما تمتع به مؤلف أصل الأنواع لـ"داروين". مؤلفات وليم شيكسبير: إثر ذلك

التنـــاول المتميز لمكانـــة وتأثير تلك المؤلفات الأربعـــة التى تطرقنا إليها فى مســـيرة تقدم العلوم والفلســـفة والأهمية البالغـــة التى تتمتع بها إلى اليوم يدير محدثنا دفة البحث نحو عالم الفنون والآداب، ذلك أن البشرية وفقاً لتعبيره، لا تـــدور فقط حول العلوم والفلسفة والأديان، ومن خضم هذا المحيط الهائل الذى انتهجه العقل البشرى من فنون وإبداعات، يتخير الكاتب أعمال "وليم شيكسبير" التى ترجمت لمكانتها إلى كل لغات العالم، حيث مازالت الأجيال تلو الأجيال تلجأ إلى التراث الشيكســـبيرى تستوحى منها الإلهام وتســـتمد منها الطاقة على الإبداع والخيال، كما تحرص فى تقديم تلك الأعمال الخالدة وعرضها من زوايا فنية مقترنة برؤى اجتماعية وسياسية بل وذاتية مختلفة، بحيث قُدِم لنا مثـــلاً "ماكبث" اليابانى أو الملـــك "لير" المـــصرى أو "هاملت" الـــروسى، فجميعهـــم معاصرون وجميعهم خالدون.

ويشير محدثنا فى سياق هذا العرض إلى أن هناك بداهة كمـــاً هائلاً من الأعمـــال الأدبية الخالدة واســـعة الانتشـــار متوقفاً أمام رواية "دون كيشوت" للكاتب الأسبانى الشهير "ســـيرفانتس" التى نُشرت جزئين عام 1605 وعام 1615، بالإضافة إلى أدبيـــات الطفـــل، حيث خص بالذكر على سبيل المثال فى هذا المقام "بيرو" الفرنسى (1703 – 1628) أو "أندرسون" الدنماركى (1805 – 1875) والتى أثرت مخيلة طفولة أجيال تلو الأخرى فى شـــتى أرجاء العالم (سندريلا)، (الأميرة النائمة)، (عقلة الأصبع)، (ملكة الثلوج)، إلا أن الكاتب رأى أن ذيوع وانتشـــار تلك الأعمال بين أطفال العالم أجمع على مر عقود طويلة لم تصل إلى نفاذ وتأثير الإرث الشيكسبيرى الخالد.

جاليليو

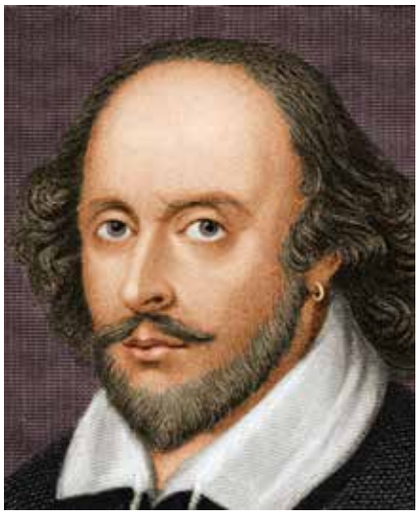

شكسبير

الإعـــلان العالمى لحقوق الإنســـان 1948: يســـتثير الدهشـــة تخير محاضرنا للمؤلـــف العاشر والأخير فى قائمة أولوياته بعيداً عن المؤلفات العلمية أو الأدبية، حين أنهى قائمته بوثيقة دوليـــة قانونية إنســـانية متمثلة فى الإعـــلان العالمى لحقوق الإنســـان الصادر عن الأمم المتحدة عام 1948، مكثفاً الضوء على عالمية الوثيقة وتغلغل أحكامها ومبادئها فى الكثير من العقود والمواثيق الدولية فيما بعد، مؤكداً أن مضمون الإعلان غدا سائداً للفكر العالمى، حيث بات موضوع الإعلان هـــو المنظور الذى يحلـــل من خلاله المواطن ســـلوكه وســـلوك الآخرين والمجتمع برمته، وأياً كان التعامل مع منظومة حقوق الإنســـان فى مجتمع من المجتمعات فهى لا شـــك غدت تؤثر بعمق على مجمل القيم السائدة.

فى ختام العرض أتفق تماماً مع ما يذكره المحاضر بأنه من المتوقع أن يعترض الكثيرون على تلك القائمة، ويرون فى هـــذا الانتقاء أنه موغل فى الذاتية، متســـائلين لماذا لم يتم إضافة هـــذا المؤلف أو ذاك، أو أن كتاباً بعينه يفوق أهمية وانتشاراً وتأثيراً لاختيـــارات القائمة التى قمت بعرضها.

ليس من شـــك أنه لا حدود لتلك التساؤلات، وإن بعدت عن الهدف الذى يتوخاه وضـــع هذه القائمة ســـواء وفقاً للرؤية الشـــخصية للمحـــاضر أو أية رؤية أخرى من هنـــا أو هناك، ذلـــك لأن الهدف من هذا الجهـــد الذهنى يكمن فى القدرة على جذب الانتباه واستثارة اهتمام المطلع عليها، حفزاً للتعمق فى معِينه المعـــرفى ووعائه الثقافى والفكرى لمحاولـــة ترتيب قائمة تضم مجموعة أخرى من المؤلفات أو إدخال تعديلات بسيطة وربما جوهرية للقائمـــة محل العرض، ذلك أن هـــذا الجهد الذهنى فى حد ذاته يمثل نشـــاطاً عقلياً مطلوباً لكل من كان شـــغوفاً بالمعرفة أو باحثاً عن الحقيقة.

عن الجمال سألونى

..كان ومازال انتمائى الفنى الأول يرجع إلى الفن التشكيلى:
فمـــن أعز النعم التى منّ الله عـــلىّ بها منذ الصغر القدرة على قـــراءة الوجوه والتفرس فى ملامحها، بل السفر فى أدق أرجائها وتفسير مختلف تعبيراتها واستشفاف مكنون معانيها واكتشاف ما تفصح عنه لواحظها من دلالات تعجز الكلمات عن ترجمتها..

سفير د. محمد حسونة
mohammad.elernitynow@gmail.com

فالوجه أســـمى تجل للهوية، وإذا كانت البصمـــة ثابتة فالوجه هوية تتجدد فى كل لحظة...

وليست أول بورتريهات فى التاريخ هى تلك التى رسمها مصورو عصر النهضة كما يزعـــم مؤرخو الغرب وإنما نجدها فى «لوحات الفيوم:» حيث تتأرجح روحنـــا القومية بين الحـــزن والشـــجن، وتتراقص بين الزمن والأبـــد، ذاهلة من تأكدها أن الموت مجرد جسر للخلود .. وهذا سر ازدهار الحضارة المصرية والشـــك فيه بسبب اضمحلالها..

وقد انعكس هذا الشـــجن فى أغانى مطربينا من صالـــح عبد الحى إلى العندليب الأســـمر مروراً بفريد يا للمفارقة «الأطرش»!.

أما الموسيقى فهى لغتى الفنية الثانية، أبعد ما تكون عن الموهبة ولا علاقة لى بعزفها وإنما اكتسبتها بطول التدريب على الإنصات، والفضول العلمى الذى ترعرع فى ظل ما أتاحته ثورة الاتصالات من وعى كوكبى، بالإضافة إلى مصادفة تلك المجموعة النادرة من الأسطوانات التى جلبها والدى من موسكو حيث كان يدرس الهندسة، بناء على نصيحة صديقه المايسترو سيد عوض. وكنت لا أطيق فى بادئ الأمر الصبر على سماعها حتى أعاننى عليها تدريجياً البرنامج الإذاعى القيم الذى كان يقدمه

صالح عبدالحى

تشايكوفسكي

محمد عبدالوهاب

الدكتور حسين فوزى عن الموسيقى الكلاسيكية.

ثم رزقنا الله حين أنشـــأنا جماعة الموســـيقى ونحن طلبـــة فى كلية الاقتصاد بالأستاذ العلامة سليمان جميل الـــذى حببنـــا فى الإنصات الواعى.

ومازلت أذكر نـــبرة صوته الدافئ وهو يقارن بين كونشـــيرتو البيانو لدى قمتين من المؤلفين الروس: تشايكوفســـكى ورحمانينوف، أو مقارناً بين كونشـــيرتو الكمان عند فرسان الرومانسية الثلاثة: بيتهوفن وبرامز وتشايكوفسكى.. فضلاً عـــن تبحره فى الموســـيقى الشـــعبية المصرية الأصيلة التى بث فينا ولعه بها.

جمال الموسيقى

ورغم دراســـتى للتذوق والتحليل الموســـيقى فى معهد النقد الفنى فلا أزعم أن لدى أذناً موســـيقية، ومع ذلك فقد بدأت مقالاتى فى هذه المجلة بتناول بعض نماذج الإبداع الموسيقى والغنائى فى مختلف الحضارات من أجل تفعيل الحـــوار بينهما، وكانت هذه المحاولة مجـــرد تحد لذاتى أو نوعاً من «اللماضة".

وكنت عبر أســـفارى أصادف هذه التســـجيلات ولن أبالغ إذا اعترفت بأنى كنت وزوجتى خلال دراستنا فى باريـــس نجوع مـــن أجل اقتناء أحدث ما ينشر من هذه المعازف أو ما ينشر حولها من موســـوعات بل كنا أحياناً فى أواخر الشـــهر نحصل على تذاكر فى أعلى أدوار أوبرا باريس تسمى «بدون رؤية" ولا مقاعد...

وكانـــت رحمها اللـــه تهوى عزف البيانـــو بمهارة، حتى شـــكل أول قطعة أثاث دخلت بيتنا.

ولكن سرعـــان ما رفضـــت فكرة امتـــلاك هذا الكنز الموســـيقى ولم ألبث أن وزعت هذه الأسطوانات على أصدقائى ليشاركونى متعة تذوقها، وإنه لمـــن دواعى فخرى أن مكتبتى الموسيقية التى بلغت حد «الأطلس» الموسيقى بما حوته من إبداعات تمتد من الإسكيمو إلى منغوليا ومن فيتنام إلى غينيا ومن موســـيقى الحضارة الإغريقية أو الهندية أو الفارسية أو الأندلسية إلى الموسيقى الإلكترونية، لم أعد أمتلكها وإنما تتداولها أيدى أصدقائى فتربو فنيـــاً بين آذانهم وتسرى شغفاً بين شغاف قلوبهم...

والمؤســـف أن الوفـــرة الإعلاميـــة المعاصرة أذابت أى معايير فرقانية للتمييـــز بين الغث والســـمين، بين الأصيل والمزيف:

فها نحن فى مجـــال الأغنية العربية نشـــهد تفاقم الانحطـــاط بمعدل مرعب، يماثـــل بالفعل أســـلوب الميكروباصات كما يجسده «ريكو".

وإذا كان قد سبق لى أن وجهت نقداً لاذعاً لشعبان عبد الرحيم فإنى أدين له بالاعتـــذار، إذ أن الأغنيتين اللتين قدمهما قبيل حرب العراق «الصورة والكتابة" وقبيـــل القمة العربية فى تونس «ياعم عربى «تمثلان نموذجاً فى الالتزام السياسى للفنان وتشفعان له ما سبق، خاصة بعد ظهور «قوم أقف وأنت بتكلمنى" و «هات لى حد كبير أكلمه" وهما تبدوان بدورهما فى غاية البراءة إذا ما قورنتا بما ينتجه «العمدة» أو «ســـعد الصغير" من أغان بلغت الحضيض فى هذا الزمن الردئ الذى يجمع بين الســـخافة

أم كلثوم

أسمهان

سيد درويش

والسماجة، وأصبحت رغم شعبيتها جديرة بالقمامة إذا ما قارناها بلآلئ الزمن الجميل:
كأم كلثوم أو عبد الوهاب أو فيروز الذين جسدوا الرقة كلها..
والأدهى من ذلك موجة الأغانى ذات الإيماءات الجنسية الفاضحة من «روبى» و«بوسى سمير» و«ديرو» إلى «نجلا» و«جسى» التى هبطت إلى درجة الغنج.
والحمد لله أن فى قاع هذا الهدير الهائل من التدهور ظهرت درة فريدة هى فاطمة زيدان وأغنيتها النفيسة «آه يا هائماً» من قصيدة الشاعر بن عبود فى ديوانه «نفحات الورد" فتحية إليك يا جوهرة! زادك الله ألقا.. لا تخافى من الفضائيات اللبنانية التى تستخرج من مناجم الثروة الأنثوية الوطنية الجميلة تلو الجميلة.. من نانسى عجرم إلى نيكول سابا ومادلين مطر وعلى رأسهن الماسة البهية هيفاء وهبى، فمنذ عصفورة الجنة أسمهان لم يجتمع جمال الصوت وجمال الصورة فى امرأة بمثل هذا المزيج المتوازن والتعادل المعجز والذى يصعب تكراره..

المغنى حياة الروح

نعم مهما كان الظلام دامساً فلابد من ظهور نجمة أو حتى شمعة بشرط وحيد «إذا الشعب يوماً أراد الحياة" وإذا لم يردها؟ هنا يتحول العود إلى مدفع فى يد سيد درويش أو محمود الشريف أو الشيخ إمام أو مارسيل خليفة. حتى يلهم الشعب الوعى بالغاية من وجوده: حكم نفسه بنفسه وحرية تقرير مصيره، ويذيقه لذة التحدى، وبهجة المواجهة، وفرحة العطاء

نزار قبانى

باعتبارها بداية النهضة .. فلا يؤجل إلا التأجيل.. ويعجل بتطبيق العدل بين الجميع. ومهما زعم المساومون فإن المقاومة على حد قول نزار قبانى: «هى الفرحة الحقيقية وهى ليلة القدر»..
ومازال كاظم الساهر هو الساهر الوحيد فى المشهد الغنائى الحريص على حماية لغتنا الجميلة نطقاً وإحساساً، صدقاً وإخلاصاً..
ولقد استمعت مؤخراً إلى من تحمل آمال الأغنية المصرية» آمال ماهر" وهى تحاكى «شمس الأصيل"، ولكن عندما وصلت إلى «نسمع ضحكة الكروان" اتضح الفرق الشاسع بين الأصل وبين النسخة:
فكوكب الشرق كانت عند شدوها بكلمة «الكروان «متوحدة بحق مع الكروان فى عشقها لمصر.
وربما كان دعاؤه هو الذى ألهم طه حسين روايته الخالدة، أو تلبيته هى التى ألهمت بيرم التونسى رائعته التى خلدها بلحنه العبقرى رياض السنباطى» القلب يعشق كل جميل».
وكأن هذا التغريد الفريد الذى

كاظم الساهر

يذوب وجداً يلخص عشق 92 مليون مصرى!
إننى موقن أن الغناء مشروط بالفناء فى العشق الصادق:
فإما أن تكون عاشقاً وإما أن لا تكون!!
بل أزعم أن العاشق قد يفاجئ نفسه شادياً دون أى تدريب مسبق ولا دراسة ولا يحزنون بمجرد تيقنه من أنه لم يعد ومعشوقه كائنين اثنين وإنما أصبحا بالفعل كلاً واحداً متناغماً ...ومهما توالت الجروح أو حتى تزامنت كيف ننسى الروشتة الكلثومية فى الطب البديل:
«المغنى حياة الروح، يسمعها العليل تشفيه»....
نعم إن الموسيقى هى سلوى الروح ... وسمو الوجدان. ..وصفاء النفس، ونشوة الفؤاد، وأجنحة الوعى..
وماذا عن الجمال الذى يحبه الجميل؟
قلت إن الجمال يبدل عذاباتنا عذوبة ويبدل الزمان العلقم رحيقاً بل إنه ليستبدل الرمل فى المزوال بالعسل..
فيؤيد الآن.. ويفردس الأرض..

تمثال الحرية لمصر أم لأمريكا

" إن الشـــكل لصانع التمثال يمثل كل شيء ويمثل لا شيء، فهو لا شيء دون الروح، وهو كل شيء بالفكرة».
من رسالة لفيكتور هوجو إلى بارتولدى فى 13 مايو 1885.

د.أحمد يوسف
youssef.ahmed@live.fr
أستاذ بجامعة بيزانسون الفرنسية
وعضو المجمع العلمى المصرى

هل تذكر عزيـــزى القارئ فيلم يوسف شـــاهين "إســـكندرية ليه"؟، هل تذكر بالتحديد نهاية الفيلم عندما غمز تمثال الحرية بعينيه مستقبلاً بابتسامة واعدة بالأمل لبطل الفيلم المصرى؟.

هل كان يدرى يوســـف شاهين، إن هذا المشـــهد الذى استغرق ثوان قليلة على الشاشة، يلخص قصة من أغرب قصص التاريخ المعاصر، وخاصة تاريخ العلاقات بين دول ثلاث هـــم أبطال هذه القصة: مصر وفرنسا وأمريكا؟ وقبـــل أن أدخـــل فى التفاصيل أريدك عزيزى القارئ أن لا تأخذ ما ســـوف تقرأه على أنه محاولة منى لاسترداد ما لا يسترد، أو أنها محاولة لفتح باب المشـــاكل مع دولة، بل مع دولتين تربطنا بهما علاقات متينة، متشعبة ومعقدة، ولأنها كانت معقـــدة كان لا بد من التسليم بأن الواقع لا ينطبق بالضرورة مع الحقيقة التاريخية، وأن الواقع لا ينطبق بالضرورة مع الخطأ التاريخى أيضاً، وإنما الواقع هو استمرارية حدث ما فى الزمان بصرف النظر عن تقديرنا لهذا الحدث، وبصرف النظر عن حكم التاريخ عليه.

ودون الدخـــول فى المعضـــلات الفكرية لعلم "فلسفة التاريخ" واســـتعمال أداة الشرط "لو"، فإن عمـــل الشـــيطان تفتحه أيضاً سياســـة الجهل أو سياسة التجاهل، وســـوف يجد القارئ فى الصفحات القادمة ما ســـوف يتطلب منه بعض الجهد فى فهم "لا مبـــاشرة" بعـــض الأحداث و"لا مبـــاشرة" بعض العبارات لأن عملية الطمس، وربما أشهر عمليـــة طمـــس فى التاريخ، قد أخذت وأخفت وأضاعت وأحرقت وثائق خطيرة، ولم يبق منها إلا شـــذرات وقصاقيص قد تكون قليلة ولكنها - ولحسن الحظ - عظيمة الدلالة وأشد برهاناً إذا ما أحسنا فهمها وتحليلها.

وربما يحســـن أن أبدأ أولاً بنبذة سريعـــة عن حيـــاة صانع هذا التمثال العظيم، النحات الشهير، بل أشهر نحاتى فرنسا فى القرن التاسع عشر، واســـمه فردريك أوجست الشـــهير ببارتولدى، ثم أســـتعرض مع القارئ الظروف التى صاحبت ظهور فكرة التمثال فى فرنسا ثم فى مصر، وأخيراً دور رجلين ســـاهما فى صنع المصير النهائى للتمثال وهما ديليسبس من ناحية والمفكر الفرنسى إدوارد دى لابـــولاى وبعدها محصلة أو خاتمة نهائية لهذا البحث ثم أترك القارئ ومن يهتم بالموضوع من الباحثين وربما المسئولين ولهؤلاء جميعاً أهدى هذا العمل.

أولاً: من هو بارتولدي؟

الداخل إلى مدينة كولمار القابعة فى

بطن إقليم الإلزاس شرقى فرنسا، يلحظ صغر الشوارع، وتشابك حواريها الجميلة فى تقاطعات على نسق العصور الوسطى، وعند كل تقاطع نافورة صغيرة قديمة، ويلحظ أيضاً وبشكل لافت كثرة العلامات الإرشادية الدالة إلى متحف بارتولدى، والمتحف عبارة عن قصر صغير به فناء واسع ملحق به منزل الفنان نفسه ثم مكتبة هائلة تضم نفائس تخص حياة وأعمال بارتولدى ومنها استقينا أغلب معلومات هذه الدراسة.

ولد بارتولدى بالمدينة سابقة الذكر فى أبريل 1834 (وربما فى أغسطس من نفس العام) لأسرة ميسورة، وعندما مات أبوه مبكراً عام 1836رحلت الأسرة – المكونة من الأم وطفلين، أحدهما تبدو عليه بوادر التخلف العقلى أما الآخر وهو فناننا فكان ذا صحة ضعيفة – إلى باريس وأقامت عند ابن أخ لبارتولدى الأب ويدعى جان باتيست بارتولدى وهذا الأخير له ابن سيلعب دوراً خطيراً فى حياة بارتولدى لأنه سيصبح يوماً سفيراً لدى الولايات المتحدة. ورغم بقاء الأسرة فى باريس فإن صلتها بكولمار لم تنقطع وكانت تزورها مرة كل عام وسيؤثر هذا أثراً عظيماً فى حياة بارتولدى فيما بعد.

وتمر السنون وبينما يتجه أخوه نحو الجنون رويداً رويداً، اتجه هو نحو الفنون وخاصة فن النحت، ولم يكن بعد إلا تلميذاً بالمرحلة الثانوية بليسيه لويس الأكبر أشهر مدارس باريس، حتى أخذ فى التردد على أتيليه أشهر نحاتى ورسامى عصره فى فرنسا أنطوان إتيكس ثم خالط الرسام الفيلسوف الأشهر آرى شيفر هكذا تنوعت مصادر التكوين النفسى والفنى لبارتولدى بين الرسم والنحت والفلسفة، فإذا أضفنا إلى هذا التربية شبه العسكرية التى أعطتها له أمه، والتى كانت تعتقد أن النظام والطاعة فى الحياة هما مفتاحا الحياة فشب بارتولدى شديد الالتصاق بأمه وكان يكتب لها فى كل رحلاته كل يوم رسالة واحتفظت هى بكل هذه الرسائل وكانت تبوبها وترتبها تاريخياً لشعورها أن ابنها سيكون يوماً ذا شأن عظيم، مما ساعدنا كثيراً على فهم خفايا قضية تمثال الحرية التى اندلعت فى أمريكا وفرنسا فى الأشهر الأخيرة من حياة بارتولدى على نحو ما سيرى القارئ فيما بعد.

وقد قدم بارتولدى أول أعماله، "Le Bon samaritain" فى صالون باريس عام 1853 ولكن هذا التمثال العظيم كان مصيره الرفض الكامل من لجنة التحكيم فلم يعرض التمثال بالمعرض، وفى المعرض التالى عام 1855 رفض تمثاله الثانى Les sept Souabes، وأدى به الإحباط إلى اليأس من باريس وسافر للراحة بكولمار مسقط رأسه، وأحاطته المدينة بهالة من المجد وطلبت منه أن يصنع لها تمثالاً كبيراً من البرونز للجنرال راب أحد كبار مساعدى نابليون، وكانت المفاجأة أن هذا التمثال عندما عرض بمعرض باريس الدولى 1856 حاز إعجاب الجميع ثم تم افتتاحه بعد ذلك بأشهر فى أكبر ميادين مدينة كولمار وعندما عاد إلى باريس كان اسم مصر على كل لسان!.

فى حقيقة الأمر كانت باريس تعيش أولى سنوات إمبراطورية نابليون الثانى الكبيرة وكان السان سيمونيون قد عادوا من مصر بعد إقامة طويلة كانت نتيجتها مشاريع هائلة كسد قناطر القاهرة وبعض المدارس الصناعية والصحية بالقاهرة ثم مشروع هائل لربط البحرين الأحمر بالأبيض وأقاموا علاقات ثقافية وطيدة مع أركان الثقافة المصرية وقتئذ مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك، ومن ناحية أخرى كانت أعمال الأدباء الفرنسيين الذين زاروا مصر بين الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى قد بدأت فى الخروج

تمثال الحرية
لمصر أم لأمريكا

إلى الجمهور الكبير وعلى رأسهم جيرار دى نرفال وتيوفيل جوتييه والعملاق فلوبير صاحب "مدام بوفارى الشهيرة"، كان اسم مصر إذن على كل لسان وجاء الإعلان عن مشروع قناة السويس بواسطة قنصل شاب يدعى فرديناند دى ليسبس، حتى يكمل الحلقة وتصبح مصر أرض أحلام للأدباء والفنانين ولعشاق التاريخ بل والباحثين عن المستقبل مثل السان سيمونيين.

ثانياً: مصر في أعمال بارتولدي

فى الشهر التالى لافتتاح تمثال راب أى شهر سبتمبر 1856 سافر بارتولدى إلى مصر بصحبة بعض الفنانين، وكانت بتماثيلها الضخمة مفاجأة هائلة له وظلت ضخامة هذه التماثيل تمثل له لغزاً محيراً ولن يهدأ له بال حتى يصنع لنفسه تمثالاً مشابهاً فى الحجم على نحو ما سيفعل فى تمثال الحرية، إلا أن أعظم ما تركته مصر فى أعمال بارتولدى على وجه الخصوص فى عشقه الشديد لمشاهد الحياة اليومية فى القاهرة القديمة، وهنا يكتشف النحات الكبير أنه مصور أيضاً فيرسم لنا لوحات رائعة لمشاهير من القاهرة ما زالت موجودة بمتحفه كولمار، وكان قد اصطحب معه آلة تصوير فوتوغرافية وكانت فى بدايتها الأولى، فصور لنا بعض الصور الفوتوغرافية أشهرها على الإطلاق واحدة من أقدم الصور لتمثالى ممنون، ثم عشرات الرسوم الكروكية لرجال ونساء من مصر خصوصاً الفلاحات المصريات، لا نعرف على وجه الدقة إذا ما كانت خططاً لمشاريع مستقبلية فى النحت أم فى الرسم أو فى شىء آخر.

وعندما عاد عام 1857 قدم لجمهور باريس لوحة رائعة اسمها "قيثارة البربر" على أن أعظم أعماله على الإطلاق، ونقصد أعماله المستوحاة من مصر، هو تمثال شامبليون مكتشف الهيروغليفية، وقد وضع قدمه على رأس الفرعون رمسيس الثانى، وشامبليون فى وضع تأمل عميق، هذا التمثال موجود اليوم بمدخل الكوليج دى فرانس حيث قسم علم المصريات الأشهر فى العالم.

وفى مصر تعرف على فرديناند ديليسبس ولم يكن يدرى أن لقاءه بالقنصل سيغير له مجرى حياته.

ثالثاً: ديليسبس وبارتولدي

كان اللقاء بين الرجلين يشبه لقاء الماء بالزيت كل شىء يفرقهما ولا يجمع بينهما إلا الطموح من ناحية وصلة كل منهما بمجموعة السان سيمونيين فى فرنسا ومصر من ناحية أخرى.

وكان السان سيمونيين مولعين حتى الجنون بنابليون والثورة الفرنسية، كانوا إذن جمهوريين حتى النخاع وكانت صلات بارتولدى بهم وبنخبة واسعة من الفلاسفة الجمهوريين وعلى رأسهم لابولاى، قد جعلت منه

أيضاً جمهورياً عنيداً، بينما ديليسبس رغم إعجابه الشديد بنابليون وبالثورة، فإن الأقدار دفعته فى اتجاه الملكيين الفرنسيين من أسرة نابليون، ربما لأن الإمبراطورة أوجينى تمت بصلة قرابة بعيدة إلى أسرته، وربما لأن الدبلوماسى المحنك فيه جعله لا يجاهر صراحة بآرائه، وربما - وهو الأرجح - أن مصالحه الشخصية بعد ارتباطه بأسرة محمد على فى مصر حتمت أن يرتبط بالأسرة المالكة فى فرنسا خصوصاً بعد توقيع امتياز حفر قناة السويس واحتياجه الشديد جداً لتأييد ومساعدة الإمبراطور والإمبراطورة فى فرنسا.

بقيت هناك نقطة أخرى مهمة تفرق بين ديليسبس وبارتولدى، وهى مترتبة ولا شك على ميول كل منهما السياسية ألا وهى انتماء بارتولدى إلى جماعة ماسونية ترتكز معتقداتها على الأسس والجذور الغريبة للماسونية، على عكس دى ليسبس وأبيه ماتيو الذى كان أحد مؤسسى الماسونية الشرقية فى مصر ولبنان.

بارتولدي

على أية حال كان اللقاء الأول فاتراً إلى حد أن ديليسبس "لم يكف عن صب الماء البارد على وجهى" على حد تعبير بارتولدى فى رسالة لأمه تعبيراً عن جفاف العلاقة التى ربطت بين الرجلين منذ اللقاء الأول، وبالطبع لم يتمكن بارتولدى من رؤية الخديوى سعيد وعاد بسرعة إلى فرنسا ليقدم للجمهور الفرنسى محصلة زيارته لمصر، وهى كما أسلفنا غنية بالأعمال الفنية متعددة الأشكال فما أن حل موعد معرض باريس الدولى العام 1867 وكان الحاكم قد تغير بمصر، وأصبحت علاقة ديليسبس بإسماعيل متذبذبة بين الفتور والبرود لأن إسماعيل كان يعتقد أن ديليسبس أسرف فى استخدام صداقته لسعيد لمصالحه الخاصة، وأسرف فى حقوق مصر، وكان الخديوى على وشك أن يدخل فى صراع مع شركة قناة السويس وأن يلجأ إلى تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث، وكلنا يعرف صلة زوجة الإمبراطور بـ "ديليسبس" ودون الدخول فى تفاصيل هذه المشكلة، فإن ما يهمنا أن الوضع قد تغير بالنسبة لكل الأطراف دى ليسبس، وبارتولدى، ومصر نفسها، من خلال المعرض سابق الذكر، عرض بارتولدى آخر لوحاته المستوحاة من مصر هذه اللوحة تحمل اسم "ذكرى من مصر" وكانت مصر ممثلة فى هذا المعرض على نحو أثار إعجاب ودهشة الناس، ذلك أن الخديوى أراد أن يظهر للناس ميوله للعظمة وللمدنية فأقام قصراً خشبياً رائع التصميم، وزخرفه بالرسم والنقوش الفرعونية وفى هذا القصر، عرض بارتولدى لوحته سابقة الذكر "ذكرى من مصر" وكان إعجاب الخديوى بها كبيراً.

فى اللقاء الذى تم بين الخديوى وبارتولدى فى المعرض دعا الأول الثانى فى مصر وعرض مشروعاته عليه وهكذا تم مع إسماعيل ما لم يتم مع سعيد، وكان أن عاد إسماعيل إلى مصر بعد زيارة حافلة إلى فرنسا، وعكف بارتولدى على تصميم ضريح هائل للخديوى على شكل قصر دائرى يعلوه أسد هائل وقد تربع عليه الخديوى إسماعيل فى وضع التأمل (لاحظ نفس الفكرة فى تمثال شامبليون آنف الذكر)، وشد الفنان رحاله إلى مصر ليصلها فى مارس 1869 ليقابله ديليسبس ببعض الحرارة هذه المرة لأسباب قد لا تخفى الآن على القارئ، وفى اللقاء الذى يقال أن ديليسبس رتبه مع الخديوى، رغم أن ليس هناك ما يثبت ذلك، عرض بارتولدى على الخديوى مشروعه ليفاجأ بأن هذا الأخير يطلب منه تمثالاً هائلاً يضعه عند المدخل الشمالى للقناة التى من المقرر أن تفتتح خلال أشهر، وهنا يخرج بارتولدى قلمه ويرسم أمام الخديوى تمثالاً كبيراً على نمط تماثيل الفراعنة التى بهرته فى زيارته الأولى، لكن الخديوى يطلب منه "أن يكون المشعل على الرأس بدلاً من اليد" على نفس طريقة الفلاحات المصريات.

ويعود بارتولدى إلى فرنسا محملاً بآمال تسع الدنيا كلها ويصمم عدة ماكيتات للتمثال كلها موجودة حالياً بمتحف كولمار وقد أطلق عليها المجموعة المصرية على أمل أن يعود إلى مصر ويحصل على موافقة الخديوى النهائية على إحداها ويشرع فى التنفيذ.

وتمر الشهور وتفتتح القناة دون تمثال، بل ونفاجأ أن هناك حملة تبرعات واسعة النطاق فى فرنسا وأمريكا لإتمام صنع التمثال وإهدائه إلى الولايات المتحدة!.. فكيف حدث هذا؟.

رابعاً: كيف تم تحويل مسار التمثال؟

بين عام 1867 وعام 1869، تاريخ افتتاح القناة جرت مياه كثيرة تحت الجسر، ذلك أن الخديوى الذى أنفق بجنون على مشاريعه لإدخال الحضارة الحديثة إلى مصر، كما أنفق ببذخ على حياته الخاصة وعلى حاشيته بالإضافة إلى هداياه التى فاقت

تمثال الحرية
لمصر أم لأمريكا

ألف ليلة وليلـــة إلى الباب العالى وأركانه... إلخ.

كل ذلك جعل الوضع المالى لمصر غاية فى الصعوبة فإذا ما أضفنا تكاليـــف حفل الافتتـــاح التى يصفها بشكل دقيق چان مارى كاريه فى كتابـــه العمدة "رحالة وكتاب فرنسيون فى مصر".

كانت الصورة إذن قاتمة وأدرك الخديوى الكبير أن أيامه أصبحت معدودة خاصـــة وأن الإنجليز دخلوا على الخـــط وأصبحوا من الحساســـية من الخديوى ومن القناة ومن فرنســـا إلى حد أنهم بدأوا يحســـبون عليه خطواته ويضخمون مشـــاكله ويزيدون وضعه المالى تعقيداً.

على أية حال هذا الموضوع ليس محور اهتمامنا الآن إلا أنه يظهر المنـــاخ الصعب الـــذى أراد فيه بارتولـــدى تحقيق حلمه بإقامة التمثـــال الفرعونى الضخم عند مدخل القناة الشمالى.

لكن المنطق، منطـــق الخديوى إســـماعيل، كما عرفنـــا فى كل ما يخص إظهـــار عظمة ملكه، وما يخص علاقته بالفرنســـيين والفنانـــين منهـــم عـــلى وجه الخصوص، هـــذا المنطق الذى يطلب تمثالاً ويعطى توجيهات، هذه المطالب المصحوبة بتوجيهات لا بد أن تكـــون خديوية أقصد مدفوعـــة أو على الأقـــل مدفوع جزء منهـــا، فكيف نتصور فناناً ينفق على ماكيتاته ثم رســـومه ثم ســـفرياته وإقامته دون عون الخديوى؟

الذى نحـــن متأكـــدون منه أن الخديوى قد طلب التمثال والمقبرة معـــاً، وأنه قد أعطـــى تعليمات للفنان كى يعدل فى التمثال على نحو ما يريد بارتولدى نفسه وعلى نحو ما تثبته صورة التمثال التى قدمها للخديوى بنفسه وأشار هو بنفسه إلى ذلك أسفل الصورة، أما المدفـــن أو المقبرة فلا نعرف على وجه الدقـــة رأى الخديوى فيها، وإن كانت من العظمة والجمال بحيـــث أن رجـــلاً كالخديوى إسماعيل لم يكن إلا ليرغب فيها ويطلبها من بارتولدى، وعلى أية حال فيما يخص المقبرة ما نملكه من وثائق لا يـــدل على شىء ذى أهمية للباحث العلمى أما التمثال الذى كان على مـــا يبدو مطلوباً فى عجلـــة من الأمـــر لأن القناة على وشـــك الافتتاح، وهنا تحدث كارثتان ســـتقلبان الأوراق على المائدة، الأولى هى هزيمة فرنسا أمام بروسيا عام 1870 واحتلال إقليم الألزاس موطن بارتولدى ثم وفاة الإمبراطور نابليون الثالث منفياً فى إنجلترا عام 1873، وبعد ست سنوات فقط عزل إسماعيل وعاش ومات منفياً في استانبول، وأصبح صاحبـــا القناة، مالكها الأول، وحاميهـــا الثانى، خارج اللعبة. ويجد بارتولدى نفسه في مأزق كبير.

وفى رسالة خطيرة إلى أمه بتاريخ 13 ديسمبر 1869 يشرح لها في مرارة أنه ينوى السفر إلى أمريكا للاستجمام، ثم يقول لها أنه لن يفعل ذلك قبل عام.

ديلسيبس

في هذا العام حدث – كما رأينا- هزيمة فرنسا وحصار باريس، ثم صمت كامل من جانب الخديوى إســـماعيل الذى وضح تماماً أن هناك شـــخصاً ثالثاً لا يرغب في التمثال.

هذا الشـــخص الثالث قد يكون ديليسبس الذى لم يحبه قط، وقد يكون الفيلســـوف لابولاى عالم الفلسفة وعالم السياسة المتأمرك والـــذى كان يحبه حباً شـــديداً ويعتبره ابنه الروحى.

لقد جعلت هزيمة أسرة نابليون موقفـــه في موضـــع صعب دون حماية ودون غطاء سياسى، وكان عليه البحث عن مغامرة جديدة في عالم جديد على نحو ما سنرى في مغامرة قناة بنما، ثم إن استفحال ديـــون الخديوى العامـــة منها والشخصية كانت تجعل رجلاً مثل ديليسبس يخشى دخول مغامرين جدد على الخط وأصبحت حاجته لانجلـــترا تزداد يومـــاً بعد يوم، خاصة بعد مـــا وضح نفوذها في القناة ونفوذها على الخديوى، ولا ندرى على وجه الدقة سبب اللهجة المريرة التى يتحدث بها بارتولدى

تنفيذ تمثال الحرية

عن ديليسبس في رسائله لأمه دون أن يروى السبب لذلك، ولعله لم ير أن يسبب لأمه أحزاناً أو قلقاً شديداً، وعندما أطلق لابولاى فكرته بإقامة تمثال كبير تهديه فرنسا إلى أمريكا بمناسبة مرور مائة عام على استقلالها، كان ديليسبس متحمساً جداً لأنه – ولا شك- كان يعد لتوجيه الأنظار إلى العالم الجديد من أجل مشروعه القادم.

أما لابولاى الذى أقنعه بضرورة السفر إلى أمريكا، يرد عليه بارتولدى في الرسالة التالية بتاريخ 8 مايو 1871: «لقد قضيت بعض الوقت من أجل تنظيم بعض شئونى المختلة، ولكن مع فكرة خلفية بالذهاب لاستنشاق الهواء فى مكان آخر، وأعتقد أنها اللحظة المناسبة لتنفيذ الرحلة التى كان لى شرف الحديث عنها معك، وأعددت نفسى للسفر آخر هذا الشهر للولايات المتحدة، أطلب إذن – عزيزى- مساعدتك الكبيرة التى وعدتنى بها على شكل رسائل التى قد ترفع من قدرى لدى الجمعيات ولدى الصحافة والحكومة.. وأرجو عندما أعود أن أجد فرنسا المسكينة قد برأت قليلاً من المصائب المتعددة التى تسبب فيها النظام الإمبراطورى»، وعندما انتشرت فكرة تمثال الحرية فى فرنسا وأمريكا هاجمت الصحف فى فرنسا بارتولدى واتهمته بإهداء تمثال بيع مسبقاً، ويقول برتراند لوموان أحد أعظم مؤرخى بارتولدى فى كتابه القيم « تمثال الحرية» لقد دافع بارتولدى عن نفسه أمام اتهامات الصحافة له ببيع المشروع الذى كان قد باعه بادعائه أنه لم يرسم قناة السويس إلا كروكيا صغيراً ويتابع لوموان ليدحض بنفسه حجة بارتولدى فيقول «إن الماكيتات المحفوظة تظهر لنا بشكل واضح عكس ذلك».

وعندما اشتدت الحملة على بارتولدى ولابولاى ظهر فى فرنسا من يدافع عن التمثال كهدية لأمريكا ولكن دون الإخلال بحق مصر، على الأقل ذكر اسمها فى لوحة قاعدة التمثال واعتبار هذا التمثال خيطاً رابطاً العالم القديم المتمثل فى مصر، بالعالم الجديد المتمثل فى أمريكا.

واختفت فجأة وثائق كثيرة ثم صمت الخديوى اسماعيل نفسه المحير والذى كان لايزال على قيد الحياة في استانبول عند افتتاح التمثال في نيويورك عام 1885 .

كل هذه علامات استفهام مازالت تحتاج إلى بحث وتحليل من الباحثين والمؤرخين.

على أية حال أنا لم أدع ملكية مصر بعد لهذا التمثال ولكنى أشك في ملكية فرنسا وأمريكا له، هناك فارق بين الفرضين أو بين الظنين ولست أقصد هنا فتح النار على دول أو على أشخاص وإنما أبغى فتح الملف، وإذا كانت لنا مسلة في ميدان الكونكورد ورضينا بهذا، وإذا كانت لنا آثار في متاحف الدنيا كلها يعلم الله كيف خرجت من مصر فليس لنا أن نبكى على تمثال الحرية، لنا أن نبكى فقط على ضياع حقيقة تاريخية أخرى في حياتنا.

تراثنا خط أحمر

المثل الشعبي، أحد الأعمدة الرئيسة فى بناء الإبداع الشعبي، بل لعله أكثرها انتشاراً وتأثيراً لسيرورته على الألسنة لدى كل الشعوب إذ يلخص وجهات نظر من يتداولونه، وفلسفتهم العملية فى الحياة بكل جوانبها، ورؤاهم لأنفسهم ولغيرهم وعلاقاتهم وما يمرون به من تجارب ومواقف. كل ذلك يتم التعبير عنه فى جُمَلٍ أو عبارات قصيرة مُحْكَمة البناء يتداولونها على أنها أقوال حكيمة تعبيراً عن تجارب أو مواقف أو حكم على حدَثٍ. ولا يستطيع أحدٌ أن يعرف أصل المثل أو منشأه على وجه اليقين؛ ذلك أن العبارة التى يقولها إنسان ما فى موقف ما لا تصبح مَثَلا إلا بعد أن يتبناها الناس ويرددونها لتستقر فى وجدانهم وتصبح مثلاً يصح الاستشهاد به ومن ثم يتناقلونه جيلاً بعد جيل.

أ. د. أحمد على مرسى
عضو المجلس الأعلى للثقافة
amorsi9@yahoo.es

أقوال حكيمة تعبرعن تجارب متوارثة:

والمثل رغم قِصَرِه يتّسم بثراء المعنى وسهولة فبهمه وإدراك دلالته لارتباطه بالسياق الذى يتم استخدامه فيه، إذ يُكَثِّف التجربة ويلخّصها ويقدم حصيلتها إلى آخر أو آخرين ممن يشتركون فى الموقف الذى يُقال فيه. هذا بالإضافة إلى أنه يحمل فى ثناياه نزعة تعليمية واضحة ونظرة نقديّة للحياة بكل مكوناتها وعلاقاتها.

ويتميّز المثل بأن صُوَرَه واضحة، سهلة الإدراك. هذا بالإضافة إلى اعتماده فى التعبير عن التجربة على الإيجاز والمقابلة التى تنبئ عن خيال خصب، وإحساس مرهف بالتجربة ومضمونها.. فالمثل الذى يقول "اعْمِلْها طيّبة وارميها البحر الجاري.. إن ضيّعْها العبد ما يْضَيّعْهاش الباري" (البارئ: الله) يبدو فيها الخيال البسيط والمقابلة واضحين؛ فعمل المعروف قيمة إيجابية محترمة، وسلوك جدير بالاتباع، وتعبير عن الخير الذى لا بد أن يسود بين الناس، وهو (أى المعروف) إذا ضاع بين الناس ولم يَلقَ الاعتراف والجزاء والتقدير والوفاء منهم؛ فإنه لا يضيع عند الله وهو يجزى عنه.

إن الأمثال الشعبية - شأنها شأن كل أنواع المأثورات الشعبية - تؤكد ما للوجدان الجمعى من سيطرة على الأفراد فى المجتمع مما يجعلهم أكثر تماسكا وتمسّكا بقيمهم وتقاليدهم وتمثُّلا لها.. وحفاظا على هوِيَّتهم، وحرصاً عليها واحتراماً لها وتعميقاً لمقوّماتها؛ ذلك أن للإنسان إذا فقد هوِيّته.. فقد نفسه ووطنه ومعنى وجوده جميعاً.

ولا يتسع المقام هنا للإطالة فى الحديث عن الأمثال ومواردها ومضاربها وخصائصها... إلخ ولعلنا نعود إلى ذلك فى مرات قادمة شرحاً وتوضيحاً وتحليلاً وربطاً بينها وبين الأنواع الأخرى كالحواديت والأغانى الشعبية والمواويل وغيرها..

إن ما يعنينى فى هذه العُجالة أن أنبّه إلى أمرٍ أراه خطيراً منذ فترة.. وتزداد خطورته الآن مما يرتبط بالسخرية من تراثنا الشعبى وازدرائه والتقليل من شأنه ومن شأن أصحابه ومحاولة فرض أنماط من التعبير والقيم الغريبة عليه وعلى أصحابه.

حملة إعلانية رديئة:

لقد طَغَتْ علينا فى الآونة الأخيرة حملة إعلانية رديئة تروّج بها إحدى شركات المياه الغازية لأحد منتجاتها تحت عنوان "المثل اللى ما يعجبكش غيَّره" واختارت بعض الأمثال الشعبية كنماذج للأمثال التى ترى هذه الشركة تغييرها وكتبتها على الزجاجات والصفائح التى تحوى المشروب، من مِثل هذا المثل "عيش عيشة أهلك" لتجعله "عيش عيشة نفسك" دون إدراك لمعنى المثل الأصلى ودلالته والسياق الذى يقال فيه المثل أو يتم الاستشهاد به.

وبادئ ذى بدء فالأمثال الشعبية هى النوع الوحيد من المأثورات الشعبية

الـــذى لا يقال إلاّ مرتبطًا بســـياق يصح فيه اســـتخدامه وهذا المثل – كنموذج- يقال لإنسان يستعلى على أهله ويحتقرهـــم، ويتنكر لأصله، فيقال له هذا المثل، وهو غير منفصل عـــن مثل آخر يقـــول "بلدك أهلك وأهلـــك لا تهلك". وهكـــذا نرى أن العبارة التى تـــم تغيير المثل لتحل محل المثل الأصل أو كى تصبح هى مثلا بعد ذلك مـــن وجهة نظرهم بدعوى الحداثة أو "خفة الدّم"! أو لأى ســـبب كان تهدم قيمة أصيلة عميقة الجذور فى وجدان الإنســـان المـــصري، حافظت عـــلى وجوده وارتباطه بأهلـــه ووطنه لتؤكد أو تبنى مكانها قيمة ســـلبية شديدة الرداءة من أنانية وحب للذات، وعدم احترام للأهل والتقاليد، وما يترتب على ذلك من سلوك سلبى تجاه الأهل والبلد.

وتُروج تلـــك الحملة الرديئة لتغيير مثـــل ثان ضمـــن أمثـــال أخرى اســـتخدمتها ولا يتســـع المقـــام لمناقشـــتها مثلا مثـــلا، هو "اكفى القدرة على فُمها تطلع البنت لأمها" ليصبح "اكفى القدرة على فُمها مال البنت ومال أمها" ولست فى حاجة إلى أن أكـــرر "أين الســـياق الذى يضرب فيه المثل". وكما قال لى أحد الناس البســـطاء وهو يرفض شراء زجاجة الميـــاه الغازية التى تحمل هذه العبارة: "أمّـــال تطلع لمين يا دكتور إيـــه الكلام الفارغ دا، ثم إن المثل بيقول كمان "اللى يتعلِّمه العيِّل من أمه يحفظـــه ويْصُمّهْ".. المثلان الشـــعبيان الأصيلان يؤكدان أهمية ما يتعلمه الأطفال مـــن أمهاتهم، فـــالأم فى كل الثقافات هى الحافظة للتراث، وهـــى التى تغـــرس قيم المجتمع فى نفوس الأطفال، وتعلمهم أنماط السلوك المعتبرة لدى الجميع بما تحكيه مـــن حواديت، وفوازير وما تغنيه لهم من أغانٍ فى المناسبات المختلفة. إنها باختصارَ المعلم الأول الذى يقوم بعملية التنشئة فى سن ما قبل المدرسة، وهو ما يظل يشكل إلى حد كبير سلوك الأبناء بعدما يشبون عن الطوق.

دعوة خبيثة لإهدار التراث:

إن ما يحدث دعوة خبيثة إلى إهدار التراث والتنكر لـــه، والعبث به إما عن جهـــل وإما عـــن تدبير يحمل شرًا مستطيرًا لا يتسع المجال لبيان مخاطره خاصة فيما يرتبط بهويتنا الثقافية. وللأســـف فـــإن الجهات المعنية بالعمل عـــلى احترام الملكية الفكريـــة للتراث الوطنـــى تَغُطُّ فى ســـبات عميق، ولا تقوم على تنفيذ القانـــون الـــذى أوكل إليها حماية التراث الشـــعبى ودعمه باعتبارها وكيلاً عن الشـــعب (قانون الملكية الفكرية المصريـــة 2002 – الباب الثالـــث – مادة 142) ولم تقم بأى جهد فى هذا السبيل بمقاضاة الشركة ولا منع هذا العبث والإســـاءة وسوء الاســـتخدام، ولا بمطالبة الشركة بإيقاف هذا العبـــث، وهو أضعف الإيمان.

إن الأمـــر جدّ خطـــير لا هزل فيه.. ولـــتراث مـــصر – فى كل الأحوال- شـــعب يحميه.. ويحافـــظ عليه.. وتحيا مصر.

التسامح ضرورة وليس منحة

يبدو أن بعض نبوءات المفكر الأمريكي صامويل هنتنجتون في طريقها إلى التحقق الكامل، في كل ما يتعلق بغليان البعد الطائفي والديني في الحالة الإسلامية فكرًا وجغرافيا. تعددت قراءات الباحثين لكتاب هنتنجتون المهم "صراع الحضارات" وخرج كل مطالع بتخريجته الخاصة عن فرضيات هنتنجتون عن طبيعة الصراع القادم وماهيته.

أيمن السميري

كاتب وقاص، عضو اتحاد كُتاب مصر

ayman.alsimery@gmail.com

إن أكثر الأمور تحققاً في طرح هنتنجتون كانت بلا شك استشرافه لحالات الاحتراب الأهلي على الطائفة والمذهب والهوية الدينية من جهة، وحالة احتراب أشمل بين ثقافات وأديان ومذاهب وعرقيات، يكون وقودها المحرك هو التعصب المستند على فهم مروجيه الخاص للإسلام من جهة أخرى، حالة كتلك مرشحةٌ للتأجج بفعل الطبيعة الصدامية للتراث الديني، والشروحات والمتون الدينية الإسلامية، التي تحتفل وتحتفي في مجملها بأدبيات المواجهة، كالجهاد وتصورات المسلمين المقدسة عن الأغيار والمخالفين من الملل والثقافات الأخرى. بالرغم من أن طرح هنتنجتون في ذلك الوقت، كان ردًا على ما ساقه المفكر فرانسيس فوكوياما عن "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" وتفاؤله المفرط آنذاك، بسيادة مفاهيم الليبرالية في نسقها الغربي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، إلا أن ما عرضه هنتنجتون في هذا السياق يبقى منطقيًا وذو دلالة كبيرة بعدما أثبتت الأيام صدق استشرافه، كونه أصبح حقيقة ماثلة للعيان.

لا لثقافة الهوس الديني

ربما كنا بحاجة إلى هذه المقدمة، في معرض استدعاء أطروحات تسعينية لمفكرين غربيين، عن حالة نعيشها الآن، وقد أصبحت أقدامنا شئنا أم أبينا تخوض في حقل الألغام الكبير، المسمى بالإرهاب والعنف الديني، والاستهداف على الهوية الدينية، انطلاقا من روح استعلائية تمجد "خير أمة" وتمنحها عصمة فوقية، وهي في سبيل "خيريتها" تلك، تمارس أقصى درجات نفي وإقصاء المغاير وقهره. لسنا بحاجة إلى التذكير بأن مناخ التعصب وثقافية الكراهية، هو في حضوره الطاغي أحد تجليات ثقافة الهوس الديني، المستند على قراءة متشددة للتراث الديني القروسطي، عن الحاكمية، لشيوخ كابن تيمية وأبو الأعلى المودودي، ومن ثم الامتدادات الفكرية المؤصلة لفكرهم في طروحات السلفية الوهابية في طبيعتها الجهادية والفكرية، تلك الطروحات التي ضربت مصر في مطالع السبعينات، مستهدفة الروح المصرية المتسامحة بطبيعتها والتي استوعب مخزونها الحضاري الثري كل الأديان والثقافات، حتى بدت مصر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، كحاضرة كوزموبوليتانية للعالم، حيث موزاييك المسلمين

والمسيحيين واليهود، وجنسيات متمصرة من الجاليات الأرمينية واليونانية والإيطالية والشركس والأتراك وغيرهم. لا عجب أن روائيًا عظيماً بقامة لورانس داريل، قد وصف الإسكندرية فى روايته البديعة "رباعيات الإسكندرية" بأنها "مدينة الدنيا" تعبيرًا عن التنوع والحضور الملموس لكل الثقافات فيها فى ذلك الزمان.

ثقافة التسامح إرث مصري قديم استوعبت ثقافة التسامح النابعة من إرث مصري قديم، يحتفي بالمعرفة وبالثقافات التى تماثل مصر حضارة وتمدنًا، كل من أحسن المقاربة مع هذا الموزاييك الحضاري الفريد. لم يكن التسامح المصري عبر العصور، أبدًا عنوانًا لحالة دينية أو عقائدية، بقدر ما كان تعبيرًا عن فيض حضاري متأصل فى الذائقة المصرية، تلك الذائقة المحبة للحياة والإبداع، المعبرة عن ثقافة الزرّاع الأوائل، الذين أنبتوا الأرض وشيدوا الشواهد التى تخبر عنهم وعن تمدنهم المبكر. لعل صامويل هنتنجتون وهو يستشرف حالة الاحتراب الفكري الدينى والطائفي، والتى يعد الإرهاب هو أحد تجلياتها الكبرى، فى شرق أوسطنا التعيس، لعله كان يقصد أن ثقافة التسامح وقبول الآخر، هى بدرجة أو بأخرى لا تعد مكونا حضاريا لبعض دول المنطقة ذات الإرث القبلى، ذلك الإرث الذى مثل الأرض الخصبة لبزوغ التيارات الماضوية، وفرض مفهومها الضيق على شعوب المنطقة المعبأة بالشحن الدينى. لنا أن نضيف هنا أن ما كان يحفظ لهذه المنطقة وجهها الحضاري، كان المرجعية الحضارية للشعوب القديمة فى مصر والعراق والشام وتونس. كان التسامح دوما فى هذه البقاع يتكىء على مخزون حضاري ومعرفي، منح شعوب هذه المنطقة حصانة حضارية ضد التطرف والتمذهب والعنف.

إن استعادة روح التسامح ونبذ التطرف وعدم قبول الآخر، يتطلب جهدا كبيرًا من المفكرين والمبدعين والقائمين على التعليم وتنشئة الأجيال، ابتداءً بالإصلاح الدينى الجسور، واستخلاص خطاب دينى عصري، لا يكون فى حالة صدام حضاري مع الآخر ولا يدعى خيرية فى غير موضعها، خاصة وأن الناتج المعرفي والحضاري للعالم العربى فى العلوم والتكنولوجيا والطب غائب عن المعادلة، والمنطقة بأسرها تعيش من صحوها حتى منامها عالة على المنتج الحضاري الغربي، وبالتالى لا يوجد سبب معتبر لحالة الاستعلاء الدينى، وعدم التسامح والإصرار على فرض نموذج ماضوي قروسطى غير موجود سوى في عقول مروجيه على العالم. لا بد للخطاب الدينى المرتجى أن يؤصل لفكرة مؤداها أن التسامح ليس منحة تغدق بها على الآخر والمخالف لك دينيا وعقائديا، ولكنه ضرورة حياتية وحضارية بدونها ستصبح الأرض مكانا عبثيًا ترتع فيه كل الشرور، ولن يتوقف الأمر فقط على صراع ثقافات بشر به هنتنجتون، وإنما سيفضى إلى تمدد سرطانى للطائفية وكل منتجات الكراهية بين الشعوب.

سفير
فخرى عثمان

الفنان الأستاذ الدكتور عبدالمنعم معوض

أقام الفنان الأستاذ الدكتور عبدالمنعم معوض أستاذ التصميم والزخرفة فى كلية الفنون التطبيقية معرضًا لأعماله الفنية من اللوحات الزيتية بقاعة الفن التشكيلى بدار الأوبرا.

وقد سبق للفنان الكبير أن عمل مستشارًا ثقافيًا ومديرًا للبعثة التعليمية فى إيطاليا، ومستشارًا فنيًا عامًا لوزير الإسكان الأسبق لتجميل المجتمعات العمرانية الجديدة، ومستشارًا فنيًا لصندوق التنمية بمجلس الوزراء، وقام بأعمال استثمارية متعددة فى مجال الزخرفة والتصوير الجدارى والترميم والديكور وعضوا بلجان التحكيم الدولية ولجنة تحكيم اختيار ملكة جمال العرب فى كندا كما سبق له الاشتراك فى المؤتمرات الدولية بجامعة الدول العربية والفنون التطبيقية والجميلة والتربية.

ومن منجزاته البارزة إجراء بعض البروتوكولات والبعثات والتآخى بين الجامعات المصرية والإيطالية وإقامة العديد من الندوات العلمية والأدبية وشارك فى إخراج أحدث موسوعة فنية للاتحاد الأوروبى وإيطاليا عن الفنون العالمية لكبار الفنانين المعاصرين فى الفن الإسلامى فى مصر وحصل على العديد من الجوائز «البحث العلمى لجامعة حلوان عامى 96، 97» جائزة الزهرة الصخرية كأنشط مستشار ثقافى أجنبى فى إيطاليا وأعلى وسام لكبار الشخصيات بمناسبة توطيد العلاقات المصرية الإيطالية وجائزة التميز لتجميل مدينة مكة المكرمة وجسر الملك خالد كما سبق للفنان إقامة العديد من المعارض الشخصية واشترك فى المعارض الجماعية «1969 - 2010» هذا بجانب نشاطه فى المجال الإعلامى «الأحاديث فى التليفزيون والصحافة الإيطالية والكندية والإماراتية عن مصر ونشاطه الفنى والثقافى».

لقد تابعت غالبية معارض الفنان العظيم د. عبدالمنعم وكان غالبية إبداعه تعبيرًا زخرفيًا عن التراث الإسلامى يتسم بالدقة والتناغم

اللونـــى والربط بـــين جماليات الألوان والأشكال.

وجاءت المفاجأة الكبرى بالنسبة لى فى معرضه الأخير فقد اصطحبتنى لوحاته إلى البيئة الســـاحلية بين الإسكندرية وبورسعيد والغوص فى واقعية حيـــاة ومهنة الصياد وفى أحضان الطبيعـــة مع إبراز العلاقة بين مياه البحر والسماء.. الســـماء الصافيـــة التى تعكس الصفاء والســـكينة على ســـطح المـــاء وكذلك انعـــكاس الطقس الغاضب بالعواصـــف والرياح على ســـطح الماء ويدفعه للغضب أيضًـــا بأمواجـــه العالية وأنغام ارتطامها بالشاطئ وصخوره.. وكذلك كان تفوقـــه الإبداعى فى رسم القوارب والصنادل ومنازل الصياديـــن المتواضعة المتزاحمة على الشـــواطئ.. لقـــد انبهرت بواقعية الفنان الصديق فى أدائه واهتمامـــه بالتفصيلات الدقيقة وهو الأمر الذى يجـــذب المتلقى ليشارك الصياد فى حياته وأعباء مهنته وصـــبره فى التعايش مع الطبيعة المناخية فى اســـتقرارها وغضبها وتكييـــف طبيعة أدائه لعمله مع طبيعة المناخ وتقلباته التى ليس لهـــا قواعد ثابتة وإن كان يسهل عادة تنبؤ الصياد إلى حد كبير.. المعرض الرائع أعجبت به كثيرًا لمجـــال الفنان الجديد فى إبداعه الدائم الرائع.

الفنان حسين العزبى

أقام الفنان حســـين العزبى معرضًـــا لأعماله الفنية فى قاعة مركز الهناجر للفنون «بســـاحة دار الأوبرا» وقد افتتح المعرض كل من أ. د. محمد أبو الخير رئيس قطاع الإنتاج الثقافى والأستاذ هشام عطوة مدير مركز الهناجر للفنون بحضور العديد من الفنانين التشكيليين والنقاد ومحبـــى الإبداع الفنى التشـــكيلى وكان معرضه الأخير الذى أقامه فى قاعـــة «صلاح طاهر» بـــدار الأوبرا منذ أسابيع قليلة وكانت لوحاته الفنية فى كلا المعرضين تؤكد قدراته الإبداعية وانفراده باستخدام الألوان الفسفورية التى تضىء وتشـــع بأضوائها الخاصة الجميلة فى مكان مظلم أو فى ظل أقل ضوء خافت حيث تظهر اللوحات فى ظل الضوء القوى الطبيعى وكأنها قد أبدعت باستخدام الألوان الزيتية العادية.

الفنان المتميز المتخصص فى فن ديكورات المسرح لإبداعه صدى له عمقه ويحدث المتعة لحاســـة الإبصار وله كل إعجابى وتقديرى واحترامى.

رسالة إلى ولدى

انهض واحلم يا ولدى
وتشبث بالأمل الآتى
أعظم إنجاز فى الدنيا قد ولد صغيراً
ونما فى رحم الأحلام
فاحلم يا ولدى ما شئت
واكتب مسودة أحلامك،
بالدين وبالعلم تمسك
يا ولدى، وتماسك
فليكن العمل الجاد والكلم الطيب
والأخلاق السامية خصالك
ليكن ذلك حصنك ويكون حصانك
وليكن الإيمان وخير الناس سبيلك
والصدق مع الله ومع النفس
ومع الغير وحب الوطن سلاحك،
أبداً لا تيأس يا ولدى
إن كبوت يوماً خطواتك
لا تخلد يوماً للراحة
حتى ينقشع ظلام الليل
ويبزغ خيط الفجر
ويطل الصبح ويدب الدفء
ويضحى الحلم حقيقة
حتى تتحقق آمالك
تمسك بشعاع الشمس
وضوء القمر المتسلل

سفير رضا الطايفى
taifyreda@yahoo.com

من خلف الأفق الشاهق
حقاً.. قد يخبو ضوء القمر
ويغيب شعاع ودفء الشمس
لبعض الوقت..
هذى سنة هذا الكون
وهذا من تدبير الخالق،
شمس تشرق
وتغيب وتغرب
ويسود ظلام.. وبرودة ليل
لتعود الإشراقة صبحاً
ويسود الدفء..
تتفتح أزهار الكون
ويتهادى فى عمق الليل
ضوء قمرى خارق،
فلقد علمنا النيل وألهمنا
أن المجرى رغم مشاق السير وطول الرحلة
يبقى نبع رقراق أبدى دافق،
وأبو الهول بطلعته فوق الهضبة
وبطلته الشامخة الممشوقة
علمنا أن خطوب الأزمان
ما كانت يوماً فوق الربوة عائق
ليطل علينا التمثال
فى خيلاء من علياء سامق...

عود نفسك على ما تريد

الأشـــياء تبدو صعبة فى البداية، وما هى كذلك.. وإنما تكمن الصعوبة فى أننا لم نتعود عليها بعد.. فهناك حاجز قل من الرهبة أو من عدم التأكد مما ســـتؤول إليه المحاولة.. ولكن هذا الحاجز يزول حتما لدى ممارسة الشئ لبعض الوقت.. وهذا الوقت يتوقف على ثقة الإنســـان فى نفســـه، وعلى إصراره على النجاح فى النهاية.

سفير د. فتحى مرعي

حتى الذى لم يكن يصـــلى.. فإذا عزم على تغيير منهجه وبدأ يصلى، وجد للصلاة رهبة وفيها صعوبة.. فإذا اســـتمر، زالت الرهبة واختفت الصعوبـــة، واعتاد على الصلاة فى أوقاتها، ولم يجد فى ذلك أية مشقة.

الذى يريد العزف على آلة موسيقية، يتهيب العزف ويخطـــئ كثيراً، فـــإذا ما واصل التدريب ولم ييـــأس ولم يتراجع، تجده قد ألف العزف، لدرجة أنه بعد فترة من الوقت يكون قـــد أتقن العزف واســـتحبه وراح يمارسه مستمتعاً به.

الذى يريد تعلم قيادة الســـيارات، تجده فى البداية مرتبكاً غير واثق فى نفســـه، فإذا اســـتمر زادت ثقته وأصبح يمارس قيادة الســـيارات غير هياب، حتى تصبح قيادة الســـيارات بالنســـبة له هواية محببة إلى نفسه..

المهم أن نتجاوز الفترة الأولى بعزم وتصميم، ولا نجعـــل الخوف المبدئـــى يصدنا عن الاســـتمرار فيما نحن بصدده، حتى نألفه ونحبه ونعتاده.

أى أن المشـــكلة فى أى شئ هى البداية وما يكتنفها من مشـــاعر الرهبة أو عدم الثقة، فإذا تجاوزناها صارت عـــادة نأتيها بلا رهبة.. إذ تكون قد دخلت حيز العادات التى نأتيها بلا تفكير.

وعلينا أن نختار مـــا نريد أن نتعود عليه، ونمارسه ولا نتراجع أو ننكص على أعقابنا، إلى أن يصير ما نريد عادة مستقرة لا نتخلف عنها. هذه الأشياء منها ما هو مهم، مثل أن نقول الحق ولا نكـــذب ولا نتلون.. ومنها أن نفى بما نعد به ولا ننتحل الأعذار لعدم الوفاء به.

ومنها أشياء ربما اعتبرناها قليلة الأهمية، فى حين أنها ليست كذلك، مثل أن نؤدى بعض التمارين الرياضية بانتظام ولو المشى، لأن ذلك يضبط إيقـــاع حياتنا، ويقوى الدورة الدموية، ويجلب النشاط والحيوية للجسم والنفس معاً.. ومن ذلك تنظيف الأسنان بعد الوجبات، وبشكل خاص قبل النوم.. ومن ذلك أيضاً ألا نسمح لأنفسنا بامتلاء المعدة.. بل نقوم عن الطعام ونحن راغبون فيه.

أشياء وأشياء يجب على كل منا أن يعتادها، فتوفر عليه متاعب لا قبل له بها، حين تبدأ أعراض الإهمال فى الظهور.. إهمال الصلاة يؤدى إلى البعد عن الله، والإفراط فى الطعام يؤدى إلى أمراض لا حصر لها أولها البدانة، وإهمال تنظيف الأسنان يؤدى إلى التسوس أو تراجع اللثة وفى النهاية تساقط الأسنان.

لابـــد أن نتعود على ما يجنبنـــا المتاعب فى المســـتقبل القريب والبعيد، والتخطيط لما ينبغـــى أن نتعود عليه غايـــة فى الأهمية، وتنفيذ ما خططنا له وإصرارنا عليه، يعود علينا بالخير والفلاح.

الإنسان وحالته المزاجية

الإنسان الذى مزاجه «رائق» كما يقولون، أو الذى حالته المزاجية منبسطة، بالتأكيد حالته هـــذه يرتاح بها ويرتـــاح لها. أما الإنسان الذى حالته المزاجية منقبضة فهو لديه مشكلة لابد أن يواجهها، لأن استمرارها له تبعات سلبية كثيرة على صاحبها.

أنا أتحدث هنا عن الحالة المزاجية العامة، وليســـت الخاصة بموقـــف معين طارئ. فقد يتعكر مزاج الشـــخص معتدل المزاج، لموقف سخيف وضعه فيه أحد الحمقى من الناس، كأن تطـــاول عليه واحد من هؤلاء بغير حق. ولكن تعكر المزاج فى حالة كهذه سرعان ما يزول، ويعود المزاج «الرائق» إلى سابق عهده، وكأن شـــيئاً لم يكن. أما إن جاء مثل هذا الموقف على شخص منقبض المزاج بوجه عام، فسوف يزيده هذا الموقف انقباضا، وقد يستمر معه فترة طويلة.

والشـــخص منقبض المزاج يسئ إلى نفسه إســـاءة بالغة من نواح عدة، أولها صحته. فالحالة الصحية مرتبطة أشـــد الارتباط بالحالة النفسية للإنسان. وثانيها يسئ إلى أسرته، فمزاجه السيئ يعكر صفو الأسرة، ويجعله شـــخصا لا يطاق بين أبنائه ومع زوجته وقد يتمنـــون زواله. وثالثها ابتعاد الناس عنه ونفورهم منه، فالناس لا تألف الشخص «الكشر» ولا تحب التعامل معه، فيصبح بذلك شخصاً منبوذاً فى أسرته وفى دائرة معارفه، ومكروهاً لدى أى شـــخص يتعامـــل معه، مثل ذلك الشـــخص غالباً ما يصاب بالاكتئاب، وهذا المرض ســـهل الدخول فيه وصعب الخروج منه.

أما الإنســـان معتدل المزاج، فهو شخص متفائـــل بطبعه، يحبه أهلـــه ويرتبطون به، وينشـــدون صحبته وعشرته، وكذلك الآخرون. والإنســـان المتفائل يتمتع عادة بصحة جيدة، والأحداث التى تمر به إن كانت سيئة لا تزعزع إيمانه بالله، بل تزيده إيمانا وتسليماً لله عز وجل، وإن كانت حسنة فهو يشـــكر الله عليها باللسان والأفعال، والله يشكر له حمد نعمته ويزيده من أنعمه «وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم».

وأما الإنسان منقبض المزاج، فلا شئ يرضيه ولو كان حسنا، وهو لا ينظر إلا إلى ما أنعم الله به على غيره، ويقـــارن ذلك بما عنده، فيجـــد ما عنده قليـــلاً بالمقارنة مع غيره، وإن كان ما عنده كثير، فيتعرض إلى نقمة الله تعالى «ولئن كفرتم إن عذابى لشـــديد» والكفر هنا معناه نكران النعمة.

أما وقد توصلنا إلى أن الإنســـان منبســـط الأسارير يستمتع ويمتع من حوله بحالته المزاجية، وأن الإنســـان منقبض الأسارير لديه مشكلة بل مشاكل متعددة، فهل هناك مخرج من هذه الحالة غير المرضية؟ أقول إن الأمر يتعلق بمواجهة هذا الإنسان لنفسه ليتعرف على أســـباب نقمته على الدنيا وما فيها ومن فيها. وأن هـــذا الوضع ينبغى الخروج منه بأسرع ما يمكن. أقول إن ذلك ممكن لو واجه الشـــخص نفسه بشجاعة، وسأل نفســـه ما الذى يعود علىّ من وراء هذه التكشيرة وهذا المزاج السيئ، وعندها سيعلم أن لا شئ يعود عليه من وراء ذلك، وأن الأجـــدى والأســـلم أن يغير نظرته إلى الحياة والأحياء، وأن يتدبر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «تبسمك فى وجه أخيك صدقة» وأن يتعرف عـــلى أنعم الله عليه، وســـيجد من هذه الأنعم ما يستوجب حمد الله عليها مما يجعل نفسه راضية، ووجهه بشوشـــا، وطباعه سمحة، وعندها سيتغير كل شئ فى حياته إلى الأفضل.

بائع السجاد

Alfons Leopold Mielich
1863-1929